



قرآن يتلى لإنسانية ترقى

التفسير المفصل

٤

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَتُظَاهِرُ الْأَرْوَاحُ فِي الْحَقِيقَةِ
وَحَمَائِلُ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَخَاصَّةُ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ



الأستاذ الدكتور
عبدالله محمد بن عبدالحسين

المجلد الثاني



النشر والتوزيع
PUBLISHING & DISTRIBUTION

٧
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قرآن يعلو لإنسانية ترقى



سُورَةُ النَّبِيِّ

٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



برعاية



نَضَائِرُ الْعِرْفَانِ الْقُرْآنِيَّةِ

(٧)

التفسير المفصل
في تسوير السور القرآنية

④

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَتَضَمَّنَتْهَا الْأُمَمُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ
وَحَمَائِمُ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَخَاصَّةً النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ

الاستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجدي

المجلد الثاني



الكتاب
التفسير المفصل

4 سورة النساء

بث الحياة الإنسانية
وتنظيمها الإلهي الحقوقي وحماية المستضعفين
خاصة النساء والأطفال
تأليف

أ.د/ عبد السلام بن مقبل المجيدي
أستاذ الدراسات القرآنية في كلية الشريعة - جامعة قطر
جميع الحقوق محفوظة
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
2021/539

الرقم الدولي (ISBN)

978 992 715 410 2

الطبعة الأولى: 2021

التحرير والتدقيق

د/ سعيد بن دحاج - د/ حمود ردمان - أ/ أديب المخلافي - دار لوسيل
وقام بتحكيم الكتاب إثنان من الدكاترة المتخصصين

التنفيذ الطباعي

شركة الخليج للنشر والتوزيع

الناشر

دار لوسيل للنشر والتوزيع



+974 44 17 73 11 +974 44 17 73 22 +974 50 80 98 89 Doha, Qatar, 64040

@darlusail darlusail@darlusail.com www.darlusail.com



9 789927 154102

المَحْجُورُ الرَّابِعُ

التنظيم الإلهي للإدارة الرشدة تقصيدًا لحماية الإنسانية
بإعطائها حقوقها، وحمايتها من أهل الإضلال والنفاق الذين
يتلاعبون بالحقوق الإنسانية، ويحاربون قيام الإدارة الرشدة
(النساء: ٤٤ - ٧٠)



المناسبة والاتصال:

حدد الله في المحور السابق الحصون التي تحمي الأسرة المركزية والأسرة المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة، وبذلك يحدث بث الحياة الإنسانية في الأرض، وحصّن الله في المحور السابق الإنسانية من صفتين خطيرتين تسببان جرائم ضد الإنسانية هما: الفخر والاختيال؛ إذ ينتمي لهما البخلاء والمرءون الذين يتلاعبون بالإنسانية وأمنها، وختم محور الحصون بذكر واحدٍ من أهم الحصون النفسية والقلبية والجسدية للإنسانية هو الاستمتاع بالصلاة باعتبارها أعظم المعينات بث الحياة الإنسانية، وينقلنا الله على بساطٍ من البحث الحوارى القانونى إلى حصنٍ من أعظم الحصون التي تحمي الإنسانية: إنها الإدارة الراشدة، فهي الجهة الحاكمة القوية التي تعطي الحقوق لأصحابها أو بالتعبير القرآنى الفريد: تؤدي الأمانات إلى أهلها. هذه الجهة هي الإدارة العليا التي تتكون من السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية (وهم الذين وصفهم ربنا بأنهم أولو الأمر)، فكيف يمكنها أن تقوم هذه الإدارة الراشدة بمهمتها في إقامة الحقوق الإنسانية؟ ومن هي الجهات المتوحشة التي تحول بين الإدارة الراشدة وأداء مهماتها في بث الحياة الإنسانية.. هذا ما يذكره هذا المحور.

فكرة المحور:

ذكر الله الإدارة الراشدة ودستورها وسط هذا المحور، وجعل طرفي المحور لتفصيل حال الجهتين المعاديتين لبث الحياة الإنسانية وفق قيم العدل، وهما جهتان تعملان بجهد شديد على منع قيام هذه الإدارة، وتحولان بذلك بين البشرية وحقوقها المشروعة، فذكر في الطرف الأول لهذا المحور أخطر عدوٍّ للحقوق الإنسانية من محرفي الكتب الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن)، وهو العدو الذي لا يؤدي الأمانات إلى أهلها، وفي الطرف الثاني ذكر عدو الإنسانية من المنافقين الذين يمنعون البشرية

من حقها في وجود الحكم العادل المستمد من الكتاب والسنة، وختم الله جل ذكره هذا المحور بثمرات اتباع التحصين الإلهي للحياة الإنسانية.. إنها الثمرات التي تنتج عن فعل ما يعظنا به الله جل ذكره.

إن وجود الإدارة الراشدة في الأرض يصحبه وجود أسوأ الأصناف التي تمنع الإنسانية من حقوقها..

إنهم المختالون الفخورون الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، ومنهم من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وهم أشد المخلوقات محاربة للإدارة الراشدة، ولما عرفناهم بصفاتهم العامة فقد آن الأوان لكشف الحجب عنهم ومعرفتهم بأجناسهم لخطورة أفعالهم على الواقع الإنساني، فهم يمنعون الإنسانية من نيل حقوقها التي يأتي في رأس قائمتها حقها في الاستقرار النفسي الذي تجده في الصلاة، وحقها في المعرفة الصادقة لهذا الكون، وهذه الأصناف يرأسهم صنفان:

الصنف الأول: الصنف القيادي الذي أوتي نصيباً من الكتاب لكنه أبى إلا أن يهدر كل ما أعطاه الله من أموال دنيوية، وطاقات إدارية، وثروات إنتاجية في اشتراء الضلالة، وفوق ذلك يريد نشر الضلالة في العالم، ولأنه الصنف القيادي الأول في إهدار الأمانات، والتلاعب بالحقوق البشرية، قدم الله ذكره على بيان أسس الإدارة الراشدة، وبعد ذكر أسس الإدارة الراشدة التي تقوم بنفع الإنسانية في إيصال الأمانات، ودفع الحقوق إلى أهلها فصل الله تعالى ذكره الكلام عن الصنف الثاني من أصناف المتلاعبين بالحقوق الإنسانية..

إنهم ينتمون إلى المسلمين لكنهم يأبون إلا أن يتحاكموا إلى الطاغوت.. يصرون على محاربة الشريعة التي أنزلها الله للمصلحة الإنسانية منذ آدم عليه الصلاة

والسلام، وانظر إلى أسلوب القرآن المدهش، فقد ذكر الصنف الأول لوضوحه ثم ذكر الأسس الدستورية لإقامة الإدارة الراشدة.

ثم ذكر الصنف الثاني الأخطر الذي يعتمد عليه الصنف الأول في المحاربة الحقيقية الدائمة لوجود الإدارة الراشدة، ومنع إقامتها في الأرض، وكأنك ترى إقامة الإدارة الراشدة في الوسط بين خطرين حقيقين معنويين قد امتلاً سُبُعاً رغبة في إزالة الإدارة الراشدة من الأرض؛ لأنها تتنافى مع ضلالهم، وإرادتهم أن يضل العالم السبيل، فانظر لهذه الدقة المدهشة في الترتيب القرآني.

ولتحقيق ذلك جاء هذا المحور في خمسة أقسام:

أما القسم الأول: فترى فيه التعريف بجنس الصنف القيادي الذي يتلاعب بحقوق الناس، واستغرق الآيات العظيمة (النساء: ٤٤-٤٦)، وهو تعريفٌ يحدد بتفصيلٍ مدهش هذا الصنف القيادي الذي آتاه الله قدرة فذة، وفضله بصفاتٍ متفوقة فأبى إلا أن يسخرها في تدمير الحقوق الإنسانية في معرفة الله، وتنظيم حياتهم وفق نوره جل ذكره.. لقد ذكر الله جل ذكره بعض صفاتهم في الآية ٣٦ وما بعدها، ورحمة بهذه الإنسانية الحائرة المليئة بالأحزان يفصل الله تعالى ذكره أجناس القياديين الذين يبذلون الجهود المدهشة لتدمير حقوق الناس، والتلاعب بها، وخاصة ما يتعلق بحقوق الناس في الهداية القلبية..

إنهم الأجناس الحريصة على الإغواء والإضلال للبشرية وحرمانها من حقوقها، وفي مقدمة ذلك حق الصلاة التي هي قرة عين لمؤديها.. إنهم الجنس الذي يمتلك العلم والذكاء ولكنه أزرى بنفسه فباع الهدى واشترى الضلال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ (النساء: ٤٤).

وفي هذا القسم رأيت تعريفاً بالأسس التي اعتمدوا عليها في تفكيرهم، وتعاملهم مع الرسالة الإلهية والحياة من حولهم.

وبعد التعرف الجيد على نمط تفكيرهم يأتي:

القسم الثاني: من أعظم جنایات أهل الضلالة والإضلال في التعدي على حقوق أنفسهم وعلى سائر العالمين (النساء: ٤٧-٥٧).

ليعرفنا الله تعالى جده بأهم الجنایات التي اقترفوها في التعدي على حقوق أنفسهم وعلى سائر العالمين؛ إذ يأخذنا الإعلام ووسائل الثقيف والتوجيه بعيداً عن أهم الأوليات التي ينبغي أن ننظر إليها في الجنایات التي يقترفونها، وقد استغرق هذا القسم الآيات (٤٧-٥٧)، ليأتي بعده القسم المركزي في المحور، وهو:

القسم الثالث: أسس الإدارة الراشدة التي تضمن أداء الحقوق الإنسانية إلى أصحابها (النساء: ٥٨-٥٩).

وهنا ترى الإعجاز القرآني في تصوير أسس الإدارة الراشدة التي تقوم بدورها في تقسيم الحقوق الإنسانية عن الطريق الشعبي العام: أداء الأمانات إلى أهلها، والطريق التنظيمي الخاص: الحكم بين الناس بالعدل، وتوابع ذلك، ثم ينصب لنا صراطاً مستقيماً في بيان كيفية إنشاء سلطة تنظم كل ذلك، والعلاقة بينها وبين الإنسانية التي تديرها، ويضع الله لنا بصائر دستورية مدهشة تسبق كل النظم الإدارية الحديثة، وعندها تجد البشرية في ظل هذه الإدارة الراشدة خيراً وأحسن تأويلاً في واقعها وحياتها، وهنا يأتي الكلام عن:

القسم الرابع: الصنف الثاني الطاعي الذي يمنع قيام الإدارة الراشدة، ويمنع الإنسانية أن تنال حقوقها، وتتعمق بما هو خيرٌ وأحسن تأويلاً (النساء: ٦٠-٦٥)

وفصل الله جل مجده في هذا القسم الأسس التي تعرفنا بالصنف الخطير الثاني الذي يحول دون أن تنال الإنسانية حقوقها، وذلك بأن يمنع الأمانة أن تؤدي إلى أهلها، ويمنع أن يُحكم بين الناس بالعدل، وأن يثقوا في التوجيهات الإلهية، وخطورة هذا الصنف أنه خفيّ متلون يزعم أنه آمن بما أنزل الله إلى النبي ﷺ، وآمن بما أنزل من قبله، لكن يصبر على تحكيم الطاغوت، ويبذل أعظم الجهود ليصد الإنسانية عن النبي ﷺ ومعرفة سنته الصحيحة، وسيرته العطرة الصالحة، ويزعم أنه بذلك يحسن إلى المسلمين، ويريد أن يحل التوفيق في القرارات الدولية، ويُبصّرنا الله كيف يتم التعامل مع هذا الصنف، ثم ينقلنا إلى:

القسم الخامس: حيث تتعرف إلى الثمار العظيمة لتطبيق الأوامر الإلهية، وأداء الحقوق الإنسانية وترك تحكيم الطاغوت (النساء: ٦٦-٧٠):

وإذا كان الرجوع إلى أسس الإدارة الراشدة خيرٌ وأحسن تأويلاً لأنها تمكن الإنسانية من الحصول على حقوقها فإن الله يُجَلِّي لنا في هذا القسم بعض الثمار العظيمة عندما تطبق الإنسانية الأوامر الإلهية بأن تؤدي الأمانات إلى أهلها، وتترك تحكيم الطاغوت.

وهكذا ترى تكامل المشاهد الرائعة التي يجمّلها لنا هذا المحور ضمن الفكرة العامة لسورة النساء.. أما وقد طيّبنا أنفسنا بالعطور الفائحة من هذا المحور فلندخل إلى رحابه طالبين تفصيل البصائر الإلهية فيه:

المناسبة بين ختم المحور السابق بحصن الصلاة، وهذا المحور:

كما ترى فإن الله ذكر حق الصلاة قبل ذكر الصنف الأول لأمرين:

الأول: لبيان أعظم الوسائل التي يثبت بها الإنسان في عقله وتفكيره، في مقابل

المكر الإعلامي، والثقافي الساحر، والعسكري الماكر الذي يمارسه محاربو الإدارة الراشدة.

الثاني: لدور الصنف المنتسب إلى الكتب الثلاثة، ولدور المنافقين في العبث بالحق البشري في الصلاة، حيث قامت الحملات المغرضة لتشويه الصلاة والمصلين في الواقع العالمي حتى لجأ الناس إلى رياضات لا يمكنها أن تؤدي الدور الذي تؤديه الصلاة في استقرار النفس البشرية، وكأن الصلاة من أعظم الحقوق البشرية التي يجب أن تقوم الإدارة الراشدة بتيسيرها للناس لتؤدي دورها الإيجابي العظيم الرائع في الحياة الإنسانية، فلا بد من تعظيمها والتهيئة لها وتعظيم أماكنها تطهيراً وبناء.







الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

التعريف بالصنف القيادي الأول الذي يمنع الإنسانية من حقوقها، ويحارب الإدارة الراشدة، ويحرص على تدمير البشرية باللغو في الرسالة الإلهية (النساء: ٤٤-٤٦)

آيات هذا القسم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئًا بِالْسِّنَنِ ۚ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٦﴾ (النساء: ٤٤-٤٦).

حدد الله لنا الصنف القيادي الذي يتلاعب بحقوق الناس تحديدًا دقيقًا من خلال ذكر أهدافه وجنسه وصفاته، ويمكن أن نجمع هذه المعالم التي تشكل تفصيلًا مبيّنًا لهذا الصنف في الأسس الآتية:

الأساس الأول:

تميز هذا الجنس ووضوحه مع محاولته التمويه والتخفي، ويُبَصِّرُنَا الله بهذا الأساس من خلال هذا التعبير المتميز: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ۚ﴾ (النساء: ٤٤).

إنه جل جلاله يلفت نظرنا إلى ضرورة معرفتهم، فلا استفهام: ﴿ أَلَمْ تَرَ ۚ﴾ لفت نظر لهم، وتعجيبٌ من حالهم، وإنكارٌ لأفعالهم مع علمهم، فهم يخادعون الناس

بنصيبٍ من العلم عندهم يسبغون به هبة لهم عند البشرية، مع أنهم يتلاعبون ببني الإنسان.. خذ أنموذج المنظمات الدولية المتلاعبة بالأطفال والنساء في مناطق الحروب، وكأن الله يقول: هل شاهدتهم هؤلاء العابثين بحقوق الجنس البشري؟.

لماذا استخدم فعل الرؤية هنا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يستخدم فعل العلم؟ مع أنه بعد ذلك قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾.. ما السر البياني؟

إنه جل ثناؤه يريد أن يبين أن إخباره لك عنهم، وتعليمك واقعهم قائم مقام رؤيتك المباشرة، ف رؤية العين من أكبر أدلة اليقين حتى قيل: عند رؤية العين لا يوجد أين، وقالوا: ليس الخبر كالعيان أي كالمعاينة والمشاهدة.. فكأنه يقول: إن كانت الرؤية تمثل درجة عالية من درجات اليقين فإننا ننقل لك خبر هؤلاء على اختلاف الزمان والمكان كأنك تراهم بعينك على الهواء مباشرة حتى تحيط بحقائقهم كأنك تراهم.. قال: {أَلَمْ تَرَ} لتكون بإعلام الحق أوثق منك برؤية عينك، أو إخبار الخلق.

الأساس الثاني:

الجنس القيادي ينتمي إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، وهم حقيقة عرفية قرآنية في اليهود والنصارى، ويلحق بهم المسلمون، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى جده: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ فيدخل جميع من أوتي نصيباً من الكتاب.

لأن (ال) إما أن تكون عهدية، والمعهود بهذا التعبير اليهود والنصارى، وإما أن تكون جنسية، فتشمل من أوتي أي كتاب ديني، يتم من خلاله التحكم بالعقول البشرية، وقيادة الرأي العام -كالتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان-، فالتعبير وإن لمس واقع المحرفين من اليهود والنصارى، لكنه عند التأمل يشمل المحرفين من المسلمين. إنهم ليسوا أناساً من العامة، بل هم قوم عندهم شيء من علم الكتاب.. فما المراد بكلمة ﴿الْكِتَابِ﴾؟

يذكر المفسرون أن المراد هو التوراة، وبعضهم يضيف الإنجيل، ولكن التعبير القرآني واضح جداً، فهو يذكر الكتاب هنا مطلقاً، ثم يذكر بدل بعض من كل في قوله بعد ذلك: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾، وبذا نفهم أن كلمة ﴿الْكِتَابِ﴾ تشمل جميع من أوتي نصيباً من الكتاب.. أي كتاب ديني يتم من خلاله التحكم بالعقول البشرية، وقيادة الرأي العام، فيدخل فيه الذين أوتوا نصيباً من الكتب الإلهية المعروفة كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ويدخل فيه الذين أوتوا نصيباً من الكتب الدينية الأخرى.. فكلهم يأخذون هذا الحكم المحذر منهم، والمنوه لهم إن هم حققوا الصفة الخطيرة التي يذكرها الله في قوله: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ (النساء: ٤٤)، وإن كان المعهود العرفي لهم يخص من أوتي نصيباً من التوراة والإنجيل، إلا أن من أوتي نصيباً من القرآن داخل إما بدلالة اللفظ أو بدلالة معناه قياساً.

وينبغي التنبيه هنا إلى وصفهم بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب لا يعني الاختصار على القيادات الدينية بل المراد الانتماء إلى هذا الجنس الذي أوتي نصيباً من الكتاب، وقد يكونون من القيادات السياسية أو المجتمعية، وكثير منهم يتلاعبون بالحقوق العالمية، ويتاجرون بقضايا المستضعفين، ويعبثون بأمن الشعوب الحائرة أطفالاً ونساء ورجالاً.

وهل يلحق بهم من أوتي نصيباً من الكتاب بمعنى الكتابة مثل الملحدين الذين أوتوا ذكاء في بعض العلوم وغباء منقطع النظر في الفهم للمعلوم أو قل عناداً وإصراراً على إنكار البديهيّات والحقائق القطعية؟ أما في العرف القرآني فلا يدخلون، وأما في العرف العام فيحتمل.

الأساس الثالث:

تقوم ثقافتهم وعقيدتهم (أيدلوجيتهم) على نصيب من الكتاب يتلاعبون به،

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ أَنَّ كَلِمَةَ (نَصِيب) تَكَرَّرَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً؛ لِعِلَاقَتِهَا الْوَثِيقَةِ بِالْجَانِبِ الْحَقُوقِيِّ، وَهِيَ هُنَا تَدُلُّ عَلَى مَدْحٍ وَذَمٍّ، فَالْمَدْحُ أَنَّهُمْ أَوْتَوْا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ، وَلَيْسُوا مُسْتَغْرِقِينَ فِي الْجَهْلِ كَغَيْرِهِمْ، وَالْمَتَوَقُّعُ أَنَّ تَكُونَ رَدَّةُ فِعْلِهِمْ بِنَاءً عَلَى تَقَدُّمِهِمُ الْعِلْمِي فِي أَنَّهُمْ أَوْتَوْا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ، وَالذَّمُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَحْفَظُوا الْكِتَابَ كُلَّهُ، بَلْ تَرَكَوْا نَصِيبًا أَوْ أَنْصَبَةً، وَالَّذِي تَرَكَوهُ نَوْعَانِ:

النوع الأول: نوعٌ معدومٌ بسبب أنه لم يصل إلى العالم؛ لتضييع القائمين عليه له، فَلَمْ يَقُلْ -تَعَالَى جَدُّهُ-: إِنَّهُمْ أَوْتَوْا عِلْمَ الْكِتَابِ، بَلْ قَالَ: ﴿أَوْتَوْا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾؛ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَرَسُخُوا فِيهِ، وَنَبَذُوا الْعَمَلَ بِمَقْتَضِيَاتِهِ، فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْلَمُوا -كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ- وَعَرَفُوا الْأَمْرَيْنِ، فَوَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّ مَعَهُمْ عِلْمَ الْكِتَابِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرَّعْدُ: ٤٣)، وَيَسْتَنِي مِنْ هَذَا النَّوعِ الْمَعْدُومِ هُنَا الْقُرْآنُ؛ لِلْحَفِظِ الْمَعْجَزِ الَّذِي صَاحِبُ نَصِهِ -بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ-.

النوع الثاني: نوعٌ موجودٌ، ولكنهم لم يعملوا به، أو لم يشهروه؛ بسبب أنهم اقتصرُوا عَلَى الْعَمَلِ بِمَا اشْتَهَوْهُ مِنْهُ، وَلِذَا وَصَفَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ بِنَسْيَانِ حَظٍّ مِنَ الْكِتَابِ ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة: ١٣)، وَالنَّسْيَانُ بِمَعْنَى التَّرْكِ، فَهَذَا وَصْفُهُمْ بِأَنَّهُمْ أَوْتَوْا نَصِيبًا، وَهُنَاكَ وَصْفُهُمْ بِأَنَّهُمْ نَسُوا حَظًّا، وَكِلَا الْآيَتَيْنِ تَوْضُحَانِ الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ لَهُمْ، وَيُقَاسُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْإِنْجِيلِ، أَوْ عِلْمُ الْقُرْآنِ وَسَلَكُ مَسْلَكِهِمْ، وَيَلْحَقُ بِهِمْ -لَا بِمَقْتَضَى هَذَا النَّصِّ، وَلَكِنْ بِمَقْتَضَى الْمَعْنَى الْمُسْتَفَادَةِ مِنْهُ- مَنْ أَوْتَوْا حَظًّا مِنَ الْكِتَابِ الدِّنْيَوِيِّ كَالثَّقَافَةِ وَالْعُلُومِ وَلَكِنْهُمْ يَقُومُونَ بِتَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْهَدَفَيْنِ الْإِسْأَدِيَيْنِ ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾.

الأساس الرابع:

أهم أهدافهم التي ينشغلون لبثها في الحياة هدفان:

فأما الهدف الأول، فيجليه الله في قوله: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾:

ستقول: نحن قد علمنا الذي يحرصون على شرائه.. إنهم يحرصون على شراء الضلالة.. يا للمفاجأة لهذه العقول المتعائمة السخيفة.. ولكن ماذا يدفعون مقابل ذلك؟

الجواب: لم نخبرنا الآية هنا عن الثمن الذي يدفعونه لتجعل الأفكار تمضي بعيدًا في تصور الأثمان الضخمة التي يدفعونها، فقد يدفعون مقابل ذلك أموالهم الدنيوية ما حل منها وما حرم ليشتروا أنواعًا من الضلالة، وقد يدفعون الهدى الذي هم عليه مقابل شراء الضلالة كما قال الله جل جلاله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ (البقرة: ١٦).. هنا قد تعيد السؤال: فما الهدى الذي هم عليه؟

الهدى الذي باعوه ليشتروا الضلالة مقابله إما هدى الفطرة التي يُصعَّبُ عليها إنكار ربها إلا على سبيل إغماض عينيها وسلوك سبيل العناد والغرور والكبر.. الهدى الذي باعه من أوتي نصيبًا من الكتاب هو هذا النصيب الذي معهم؛ إذ تعاملوا عن مقتضياته، واكتفوا بأن يكون مجرد أمان، واشتروا في الواقع العلمي الضلالة.. ومعنى ذلك أن حياتهم الاجتماعية والسياسية والعقدية والفكرية، مليئة بالضلالات التي يصرون على شرائها، ويبيع الهدى الذي أعطاهم الله إياه.

والتصوير بالفعل المضارع هنا معجزٌ عجيب، ترى فيه البائع للشيء الذي يرغب عنه ويكرهه، وهو الهدى، أو يضغط على نفسه ويتنازل عنه وهو الثمن الدنيوي ليشتري مقابل ذلك الشيء الذي يرغب فيه ويحبه ويجذبه، وهو الضلالة، مع بذله

للثمن.. مدهشة هذه الصورة التي تجعلهم أسوأ من الحيوانات في إصرارهم على اشتراء الضلالة، وهم لا يكتفون بأخذ الضلالة بل يُسَخِّرون مقدراتهم ومقدرات الأمم من بعدهم، ويقدمون أملاكهم وأملاك الأمة بعدهم، ويبدلون جهودهم للدخول في صفقة خاسرة مجرمة آثمة تتمثل في شراء الضلالة أي في شراء المزيد من الهلاك والخسارة والته والعبث والبعد عن الهدى والقرارات الصائبة.. سبحانه الله، وتقدس مجده، وتعالى صفاته!! انظر إلى هذا التعبير المدهش: يشترون الضلالة.. إنه يصف لك كيف بلغت الصفاقة والحماسة والإجرام بهذا الصنف من العالم.. يسخرون المليارات التي آتاهم الله إياها لشراء الضلالة.. يسخرون الإمكانيات والثروات والمقدرات لشراء الضلالة، ومن الضلالة التي يشترونها:

قتل الأبرياء، والاعتداء على الأطفال والنساء، ونشر الخمر والمخدرات على بني الإنسان.. هل هو إنسان حقيقي ذلك الذي يبذل أمواله لنشر الخمر التي يجمع العالم: الكافر والمسلم معاً على أنها تغطي العقل.. يشترون الضلالة التي تعني نشر القنوات المفسدة المدمرة، وبث التعليم الفاسق المحطم لسعادة المجتمعات.. يشترون الضلالة التي تعني عبادة الأحمجار، والخضوع للحيوانات والفئران والأبقار بدلاً من التحرر عن عبادة المخلوقات.. يشترون الضلالة بتحريف كلمات العدل والسلام والحرية وجعلها مرادفة للعدوان والآثام والعبودية.

وأما الهدف الثاني: إضلال العالم ونشر الضلال فيه، وتعميته عن الهدف الحقيقي من وجوده، فتضييع السبل الصحيحة التي توصل إلى الأهداف الحقيقية، وَيُصَرِّفُنَا بِذَلِكَ قَوْلَ اللَّهِ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ (النساء: ٤٤):

﴿السَّبِيلَ﴾ معناها الطريق الواضح، والطريق الواضح وسيلة لهدف واضح،

والسبيل الصحيح سيأخذ بنا إلى الأهداف الحقيقية التي من أجلها خلقنا.. املاً عينيك من هذا الكلام المبهج الذي يختصر لك قصة الحياة: إن السبيل وسيلة تأخذ بنا إلى الغايات الحقيقية.. هم يريدون أن نضل في البحث عن الوسائل الصحيحة، وإذا حدث ذلك عمينا عن الغايات الحقيقية، وعملهم هنا مزدوج كما تصوره الآية، فهم تارة يركزون على الوسائل، لنأخذ سبلاً متعددة لا توصلنا إلى تحقيق الغايات، و تارة يتجهون إلى الغايات، فيصورون لنا غايات كاذبة خاطئة لنخترع لها من عند أنفسنا سبلاً تأخذ بعيداً عن اكتشاف الأهداف الصحيحة، والغايات القويمة، والله ينادي البشرية التي يريد مصاصو الدماء أن يختطفوها فيقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

ما لهؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يبذلون هذا الجهد في تدمير البشرية؟ لا يكتفون بأن يضلوا في أنفسهم بل يرغبون في أن يضلوا العالم معهم، وأول جهة يرغبون في إضلالها الجهة التي تسير على هدى من ربها، فانظر لهذا التعبير ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾، وهذه الصفة ناشئة عن سؤال أثارته الصفة السابقة، وهو: هل هم متعمدون لهذا السفه المذكور بأن يقدموا أموالهم وأموال الأمة في سبيل شراء المزيد من الضلالات والجهالات؟ فيأتي الجواب في كلمة ﴿يُرِيدُونَ﴾ وكلمة ﴿يُرِيدُونَ﴾ تدل على تعمدهم للإضلال وإصرارهم عليه كما هو شأن الفعل المضارع.. سبحان الله!

فهم متعمدون مصرون، أتعلم ما يعني ذلك وفقك الله؟ إنه يعني التحذير التام للمجتمعات المؤمنة ولقياداتها الفكرية والثقافية والعلمية والسياسية من أن يستنصحووا أحداً من هؤلاء المجرمين، أو أن يركنوا إليهم، أو أن يسمعوا شيئاً من

طعنهم في الحق - كما أشار إليه الإمام الطبري - (١).

هل تريد شيئاً سيراً خفيفاً يخبرك عن سعي الذين أوتوا نصيباً من الكتاب لأن
نضل السبيل؟

يعبر صموئيل زويمر عن هذه الرغبة العارمة في اشتراء الضلالة والرغبة في
إضلال العالم فيقول: « فقد صرفنا من الوقت شيئاً كثيراً وأنفقنا من الذهب قناطير
مقنطرة... ومع ذلك فإننا لم ننقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقاً بنى دينه
الجديد على أساس من الهوى أو نصاباً سافلاً لم يكن داخلياً في دينه من قبل حتى
نعهده قد خرج عنه بعد ذلك، ولا محل لديننا في قلبه حتى نقول: إنه دخل فيه. ومع
ذلك فالذين تنصروا لو بيعوا بالمزاد لا يساوون ثمن أحذيتهم... فلتكن عندنا
الشجاعة الكافية لإعلان أن هذه المحاولة قد فشلت وأفلست، وعندئذ يجب علينا
قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام من نفوسهم»، وبعد أكثر
من عشرين عاماً على هذا الخطاب هنا في مؤتمر القدس عام ١٩٣٥م أصحابه على
نجاح هذه الاستراتيجية فقال: « إنكم أعددتُم نشأً (في بلاد المسلمين) لا يعرف
الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في
المسيحية وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أرادته الاستعمار المسيحي لا يهتم
بالعظام، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات. فإذا
تعلم فللشهووات، وإذا جمع المال فللشهووات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل
الشهووات وجود بكل شيء... إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيتُم إلى خير
النتائج وباركتكم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم
فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضوع بركات الرب».

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٢٩).

حسبك مؤتمر كولورادو التنصيري في ١٥ أكتوبر ١٩٧٨م تحت اسم مؤتمر أمريكا الشمالية لتنصير المسلمين، حضره ١٥٠ مشتركاً يمثلون أنشط العناصر التنصيرية في العالم، واستمر لمدة أسبوعين بشكل مغلق، ودعا إلى ضرورة وجود ظروف خاصة تدعو إلى التحول الجماعي نحو النصرانية إذ يقول ديفيد أ. فريزر: «ولكي يكون تحول فلا بد من وجود أزماتٍ معينة، ومشكلات وعوامل تدفع الناس أفراداً وجماعات خارج حالة التوازن التي اعتادوها، وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية كال فقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية مثل التفرقة العنصرية أو الحساسية بسبب تسامح المجتمع تجاه النفاق أو الوضع الاجتماعي المتدني»^(١)

وحتى الذين حاولوا الانسلاخ عن الثوب المتدين للذين أوتوا الكتاب، فهم جاءوا بضلالات مقابلة لضلالات المحرفين مع انتمائهم للكتاب في الأصل، و(الكتابة) في الواقع، فخبّرني كيف ترى في ماركس اليهودي الأشكنازي الذي نشر خرافات المادية الجدلية لتكون أهم ما تظهره إنكار وجود الله، وإضفاء الشرعية على الصراع المستعر المجرم بين الطبقات؟ ماذا ستقول في الطبيب فرويد الذي تدرس نظرياته على أنها حقائق مبهرة في علم الاجتماع، وهو يلخص نظريته إلى الإنسان على أنه حيوان يقوم على الشبق الجنسي، وأوجد له بدلاً من الفطرة الإنسانية النقية عقدة أوديب، وعقدة إلكترا ليصل منهما إلى تحليل بل إلى تشريع زنا المحارم وجعل ذلك جزءاً من الحياة الطبيعية الإنسانية... بل ماذا تقول في هوكينج وهو يزعم أن الإنسان مجرد وسخ كيميائي.

(١) يراجع: التنصير تعريفه أهدافه وسائله حشرات المنصرين (ص: ٣٢)، وموسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ الشحود على النت، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال المستشرقين، د. عبدالرحمن عميرة، ص ٣٥ - ٣٦، رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد غراب ص ٦٣، قذائف الحق، محمد الغزالي، ص ٧٠-٧٤.

إلى أي مدى يريدنا الذين أوتوا نصيباً من الكتاب أن نضل السبيل؟

الأساس الخامس:

لا يسمون أنفسهم أعداء للإنسانية بل يظهرون غير ذلك، ويُبَصِّرُنَا بهذا الأساس هذه البصيرة الحاكمة المُعْظَمَة: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ (النساء: ٤٥) إن الله يذكرك بضرورة أن تثق بالمصدر الإلهي العليم بالواقع البشري، فالله أعلم بأعداء البشرية، فهو مصدر التقسيم العالمي إلى أعداء وأصدقاء، وفق علمه بأحوالهم ونفسياتهم التي تخدعون في التعرف إليها:

إن الله يبين لنا هنا أنه مصدر تقسيم العالم إلى أعداء وأصدقاء، وليس أفهامنا الضائعة، وأفكارنا التائهة وسط المكر الكبار.. ماذا تظن عندما تسمع الله يقول لك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾؟

التعبير في الآية واضح في مخاطبته لنفسك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾.. هو تعالى جده لم ينف العلم عنك.. بل أثبت لك بعض العلم الذي من خلاله ستحدد أعدائك وأوليائك.. انتبه! لأنه أعلم منك بأعدائك.. ليس عندك إلا بعض الصورة، أما الله جل في علاه، فهو الذي أحاط علماً بكل شيء، فضع الاستراتيجيات الحامية لأنك وفق ما حدده ربك.. إن هذه الآية إشارة ضمنية إلى أن بعض الأمة سيحدث له تيه عقلي، وغزو يستهدف أفكاره، فيصنف الأعداء وفق آرائه وأهوائه وما يبدو له من كلامٍ مقابل ربما تضمن مكرًا وكيدًا، وليس وفق ما حدده الله ربه عندما ذكر المغضوب عليهم والضالين، ومن يدخل فيهم ممن اتبعوا الشهوات وأرادوا لنا أن نضل ضلالاً مبيتاً.

فالله أعلم بأعدائكم فَلَا تَغْتَرُّوا بتحالفاتكم المزينة المزخرفة مع عدوٍ يتلاعب بعقولكم، فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغش والعداوة والحسد، وأنهم إنما ييغونكم الغوائل، ويطلبون

أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا^(١) كما يقول الطبري رَحِمَهُ اللهُ.

وهذه الآية أتت جواباً لسؤال ربما نشأ عن ذكر أعداء الأمة والإنسانية السابقين وتحديد أبرزهم بدقة في الآية اللاحقة، وهذا السؤال هو ما يردده بعض المسلمين قولاً أو حالاً، ويمكن صياغته في الآتي:

إن من هؤلاء الذي جعلتهم يا الله أعداء لنا من نأنس به، ونجد عندهم مظاهر العدل في أنفسهم، ومحاولة إفشاء الحقوق لغيرهم؟ فيأتي الجواب قاطعاً: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وذلك ليكون القرآن هو المعيار الحقيقي لكل الأمور ومنها بيان العدوات والصداقات، ووجود قلة من المنصفين لا يعني قدرتهم على التحكم بالرأي العام، ولا وصولهم إلى صنع القرار بين أقوامهم، كما قال وليد الأعظمي رَحِمَهُ اللهُ:

أبكل يوم فكرة وعقيدة	تغزو الحمى من تاجر مستورد
يغري بها البسطاء من أبنائنا	بالموبقات وبالحسان الخرد
ويصدهم عن دينهم بخديعة	ما شابهتها حيلة المتصيد
نبني ويهدم غيرنا بدسياسة	شتان بين مهدم ومشيد
لا رأس مال الغرب ينفعنا ولا	فوضى شيوعي أجير أبلد
وسطاً نعيش كما يريد إلها	لا نستعير مبادئاً لا نجتدي
قرآن ربك يا محمد عزنا	ونظامنا الداعي لعيش أرغد

الأساس السادس:

يظهرون موالاته الإنسانية، ونصرة قضاياها، وبيَّضَنا الله جل جلاله بذلك من خلال قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾، فالكفاية به ولياً ونصيراً تعني أن هذه البصائر التي يريكم بها، إنما هي لحمايتكم، وحراستكم في أمنكم الشخصي

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٢٩).

والقومي، ويجب عليكم بذل المستطاع الشرعي والمادي في حماية أمنكم ثم ثقوا بعد في أن يكفيكم عما عداه ولاية ونصرة:

فلا تتوهموا أن طلبكم التحالف مع أعدائكم الحقيقيين سيجعلهم يشعرون بالرغبة في رد الجميل، أو إظهار صادق المحبة لكم، بل تولوا الله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾، وهذه الجملة المباركة تبين أن اتباع منهج الله تعالى ذكره في تحديد أعداء الأمة من أنصارها قد يوقع للوهلة الأولى في عداوة كثير من أهل الأرض لا تباعهم هذ الصنف المذكور في الآية السابقة واللاحقة؛ فلا يحزن الإنسان ولا ييأس بل يثق بالله ويتوكل على ولايته ونصرته جل في علاه.

كما أن قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينبه المسلمين الذين آل أمرهم إلى الدخول في تحالفاتٍ سياسية وعسكرية مع المحرفين بأن لا يظنوا أن تلك التحالفات والموالات يمكن أن تفيدهم شيئاً، فأعداؤهم سينتهزون أقرب فرصة للغدر بهم، بالسلم أو بالحرب، فليكتفوا بولاية الله ونصرته.

والولي جمعه أولياء^(١) مِنَ الْوِلَايَةِ بِكَسْرِ الْوَاوِ وَهِيَ النُّصْرَةُ أو المحبة، وَأَمَّا الْوِلَايَةُ بِفَتْحِ الْوَاوِ فَهِيَ تَوَلَّى الْأَمْرَ، وكلاهما مشتق من الولاء والتوالي من ولي، وهي كلمة تدل على قُربٍ، والتوالي: أن يحصل شيان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، وهذا يدل على القرب الشديد الذي يصل إلى ما يشبه التلاصق، فيُقَالُ: تَبَاعَدَ بَعْدَ وَلِيٍّ، والولي: القرب والدنو، ومنه قول النبي ﷺ: «كل مما يليك»، أي مما يقاربك قرباً مباشراً، وكُلُّ مَنْ وَلِيَ أَمْرَ آخَرَ فَهُوَ وَلِيُّهُ، فهو أقرب الناس إليه ليس بينهما غيرهما، وَفُلَانٌ أَوْلَى بِكَذَا، أَيَّ آخَرٍ بِهِ وَأَجْدَرُ، فَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي الشَّتْمِ: أَوْلَى

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٥٢٨)، مقاييس اللغة (٦/ ١٤١)، المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٥٣٣).

لَكَ فَتَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، ومنه قولهم:

فَأُولَىٰ ثُمَّ أُولَىٰ ثُمَّ أُولَىٰ وَهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلَبُ مِنْ مَرَدٍّ
ولعل ذلك بسبب قرب تنفيذ المهدد لوعده، ولذا قال الأصمعي: مَعْنَاهُ قَارِبُهُ مَا
يُهْلِكُهُ، أَي نَزَلَ بِهِ.

وَالْمَوْلَى: الْمُعْتَقُ وَالْمُعْتَقُ، وَالصَّاحِبُ، وَالْحَلِيفُ، وَابْنُ الْعَمِّ، وَالنَّاصِرُ،
وَالجَارُ، كُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْوَلِيِّ وَهُوَ الْقُرْبُ، فالولي اسم يدل على القرب والمحبة،
والولاية بمعنى القيام على الشيء ورعايته، ومن ذلك الوالي، فهو القائم المتصرف
على غيره، فالله تعالى ذكره يتولاكم ويقوم على شؤونكم ورعايتكم، وهو الذي
ينصركم، فصارت الولاية والموالاتة والولاء تدل على شدة التلاصق وعدم الانفكاك
الذي يؤدي إلى العزة والشعور بالقوة، كما تدل على قوة القرب من حيث المكان
ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولي
والمولى يستعملان في ذلك كل واحد منهما يقال في معنى الفاعل أي الموالي، وفي
معنى المفعول أي الموالى، فقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة: ٢٥٧) أي يتولى
أمرهم حكماً ومحبة ونصرة فهو أقرب إليهم مما سواه، وقولهم: تولى إذا عدى بنفسه
اقتضى معنى الولاية وحصوله في أقرب المواضع منه، ويقال وليت سمعي كذا،
ووليت عيني كذا، ووليت وجهي كذا أقبلت به عليه، وقوله جل ذكره: ﴿فَلَنُؤْيِكَ
قَبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤) أي فلنحكمنا عليك
بتولي قبلة ترضاها أي بالإقبال عليها، ومنه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ٥١)
أي ومن يجعلهم أقرب الناس إليه أو يوافقهم إلا في أعشار من مائة، فهذا يعني أنهم
مثل روحه، وذاك يعني أنهم يتصرفون فيه كما شاءوا، فهي أعلى درجات التحالف؛ إذ
صارت أقرب إلى الامتزاج منها إلى التحالف، ولذا فإن قوله جل ذكره: ﴿فَهُوَ مِنْهُمْ﴾

إما أن يكون حكمًا ظاهريًا حيث تراه معهم في كل شؤونهم ينصرهم فيما يذهبون إليه من القضايا الإنسانية وفق رؤيتهم المعوجة، وإما أن يكون قوله ﴿فهو منهم﴾ حكمًا ظاهريًا وباطنًا أي لا يكتفي بنصرهم في الظاهر بل يوافقهم في الباطن أيضًا.

وجمع الله في الذكر في هذه الآية بين الولي والنصير لأنك قد تجد الولي المحب لكنك لا تجد عنده القدرة على النصر، وقد تجد النصير دون أن يكون وليًا محبًا، فجمع الله لنفسه بين الأمرين تحببًا لكم، وبيانًا للمجد الذي تجدونه منه جل جلاله.

والحظ كيف يحفز القرآن الأنفاس، ويحشد العواطف، ويشعل المشاعر فيكرر الله قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ مع إظهار الاسم دون إضمماره في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٤٥).

فالتكرار والإظهار في مقام الإضممار في مثل هذا المقام أشد تأثيرًا في القلب وأكثر مبالغة، وهذا التكرار يناسب تحريك العواطف الجامدة الباردة بعد تقرير الحقيقة العقلية الواضحة وهي: معرفة العدو من الصديق من المصدر الإلهي الذي يحيط بالغيب والشهادة لا من الأفهام القاصرة المخدوعة.

ولذا يقول الطبري رَحِمَهُ اللهُ فِي تفسيرها عبارة مسددة جمع فيها بين حماية الله للأمة الإسلامية في أمنها القومي، وحمايته لها في نظامها الذي شكله الإسلام: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾، يقول: وحسبكم بالله ناصرًا لكم على أعدائكم وأعداء دينكم، وعلى من بغاكم الغوائل، وبغى دينكم العوج^(١)، وهذا يعني حرص هذه الفئة المشتركة الضلالة على إدخال العوج في الإسلام، ومحاولة تغييره، والحرص على تعويج أنظمتهم.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٣٠).

الأساس السابع:

أبرز قيادات الصف الأول للجنس الذي يقوم بسلب الحقوق البشرية، والإضلال العالمي ينتمون للذين هادوا، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾.

بدأ بتحديد هوية الصف القيادي المجرم القائم بالضلال والإضلال فقال: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ وهذا التحديد لا يقصد منه الحصر بل هو بيان لأبرز أمثلة هؤلاء الأعداء، فهم قيادة القيادات، فحدد الله تعالى ذكره الصف الأكثر تأثيراً من أهل الكتاب، وهو الصف الأكثر حشداً ونفوذاً في العالم، وحسبك لترى زعماء ما يسمى بالعالم الثالث والأول يهبون لزيارة هذا الصف، وتقديم فروض الولاء والطاعة له، وقد أدت كلمة ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ دوراً محورياً لتنبهنا على عدة قضايا فيما يتعلق بطبيعة العداوة المستحكمة لهذا الصف المشتري للضلالة؛ وقد تسأل: كيف ذلك؟ تعال معي -أيديك الله- لنحدد مجال ارتباط هذه الكلمة لنستنبط معينين:

المعنى الأول: يتضح من كون ﴿مَنْ﴾ ترتبط بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾، فيكون قوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بدلاً متصلاً بكلمة ﴿الَّذِينَ﴾، وفي هذه الحالة يكون قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ جملاً مُعْتَرِضَةً بَيْنَ الْبَيَانِ وَالْمُبَيِّنِ، وهذا البديل بدل بعضٍ من كلٍّ، فالمحرفون من الذين هادوا هم قيادات الذين اشتروا الضلالة، وهم الذي يحرضون على حرمان العالم من معرفة حقوقهم النظرية والعملية في الأمور الدينية والدينية، ويريدون أن يضلوا العالم.. وإنما ذكر اليهود دون غيرهم لأنهم العقل المدبر، والجزء المحرك لبقية الدمي العالمية التي تسير في فلکهم، وحسبك أن ترى هذه الهيمنة العالمية لأسرة مثل الأسر اليهودية الثلاث الأسطورية المتحكمة باقتصاد أكبر دولة في العالم.

المعنى الثاني: أن تكون الجملة مستأنفة، والمعنى: من الذين هادوا من يُحَرِّف الكلم عن مواضعه، فتكون «مَنْ» محذوفة من الكلام، اكتفاء بدلالة قوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ عليها، والعرب تقول: «منا من يقول ذلك، ومنا لا يقوله»، بمعنى: منا من يقول ذاك، ومنا من لا يقوله، فتحذف «مَنْ» اكتفاء بدلالة «مِنْ» عليه، كما قال ذو الرمة:

فَظَلُّوا، وَمِنْهُمْ دَمْعُهُ سَابِقُ لَهُ وَآخَرُ يَثْنِي دَمْعَةَ الْعَيْنِ بِالْهَمَلِ
يعني: ومنهم مَنْ دمعته، وكما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾
(سورة الصافات: ١٦٤).

وتكون «مِنْ» تبعيضية أي أن بعض اليهود يتصفون بذلك، ومفهومه أن منهم من لا يتصف بذلك، وذلك يعطي بعداً آخر في كيفية التعامل معهم.

وهذا التحديد لا يقصد منه الحصر، بل بيان لأبرز أمثلة هؤلاء أعداء الإنسانية، فهم قيادة القيادات، وهذا التحديد ورد في التوراة ما يقاربه في ذكر الرجس الذي سببه القيادات الضالة في أورشليم للعالم، وبتعبير لا تدري كيف تصفه!! ففي سفر حزقيال ١٦: ٢ يا ابن آدم، عرف أورشليم برجاساتها.

وبعد أن يذكر عهده معها، أي: مع بني إسرائيل سكان أورشليم حينها:

١٥ فاتكلت على جمالك، وزنيت على اسمك، وسكبت زناك على كل عابر، فكان له. ٢٣ وكان بعد كل شرك، ويل ويل لك، يقول السيد الرب. ٢٥ في رأس كل طريق بنيت مرتفعتك، ورجست جمالك... لكل عابر، وأكثر زناك. ٢٦ وزنيت مع جيرائك بني مصر الغلاظ اللحم، وزدت في زناك لإغاظتي.

وحتى يبين أن اليهود ليسوا كلهم مقصودين هنا بين أعمال العدو من اليهود

والتي بها يقومون بالضلال والإضلال، وهي الأعمال التي ترد في الأسس الباقية.

الأساس الثامن:

ليس جميع الذين هادوا يعثون بالحقوق البشرية، ويقومون بعملية الإضلال العالمي، بل الصنف المقصود هم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

فهذا هو العمل الأول من أهم أعمال قيادات الضلالة والإضلال من الذين هادوا: فيقومون بهذه الخطوة الكاذبة الخاطئة لتكتمل عملية الضلال والإضلال، فهم لما فقدوا كتاب موسى وجدت عندهم قراطيس متفرقة فأظهروا منها ما أظهروا ولفقوا بينها فجاء الخلط والتكرار.

ويظهر أن من أهم ما أخفوه اسم النبي الخاتم ﷺ ليتحكموا في طريقة التعامل معه لو ظهر اتباعًا وامتناعًا، وترجع أنواع التحريف الذي قاموا به في كلام الله إلى ثلاثة أنواع:

الأول: تحريف التبديل: فَكَانُوا يُبَدِّلُونَ اللَّفْظَ بِلَفْظٍ آخَرَ، وربما بدلوا عبارات بأكملها تبعًا لأهوائهم، وذكر الله ذلك عنهم صراحة في القرآن والكتاب المقدس، أما في القرآن ففي قوله جل ذكره: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٩).

ولقد بلغ التحريف حدًا منافيًا للرسالات الإلهية، فإن من ثوابت كلام الله ألا تزر وازرة وزر أخرى، فماذا تقول عندما تجد نصًا يخطئ فيه حام، فيلعن نوح عليه السلام أحفاده بسبب خطأ ارتكبه ابنه، ونوح نبي من أولي العزم صبر على قومه نحو ألف سنة، ولم يصبر على ابنه في خطأ بل إن عقيدة الشعب المختار واستباحة الفلسطينيين

غرست هذا النص الغريب في سفر التكوين ٩:

(٢٠) وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلَاَحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. ٢١ وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. ٢٢ فَأَبْصَرَ حَامُّ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخُوَيْهِ خَارِجًا. ٢٣ فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافِثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَى إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَ عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. ٢٤ فَلَمَّا اسْتَيْقِظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، ٢٥ فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لِأَخَوْتِهِ». ٢٦ وَقَالَ: «مُبَارَكُ الرَّبِّ إِلَهُ سَام. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. ٢٧ لِيَفْتَحِ اللَّهُ لِيَاثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِينِ سَام، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ».

هل هذا يصدر عن نبي؟ وفي سفر التكوين أن أبناء حام أربعة: كوش ومصرام وفوط وكنعان، فلم خص كنعان الذي لا ذنب له مع نوح؟

النوع الثاني: تحريف التأويل: فلا يغيرون اللفظ ولكنهم يتلاعبون بالمعنى،

النوع الثالث: تحريف الألفاظ والمصطلحات التي تنصر العدل في الإنسانية، فلم يخصص ﴿الْكَلِمَ﴾ بأنه كلم الله، فيدخل فيه كل كلم، وإن كان كلام الله يدخل ابتداء، فمن خلال النوعين السابقين يقومون بإلقاء الشبه المجرمة المخربة، والتأويلات الفاسدة، ويصرفون اللفظ عن معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية، كما يفعله أهل البدعة في زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم^(١).

ومما جاء في التوراة مما يقارب ما في القرآن عن هذا العمل السيء:

في سفر التثنية تجد أن موسى لقب بني إسرائيل بأصحاب الرقاب الصلبة، وجاء فيه ما يشبه التصريح بتعرض الكتاب للتحريف، فمن ذلك ما جاء في سفر التثنية ٣١ إشارة إلى هذا العمل الخطير الذي قاموا به في التحريف:

(١) تفسير الرازي (١٠ / ٩٣).

٢٤ فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتابٍ إلى تمامها. ٢٥ أمر موسى اللاويين حاملِي تابوت عهد الرب قائلاً: ٢٦ خذوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم؛ ليكون هناك شاهداً عليكم.

٢٧ لأنني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة، هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم، قد صرتم تقاومون الرب، فكم بالحري بعد موتي. ٢٨ اجمعوا إلي كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم؛ لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات، وأشهد عليهم السماء والأرض. ٢٩ لأنني عارف أنكم بعد موتي تفسدون، وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به، ويصيبكم الشر في آخر الأيام؛ لأنكم تعملون الشر أمام الرب؛ حتى تغبطوه بأعمال أيديكم. ٣٠ فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه. ٣٢: ١ أنصتي أيتها السماوات فأتكلم، ولتسمع الأرض أقوال فمي ٢ يهطل كالمطر (كالغيث) تعليمي، ويقطر كالندى كلامي، كالطل على الكلاء، وكالوابل على العشب. ٣ إني باسم الرب أنادي أعطوا عظمة (تعظيماً) لإلهنا.

وقد ذكر الشيخ رَحْمَةُ اللهِ الْهِنْدِيّ - رحمه الله تعالى - في كتابه الفريد إظهار الحق، مائة شاهدٍ على التَّحْرِيفِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ فِيهَا.

ثم أخبر عن موت موسى عليه السلام فقال:

٣٤: ٤ وقال له الرب: هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً: لنسلك أعطيها قد أريتكَ إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر.

٣٤: ٥ فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مواب حسب قول الرب.

٣٤: ٦ ودفنه في الجواء في أرض مواب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم.

فهذا من التحريف الواضح للكتاب الذي أنزله الله يبين تداخل ما أنزله الله مع ما عبث البشر فيه، ونجد في سفر الملوك الثاني هذا النص:

٢٢: ٨ فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب: قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب وسلم حلقيا السفر لشافان فقرأه

فهل المراد أن سفر الشريعة ضاع ثم وجد، وكيف كان بنو إسرائيل في فترة ضياعه يفعلون؟

ولكن السؤال الذي تثيره الكلمات المحكمة للآية: لماذا قال الله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، ولم يقل: يحرفون التوراة أو يحرفون كلام الله؟

هذا التعبير الدقيق هنا يعطي معاني غير المعاني التي نستلهمها من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ (البقرة: ٧٥)؛ إذ هذا الموضع من سورة البقرة ينص على تحريفهم لكلام الله، فذهب مجاهد إلى أن المراد بالكلم التوراة، فقال: تبديل اليهود التوراة^(١).

والأصل في التفسير عدم التكرير، فلا بد أن نفهم من هذا الموضع في سورة النساء أمورًا أخرى، فمن ذلك:

يدخل كل كلام صالح من كلام الله أو من كلام البشر حرفوه وأمالوه عن موضعه، فالعبارة القرآنية واضحة ﴿الْكَلِمَ﴾، وذلك أعم من التوراة، فيدخل في هذه الكلمة كل كلام حق حرف عن موضعه، خذ نموذجًا لذلك كلمات مثل العدالة والسلام يجعلهما مجانين نبوءة هرمجدون ستارًا لكل جرائمهم التي يؤسسونها في حياتهم وتبقى بعد موتهم من مؤامراتهم على هذه الأرض، وربما هذا ما جعل «ألبرت آل

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٣٢).

غور» نائب كلينتون يقول: (بمناسبة خمسين عاماً على قيام الكيان الصهيوني، وبنبرة مألوفة من المسؤولين في الولايات المتحدة): «يشعر الأمريكيون بأن الوشائج التي تربطنا بإسرائيل أبدية، لقد مضى مؤسسو دولتنا مثلما مؤسسو دولتكم، ردحاً من الزمن في التيه بحثاً عن صهيون جديد، وكان كفاحنا، مثل كفاحكم، مع الإلهي والبشري، وقد قال لنا أنبيأؤنا، وأنبيأؤكم إن لديهم حلمًا، وأهابوا بنا بحلمهم، إلى هذا الكفاح من أجل العدالة والسلام»!!

فهل سرقة ثروات الشعوب والعيش على خيراتها هي العدالة، والسلام؟ هل العدالة، والسلام في إبادة الشعوب، سواء أكانوا من الفلسطينيين أم من الهنود الحمر؟ وأي إله ذلك الذي يرضى بالدمار النووي، والفرح بانتشار الاغتصاب، وبيع السلاح على ذئاب البشر، ومنع الضحية من الدفاع عن نفسه.. فقط إرضاء لأسوأ أنواع العنصرية، وجرياً وراء الأكاذيب التي يتحدث عنها مجانين النبوءات الخرافية الدائرة حول نص محرف لاغتصاب الحقوق والعيش على خيرات الشعوب.

الأساس التاسع:

من صفاتهم الأساسية ما يرددونه لأعظم أنبيائهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. وهذه العبارة القرآنية تحكي حالتين لهم، وكل حالة تناسب فئة منهم حسب نفسياتهم أو حسب لعب الأدوار بينهم.

الحالة الأولى: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ابْتَدَأَ بِمُوسَى وَانْتَهَاءَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا إِذَا أَمَرُوهُمْ بِشَيْءٍ قَالُوا فِي الظَّاهِرِ: سَمِعْنَا الْكَلَامَ وَوَعَيْنَاهُ وَفَهَمْنَاهُ، وَقَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: وَعَصَيْنَا مَقْتَضِيَاتِهِ، فلم نعمل بصالحه، وسنقوم بكل ما يلزم لإحباطه، وهؤلاء يشبهون الذين يخالطون المسلمين ويخدعونهم بمعسول القول والكلام،

ويضمرون الخداع، ومنهم الذين يتفاوضون معهم في إطار المؤسسات الدولية.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ قَوْلَهُمْ: سَمِعْنَا الْأَقْوَالَ وَعَصَيْنَا بِالْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ، إِظْهَارًا لِلْمُخَالَفَةِ، وَاسْتِحْقَارًا لِلْأَمْرِ، وَعِنَادًا وَاسْتِهْزَاءً وَسُخْرِيَةً بِأَهْلِ الْحَقِّ، وَإِظْهَارًا لَأَنْفُسِهِمُ الظَّالِمَةَ بِمُظْهِرِ الْقَوِي الْأَمْرِ فِي الْخَلْقِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَعَمُّدِهِمْ عَلَى الْإِجْرَامِ اللَّسَانِيِّ مَعَ الْإِجْرَامِ الْفِعْلِيِّ.. فتلک قنواتهم الإعلامية ما تفتأ تظهر تلاعبهم بكل ما هو صدق وحق في الوجود.. إذن هم يسمعون أقوال الآخرين، ويسمعون كلام رب العالمين، ويسمعون آهات المظلومين، ولكنهم يتفاخرون عندما يتلبسون بالمعصية، ويعلنون أو يسرون ذلك حسب فئاتهم.

الأساس العاشر:

من صفاتهم الأساسية أنهم يقولون: ﴿وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾.

بعد أن يقولوا: عصينا يتحولون إلى إملاء التوجيهات، فيخاطبون مقابلهم سواء أكان نبياً أم كان ولياً أم كان مظلوماً أم كان صاحب حق.. يقولون بلهجة متعالية متكبرة: ﴿وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾، وهذه العبارة تظهرهم في صورتين:

الصورة الأولى: اسمع منا غير مسمع، كقول القائل للرجل يَسُبُّهُ: «اسمع، لا أسمعك الله»، فيكون غير مسمع أي غير سامع، فهو دعاء على من يقابلهم بالصمم، وذلك يدل على سفههم، وسوء خلقهم.

الصورة الثانية: ﴿وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ غير مقبول ما تقول، فكأنك لم تُسمع شيئاً

والمراد من الصورتين أمراً يدل على كبرهم وغرورهم وقسوة قلوبهم: سمعنا كلامك، وعصينا أمر ربك فيما تقول.. عصينا كل القوانين العادلة في حقك، ولكن ينبغي أنت أن تسمع لنا، واعلم مع سماعك لنا بأنك غير مقبول كلامك كأنك لم تقل

شيئاً، فكانهم ينعنون أنفسهم بأنهم مصدر التلقي، ومحل إصدار التوجيهات.

الأساس الحادي عشر:

من صفاتهم الأساسية أنهم يقولون: ﴿وَرَعْنَا لِيَا بِلْسِنِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾.

﴿وَرَعْنَا﴾: كَلِمَةٌ تعكس سخريتهم، وتخفي قبح ثقافتهم، وانحطاط مستواهم الخلقي، وحرصهم على تدمير معالم الإيمان:

يزيدون في سفاهتهم أثناء الحديث فيقولون: ﴿وَرَعْنَا﴾.

فَهَذِهِ كَلِمَةٌ تعكس ما يجري بينهم من الهُزءِ وَالسُّخْرِيَّةِ، فنهى المسلمون عن تقليدهم في الألفاظ بطريقة التحدث، فربما ظن المسلمون ببراءتهم أن تلك الألفاظ ليس فيها سوء بينما هي تخفي قبح ثقافتهم، وانحطاط مستواهم الخلقي، وتلك اللفظة لَا يُخَاطَبُ بها الناس من الناحية الأدبية، فتصور الأمر عندما يخاطبون بها الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم كانوا يرددونها أمام النبي ﷺ، ويرددون أمثالها أمام الناس لإيهاهم أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ معنى عادياً مثل أَرَعْنَا سَمْعَكَ، أو انتظرنا، أو أمهلنا ولكنهم كَانُوا يُرِيدُونَ سَبَّهُ بِالرُّعُونَةِ فِي لُغَتِهِمْ.. وعندما كانوا يقولون هذه الكلمة كَانُوا يَلُوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ حَتَّى يَصِيرَ قَوْلُهُمْ: رَاعِنَا رَاعَيْنَا، وَكَانُوا يُرِيدُونَ أَنَّكَ كُنْتَ تَرَعَى أَغْنَامًا لَنَا، واللي هو الانعطاف والقتل، فكانوا يفتلون أشداقهم وألسنتهم عند ذِكْرِ هَذَا الْكَلَامِ عَلَى سَبِيلِ السُّخْرِيَّةِ، كَمَا جرت عادة من يهزأ بإنسان بمثل هذا الْأَفْعَالِ، ليجمعوا بين لسان الذي يفعله الساخرون والمستهزئون والطعن في الدين في الوقت ذاته، ويحتمل معنى آخر هو أنهم كانوا يلوون ألسنتهم عند النطق بالكلمة ليتوهم السامع أنها عربية، وهم يريدون بها معناها العبري، فذهب بعض المحققين إلى أن كلمة «رَع» لا العبرية معناها: سيء

ولو كنت بين قومٍ عبرانيينَ وأرادوا أن يشير والكَ إلى شخصٍ بعينه بأنه السيءُ فيهم، أو بأنه سيئهم، فإنهم يقولون عنه: «راعينو» רַאִינוּ ra'aino، ra3aino أي: هو سيئنا.

وطعنهم في الدين بإظهار الاستهزاء والتحقير للمسلمين أمام أصحابهم لينشأوا على العنصرية المقتية دون شعور، والتعالي وظن أن الحق معهم لا مع غيرهم، ليطعنوا في صحة دين الإسلام أمام العالم، وكان بعضهم يَقُولُونَ لِأَصْحَابِهِمْ: إِنَّمَا نَشْتُمُهُ وَلَا يَعْرِفُ، وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا لَعَرَفَ ذَلِكَ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ فَعَرَفَهُ حُبَّتْ صَمَائِرِهِمْ، فَانْقَلَبَ مَا فَعَلُوهُ طَعْنًا فِي نُبُوَّتِهِ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى نُبُوَّتِهِ، لِأَنَّ الْإِخْبَارَ عَنِ الْغَيْبِ مُعْجَزٌ.

وعندما كانوا يفعلون ذلك فهم يحاولون التعالي أمام المسلمين والسخرية منهم لزلزلة الضعفاء منهم. فجمع الله جل مجده في بيان صفاتهم بين أخلاقهم المنحطة ﴿لَيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، وحرصهم على تدمير معالم الإيمان ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾.

الأساس الثاني عشر:

الوقوع في اللعن الإلهي بسبب إصرارهم على تغطية الحقائق التي تبين دينهم الحقيقي، فقال الله يحثهم حثًا متلطفًا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

فلتكلم عنهم فيما بيننا ونحن نحاول تحليل نفسياتهم، ولنخاطبهم أيضًا عسى أن يستفيقوا من غيهم، فنقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي سمعنا قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئنا به من عند الله، واسمع منا، وانظرنا، وانتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا.

فكلمة (انظر) تأتي بمعنى انتظر وانظر، فأما انتظر فمنه قول الحطيئة:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ أَعْشَاءَ صَادِرَةٍ لِلْخُمْسِ طَالَ بِهَا حَوْزِي وَتَنْسَاسِي^(١)

وأما انظر فمنه قول عبد الله بن قيس الرقيات:

ظَاهِرَاتُ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ يَنْظُرْنَ كَمَا يَنْظُرُ الْأَرَاكَ الظَّبَاءُ

أي انتظرنا وانظرنا أي انظر إلينا فنفقه منك ما تقول.

وهنا ترى البصائر القرآنية تحثك على مزج الخطاب الدعوي بالخطاب

السياسي.. أما لماذا لا بد من مزج الدعوي بالسياسي؟ فلأمور:

الأول: لحث المسلمين على جعل الخطاب الدعوي جزءاً من الخطاب السياسي

في كل شيء.

الثاني: لبيان ضرورة أن يكون المسلمون على النقيض من الصفات السيئة التي

(١) البيت للحطيئة من قصيدة أولها:

وَاللَّهِ مَا مَعَشَرٌ لَامُوا امْرَأً جُنُبًا فِي آلِ لَآئِي بْنِ شَمَّاسٍ بِأَكْيَاسٍ
عَلَامٌ كَلَّفَتْنِي مَجْدَ ابْنِ عَمِّكُمْ وَالْعَيْسُ تَخْرُجُ مِنْ أَعْلَامِ أَوْطَاسٍ
وفيها:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
سِيرِي أُمَامَ فَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ حَصَى وَالْأَكْرَمِينَ أَبَا مِنْ آلِ شَمَّاسٍ
مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

من قصيدة يهجو بها الزبرقان ابن بدر، ويمدح بغيض بن عامر من شماس. والأعشاء جمع عشى (بكسر فسكون): وهو ما تتعشاه الإبل. والصادرة: الإبل التي تصدر عن الماء. والخمس: من أظماء الإبل، وهو أن تظل في المرعى بعد يوم ورودها ثلاثة أيام، ثم ترد في الرابع. والحوز: السوق اللين، حاز الإبل: ساقها سوقاً رويداً. والتنساس والنس، مصدر قولك: نس الإبل بينها: ساقها سوقاً شديداً لورود الماء. ويروى «إيناء صادرة». والإيناء مصدر آتيت الشيء: إذ أخرته. يقول للزبرقان، حين نزل بداره، ثم تحول عنها إلى دار بغيض (انظر خبرهما في طبقات فحول الشعراء: ٩٦ - ٩٨): انتظرت خيركم انتظار الإبل الخوامس لعشائها. وذلك أن الإبل إذا صدرت تعشت طويلاً، وفي بطونها ماء كثير، فهي تحتاج إلى بقل كثير. يصف طول انتظاره حين لا صبر له على طول الانتظار.

وانظر: حاشية آل شاعر على تفسير الطبري ت شاعر (٢/ ٤٦٨)

لأعدائهم من اليهود المتصفين بتلك الصفات، فالمسلمون ينبغي أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا﴾ .

الثالث: لاستثناء طائفة من اليهود لا تتصف بتلك الصفات الرديئة.

الرابع: لكشف حالهم أمام أتباعهم المنخدعين بهم حيث يرفعون لهم تمسكهم بدينهم مع أنهم يلعبون به بأهوائهم.

وهذا الفهم يجعلنا نحاول خلط الجانب الدعوي بالجانب السياسي في التعامل معهم، بحثهم على فعل الأقوم سبيلاً.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَعْنُهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ﴾ تبصرنا بأنه يجب أن نفصح حقيقة التي وردت في كتابهم، وأن نذكرهم بوقوع العقوبة لهم التي يُبَصِّرُنَا القرآن بها، ونجدها في التوراة، وهذا إن لم يفدهم فهو يفيد الرأي العام الذي يقومون بتضليله؛ إذ إننا هنا نكشف لأتباعهم فساد قيادتهم، وانحرافهم عن التوراة.

عندها ذكر الله لنا عقوبة هؤلاء المتلاعبين لعلنها لهم، فقال: ﴿وَلَكِنْ لَعْنُهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لعنهم الله لأنهم يغطون الحقائق، ويتلاعبون بالحقوق التي للمخلوق وللخالق مع أنهم يزعمون أنهم يؤمنون بالتوراة ولكنهم لا يقيمون كثيراً مما فيها، ويحرفون الكلم عن مواضعه.

ومما ورد في التوراة في سفر حزقيال مما يبين لعن الله لهم:

٣٦: ١٦ هكذا قال السيد الرب: من أجل أنه قد أنفق نحاسك، وانكشفت عورتك بزناك بمحبيك، وبكل أصنام رجاساتك، ولدماء بنيك الذين بذلتهم لها.

٣٧: ١٦ لذلك هأنذا أجمع جميع محبيك الذين لذت لهم، وكل الذين أحببتهم مع كل الذين أبغضتهم، فأجمعهم عليك من حولك، اكشف عورتك لهم؛ لينظروا كل عورتك.

٣٨: ١٦ وَأَحْكُمُ عَلَيْكَ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ الدَّمِ، وَاجْعَلْكَ دَمَ السَّخَطِ وَالْغِيْرَةِ.

٣٩: ١٦ وَأَسْلَمَكَ لِيَدِهِمْ، فَيَهْدُمُونَ قَبْتِكَ، وَيَهْدُمُونَ مَرْتَفَعَاتِكَ، وَيَنْزِعُونَ عَنْكَ ثِيَابَكَ، وَيَأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زَيْتِكَ، وَيَتْرَكُونَكَ عَرِيَانَةً وَعَارِيَةً.

٤٠: ١٦ وَ يَصْعَدُونَ عَلَيْكَ جَمَاعَةً، وَيَرْجُمُونَكَ بِالْحِجَارَةِ، وَيَقْطَعُونَكَ بِسُيُوفِهِمْ.

الأساس الثالث عشر:

يجب إنصافهم، والتواصل مع الصالحين منهم، وحوارهم بالتي هي أحسن، وَيُبَيِّنُ لَنَا بِذَلِكَ قَوْلَ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فهذا توصيف واقعيٍّ معجزٌ يدل على بناء القرآن العقلية المسلمة على الدقة في نقل الأخبار، والإنصاف في توصيف الأحداث والوقائع بما لم يكن معهودًا عند الأمم المعاصرة، فقد ضمت هذه الجملة الكلام عن حالتين من أحوالهم:

الحالة الأولى: من يؤمن منهم الإيمان الحق قليل، وتكون كلمة ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لموصوف محذوف، والتقدير فلا يؤمنون إلا قوماً قليلاً، فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»^(١).

الحالة الثانية: أنهم لا يؤمنون إلا بالقليل مما في التوراة، فتكون كلمة ﴿قَلِيلًا﴾ صفة للإيمان.. فهم يظنون يتشبهون بيهوديتهم لكن على سبيل الادعاء وحب التميز والتعصب، وعلى الرغم من هذه الدعوى فقد يفتخر بعضهم بالإلحاد لكنه يتشبث

(١) أحمد (٢) / ٣٤٦.

باليهودية ابتغاء المتاع الدنيوي الذي يوفره الادعاء العنصري، وهذا من أعجب التلاعب، فيزعمون أن الإلحاد الذي يمارس من قبل بعض اليهود لا يعني أنه يناقض اليهودية؛ لأن النسب يكفل توفير ميزات اليهودية، ثم ليلعب الواحد منهم بدينه كيف شاء.

فالوعي الذي يكونه قول الله جل شأنه: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أن المؤمنين منهم بالكتاب كله قليل، وأن الأكثرين آمنوا ولكن بالقليل من الكتاب مما يوافق أهواءهم ورغباتهم. واعجب إن كنت عاجبًا للإعجاز الإخباري الذي تضمنته هذه الآية، فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا إلا اليهود الذين لا يؤمنون إلا قليلًا، كما أن هذه الآية تبين أن من يدخل منهم في الإيمان بالكتاب كله في غاية القلة حتى لا يطمع أحد في غير مطمع، ونساق وراء الأوهام، بل ذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا فَهُوَ مِنْ تَأْكِيدِ الشَّيْءِ بِمَا يُشَبِّهُ ضِدَّهُ، وَأُطْلِقَ الْقَلَّةُ عَلَى الْعَدَمِ. وَفُسِّرَ بِهِ قَوْلُ تَابَّطَ شَرًّا:

قَلِيلُ التَّشْكِي لِلْمُهِمِّ يُصْبِيهِ كَثِيرُ الْهَوَى شَتَّى النَّوَى وَالْمَسَالِكِ^(١)

ولا أميل لذلك، بل إن الممدوح هنا قليل التشكي وليس معدومًا تشكيه، فالظاهر وجود الإيمان بالكتاب كله فيهم ولكن من قلة منهم لا تكاد تذكر في زخم جموعهم، وكثرة مكرهم، وشدة كفرهم، على أن الإيمان وفق أهوائهم موجود منتشر، فهم من أكثر الشعوب تدينًا، وحسبك اسم إسرائيل عليه السلام علمًا لدولتهم.



الْقِسْمُ الثَّانِي

من أعظم جنایات أهل الضلالة والإضلال في التعدي على
حقوق أنفسهم وعلى سائر البشرية

(النساء: ٤٧-٥٧)

آيات هذا القسم:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ
إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾
أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْبَسْتِ الطَّلْعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ
الْمُلْكِ فَإِذَا لَّا يُوَفُّونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ
ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ
بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ (النساء: ٤٨-٥٧).

المناسبة والاتصال:

بعد أن عرّف الله جل جلاله البشرية بالجنس القيادي الذي يمنع الحقوق
الإنسانية، وجعل أهم أهدافه في الحياة أن يشتري الضلالة ويعمل على إضلال

العالم، فضح هنا بعض جنایاتهم الكبرى التي اقترفتها قياداتهم العلمية والسياسية في حق أنفسهم والعالم، وهذه الجنایات هي:

الجنایة الأولى: حرمان العالم من معرفة الهدى الحقيقي بعدم الإيمان بما أنزل الله من البيانات الإلهية المتأخرة، وهذا يقتضي كفرهم بالبيانات الإلهية المتقدمة كما أن ذلك يعني أنهم يريدون أن يفرضوا على ربهم الإيمان بالطريقة التي يريدونها، وَبَيَّضَرْنَا اللَّهَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَيَّ أَذْبَارَهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ؕ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء: ٤٧):

فالخطاب ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يبصر كدائماً بالتفاعل معهم، والتحاور مع قياداتهم والرأي العام عندهم مهما رأينا عنادهم، وينبغي مناداتهم بأحسن الألفاظ، وهو نسبتهم إلى الكتاب، وهنا ينبغي أن نخاطب المتلاعبين منهم بأنهم يجب أن يؤمنوا بما أنزل الله من البيانات الإلهية المتأخرة؛ لأن ذلك مقتضى الكتب الإلهية المتقدمة، وإن لم يفعلوا فعليهم مواجهة التهديد الإلهي.. لقد عاد إلى مخاطبة الذين أوتوا الكتاب على العموم ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وربما تساءلت: لماذا خاطبهم بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ مع أنه وصفهم سابقاً بأنه أوتوا نصيباً؟

هنا تلمح أمرين في البيان القرآني:

أما الأول فيتيم على القول بأن الآية الرابعة والأربعين كلام عام في أهل الكتابين ثم خصص في السادسة والأربعين اليهود بالذكر ثم عاد ليكلّمهم على العموم وليس القيادات فقال لهم: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي آمنوا بالقرآن المجيد وما نزل على النبي ﷺ من السنة المطهرة؛ فالإيمان بالتوراة

يقتضي الإيمان بالقرآن، ولماذا لم يقل آمنوا بالقرآن مباشرة؟ لعل ذلك لأنه أراد أن يذكر القرآن بالخاصية المشتركة له مع الكتب الإلهية وهي النزول أي المصدرية الإلهية ليضمن هذا الوصف البرهان على ضرورة أن يؤمنوا بالقرآن إن كانوا حقاً يؤمنون بالتوراة، وليعم الإيمان للقرآن والسنة المقبولة.

وأما الثاني فيتم على القول بأن الخطاب هنا لليهود كما كان الكلام عنهم في الآية السابقة إلا أنه لما قال عنهم في الآية الرابعة والأربعين: ﴿أَوْتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أراد أن يوبخهم على ما أضاعوا وحرّفوا، فناسبه أن يهون من شأن علمهم بما أوتوه من الكتاب، بينما هنا أراد أن يلزمهم بمقتضى ما حفظوا وعرفوا، ولأن المقصود بالخطاب في المقام الأول أحبار بني إسرائيل، فناسبه أن يرغبهم بأنهم شرفوا بإيتاء التوراة لثبوتهم للقيام بمقتضيات ذلك فيؤمنوا، ولو آمن فريق معتبر من القيادات لآمن اليهود جميعاً، فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»^(١).

العقوبة التهديدية المرعبة:

يهدد الله كل من عرف الحقيقة أو قارب أن يعرفها من أهل الكتاب إن لم يؤمنوا بما أنزل الله مصداقاً لما معهم أصابهم بالعقوبات، وأشار إلى حوادث بعينها يعرفونها كقصة أصحاب السبت ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء: ٤٧):

وهذه عقوبة مرعبة تزلزل الأقدام، وتقشعر منها الجلود، وترجف منها القلوب، وترتعد منها الأنفس الصادقة، وهي ليست عقوبة خاصة بأهل الكتاب بل تشمل كل

(١) أحمد (٢ / ٣٤٦).

من يسمعها ممن يتعالى على الإيمان ومقتضياته جزئياً أو كلياً حيث سيحدث له الطمس الحسي أو المعنوي.. أفلا يحذر من تباطئه عن إجابة نداء ربه؟ وما للمتسيبين إلى أمة الإسلام يقتربون الإجرام الذي يناقض إيمانهم وهم يمرون على هذا التهديد الرهيب ثم لا يخافون أن يصيبهم؟

فمعنى نطمس: نمحوها فنسويها، فلا يرى فيها عين ولا أنف ولا فم ولا شيء مما يرى في الوجه، والطمس إزالة الأثر بمحوه، أو خفائه كما تطمس آثار الدار، وأعلام الطرق بنقل حجارتيها أو بالرمال تسفوها الرياح عليها، ومنه: ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ (يونس: ٨٨)، أي: أزلها وأهلكها، والطمس على الأعين في قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ (يس: ٦٦)، يصدق بإزالة نورها وبغورها ومحو حدقتها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ (القمر: ٣٧)، والمطموس العين: الذي ليس بين جفنيه شق، ويقال: طمست الكتاب والأثر فلا يرى منه شيء.

والأدبار: جمع دبر، وهو الخلف والقفأ، وقوله: ﴿فَرَدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ ﴿إِذَا أَنْزَلْنَاهَا فَيَسْفَفُهَا فَلَيُلَاحِظُنَّ أَصْغَارَ مَا يُؤْتِيهَا﴾ (الأنعام: ٦) يراد به انقلاب ما في الوجه ليكون في الخلف، وإما أن يراد أن تفر أصحاب هذه الوجوه فرجاً وهلعاً، فترجع إلى الضلالة التي فرت منها ابتداءً، ومن الارتداد على الأدبار أن يقصد المرء الهدى المشرق المبين، ثم يهرب فرجاً منه جزعاً من رؤيته حاقداً عليه، وهو الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ (محمد: ٢٥).

هل هذه العقوبة معنوية أم حسية؟

فبعض أهل العلم جعل الطمس معنوياً، والمعنى: آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ مَقاصِدِكُمْ الَّتِي تَوَجَّهْتُمْ إِلَيْهَا فِي كَيْدِ الْإِسْلَامِ، وَنَرُدَّهَا

خَاسِئَةً حَاسِرَةً إِلَى الْوَرَاءِ يَظْهَرُ الْإِسْلَامَ وَنَصْرِهِ عَلَيْكُمْ وَفَضِيحَتَكُمْ فِيمَا تَأْتُونَهُ بِأَسْمِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ.

وبعضهم جعله حسياً لكنه معنى مجازي، والمقصود به الجلاء، فرجعوا من حيث جاءوا إلى بلاد الشام كما حدث لبني النضير وقريظة، فنقل عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: هَذَا الْوَعِيدُ قَدْ لَحِقَ الْيَهُودَ وَمَضَى، وَتَأَوَّلَ ذَلِكَ فِي إِجْلَاءِ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ إِلَى الشَّامِ، فَردَّ اللَّهُ وُجُوهَهُمْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ حِينَ عَادُوا إِلَى أَذْرِعَاتٍ وَأَرِيحَاءَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، كَمَا جَاءُوا مِنْهَا بَدْءًا، وَطَمَسَ الْوُجُوهَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: تَقْيِيحُ صُورَتِهِمْ يُقَالُ: طَمَسَ اللَّهُ صُورَتَهُ كَقَوْلِهِ: قَبَّحَ اللَّهُ وَجْهَهُ، وَالثَّانِي: إِزَالَةُ آثَارِهِمْ عَنْ بِلَادِ الْعَرَبِ وَمَحْوُ أَحْوَالِهِمْ عَنْهَا.

وبعضهم جعل اللفظ حقيقياً، وأبقى التهديد قائماً، وقد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة، والعقوبة الحسية هي الأصل؛ فإن الطمس المعنوي واقع عليهم من خلال أفعالهم المجرمة، وتحركاتهم الآثمة، وقلوبهم القاسية المظلمة.

والجمع بين دعوة أهل الكتاب إلى اتباع الحق البين وبين تذكيرهم بالتهديد الإلهي الذي يحذرهم من العقوبة الأخروية له أثرٌ حقيقيٌّ على من كان عنده بقية تقوى منهم، وقد حدث ذلك لكعب بن ماتع الحميري حيث أقبل وهو يريد بيت المقدس، فمرَّ على المدينة، فخرج إليه عمر فقال: يا كعب، أسلم! قال: أَلَسْتُ تَقْرَأُونَ فِي كِتَابِكُمْ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٥) ؟ وأنا قد حملت التوراة! قال: فتركه. ثم خرج حتى انتهى إلى حمص، قال: فسمع رجلاً من أهلها حزيناً وهو يقول: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا

أَصْحَبَ السَّبْتِ^١ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿ (النساء: ٤٧). فقال كعب: يا رب آمنت، يا رب أسلمت! مخافة أن تصيبه الآية، ثم رجع فأثنى أهله باليمن، ثم جاء بهم مسلمين^(١). وهذا يجعلنا نؤكد على الحقيقة العظيمة وهي أن يكون الخطاب الدعوي جزءاً من الخطاب السياسي في تعاملنا العالمي وخاصة مع أهل الكتاب.

الجنانية الثانية: عدم إعلام الرأي العام العالمي بخطورة الوقوع في الشرك مع أنه يمثل الخيانة العظمى، والظلم الأكبر، بل يسهمون في تزيينه للعالم للأسف. وَيُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨)، فتدرج الأمر عندهم من إنكار نبوة النبي الخاتم إلى التواطؤ على عدم إعلام البشرية بأهم المخاطر التي تقابلها، وهو الوقوع في الشرك الأكبر.

انظر لخطورة الشرك الذي تبينه هذه الآية.. بلغ من خطورته وشؤمه وظلمه أن الرحمن الرحيم الذي رحمته وسعت كل شيء لا يغفر للمشرك.. فكيف ترى الجرم الذي يقتطفه من لم يخبر البشرية بهذه الحقيقة العظيمة؟! وهذه الآية من الآيات الحاكمة للفهم الإسلامي، وهي من المحكمات العظيمة التي نرجع إليها في كثير من المتشابهات.

فالسباق القبلي والبعدي يربط موضوع الشرك بأهل الكتاب؛ فإن لم يكونوا مشركين فقد حرموا العالم من حقه في معرفة الذنب الذي لا يغفره الله الرحمن الرحيم تعالى جده، وهو الشرك، ويترتب عليه أعظم مصير مستقبلي في حياة الإنسان، والشرك جريمة خطيرة تعني الانقطاع التام بين الله وعباده، فلا يبقى لهم أمل في مغفرة

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٤٦).

إن ماتوا وهم كذلك، ولخطورته ترى أن الله أظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ لزيادة تقبيح الإشراف وتفطيع حال من يتصف به ^(١)، فكيف لا يحذر المسلمون من خطورة الشرك؟ وكيف لا يحذر منه أهل الكتاب، والوصية الأولى من الوصايا العشر العظيمة هي: ألا يشركوا بالله شيئاً؟! ففي سفر الخروج ٢٠:

١ ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلاً: ٢ أنا الرب إلهك، الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ٣ لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ٤ لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض ٥ لا تسجد لهن، ولا تعبدهن؛ لأنني أنا الرب إلهك إله غيور. ويدخل في هذه الجناية إخفاء صور خطيرة من الشرك نتيجة للتشويش العالمي، والتحريف الفكري والنصي، مثل:

الصورة الأولى: شرك الإنكار لوجود إله فيتخذ المرء نفسه إلهاً بديلاً، وهو أقبح أنواع الشرك ^(٢):

إنه جحود الإله، وقد يقال له: شرك التعطيل، ويطلق عليه الآن: الإلحاد، يا لهذا الغباء المركب، والجهل المجتمع عندما يجحد المرء وجود إله خلقه.. فاستفهم: من أين جاءوا؟ إنهم عندما يجحدون ربهم فإنهم يجحدون وجود أنفسهم.. ولذا فإن الملحد إن أنكر خالقه اتخذ نفسه إلهاً، وقد حاول فرعون إنكار وجود الله فتساءل: ﴿وَمَارِبُ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣)؟ ثم تملص من نتيجة الحوار، فأعلن الإعلان الذي أحله البوار، وقال: ﴿يَنْهَمْنُ ابْنِي صَرْمًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ ^(٣) أسبب

(١) تفسير أبي السعود (٢/ ١٨٧).

(٢) تفسير القاسمي (٣/ ١٥٣).

السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴿٣٦﴾ (غافر: ٣٦ - ٣٧)، فهو يوهم العالم أنه لا يمكن وجود إله للكون إلا إذا رآه فرعون، فما حجم فرعون ليستحق أن يطلع إلى إله السموات والأرض؟ وبعد ذلك أكمل مغالطاته أمام الناس فأصدر لهم مرسومًا قال فيه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤)، ثم زاد في صلفه فنفى وجود أي إله سواه، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: ٣٨)، وبهذه المغالطة أنكر وجود رب العالمين.. ماله.. ماله؟ كيف ينكر وجود صانعه؟ فما رأيكم بمن ينكر وجود نفسه؟ ذلك ما يعنيه تمامًا من ينكر وجود صانعه؟.

والمأساة هنا أن بعضًا من أهل الكتب الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن) لا يوجد عندهم أدنى تفاعل في تعليم الناس خطورة هذا النوع من الشرك بينما يشنون حربًا إعلامية ضروسًا ذات هوسٍ مقززٍ على من يحذر من هذا الشرك، وحرّموا العالم من معرفة خطورة هذا النوع من الشرك.

وأما الصورة الثانية: شرك المساواة الذي يتم بعبادة غير الله، أو عبادة غير الله مع الله:

كمن زعم أن المسيح هو الله، أو أن الله ثالث ثلاثة، أو عبد الحجر أو الشجر أو البقر مع الله أو من دونه.. فإذا مارس ذلك من يظهر منهم التفوق الديني الحضاري صار فتنة؛ إذ يتم الربط بين دينه الخرافي وبين تفوقه الديني مع أن التفوق الديني يتعلق بمدى وجود العدل الاجتماعي والأخذ بالأسباب البشرية في العمل والإنتاج.

وترى الذين أوتوا الكتاب عندما كفروا بالنبى ﷺ وما أنزل عليه أسهموا إسهامًا فعالًا في حرمان العالمين من حقهم في معرفة حقيقة نبوة النبى الأمين ﷺ، وهم بذلك حرموهم من أحق حقوقهم في الدنيا، وهو معرفتهم بالله التي لا يمكن أن تتحقق كما ينبغي إلا بذكر وحدانيته وعدم الشرك به سبحانه..

إن عدم تصور مقدار بشاعة هذه الجريمة جرّأهم على دعم الذين يفسدون في الأرض، وإمدادهم بالسلاح وتنسيقهم المخابراتي مع الأنظمة التي تقتل المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال.. انظر إلى العالم الحائر من الشرق إلى الغرب.. من الدول المتقدمة تكنولوجياً إلى الدول الفقيرة.. من الدول الكافرة إلى المسلمة.. انظر إليهم جميعاً كيف يتبعون الكتابيين.. فيالجناية الكبراء المتبوعين على الأتباع الحائرين الضالين، ويالجناية المسلمين عندما يصرون على التبعية السياسية والثقافية لهم ولا يظهرون هذا الحق المبين. ولذا أكد الله على أنه لا يغفر لمن يشرك به حتى لا يقولوا مع ارتكابهم لهذه الجناية العظيمة: سيغفر لنا، فيبين الله لهم ولنا وللعالمين أن من انتهك الحدود حتى وصل إلى الشرك فقد وصل إلى منطقة لا يمكن له أن يجد معها الغفران، وصحح هذه النظرة العنصرية المقيتة عندهم، وعند من يحذو حذوهم من هذه الأمة.

وأما الصورة الثالثة: شرك التشريع:

بتحويل الدين ليكون تابعاً للأهواء والرغبات الشخصية، فيؤخذ منه ما يوافق الشهوة وي طرح غير ذلك، أو يتم إعطاء حق التشريع المطلق للأفراد والمجالس بعيداً عن الثوابت الشرعية الحاكمة للتفصيلات التشريعية، وهذا الذي يجعل المشرع البشري إلهاً من دون الله.. ألا ترى كيف صار بعض أهل الكتاب ولحقهم بعض المسلمين يمارسون هذا النوع المقزز صراحةً ويتباهون به حتى أفضى بهم الأمر إلى أن يقننوا القوانين التي تمنع العدل وتنصر الظالم في المجالس الدولية من خلال ما يسمى بحق الفيتو؟.. وهذا الذي ذكره النبي ﷺ لواحد من أهل الكتاب هو عدي بن حاتم رضي الله عنه، ويحكي عدي ذلك، فيقول: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «يا عدي اطرَحْ عنك هذا الوثن» وسمعتَه يقرأ في سورة براءة ﴿أَتُخَذُوا

أَحْبَارُهُمْ وَرُهْبَانُهُمْ أَزْكَاءَ مَنْ دُونِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ قَالَ: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»^(١).

وحذر النبي ﷺ من كل صور الشرك الظاهرة والخفية حتى روى معقل بن يسار يقول: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: «يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من ديب النمل» فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله الهاً آخر؟ قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده للشرك أخفى من ديب النمل. ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم»^(٢)، فالرياء مثلاً شرك أصغر، فكما أنه إله واحد، لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

وذكر أبو البقاء أن أنواع الشرك تتمثل في:

شرك الاستقلال: وَهُوَ إِثْبَاتُ إِلَهَيْنِ مُسْتَقِلَيْنِ كَشْرِكِ الْمَجُوسِ، وشرك التبعية: وَهُوَ تَرْكِيبُ الْإِلَهِ مِنْ آلِهَةٍ كَشْرِكِ بَعْضِ النَّصَارَى. وشرك التقريب: وَهُوَ عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ لِيَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، كَشْرِكِ مُتَقَدِّمِي الْجَاهِلِيَّةِ. وشرك التقليد: وَهُوَ عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ تَبَعًا لِلْغَيْرِ، كَشْرِكِ مُتَأَخِّرِي الْجَاهِلِيَّةِ. وشرك الأسباب: وَهُوَ إِسْنَادُ التَّأثيرِ لِلْأَسبابِ الْعَادِيَةِ، كَشْرِكِ الْفلاسفة والطبائعيين وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. وشرك الأغراض: وَهُوَ الْعَمَلُ لِغَيْرِ اللَّهِ.

(١) سنن الترمذي (٥ / ٢٧٨).

(٢) الأدب المفرد بأحكام الألباني (١ / ٢٥٠)، وصححه الألباني

فَحَكَمَ الْأَرْبَعَةَ الْأُولَى الْكَفْرَ بِإِجْمَاعٍ، وَحَكَمَ السَّادِسَ الْمَعْصِيَةَ مِنْ غَيْرِ كَفَرٍ بِإِجْمَاعٍ، وَحَكَمَ الْخَامِسَ التَّفْصِيلَ، فَمَنْ قَالَ فِي الْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ إِنَّهَا تُؤْثِرُ بِطَبْعِهَا فَقَدْ حُكِيَ الْإِجْمَاعُ عَلَى كَفَرِهِ^(١).

وفعل الغافلين من أهل الكتب الثلاثة في عدم التحذير من الشرك، يأتي عكسه في فعل النبي ﷺ، فقد بذل كل وسع في التحذير من الشرك؛ حتى قال ﷺ: «إن من شرار الناس من تدرَكهم الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد»^(٢)، وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٣)، حتى ورد عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «أتني بأسيرٍ، فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبي ﷺ: «عرف الحق لأهله»^(٤).

الجنابة الثالثة: التسبب في إيقاع البشرية في الافتراء العظيم، ويُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ أَفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

لماذا لا يغفر الله الشرك؟

لأن الشرك لا يمكن تصوُّره من إنسان سوي التفكير، فالمشرك مفترٍ افتراء عظيمًا، أي: اخترعَ ذَنْبًا مُفْسِدًا، عَظِيمَ الْفُحْشِ وَالضَّرَرِ، سَيِّئَ الْمَبْدَأِ وَالْآثَرِ، ويمثل الشرك أبشع أنواع الظلم، وأخط الدركات التي يتسفل الإنسان في الوصول إليها مع الوضوح التام لعدم منطقيتها، فالشرك هو أسوأ ما تهبط إليه النفوس من حضيض

(١) الكليات (ص ٥٣٣).

(٢) أحمد (١ / ٤٠٥) وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٣) أحمد (٢ / ٢٤٦)، وقال الأرنؤوط: إسناده قوي.

(٤) أحمد (٣ / ٤٣٥) وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف لانقطاعه الحسن: وهو البصري لم يسمع من الأسود بن سريع.

الإجرام والفساد، وقد ينبثق عن الشرك جميع الرذائل والخسائس التي تُفسد النفس البشرية وتدمرها.. أتريد دليلاً على ذلك: التفت حوايك.. انظر كم جنت المؤسسات العنصرية الدولية والمحلية من شقاء على البشرية في جميع المجالات، ودعك مما يتم به الضحك على الوجوه من خير يسير يحاولون به أن يخفوا الصورة القاتمة السوداء لحكمهم العالمي المعاصر.

والوقوع في الافتراء العظيم يعني حرمان البشرية من رَحْمَةِ اللَّهِ؛ إذ تبصرنا الآية بسعة رحمة الله التي يجد أكبر المجرمين فيها الأمل لبيدوا حياة جديدة، ويحاولوا تغيير سلوكهم:

وقد بين النبي ﷺ بشاعة ظلم الشرك فقال: «الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه الله، فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وقال الله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضاً حتي يدين لبعضهم من بعض»^(١).

وهذه الآية من الآيات الحاكمة للفهم الإسلامي.

هذه الآية في تركيبها من أعظم الآيات التي تضع القواعد الحاكمة في الفهم الإسلامي، ولذا ابتدأت بِمُحْكَمٍ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، فهي دالة بالنص الصريح الذي لا تختلف فيه الأفهام أن المشرك لا يتجاوز عنه في الآخرة، ثم جاءت الجملة الثانية ﴿وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وهذه الجملة قَالَ فِيهَا الْقُرْطُبِيُّ: «مِنْ الْمُشَابِهِ الَّذِي قَدْ تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ»^(٢)، وذلك لأن ظاهرها يَقْتَضِي أَمْوَرًا مُشْكَلَةً:

(١) مسند البزار ١٨ (١٣ / ١١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٩٢٧.

(٢) تفسير القرطبي (٥ / ٢٤٥).

الأول: أَنَّ يَفْتَضِي أَنَّ اللَّهَ قَدْ يَغْفِرُ الْكُفْرَ الَّذِي لَيْسَ بِشِرْكٍ^(١).

الثاني: أَنَّهُ يَغْفِرُ لِمُرْتَكِبِ الذُّنُوبِ وَلَوْ لَمْ يَتُبْ.

الثالث: أَنَّهُ قَدْ لَا يَغْفِرُ لِلْكَافِرِ بَعْدَ إِيمَانِهِ وَلِلْمُذْنِبِ بَعْدَ تَوْبَتِهِ، لِأَنَّهُ وَكَّلَ الْغُفْرَانَ إِلَى الْمَشِيئَةِ، وَهِيَ تَلَاقِي الْوُقُوعَ وَالْإِنْتِفَاءَ^(٢)

ولكن هذا التشابه يزول برد هذه الجملة إلى المحكمات، ولذا قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: «وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْحَاكِمَةُ بَيَانِ مَا تَعَارَضَ مِنْ آيَاتِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ»^(٣)، وَتَلْخِيصُ الْكَلَامِ فِيهَا أَنْ يُقَالَ:

النَّاسُ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ: كَافِرٌ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، فَهَذَا مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ بِإِجْمَاعٍ، وَمُؤْمِنٌ مُحْسِنٌ لَمْ يُذْنِبْ قَطُّ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ مَحْتَوْماً عَلَيْهِ حَسَبَ الْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ بِإِجْمَاعٍ، وَتَائِبٌ مَاتَ عَلَى تَوْبَتِهِ فَهَذَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَجْهُهُورِ فَقَهَاءِ الْأُمَّةِ لَاحِقٌ بِالْمُؤْمِنِ الْمُحْسِنِ، وَمُذْنِبٌ مَاتَ قَبْلَ تَوْبَتِهِ فَهَذَا هُوَ مَوْضِعُ الْخِلَافِ^(٤)، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ يَبْطُلُ رَأْيُ الْمُعْتَرِلَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَمَنْ يَشَاءُ﴾ يَرُدُّ عَلَى الْمُرْجِنَةِ.

وبناء على تحديد ما يدخل في الشرك ينبغي للإنسان التورع عن إطلاق التكفير بغير حق، فأول من أحدث التكفير الخوارج الذين خرجوا على عثمان ثم على علي عليه السلام، ثم صاروا يقتلون المسلمين بأسماء مختلفة، وقد قرر الغزالي في (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) أن الكفر هو تكذيب الرسول ﷺ في شيء مما جاء به.

(١) التحرير والتنوير (٥ / ٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٥ / ٨١).

(٣) المحرر الوجيز ٦٤ / ٢.

(٤) التحرير والتنوير (٥ / ٨١).

والإيمان تصديقه في جميع ما جاء به ^(١).

فدخل ضمن الجملة الثانية كل الذنوب حتى أكابرها، فعن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب النبي ﷺ لا نَشْكُ في قاتل النفس، وأكل مال اليتيم، وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، فأمسكنا عن الشهادة ^(٢)، وعنه قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨) قال: «إني ادخرت دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي»، قال: فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا ثم نطقنا بعد ورجونا ^(٣).

وهذا لا يعني التساهل في كبائر الجرائم. فانظر لجمال التعبير بالمضارع ﴿لا يغفر﴾، ﴿ويغفر﴾ ففي التعبير به - كما يقول البقاعي -: «استكفاف مع استعطاف، واستجلاب في استرهاب» ^(٤).

وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليها، ما لم تكن كبيرته شرًا بالله، ونقل بعض المفسرين أن بعض المشركين كان لا يَمْنَعُهُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ (الفرقان: ٦٨) فَقَالُوا: قَدْ ازْتَكَبْنَا كُلَّ مَا فِي الْآيَةِ، فَتَزَلَّ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ (الفرقان: ٧٠) فَقَالُوا: هَذَا شَرْطٌ شَدِيدٌ نَخَافُ أَنْ لَا نَقُومَ بِهِ، فَتَزَلَّ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فَقَالُوا:

(١) تفسير القاسمي (٣/ ١٦٩).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٥٠).

(٣) مسند أبي يعلى (١٠ / ١٨٥)، وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٣٦٥): «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير حرب بن سريج وهو ثقة».

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٢٩٨).

نَخَافُ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْ أَهْلِ مَشِيتِهِ، فنزل ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ (الزمر: ٥٣) فَدَخَلُوا عِنْدَ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ.

وجاء نحو ذلك عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ وَحْشِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ جِئْتُكَ مُسْتَجِيرًا بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ أَرَكَ عَلَى غَيْرِ جَوَارٍ، فَأَمَّا إِذَا كُنْتُ مُسْتَجِيرًا فَأَنْتَ فِي جَوَارِي حَتَّى تَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى»، قَالَ: فَإِنِّي أَشْرَكَتُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَقَتَلْتُ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، فَهَلْ تُقْبَلُ مِنْ مِثْلِي تَوْبَةٌ؟، فَصَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يُجِبْهُ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الفرقان: ٦٨) إِلَى قَوْلِهِ ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠) الْآيَةَ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَى شَرْطًا، فَلَعَلِّي لَا أَعْمَلُ صَالِحًا، أَنَا فِي جَوَارِكَ حَتَّى أَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ، فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨) فَدَعَاهُ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ وَحْشِيٌّ: فَلَعَلِّي مِمَّنْ لَا يَشَاءُ اللَّهُ، أَنَا فِي جَوَارِكَ حَتَّى أَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٣) الْآيَةَ قَالَ وَحْشِيٌّ: الْآنَ لَا أَرَى شَرْطًا، فَتَشَهَّدَ وَأَسْلَمَ^(١)، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}. قَالَ: «أَنَا أَهْلُ أَنْ أَتَقَى فَلَا يُشْرِكُ بِي غَيْرِي وَأَنَا أَهْلُ لِمَنْ اتَّقَى أَنْ لَا يُشْرِكَ بِي غَيْرِي أَنْ أَغْفَرَ لَهُ»^(٢)، وَعَنْ خَالِدِ بْنِ دَهْقَانَ قَالَ: كُنَّا فِي غَزْوَةِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ بِذَلْقِيَّةِ (اسم مدينة بالروم) فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَخِيَارِهِمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ لَهُ يَقَالُ لَهُ هَانِيءٌ بَنُ كَلْثُومٍ بَنُ شَرِيكِ الْكِنَانِيِّ فَسَلَّمَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زَكْرِيَّا وَكَانَ يَعْرِفُ لَهُ حَقَّهُ، قَالَ لَنَا خَالِدُ:

(١) شعب الإيمان (٩ / ٣٤٢).

(٢) مسند أبي يعلى ٦/٦٦، السنة لابن أبي عاصم ومعها ظلال الجنة للألباني (٢ / ٤٦٩)، وحسنه الألباني لغيره.

فحدثنا عبد الله بن أبي زكريا قال سمعت أم الدرداء تقول سمعت أبا الدرداء يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً أو مؤمناً قتل مؤمناً متعمداً» فقال هانئ بن كلثوم سمعت محمود بن الربيع يحدث عن عبادة بن الصامت أنه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قتل مؤمناً فاعتبط - يريد أنه قتله ظلماً - بقتله لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»، قال لنا خالد ثم حدثني ابن أبي زكريا عن أم الدرداء عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزال المؤمن مُعْنَقاً - يريد خفيف الظهر يعنق في مشيه سير المخف - صالحاً ما لم يصب دمًا حرامًا فإذا أصاب دمًا حرامًا بلّح - معناه أعيأ وانقطع -»^(١).

وعن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة^(٢)، وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، قال: قال الله عز وجل: مَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ عَفَرْتُ لَهُ، وَلَا أُبَالِي مَا لَمْ يُشْرِكْ بِي شَيْئاً^(٣).

وبموجب هذا المعنى الظاهر للآية قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٤)، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مجادلة أحدكم في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار.

(١) أبو داود (٤ / ١٦٧)، وصححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي (٥ / ٥٤٨)، وصححه الألباني.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٩ / ٤٤٠).

(٤) سنن الترمذي (٥ / ٥٤٨)، قال هذا حديث حسن غريب.

يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويحجون معنا فأدخلتهم النار، فيقول: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم. فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجونهم، فيقولون: ربنا قد أخرجنا من أمرتنا. قال: ويقول: أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان. ثم قال: من كان في قلبه وزن نصف دينار، حتى يقول من كان في قلبه وزن ذرة» قال: أبو سعيد فمن لم يصدق فليقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨) ^(١)، وعن ضمضم بن جوس اليمامي قال: قال لي أبو هريرة رضي الله عنه: يا يمامي! لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة أبداً. قلت: يا أبا هريرة! إن هذه لكلمة يقولها أحدنا لأخيه، وصاحبه إذا غضب. قال: فلا تقلها؛ فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «كان في بنى إسرائيل رجلان: كان أحدهما مجتهداً في العبادة، وكان الآخر مسرفاً على نفسه. فكانا متآخيين، فكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول: يا هذا أقصر. فيقول: خلني وربّي أبعث علي رقيباً؟ قال: إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه. فقال له: ويحك أقصر. قال: خلني وربّي. أبعث علي رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة أبداً. فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما، واجتمعا. فقال للمذنب: اذهب، فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: أكنت بي عالماً؟ أكنت على ما في يدي خازناً؟ اذهبوا به إلى النار. قال: فوالذي نفس أبي القاسم بيده لتكلم بالكلمة أوبقت دنياه وآخرته» ^(٢).

(١) سنن النسائي (٨ / ١١٢).

(٢) أحمد (٢ / ٣٢٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن ومتنه غريب، وعند البزار (١٦ / ٢٤٤): قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»، فيحتمل أن يكون الحالف النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ورواه أبو هريرة أحياناً من قوله.

الجنانية الرابعة: قلب الحقائق بالتزكية المطلقة لأنفسهم، واستخدام الإعلام المحلي والعالمي لإثبات ذلك . وَبَيَّضَرْنَا بِذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

وكلمة يزكي معناها هنا: يُظْهِرُ نفسه خالصًا من الرذائل، مملوءًا بالفضائل، والتزكية هنا ليس المراد طلب إيجاد زكاة النفس؛ إذ هذا معنى مطلوب، فقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيَّهَا وَمَوْلَاهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»^(١).

وإذا كانت تزكية النفس مطلوبة، فما المراد بالتزكية المنهي عنها هنا؟

المراد بها هنا نسبة كل خيرٍ وفضلٍ للنفس.. يراد أن يزعم صاحبها أنه قد طُهرت حياته من الرذائل، ومُلئ بالفضائل..

فتجد الله تعالى ذكره يُعَجِّبُ عباده من حالهم بكلمة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كأنه يقول: انظر إلى هؤلاء الناس الذين يكثرون الدعاوى العريضة والافتراءات، فيدَّعون أنهم هم أصحاب الحق والاعتدال والعدل ورسُل الرحمة وأساس الاستقامة في العالم، وينسبون لأنفسهم كل خير، ويعطون لأنفسهم حق توزيع الألقاب وتزكية الفئات، والله سبحانه يبين جنانية هؤلاء المدعين على العالم ويفضحهم.. فالآية تتكلم عمن زعم أنه زكي النفس.. فمن يدخل فيها -أيديك الله-؟

يدخل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى

(١) صحيح مسلم (٨ / ٨١) برقم ٧٠٨١.

والزلفى عند الله ^(١)، وأولهم من جاء ذكرهم في السياق، وهم المنحرفون من الذين أوتوا الكتاب، فإن بعض اليهود كانوا يقولون: «إنا نعلم أبناءنا التوراة صغاراً، فلا تكون لهم ذنوب، وذنوبنا مثل ذنوب آبائنا، ما عملنا بالنهار كُفّر عنا بالليل» ^(٢)، ومن تركيتهم لأنفسهم أنهم يقولون مبينين محدودية الضرر الذي سيصيبهم مع عظم الجرائم التي يمارسونها: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النُّكَارُ إِلَّا أَنْيَامًا مَّعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠)، ويقولون: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ (البقرة: ١١١)، ويزكون أنفسهم بما لم يعملوه من الأعمال الصالحة ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ (آل عمران: ١٨٨).

ويدخل فيها ثانياً: كل من كان مثلهم، وادعى دعواهم.. أفنتحسب أن المسلمين في منأى عن سبيلهم في النتائج إذا اتبعوا حذوهم في المقدمات؟ كيف يركي بعض المسلمين أنفسهم بأنهم من خير أمة أخرجت للناس بينما هم يعدون عن مناهجهم أحسن حديث أنزل للناس؟ كيف يزعمون انتسابهم لخير الأنبياء، ومحبتهم له، وهم يحاربون منهجه في حياتهم؟ كيف يزعمون الدعوة إلى الإسلام وهم أسوأ دعاية منفرة عنه؟

فهذه صفة تَعُمُّ أهل الكتب الثلاثة، فتجد الله تعالى ذكره يُعَجِّبُ عباده من حالهم بكلمة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كأنه يقول: انظر إلى هؤلاء الناس الذين يكثرون الدعاوى العريضة والافتراءات، فيدّعون أنهم أصحاب الحق والاعتدال والعدل ورسول الرحمة وأساس الاستقامة في العالم، وينسبون لأنفسهم كل خير، ويعطون لأنفسهم حق توزيع الألقاب وتركية الفئات، والله سبحانه يبين جناية هؤلاء المدعين على العالم

(١) الكشف للزمخشري (١/ ٥٥٢).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٥٣).

ويفضحهم فهؤلاء كما وصفوا في الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي بسند فيه ضعف، ورواه الدارمي بسند صحيح موقوفاً على معاذ بن جبل قال: (سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب أعمالهم طمع لا يخالطه خوف إن قصرُوا قالوا: سنبلع وإن أساءوا قالوا: سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً)، وكذا رواه بسند صحيح موقوفاً على كعب قال: (إني لأجد نعت قوم يتعلمون بغير العمل ويتفقهون لغير العبادة ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون جلود الضأن وقلوبهم أمر من الصبر فبي يغترون أو إياي يخادعون فحلفت بي لأتحن لهم فتنة تترك الحليم فيها حيراناً).

ومن هنا يستبين لك المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؛ فإن بعض من يشرك بالله يزكي نفسه، ويظن أنه بذلك سيد المهتدين، فجاءت هذه الآية تفصل حاله، وتفضح خياله، ولكنها صيغت على هيئة الاستقلال ليدخل فيها كل مزكٍ نفسه بغير حق، فدخل فيها الذين يصمون الآذان، ويملؤون سطور الصحف بمدح أنفسهم من المسلمين أيضاً، وقد جاء التحذير من المدح في غير مكانه لأنه يتضمن تركية للذات أو للآخرين بغير حق، ويحذرنا ابن مسعود من وقوع المسلمين في هذا الفخ الشيطاني، فعن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله بن مسعود: إن الرجل ليغدو بدينه، ثم يرجع وما معه منه شيء! يلقي الرجل ليس يملك له نفعاً ولا ضرراً، فيقول: «والله إنك لذيت وذيت»، ولعله أن يرجع ولم يحل من حاجته بشيء، وقد أسخط الله عليه. ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾^(١)، وعن أبي موسى، رضي الله عنه، قَالَ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي مَدْحِهِ فَقَالَ: أَهْلَكْتُمْ، أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهَرَ الرَّجُلِ^(٢)، وعن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه، قَالَ: أَتْنِي رَجُلٌ عَلَى

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٥٥).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٣١)

رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: وَيْلَكَ قَطَعْتَ عَنْقَ صَاحِبِكَ قَطَعْتَ عَنْقَ صَاحِبِكَ مِرَارًا ثُمَّ قَالَ: - مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ ^(١).

وَعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ فَعَمِدَ الْمِقْدَادُ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ - وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا - فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ» ^(٢).

وروى أحمد عن عمر بن الخطاب: من قال: أنا مؤمن فهو كافر. ومن قال: هو عالم، فهو جاهل. ومن قال: هو في الجنة فهو في النار. ورواه ابن مردويه عنه أنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه، فمن قال إنه مؤمن فهو كافر، ومن قال هو عالم فهو جاهل، ومن قال هو في الجنة فهو في النار.

وربما تسأل هنا: لماذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ولم يقل: ألم تر إلى اليهود أو إلى أهل الكتاب الذين يزكون أنفسهم؟

والجواب: واضح لأن الله يربي المسلمين على اتقاء ما وقع فيه غيرهم من الإجرام والفجور، فيدخل في سنة التزكية كل من زكى نفسه، ولو انتسب إلى الإسلام، فسنة التزكية جارية على المسلمين كما جرت على غيرهم، وفي ذلك تأنيب شديد للمسلمين؛ إذ حتام ييقون في زعمهم أنهم المسلمون، وهم لا يقيمون الدين كما شرعه الله.. إن تزكية النفس لا تغني من الحق شيئاً سواء أكانت صادرة من أهل الكتاب أم من المسلمين؟ وكم ترى من يسمى نفسه أهل الحق، أو أهل العدل، أو

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٣١)

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٢٢٨).

ناصر المستضعفين، أو معز أهل الدين، أو القائم على ولاية أهل البيت، أو الحامي لحاكمية الشريعة وهو أضل الضالين، وأشد الخلق قسوة بين العالمين.

الجنابة الخامسة: منع الرد على المتلاعبين بالحقائق، فالآية تبصرنا بضرورة الرد عليهم لحمايتهم والبشرية من غفلتهم..

ألا ترى أن هذا يجعلنا نشعر بمقدار الإضلال الذين ينشرونه عندما لا توجد منابر للرد عليهم تبين للعالمين الحقيقة، والله يرد على تفاخرهم بأنهم أصحاب الصراط السوي، وأهل حقوق الإنسان بقوله: ﴿بَلِ اللَّهِ يُرَكِّبُ مِنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩) أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿ (النساء: ٤٩، ٥٠).

الرد الأول: ﴿بَلِ اللَّهِ يُرَكِّبُ مِنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: ٤٩)، فالعبرة ليست بالدعوى العريضة بل بالأعمال، فليذكروا أن الحكم بين المخلوقات مدحا وذمّا، وتوزيع الألقاب بناء على ذلك، حق خالص لله رب الأرض والسموات، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، تبصرنا بأن الله يثيب هؤلاء الذين يزكون أنفسهم من خلال طاعتهم الصحيحة لا من خلال التفاخر بتوزيع الألقاب في العالم، فليحذروا فإن الله سيحاسبهم على ما قدموا من أعمال وما قاموا به من جرأة في ادعاء أنهم أذكىء النفس، دون أن يظلمهم أقل الأشياء التي لا خطر لها، فكيف بما له خطر؟، و«الفتيل» قيل: هو ما خرج من بين الإصبعين والكفين من الوسخ، إذا فتلت إحداهما بالأخرى، وأصله المفتول، وقيل: الفتيل: ما كان في شق النواة، والنقيض: النقطة التي في ظهر النواة، والقطيمير: القشرة الرقيقة على النواة، وهذه الأشياء كلها تضرب أمثالا للشيء التافه الحقيق، أي: لا يظلمون لا قليلا ولا كثيرا^(١).

(١) الطبري (٨ / ٤٥٩) ..

الرد الثاني: ينبغي أن نعلم خطورة زعمهم أنهم خير الناس، وينبغي أن يدركوا خطورة تلاعبهم بالإعلام لإصباغ الشرعية لأنفسهم في أن يفعلوا ما شاءوا لأنهم الصالحون وغيرهم المجرمون، ولأنهم الذين يقومون بحقوق الإنسان وغيرهم ليسوا كذلك... ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٥٠)، فالتزكية الخالصة حق لمن له العلم التام، والقدرة الشاملة، والحكمة البالغة، والعدل السوي، فحقيقة المزكي أنه يتكلم باسم الله المحيط بكل شيء، هنا تعلم معنى قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٥٠)، فلا يعزب عن عقل ذي تفكير أن التزكية الخالصة حق لمن له الكمال التام علماً وقدرة وإحاطة بخلجات النفوس والقلوب.. إنه الله يزكي من يشاء بما له من العلم التام والقدرة الشاملة والحكمة البالغة والعدل السوي، فحقيقة المزكي بين يدي الله -جلَّ شأنه- أنه يتكلم باسم الله المحيط بكل شيء، هنا تعلم معنى قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٥٠).

فتعمدهم الافتراء لتشويه الحقيقة تم بتزكية أنفسهم وتوزيع الألقاب الفخمة على بعضهم، وذلك دليل على كذبهم على ربهم، والذي يكذب على ربه أولى أن يكذب على الخلق، ويدمر حياتهم.

الجناية السادسة: الإيمان بالجبت والطاغوت، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٥١).

تعجب منهم كيف يؤتون نصيباً من الكتاب، ثم يؤمنون بالجبت والطاغوت! هؤلاء القوم تعجب من عوج تفكيرهم، فقد أوتوا نصيباً من الكتاب، وبدلاً من العمل بمقتضاه نفذوا أكبر جريمتين مضادتين لمقتضى الكتاب، لذا قال الله عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَيْهِمْ.. انظر إليهم، وكان الأصل:

إليهم، ولكنه أعاد ذكر أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب؛ لزيادة التفرغ والتوبيخ، وليوقظ الإنسانية الغافلة عن حقيقة نفسياتهم العفنة، ويدخل فيهم: كل من عبد الجبت والطاغوت ممن ينتسب إلى اليهود، والنصارى، والمسلمين وغيرهم.

ألا يستحقون أن يتعجب الخلق من إجرامهم وهم الذئاب المفترسة التي تظهر نفسها في زي الحملان البيضاء الوديع.. ماذا يفعلون؟ يؤمنون بالجبت والطاغوت.. ما الجبت؟ وما الطاغوت؟

إن «الجبت» هو الرديء الذي لا خير فيه، فدخل فيه السحر، والساحر، والشيطان، وأعماله حتى قال الحسن: رنة الشيطان، والجبوبة: المدرة الغليظة تقلع من وجه الأرض، والمجبة: المحجة، وجادة الطريق، فكان الجبت: هو الشيء الرديء الغليظ الذي يحجه الناس ويقصدونه رغبا ورهبا مما لا خير فيه، و«الطاغوت»: من الطغيان، والطغوان لغة فيه، والطغوى مثله، وطاغوت، وإن جاء على وزن لاهوت فهو مقلوب لأنه من طعى، ولاهوت غير مقلوب لأنه من لاه بمنزلة الرغبوت والرهبوت، وأصل وزن طاغوت طغيوت على فعلوت، ثم قدمت الياء قبل الغين مُحافَظة على بقائها فصار طيغوت، ووزنه فلغوت، ثم قلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار طاغوت، ويطلق على المفرد كما قال تعالى ذكره: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾، وقد يكون جمعا كما قال تعالى جده: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ﴾ وهو مثل الفلک يُذَكَّرُ ويؤنث كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾، والفعل طغوت وطغيئت، طغى يطغى طغيًا ويطغوا طغيانًا، وما فعله صادر عن طغيان:

✽ فدخل فيهما: الشيطان، والكاهن وكل رأس في الضلال، والمخلوقات التي تعبد، والشركاء الذي يشرعون الجرائم مما يضاد الشريعة، ويهدم الطبيعة، ويدخل

فيهما الهوى الذي جعله صاحبه إلهاً له، ويدخل في الطغيان الإسرافُ في العصيان، فكلُّ مَنْ دَعَا إِلَى الْمَعَاصِي الْكِبَارِ لَزِمَهُ هَذَا الْإِسْمُ، وَالْجَبَّارُ الْعَنِيدُ، وَالطَّاغِيَةُ الْأَحْمَقُ الْمُسْتَكْبِرُ الظَّالِمُ الَّذِي لَا يُبَالِي مَا أَتَى يَأْكُلُ النَّاسَ وَيَقْهَرُهُمْ، لَا يَشْنِيهِ تَحَرُّجٌ وَلَا فَرْقٌ، وقد ذكر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المعنى الجامع للطاغوت فقال: «والصواب من القول عندي في «الطاغوت»، أنه كل ذي طغيان على الله، فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، وإنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء»^(١).

فمرجع كلمة (الجبّت) إلى الشيطان والسحر إلا أنها تعم كل ما يتعلق به، ولها تعلق خاص بالشيطان، ومرجع الطاغوت إلى كل ما يتم التحاكم إليه من البشر والقوانين من دون الله، ولذا جاء عن مجاهد في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، قال: «الجبّت» السحر، و«الطاغوت»، الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم^(٢).

والظاهر أن الجبّت هو الشيء الرديء الغليظ الذي يحججه الناس ويقصدونه رغباً ورهباً مما لا خير فيه مثل: أوثان الحجر والبشر، أو أوثان التشريعات الظالمة، كما يدخل فيه السحر وأوهام الأساطير الإلحادية والكهانة المفترية مثل أوهام هر مجدون، ومن الجبّت ما يتعلق بمحاولة معرفة الغيب رجماً بالظنون، وافتراء على الناس، ولذا روى قُطْنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ - بسند فيه نظر - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْعِيَاةُ وَالطَّيْرَةُ وَالطَّرْفُ مِنَ الْجِبْتِ»^(٣).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٥ / ٤١٩).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٦٢).

(٣) أبو داود (٤ / ٢٣).

والطرق الثلاث ملتويةٌ لمحاولة معرفة الغيب، فالعِيفَةُ بِالْخَطِّ، وَهُوَ ضَرْبُ الرَّمْلِ، وَتُطْلَقُ الْعِيفَةُ عَلَى التَّفَاوُلِ وَالتَّشَاوُمِ بِمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْأَلْفَافِ بِطَرِيقِ الْإِشْتِقَاقِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

نَفَّاءُ لْتُ فِي أَنْ تَبْذُلِي طَارِفَ الْوَفَا بِأَنْ عَنِّي لِي مِنْكَ الْبَنَانُ الْمُطَرَّفُ
فَأَوْصَلَتَا مَا قُلْتُهُ فَتَبَسَّمتْ وَقَالَتْ أَحَادِيثُ الْعِيفَةِ زُخْرُفُ
وَالطَّيْرَةُ: التَّشَاوُمُ، وَأَصْلُهُ مِنْ زَجَرِ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: هُوَ الضَّرْبُ بِالْحَصَا أَوْ الْوَدَعِ،
أَوْ حَبِّ الْفُولِ، أَوْ الرَّمْلِ لمعرفة الحظ والمستقبل، وما هو إلا الدَّجَلُ وَالْأَوْهَامُ
وَالْخُرَافَاتُ، ويتصدر ذلك السحر والتعلق بالشیطان.

والطاغوت من طَغَى يَطْغَى طُغْيَانًا جَاوَزَ الْقَدَرَ وَغَلَا فِي اسْتِكْبَارِهِ وَإِصْرَارِهِ عَلَى
الصفة الرديئة، كأن يطغى بماله أو ملكه فيخضع له الظالمون، وتجد عددًا لا يستهان
به من أهل الكتاب المعاصرين ييجلون الشيطان الذي يسمونه إله النور، وهذا الإنكار
الشديد عليهم في إيمانهم بالجبوت والطاغوت يكشف لنا حقيقة تلاعبهم بدينهم..
أليست الوصية الأولى من الوصايا العشر العظيمة هي ألا يشركوا بالله شيئًا.

الجنایة السابعة: تزكيتهم للمجرمين في العالم لنشر الفساد في الأرض. ومع
دخولها فيما سبق، إلا أن المراد هنا صنف مخصوص ممن يتم تزكيتهم وهم مجرمو
الوثنية، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّولَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَبِيلًا﴾ (النساء: ٥١).

وهذه الجريمة تمثل الكفر العملي (التحالف مع الوثنيين ضد المؤمنين)، وتزكية
مجرمي العالم لنشر الفساد في الأرض ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّولَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ (النساء: ٥١)، وهنا يبرز مدى تأثير أهل الكتاب على الوثنيين، وبدلاً
من استغلال هذا النفوذ لتوجيههم إلى الخير استغلوه في السوء، وزادوا الوثنيين

ضلالاً فوق الضلال بادعاء أنهم خير من المؤمنين في طرق حياتهم واعتقاداتهم وأفعالهم، ومن أمثلتهم الواقعية ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خبر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنوبر المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: فأنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (سورة الكوثر: ٣)، وأنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُمْ نَصِيرًا﴾^(١)، والصنوبر: النخلة تخرج من أصل النخلة الأخرى من غير أن تُغرس، النخلة المنفردة من جماعة النخل، ورجل صنوبر: فرد ضعيف ذليل لا أهل له ولا عقب ولا ناصر.

وفي رواية عن السدي: قال: لما كان من أمر رسول الله ﷺ واليهود من بني النضير ما كان، حين أتاهم يستعينهم في دية العامريين، فهموا به وبأصحابه، فأطلع الله رسوله على ما هموا به من ذلك. ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فهرب كعب بن الأشرف حتى أتى مكة، فعاهدهم على محمد، فقال له أبو سفيان: يا أبا سعد، إنكم قوم تقرأون الكتاب وتعلمون، ونحن قوم لا نعلم! فأخبرنا، ديننا خير أم دين محمد؟ قال كعب: اعرضوا علي دينكم. فقال أبو سفيان: نحن قوم ننحر الكوماء، ونسقي الحجيج الماء، ونقري الضيف، ونعمر بيت ربنا، ونعبد آلهتنا التي كان يعبد آباؤنا، ومحمد يأمرنا أن نترك هذا ونتبعه! قال: دينكم خير من دين محمد، فاثبتوا عليه، ألا ترون أن محمداً يزعم أنه بُعث بالتواضع، وهو ينكح من النساء ما شاء! وما نعلم ملئاً أعظم من ملك النساء!! فذلك حين يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾^(٢).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٦٦)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٦٨).

إنهم الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يقومون على مر الزمان بحشد القوى والطاقات المجرمة عبر العالم لاستئصال المسلمين، فتخلوا عن مبادئ دينهم، وقاموا يزكون أكثر المجرمين خبثاً، وأسوأهم اعتقاداً ليسبغوا على أنفسهم الشرعية، وما زال فريق من الذين أوتوا الكتاب إلى اليوم يحزبون الأحزاب، ويجيشون الجيوش ضد المسلمين، ويسيرون على سنة الذين خلوا من قبلهم.

فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ وَعُثْمَانَ بْنِ يَهُوذَا أَحَدِ بَنِي عَمْرِو بْنِ قُرَيْظَةَ عَنْ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالُوا: كَانَ الَّذِينَ حَزَبُوا الْأَحْزَابَ نَفَرٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ وَنَفَرٌ مِنْ بَنِي وَائِلٍ، وَكَانَ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ حَيْيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَكَنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ وَأَبُو عَمَّارٍ وَمِنْ بَنِي وَائِلٍ حَيٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَوْسِ اللَّهِ وَخَوْحُ بْنُ عَمْرِو وَرِجَالٌ مِنْهُمْ خَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَنَشِطُوا لِذَلِكَ ثُمَّ ذَكَرَ الْقِصَّةَ فِي خُرُوجِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَالْأَحْزَابِ قَالَ: وَخَرَجَ حَيْيُّ بْنُ أَخْطَبَ حَتَّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ صَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهِمْ فَلَمَّا سَمِعَ بِهِ كَعْبٌ أَغْلَقَ حِصْنَهُ دُونَهُ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا كَعْبُ افْتَحْ لِي حَتَّى أَدْخُلَ عَلَيْكَ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا حَيْيُّ إِنَّكَ امْرُؤٌ مَشُومٌ وَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ لِي بِكَ وَلَا بِمَا جِئْتَنِي بِهِ إِنِّي لَمْ أَرِ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً وَقَدْ وَادَعَنِي وَوَادَعْتُهُ فَدَعَنِي وَارْجِعْ عَنِّي فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنْ غَلَقْتَ دُونِي إِلَّا عَنْ جَشِيشَتِكَ أَنْ أَكُلَ مَعَكَ مِنْهَا فَأَخْفَظُهُ فَفَتَحَ لَهُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: وَيْحَكَ يَا كَعْبُ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ بِقُرَيْشٍ مَعَهَا قَادَتُهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهَا بِرُومَةٍ وَجِئْتُكَ بِغُطَفَانٍ عَلَى قَادَتَيْهَا وَسَادَتَيْهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهَا إِلَى جَانِبِ أَحَدِ جِئْتُكَ بِبَحْرِ طَامٍّ لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ فَقَالَ: جِئْتَنِي وَاللَّهِ بِالذَّلِّ وَبِئْسَ فَدَعَنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ لِي بِكَ وَلَا بِمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ حَيْيُّ بْنُ أَخْطَبَ يَفْتِلُهُ فِي الذَّرْوَةِ وَالْغَارِبِ حَتَّى أَطَاعَ لَهُ وَأَعْطَاهُ حَيْيُّ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ لَئِنْ رَجَعْتُ قُرَيْشٌ وَغُطَفَانٌ قَبْلَ أَنْ يُصِيبُوا مُحَمَّدًا لَا دُخْلَانَ مَعَكَ فِي حِصْنِكَ حَتَّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ فَتَنْقُصَ كَعْبُ الْعَهْدَ وَأَظْهَرَ الْبَرَاءَةَ مِنْ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ قَالَ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ كَعْبٍ وَنَقَضَ بَنِي قُرَيْظَةَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ وَسَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ وَخَوَاتَ بْنَ جُبَيْرٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ لِيَعْلَمُوا خَبَرَهُمْ فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهِمْ وَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ فَذَكَرَ قِصَّةَ سَبَبِ إِسْلَامِ ثَعْلَبَةَ وَأَسِيدِ ابْنَيْ سَعِيَّةَ وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ وَنَزُولِهِمْ عَنْ حِصْنِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَإِسْلَامِهِمْ، وَخَرَجَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فِيمَا زَعَمَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَمْرُو بْنُ سَعْدِ الْقُرَظِيُّ، فَمَرَّ بِحَرَسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَنَا عَمْرُو بْنُ سَعْدِ وَكَانَ عَمْرُو قَدْ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي غَدَرِهِمْ وَقَالَ: لَا أَغْدِرُ بِمُحَمَّدٍ أَبَدًا فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ حِينَ عَرَفَهُ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي عَثَرَاتِ الْكِرَامِ ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ فَخَرَجَ حَتَّى بَاتَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ثُمَّ ذَهَبَ فَلَمْ يُدْرَ أَيْنَ ذَهَبَ مِنَ الْأَرْضِ فَذَكَرَ شَأْنُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «ذَلِكَ رَجُلٌ نَجَّاهُ اللَّهُ بِوَفَائِهِ». وَذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ: أَنَّ حِيًّا لَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّى شَأْمَهُمْ، فَاجْتَمَعَ مَلَأُوهُمْ عَلَى الْغَدْرِ عَلَى أَمْرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ غَيْرِ أَسَدٍ وَأَسِيدٍ وَثَعْلَبَةَ خَرَجُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١).

وهذه الوقائع لا تدل على أنها سبب نزول الآية بل الآيات شديدة الأحكام والاتصال، والسورة مدنية، ولعل ذلك وقع قرب معركة الأحزاب حيث تواطأ اليهود مع المشركين ولأنهم يزكون أنفسهم فهم يمنعون الناس من اتباع الحق، ويحاربون كل من يجهر به، بل يرمونه عن قوسٍ واحدة.

(١) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٩ / ٢٣٢).

وتصدق هذه التزكية للمجرمين على بعض المسلمين المنحرفين، واسمع إلى ابن الزمكاني يثك الآلام من صنف من الناس اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، فيقول: «قال بعض مشايخنا: كأن هذه الآية فينا نزلت وقد طم البلاء وعم بسبب طمع العلماء في الحطام وصار المؤمن القابض على دينه معهم كالقابض على الجمر لأنهم قد تمكنوا من صدور الخلق لغلبة الجهل عليهم فهم المقتدى بهم والمنظور إليهم فهم عند الخلق علماء وفي الملكوت جهال فمن تمسك بالسنة بين ظهرائي هؤلاء بعد تمكنهم من الرياسة ونفاذ القول في الخلق فقد بارزهم بالمحاربة لأن في تمسكه بها هتكاً لسترهم عند العامة وكشفاً لعوارهم ونشراً لفضائحهم، فالتمسك بالحق يرصدونه بالعداوة ويرمونهم عن قوس واحدة ويقذفونه بالعظام ومع ذلك حرمة الإيمان معهم فالأولى أن لا يعذبهم بل يرحمهم»^(١).

وهذه الآية معجزة مبهرة، فهؤلاء القوم مع زعمهم الإيمان بإله واحد إلا أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، وكثير منهم يعظم الشيطان ويحاول أن يستمد القوة منه، وينتج الأفلام المتعددة لإثبات ذلك وتسهيله وتزيينه على الخلق، وأما أنظمتهم الدينية والسياسية الفاسدة فإنهم إلى الآن يتحالفون مع الوثنيين ويقولون لهم: أنتم أهدى من المسلمين سبيلاً.

لم يتوقف تحالف الذين يشترى الضلالة مع الوثنيين في زمن، فانظر له في عصر جنكيز خان كيف تحالف بوب الفاتيكان مع المغول الوثنيين على اجتياح بلاد الإسلام، وأرسلوا بعض بناتهم ليكن زوجات للقادة المؤثرين من المغول، فنتج من ذلك حلف ديسس لتحالف المنحرفين من الذين أوتوا نصيباً من الكتب الثلاثة مع الوثنيين ضد المسلمين.

(١) فيض القدير (٤ / ٣٧١).

وهذه الآيات تشير إلى النوازع النفسية المريضة التي تسببت في تدمير الأفراد والأمم، ولذا تراهم يشرعون لأنفسهم العبادات، والأعياد، والطقوس، وترى المنحرفين من أهل الكتب الثلاثة، يفعلون ذلك بصورة صارخة ومأساوية.

الجنانية الثامنة: جر العالم إلى دائرة استحقاق اللعن الإلهي بسبب ما سبق. وَيُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٢). فهذا سبب وجزاء في الوقت ذاته، فهم ذوو شعارٍ شهوانيٍّ متمرد، وأصحاب أطماعٍ متكبرةٍ لا تنتهي، وأهل أهواءٍ منحرفةٍ لا تعتدل، وأسرى أحقادهم التي لا تزول.

فهذا سبب وجزاء في الوقت ذاته.. إذ تتعجب: لماذا هذا الموقف الغريب من القيادات اليهودية؟

ماذا تقول في قوم متلاعبين وصل إجرامهم وفسقهم أن يستحقوا أن يجههم الله باللعن، ويحرمهم من النصير؟ «إنهم ذوو أطماع لا تنتهي، وذوو أهواء لا تعتدل، وذوو أحقاد لا تزول»^(١).

و﴿نَصِيرًا﴾ هنا نكرة فتشمل كل نصير مهما قل نصره، وربما تقول: لكننا نرى لهم نصيرًا ممن وصلهم بحبله من الناس.

ربما ستقول: لكننا وجدنا نصيرهم اليوم في العالم يفوق كل نصير، ورأينا التحالفات الاستراتيجية تتسابق إليهم إلى النخاع مما أوجد لهم حالة العلو الكبير، فكيف النظر في الآية؟

والجواب: ذلك عائدٌ لسنة أخرى هي سنة تداول الأيام، فقد قال الله عن هذه السنة الكلية: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَوِّلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، والقول المختصر لبيان ذلك: أن الذي أصيب بلعنة الله فلن تجد له نصيرًا في الدنيا ولا في

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٨١).

الآخرة، وفي الآخرة الأمر واضح، وأما في الدنيا فقد يقابله من استحق لعنة أيضًا لتلاعبه بالكتاب الذي أوتيّه، وحين ذلك يتقابل فريقان: كلاهما مصابٌ بمقت الله، فينتصر الأكثر ذكاءً لكن ذلك لا يعني وجود نصيرٍ له ينجيه من عذاب الآخرة، وفي بدائع السلك في طبائع الملك للأصمحي الأندلسي: أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في رسالة طويلة «أما بعد: فإني آمرك، ومن معك من الأجناد، بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيده في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراصًا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم لله؛ ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدّتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا لم نصر عليهم بفضلنا، ولم نغلبهم بقوتنا، وفي كتاب الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله والثلاثة الخلفاء للكلاعي، ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة للآبادي للهندي، وغيرهما، أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح: من عبد الله عمر - أمير المؤمنين - إلى أبي عبيدة بن الجراح: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فقد أتاني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من إهلاك الله المشركين، ونصره المؤمنين، وما صنع الله لأوليائه وأهل طاعته، فأحمد الله على صنيعه إلينا، واستتم الله ذلك بشكره، ثم اعلّموا أنكم لم تظهروا على عدوكم بعدد، ولا عدة، ولا حول، ولا قوة، ولكنه بعون الله، ونصره، ومثّه، وفضله.

وانظر لجمال موقع ﴿أُولَئِكَ﴾ لترى أن الله يشير إليهم وكأنك تشاهدهم، فموقع اسم الإشارة هنا - كما يقول الطاهر بن عاشور - في نهاية الرّشاقة، لأنّ مَنْ بَلَغَ مِنْ وَصْفِ حَالِهِ هَذَا الْمَبْلَغَ صَارَ كَالْمُشَاهِدِ، فَنَاسَبَ بَعْدَ قَوْلِهِ: أَلَمْ تَرَ أَنْ يُشَارَ إِلَى هَذَا الْفَرِيقِ الْمُدَّعَى أَنَّهُ مَرِيئِي، فَيَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ﴾.

ولتجدن اللعن الإلهي لفساق بني إسرائيل منتشرًا في الكتاب المقدس.

ففي إرمياء ١٧:

٥ وقال الرب: «ملعون من يتوكل على الإنسان ويجعل البشر سندًا له. ويصرف قلبه عن الرب. ٦ فيكون مثل النبت في الصحراء، ولا يرى الخير إذا أقبل يسكن الفلاة الشديدة الحر والأرض المالحة التي لا تسكن. ٧ مبارك من يحتمي بالرب ويجعل الرب مأمنا له. ٨ فيكون كشجرة مغروسة على المياه، وعند النهر تمتد جذورها. لا ترى الحر إذا أقبل، بل يبقى ورقها أخضر. وفي سنة القحط لا تخاف ولا تكف عن الإثمار. ٩ القلب أخذع الأشياء وأخبثها فمن يعرفه؟ ١٠ أنا الرب أفحص نيات القلوب وأمتحن مشاعر البشر، فأجازي الإنسان بحسب طرقه، بحسب ثمرة أعماله

وفي سفر التثنية ٢٧:

١٤ فيصيح اللاويون ويقولون لجميع قوم إسرائيل بصوت عال:
١٥ ملعون الإنسان الذي يصنع تمثالًا منحوتًا أو مسبوكًا، رجسًا لدى الرب عمل يدي نحات، ويضعه في الخفاء. ويوجب جميع الشعب ويقولون: آمين.
١٦ ملعون من يستخف بأبيه أو أمه. ويقول جميع الشعب: آمين.
١٧ ملعون من ينقل تخم صاحبه. ويقول جميع الشعب: آمين.
١٨ ملعون من يضل الأعمى عن الطريق. ويقول جميع الشعب: آمين.
١٩ ملعون من يعوج حق الغريب واليتيم والأرملة. ويقول جميع الشعب: آمين.
٢٠ ملعون من يضطجع مع امرأة أبيه، لأنه يكشف ذيل أبيه. ويقول جميع الشعب: آمين.

٢١ ملعون من يضطجع مع بهيمة ما. ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٢ مَلْعُونٌ مَنْ يَضْطَجِعْ مَعَ أُخْتِهِ بِنْتِ أَبِيهِ أَوْ بِنْتِ أُمِّهِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٣ مَلْعُونٌ مَنْ يَضْطَجِعْ مَعَ حَمَاتِهِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٤ مَلْعُونٌ مَنْ يَقْتُلْ قَرِيبَهُ فِي الْحَقَاءِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٥ مَلْعُونٌ مَنْ يَأْخُذُ رَشْوَةً لِكَيْ يَقْتُلَ نَفْسَ دَمِ بَرِيءٍ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٦ مَلْعُونٌ مَنْ لَا يُقِيمُ كَلِمَاتِ هَذَا النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهَا. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

وفي التثنية ١١:

٢٦ أَنْظُرْ. أَنَا وَاضِعٌ أَمَامَكُمْ الْيَوْمَ بَرَكَةً وَلَعْنَةً:

٢٧ الْبَرَكَةُ إِذَا سَمِعْتُمْ لَوْصَايَا الرَّبِّ إِلَهِكُمْ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا الْيَوْمَ.

٢٨ وَاللَّعْنَةُ إِذَا لَمْ تَسْمَعُوا لَوْصَايَا الرَّبِّ إِلَهِكُمْ، وَزَعْتُمْ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا الْيَوْمَ لِتَذْهَبُوا وَرَاءَ إِلَهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا.

وفي سفر إرميا ٤٤:

٢ «هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ كُلَّ الشَّرِّ الَّذِي جَلَبْتُهُ عَلَى أُورُشَلِيمَ، وَعَلَى كُلِّ مُدُنٍ يَهُودَا، فَهَا هِيَ خَرِبَةٌ هَذَا الْيَوْمَ وَلَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ،

٣ مِنْ أَجْلِ شَرِّهِمِ الَّذِي فَعَلُوهُ لِيُغِيظُونِي، إِذْ ذَهَبُوا لِيُخْرِوا وَيَعْبُدُوا إِلَهَةً أُخْرَى لَمْ يَعْرِفُوهَا هُمْ وَلَا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ.

٤ فَأَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ كُلَّ عِبِيدِي الْأَنْبِيَاءِ مُبَكِّرًا وَمُرْسَلًا قَائِلًا: لَا تَفْعَلُوا أَمْرَ هَذَا الرَّجْسِ الَّذِي أَبْغَضْتُهُ.

- ٥ فَلَمْ يَسْمَعُوا وَلَا أَمَلُوا أَذْنَهُمْ لِيَرْجِعُوا عَنْ شَرِّهِمْ فَلَا يُخْشَوْا لآلِهَةٍ أُخْرَى.
- ٦ فَانْسَكَبَ غَيْظِي وَغَضَبِي، وَاشْتَعَلَ فِي مَدْنِ يَهُوذَا وَفِي شَوَارِعِ أُورُشَلِيمَ، فَصَارَتْ خَرِبَةً مُقْفَرَةً كَهَذَا الْيَوْمِ.
- ٧ فَالآنَ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ الْجُنُودِ، إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: لِمَاذَا أَنْتُمْ فَاعِلُونَ شَرًّا عَظِيمًا ضِدَّ أَنْفُسِكُمْ لِانْفِرَاضِكُمْ رِجَالًا وَنِسَاءً أَطْفَالًا وَرُضْعَاءَ مِنْ وَسْطِ يَهُوذَا وَلَا تَبْقَى لَكُمْ بَقِيَّةٌ؟
- ٨ لِإِغَاظَتِي بِأَعْمَالِ أَيْدِيكُمْ، إِذْ تُبْخَرُونَ لآلِهَةٍ أُخْرَى فِي أَرْضِ مِصْرَ الَّتِي أَتَيْتُمْ إِلَيْهَا لِتَتَغَرَّبُوا فِيهَا، لِكَيْ تَنْقَرِضُوا وَلِكَيْ تَصِيرُوا لَعْنَةً وَعَارًا بَيْنَ كُلِّ أُمَّةٍ الْأَرْضِ.
- ٩ هَلْ نَسِيتُمْ شُرُورَ آبَائِكُمْ وَشُرُورَ مُلُوكِ يَهُوذَا وَشُرُورَ نِسَائِهِمْ، وَشُرُورَكُمْ وَشُرُورَ نِسَائِكُمْ الَّتِي فَعَلْتُمْ فِي أَرْضِ يَهُوذَا وَفِي شَوَارِعِ أُورُشَلِيمَ؟
- ١٠ لَمْ يَذَلُّوا إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، وَلَا خَافُوا وَلَا سَلَكُوا فِي شَرِيعَتِي وَفَرَائِضِي الَّتِي جَعَلْتُهَا أَمَامَكُمْ وَأَمَامَ آبَائِكُمْ.
- ١١ لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: هَآنَذَا أَجْعَلُ وَجْهِي عَلَيْكُمْ لِلشَّرِّ، وَلَا أَقْرَضُ كُلَّ يَهُوذَا.

الجنانية التاسعة: الكبر، والبخل، وإشعار العالم بأن لهم في ملك الله شيئاً، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ٥٣) حتى جعل بعضهم نفسه إلهاً بإنكار الإله الحق.

ف «النقيير» هو النقطة التي في ظهر النواة، ويروءك أن كلمة: ﴿أَمْ﴾ هنا تؤدي دوراً خطيراً، يكشف واقع هؤلاء الفاسدين، فيذكر بعض المفسرين أن ﴿أَمْ﴾ منقطعة، والتقدير (بل)، ويظهر لي في مثل هذه الحالات أن مجيء اللفظة محتملة تجعلنا نقيمها على الاحتمالات المختلفة، ولو أراد الله حصر معناها فيما ذكره - رحمهم الله - كان

أولى أن تكون الآية بلفظ (بل) مباشرة.. وبذا نجد عدة أصناف من أهل الكتاب تبين حالة كل منهم هذه الكلمة المباركة ﴿أَمْ﴾، وتقدم عدة مشاهد بناء على ذلك:

فالمشهد الأول تقدمه لك هذه الكلمة القرآنية المدهشة من جهة يمكن أن تكون المِيمُ صَلَةً، وَتَقْدِيرُ الكلام: أَلَهُمْ نصيب من الملك لِأَنَّ حَرْفَ «أَمْ» إِذَا لَمْ يَسْبِقْهُ اسْتِفْهَامٌ كَانَ المِيمُ فِيهِ صَلَةً، والمشهد الثاني مشهد نفي الملك فَلَمَّا حَكَى الله عَنْ هَؤُلَاءِ قَوْلَهُمْ لِلْمُشْرِكِينَ: إِنَّهُمْ أَهْدَى سَبِيلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: أَمِنْ ذَلِكَ يُتَعَجَّبُ، أَمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ، فيكون الملك معناه التَّمْلِكُ، أي هل لهم الحكم فيَمَلِكُونَ من شاءوا، ويمنعون من شاءوا.. لو كان الأمر كذلك لمنعوا الناس جميعاً أقل شيء يمكن أن يتم الانتفاع به، فبخلوا بِالنَّقِيرِ وَالْقِطْمِيرِ.. أي هم لا يملكون الهدى ولا النجاة من النار، ولا إيجاد البشر والمخلوقات، ولا الهواء، ولو ملكوا من ذلك شيئاً لما أعطوا الناس أدنى شيء منه، فالاستفهام إنكاري يبين أن الملك لله يخلق ما يشاء ويختار، ويصطفي من شاء من الأبرار، فهذا نفي للملك الحقيقي، (فهذا يوضح الكبر؛ إذ ليس لهم شيء في حكم الله، الذي به يحكم على أحد بالهدى أو بالضلالة).

وأنت ترى أنهم لم يستطيعوا منع الناس من أن يُخلَقُوا، ولم يحجروا على البشرية من أن يُرَزَقَ أبناؤها، وها أنت ترى البشر يتنفسون ويشربون حيث لم يتدخل بعض بني الإنسان ليمنع الناس من حقوقهم، بل إن كثيراً من البشر تراهم أجمل من أهل الكتاب في أجسادهم، وأذكى منهم في عقولهم، ولو كان لهؤلاء البخلاء المزورين الحسدة نصيب من الملك لما آتوا أحداً من الناس نقيراً أي أقل شيء يُعرف إلا بالأثمان الباهظة مقابل بيوع يعتريها الكثير من العبث.

والمشهد الثالث تقدمه لك ﴿أَمْ﴾ من جهة ثالثة؛ إذ يمكن أن تكون «أَمْ» هاهنا

مُنْقَطِعَةً وَغَيْرَ مُتَّصِلَةٍ بِمَا قَبْلَهَا الْبَتَّةَ، كَأَنَّهُ لَمَّا تَمَّ الْكَلَامُ الْأَوَّلُ قَالَ: بَلْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ.. ويراد بالملك الملك الحقيقي الشامل للغنى والثروة والنفوذ والتسلط أي لهم نصيب حقيقي من الملك، ولكنهم لا يؤتون منه لأحد شيئاً، فانظر كيف ترى أثرهم في القرار الدولي الآن غالباً، والمؤسسات الدولية، ولكنهم يعقدون المسائل، ويمنعون الشعوب من حقوقها المشروعة.. يرسلون الوسطاء لحل المشكلات، فهل رأيت مشكلة واحدة حلت وفق منهج عادل؟ خذ الأراضي الملتهبة في الأرض لتراهم ينصرون الظالم، ثم لا يكتفون بذلك حتى يبقوا رمقاً عند المظلوم ليستمر الصراع ويبقى بالنسبة لهم الانتفاع.

كما أنهم لما رأوا هذا النصيب أعطي لغيرهم حسدوا من أوتي نصيباً من جهة أخرى مثل النبي ﷺ، فقد قيل: إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ نَحْنُ أَوْلَى بِالْمُلْكِ وَالنَّبُوَّةِ فَكَيْفَ نَتَّبِعُ الْعَرَبَ؟.. وبذا فلن يؤتوا الناس فقيراً، فبخلهم يجعلهم يضمنون بالخيرات التي آتاهم الله إياها لدرجة أن يحرقوها بدلاً من إعطائها الآخرين، فهذا في أمور الدنيا فما بالك في أمور الدين. إنهم من أعظم الناس كزازة بقله خيرهم للآخرين، وندرة مساعدتهم.. وقد تلقف هذا الحسد اليهودي كثير من الأجيال اليهودية اللاحقة ثم خدمهم من أتباع المسيحية الصهيونية ممن امتلأت قلوبهم بالأضغان العنصرية على المسلمين، ولا يزالون يثونها في كتبهم، وقد تعلق بها أشياعهم من أهل الضلالة المتعبدین لسادتهم من المستشرقين في زماننا هذا، ثم خدمهم الباطنية وفساق المسلمين لزيادة الإفساد في العالمين.

والكلام فيه إشارة واضحة لما يشيعونه هذه الأيام من انتظارهم عودة ملك إسرائيل.. وبيان أنهم مع كونهم أكثر نفيراً في الأرض إلا أن البخل ملازم لهم، وذاك من دواعي ذهاب ملكهم كَمَا قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِي:

إِذَا مَلِكٌ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَةٍ فَدَعُهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبَةٌ

إلا أن حبل الناس يبقّي دولتهم، وقد فطنوا لذلك، فصاروا يقيمون لأنفسهم عبيداً من البشرية يوافقونهم في التحكم بالشعوب، وتدمير كل حركة تحريرية، وبذا يبقون قوتهم الغاشمة المتكبرة البخيلة قائمة لأطول مدة زمنية.

الجنانية العاشرة: الحسد، وفي مقدمة ذلك حسدهم للنبي ﷺ على النبوة الخاتمة فلم تكن من بينهم، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن حسدوا أخاهم يوسف عليه السلام، فكيف لا يحسدون أبناء عمهم؟.

الحسد أن يتمنى الإنسان النعمة التي حبا المنعم بها غيره، ويتمنى زوالها من المحسود، وكما ترى فإن أسوأ ما في الحسد أنه صاحبه يتمرد على واهب النعمة في هبته.. ما معنى ذلك؟ إنه يرد الحكم القدري، ويحاول أن يُقَسِّمَ على وفق الهوى البشري، وهؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، وقد بدأ استسلامهم للحسد من وقت مبكر دون أن يحاربوه بل جعلوه شرعياً منذ أن سولت لهم أنفسهم المريضة أن يزعموا أن يعقوب حسد أخاه البكر عيسو على أن قدمه أبوهما إسحاق عليهم السلام، وأراد مباركته، فاحتال يعقوب -حاشاه- مع أمه لسرقة هذه البركة كما في سفر التكوين، وما زال الحسد تسري ناره ويشتعّل أواره في نفوسهم، حتى حسدوا النبي ﷺ على أن كانت النبوة الخاتمة على يديه، ثم حسدوا من حباهم الله بنعمة معينة زائدة لا توجد عندهم مثل حسد الأفارقة على أرضهم التي تنضح ذهباً وثروات، وحسدوهم بلاد النفط.. فعملوا إشعال الفتن والحرائق في تلك الأمكنة لتبقى لهم السيطرة على صنع القرار في تلك الأرجاء.. واملأ نفسك من معاني الآية هنا: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ ﷺ: يجوز أن تكون ﴿أَم﴾ استفهاماً إنكارياً توبيخياً، فيبدأ بالاستفهام، وينتهي بالإثبات لما بعده، ويجوز أن تكون بمعنى: (بل)، والاستفهام لإثارة الرأي العام، ومخاطبة المنصفين، والإثبات لفضح واقع القيادات الفاسدة منهم، والحسد عام لكل من أوتي خيراً، وأول المحسودين من أوتي النبوة الخاتمة، وسمى الله النبي ﷺ ﴿النَّاسُ﴾، وكأن الإنسانية بما يمدح فيها لا توجد إلا في النبي ﷺ.. فهل ذلك إلا كما حسد إخوة يوسف عليه السلام أخاهم؟.

حسد هؤلاء الغاضبون من القسمة الإلهية النبي ﷺ وأتباعه «لما رأوا من إقبال جدهم وظهور سعدهم وأنهم سادة الناس وقادة أهل الندى والبأس».

إن العرانيين تلقاها محسدة ولن ترى للثام الناس حساداً^(١) والتحذير من الحسد متكرر في الكتاب المقدس، ففي سفر الأمثال من الكتاب المقدس: ١٤: ٣٠: حياة الجسد هدوء القلب، ونخر العظام الحسد.

وفي تيمة سفر أستير: ولا أسير مع من يذوب حسداً؛ لأن مثل هذا لا حظ له في الحكمة.

وفي الإصحاح ١٤: ١: طوبى للرجل الذي لم يَزَلْ بفيه، ولم ينخسه الندم على الخطيئة. ٣ الغنى لا يجمل بالرجل الشحيح، وما منفعة الأموال مع الإنسان الحسود. ٦ لا أسوأ ممن يحسد نفسه. إن ذلك جزاء خبثه ٧ وإن هو أحسن فعن سهو وفي الآخر يبدي خبثه ٨ لا أخبث ممن يحسد بعينه ويحول وجهه ويحتقر النفوس ٩ عين البخيل لا تشبع من حظه وظلم الشرير يضني نفسه ١٠ العين الشريرة تحسد على الخبز وعلى مائدتها تكون في عوز.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥ / ٣٠٣).

فيقول الله لهم مبكتاً: ﴿أَمْرِيحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي فليفضحوا على الملاء وليكشفوا خباياهم.. فهم مجموعة من البخلاء الحسدة، ووصل البخل والحسد بهم حدًا جعلهم ينفقون المليارات ويسخرون مؤسسات العالم لأهوائهم المريضة، ورغباتهم الفاسدة التي تجعلهم يستهدفون القضاء على الإيمان، وإزالة العدل بين البشرية أجمعين.

وتعال بنا لتأمل في خلفية وصفهم بالصفات الخطيرة السبابة: تركيتهم لأنفسهم وتركيتهم لمجرمي العالم والبخل والحسد؟

ألا ترى أن هذه الصفات هي التي تؤدي إلى تضييع حقوق الحق والخلق معًا.

الجنابة الحادية عشرة: الصد عما آتاه الله لإبراهيم عليه السلام، ويُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ٥٤-٥٥).

فبين الله -تعالى ذكره- أنهم من آل إبراهيم، وقد آتاهم الله ملكًا عظيمًا فلماذا الحسد؟ « إنه لمن ألأم الحسد: أن يحسد ذو النعمة الموهوب! قد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة! أما أن يحسد الواحد المغمور بالنعمة، فهذا هو الشر الأصيل العميق! »^(١)، فالله قد فضل إبراهيم عليه الصلاة بفرعيه إسماعيل، وإسحاق، ثم أتى آل إسحاق ملكًا عظيمًا، فخرج منه يوسف النبي الملك، وموسى الكليم العظيم، وداود وسليمان النبيان اللذان كانا من أعظم ملوك الدنيا، وغيرهم عليهم الصلاة والسلام.. فلم الحسد للفرع الثاني من آل إبراهيم أن يخرج منه النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام؟.

فهذه الآية تكشف واقعهم المريض، فليس بخلهم وحسدهم للنبي ﷺ ولا

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٨٣).

للعرب إلا تمرّدًا معتادًا على أوامر ربهم فقد حدث منهم الأمر ذاته مع الأنبياء الذين جاءوا من آل إبراهيم من قبل، حيث يقول الله مبيّنًا واقعهم: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ٥٥)

ومن هذه الآية يستنبط الطبري استنباطًا رائعًا لائقًا بما فتح الله له في التفسير، فيقول: «وفي هذه الآية دلالة على أن الذين صدّوا عما أنزل الله على محمد ﷺ، من يهود بني إسرائيل الذين كانوا حواريّ مهاجر رسول الله ﷺ، إنما رُفِعَ عنهم وعيدُ الله الذي توعدهم به في قوله: ﴿ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء: ٤٧) في الدنيا، وأُخِرَت عقوبتهم إلى يوم القيامة، لإيمان من آمن منهم، وأن الوعيد لهم من الله بتعجيل العقوبة في الدنيا، إنما كان على مقام جميعهم على الكفر بما أنزل على نبيه محمد ﷺ. فلما آمن بعضهم، خرجوا من الوعيد الذي توعدّه في عاجل الدنيا، وأُخِرَت عقوبة المقيمين على التكذيب إلى الآخرة، فقال لهم: كفاكم بجهنم سعيًّا»^(١).

وهنا ترى بصيرة واضحة تطمئنك: فإن لم يعاقب مانعو الحقوق الحسدة البخلاء في الدنيا فكفاهم جهنم سعيًّا.

و﴿سَعِيرًا﴾، أصله مسعورًا من «سُعِرْتُ تُسَعَّرُ فهي مسعورة»، فعيل بمعنى مفعول كما قيل: «كف خضيب»، و«لحية ذهين»، بمعنى: مخضوبة ومدهونة، كما قال الله: ﴿وَإِذَا الْحُجُجُ سُعِرَتْ﴾ (التكوير: ١٢)، و«السعيّر» الوقود.

الجنّاية الثالثة عشرة: نسيان المستقبل الأخروي الحقيقي للكافرين والمؤمنين. وبُيِّنَ بذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَنَتُنَا سَوَفَ نُصَلِّهِمْ نَارًا كَمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾ (٥٦) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٨٣).

الصَّالِحَاتِ سَدَّ خُلُوهُمْ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْنِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ
وَنُدُّهُمْ ظِلًّا ظِلِيلًا ﴿٥٧﴾ (النساء: ٥٦، ٥٧).

بعد كل الأسباب السابقة يبين الله لنا سبباً خطيراً في انحطاط الإنسان الذي أوتي نصيباً من الكتاب ثم عمل على تحريف الكلم عن مواضعه: إنه نسيان المستقبل القادم الأخطر في الحياة البشرية، نسيان الدار الآخرة، وقد قسم الله الناس حسب المستقبل الأخرى إلى فريقين:

الفريق الأول: الكافرون الذين غطوا الحقائق، وتلاعبوا بحق العالم في معرفة وجوده، ويبدأ بهم؛ لأن الكلام السابق عنهم:

فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَتَنَا﴾، وآياته تشمل جميع الكتب الإلهية، وهددهم بما سيحدث في المستقبل القادم، فقال: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾، والصلي والصلاء يتضمن الدخول، والشئ، ويؤدي إلى تعذيب مؤلم سيحرق جلودهم، يقال: فهذا لمصلحتهم إذ سيفقدون عضو الإحساس كما أكتشفه العلم الحيوي والطبي مؤخراً..

عندها يأتيك الجواب المرعب الذي يحدث العذاب الأبدي الرهيب ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، فيكون إحساسهم بذلك العذاب في كل حال، يكون كإحساس الذائق المذوق، «إنه مشهد لا يكاد ينتهي، مشهد شاخص متكرر، يشخص له الخيال، ولا ينصرف عنه! إنه الهول، وللهول جاذبية أسرة قاهرة! والسياق يرسم ذلك المشهد، ويكرره بلفظ واحد.. ﴿كُلَّمَا﴾.. ويرسمه كذلك عنيفاً مفرعاً بشرط جملة: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾، ويرسمه عجيباً خارقاً للمألوف بتكملة الجملة: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾»^(١).

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٨٣).

وربما تقول: فمن الذي يُعَذَّب: هل تعذب الجلود فقط؟ فربما أغمي عليهم، وزال الإحساس كما في التخدير الطبي.. إذ يخدر العضو ثم يصنع الأطباء ما شاءوا في جراحة الأعضاء.. هنا استلم الجواب واستعد بالله من النار وأعد العدة لها ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الذي يذوق هم.. إنها النفس الواعية وليس العضو المحدد، فلا يموت أحدهم ولا يحيا.. بل يذوق العذاب.. إنه تصويرٌ مفعجٌ يعين الكافرين على العودة عن هذا الاختيار السيء الذي اختاروه لأنفسهم.. الاختيار الذي جعلهم يمنعون الإنسانية من حقوقها في معرفة الله فيكفرون بآيات الله.. وهذا التصوير معجزٌ فهو سابقٌ لعصره؛ إذ لم تُكتشف تفاصيله الحيوية والطبية إلا مؤخراً، فمن أنبأ محمداً ﷺ أن أداة الإحساس التي تُذيق الإنسان النعيم أو العذاب هي الجلد، ولذا إذا ذهب لا بد من خلق جلود غيرها ل يتم التذوق؟.

وعندها ربما ينبعث من يعترض، ويقول: فكيف تريدني أن أؤمن بالله يعذب عباده هذا التعذيب الرهيب؟

يأتيك الجواب في ختام الآية فيقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كأن الآية تناقش السائل مباشرة، فتقول:

انتبه لسؤالك أيها السائل.. إنه سؤال لا يدل على منطقٍ ولا على عقلٍ، ولكنه لشدة التلبس الشيطاني يختبئ خلف المنطق والعقل.. فقط فكر أنت: فيمن أعطي مالا وقوة وإمكاناتٍ وراتباً ثم ارتكب جرماً من الجرائم الكبرى، وأصر على ارتكاب هذه الكبيرة طوال حياته، وعمد إلى من أعطاه كل الإمكانيات فعاش محارباً له طوال حياته، ولما حانت عقوبته ذاق العقوبة ثم حلف لو أعطي فرصة ثانية فإنه سيتوب، ولما رد عاد لما نهى عنه، وقد أُنذِرَ أنه سيُخلد في العذاب إن أصر على ارتكاب

جريمته.. ولكنه أصر واستمر.. ألا يستحق الخلود في العذاب؟

إن الله عزيزٌ قاهر لا يغلبه هذا الذي يحاربه مع أنه أعطاه كل شيء يتمتع به، حكيم؛ إذ لم يعذبهم إلا لأن هذا التعذيب كان في موضعه.

الفريق الثاني: المؤمنون: فجمعوا قوة الإيمان، وهي القوة الفكرية العلمية النظرية، فقال عنهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، والقوة العملية حيث وصفهم الله بقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فذكر أصول نعيمهم، وأسس متعمهم:

الأصل الأول: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾، وربما كان دخول: ﴿سَوْفَ﴾ على عذاب أهل النار؛ للعذاب الشديد الذي يجده الكافر في الموقف الطويل للقيامة، فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة في الرشح إلى أنصاف آذانهم»^(١)، ونقل ابن حجر عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن الذي يلجمه العرق الكافر، أخرجه البيهقي في البعث بسند حسن عنه، قال: «يشد كرب ذلك اليوم؛ حتى يلجم الكافر العرق»، قيل له: فأين المؤمنون؟ قال: «على الكراسي من ذهب، ويظل عليهم الغمام»، وبسند قوي عن أبي موسى قال: «الشمس فوق رؤوس الناس يوم القيامة، وأعمالهم تظلمهم»^(٢)، وذكر العراقي أن لأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد: «يهون ذلك على المؤمن، كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف

(١) أحمد (٢ / ١١٢) وقال الأرناؤوط: صحيح.

(٢) فتح الباري لابن حجر (١١ / ٣٩٤).

(٣) تخريج أحاديث الإحياء (٤ / ٢٢٩).

على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا»^(١)، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب»^(٢).

الأصل الثاني: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فمن أنهارها الأنهار الأربعة المذكورة في سورة محمد ﷺ ﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ (محمد: ١٥)، من هذه الأنهار: نهر الكوثر الذي حكى عنه أنس رضي الله عنه، قال: لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَتَاهُ قَبَابُ اللَّوْلُؤِ مُجَوَّفًا فَقُلْتُ: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ، وعن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله عنها، قال: سَأَلْتُهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قَالَتْ: نَهْرٌ أُعْطِيَهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ آيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ^(٣)، ومن الأنهار: نهر الشهداء ذكره ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيًا»^(٤).

الأصل الثالث: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، وهذا الأصل يشعرهم بالحماية من أن ينقطعوا عن ذلك النعيم أو ينقطع عنهم ذلك النعيم، وأكد لهم ديمومة هذا النعيم وذاك التنعم بكلمتين: خالدين فيها أبداً، فالجمع بين الخلود والتأبيد، يدل على أن الخلود عبارة عن طول المكث من غير بيان أنه منقطع أو غير منقطع، فجاءت لفظة:

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١١ / ٢٦٣)، رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه..

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١١ / ٢٦٣)، رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير إسماعيل بن عبد الله بن خالد وهو ثقة.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ٢١٩).

(٤) أحمد (١ / ٢٦٦)، وحسن إسناده الأرنؤوط.

﴿أَبَدًا﴾ لتؤكد التأييد.

الأصل الرابع: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، إنها الدلالة على الصحبة الممتعة، ووصف الأزواج بأنها مطهرة؛ ليعين أنهن جمعن بين طهارة الباطن، وهي الطهارة النفسية والعقلية والخلقية كما قال تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي مكرمة مطهرة من الأدناس والباطل، وطهارة الظاهر التي تشمل التنزه من النقائص الدنيوية فلا يحضن ولا يمرضن ولا يتغيرن ولا يحتجن إلى ما تحتاج إليه نساء أهل الدنيا بعد الأكل والشرب كما قال تعالى: ﴿أَن طَهَرَا بَيَّتَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾، ومن ذلك الطهارة التي تعني جمال الخلق وبراءته من العيوب ويدل له قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (الفرقان: ٤٨).

الأصل الخامس: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

ظل ظليل لتصوير تركيبه ومضاعفته، فهو ظل مزدوج أي ظل مظلل كما تقول العرب: يوم أيوم، وليل أليل، وما زلنا نقول: سقف مسقوف.

هنا ستسأل متعجباً: فما حاجتهم للظل، وهم لا يرون شمساً ولا زمهريراً؟

الظل لا يقتصر على الشيء الذي يظهر بسبب انسحاب الشمس من مكانه فقط، بل يمكن أن تقول هذا ظل العرش، ويمكنك بوضوح أن ترى ظل الصباح أي ما بعد الفجر إلى طلوع الشمس، وهو قول روي عن ابن مسعود أنه قال: «الجنة سَجَسَج، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس» فالظل أعم من الفيء، وقد نص علماء اللغة على أن الظل ضد الضح وهو أعم من الفيء، فإنه يقال: ظل الليل وظل الجنة، ويقال: لكل موضع لم تصل إليه الشمس: ظل ولا يقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس، ويعبر بالظل عن العزة والمنعة وعن الرفاهة، وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا

ظَلِيلًا ﴿ كناية عن غضارة العيش ﴾^(١)، وانظر إلى بعض ذلك الظل في قول النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاکِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»^(٢)، وذكر ابن حجر أن معنى قوله: «في ظلها» أي في نعيمها وراحتها ومنه قولهم: عيش ظليل، وقيل: معنى ظلها ناحيتها وأشار بذلك إلى امتدادها^(٣)، ومنه تعلم أن المقصود أن ظل الجنة دائم لا تنسخه الشمس كظل أهل الدنيا وذلك لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها، لكن الظلال الموجودة تختلف ووصف الظل بأنه ظليل يدل على أنه ليس ظلًّا كثيبًا كما في الدول التي لا تظهر فيها الشمس إلا لمأما، ويسبب ذلك كآبة تجعلهم يشعرون بالرغبة في الانتحار أحيانًا، فوصفه بالظليل ليبين جماله وأنه عليل.. وتشعر بجمال الظل في يوم لا شمس فيه.. وماذا تحسب؟ أتظن عدم وجود الشمس يعني أن يعيش أهل الجنة في ظلام، لا وعزة ربك فإنه يقول جل مجده: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر: ٦٩)، إنه الظل الظليل الذي يعبر عن العيش الناعم الغض النضر كما يعبر عن ازدواج تركيبه على هيئة الله يعلم جمالها ومتعتها، وانظر إلى قول حمدة بنت زياد بن تقي العوفي الأندلسية في وصف ظل دنيوي فكيف يكون ظل الجنة:

وقانا لفحة الرمضاء وإِدِّ سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحننا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً أَلْذَمَنَ المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها، ويأذن للنسيم

فتدوق هناك أعظم أنواع الراحة في السكنى، والاستقرار؛ وذلك بحسب شهوة الإنسان، وإرادته، ومنها جمال البيئة المحيطة.

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٢٦).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٤٤) برقم ٣٢٥١.

(٣) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٢٦).

هي جنة طابت وطاب نعيمها فنعيمها باق وليس بفان
دار السلام وجنة المأوى ومنزل ثلة الإيمان والقرآن
جيران رب العالمين وحزبه أكرم بهم في صفوة الجيران
فيها الذي -والله- لا عين رأت كلا ولا سمعت به الأذان
أنهارها تجري لهم من تحتهم محفوفة بالنخل والرمان

ويتكرر ذكر المستقبل الأخرى في القرآن؛ لأن المعتدين من أهل الكتب الثلاثة، يشاركون تغطية أعين العالم عن معرفته:

فتحريف الكلم عن مواضعه، قد بلغ أشده في موضوع الآخرة، فأما الغافلون من النصراري والمسلمون، فلا يبرزون ذلك على المستوى العالمي، على الرغم من ذكره في كتابيهم، وأما اليهود فتتفاجأ من خلو التناخ اليهودي (التوراة، والأسفار الأخرى) من الإشارة إلى اليوم الآخر صراحة، وهاك نماذج غير واضحة عن اليوم الآخر في التناخ، ففي سفر حزقيال نوع من المعجزة بإحياء الموتى، ولكن دون إشارة إلى اليوم الآخر، وورد في الأسفار كلام عن يوم الرب، ولكن لا يدري هل هو من بقايا النصوص التي تثبت الآخرة أم من النصوص التي تتكلم عن مجيء ملك اليهود في آخر الزمان.

ففي سفر أشعياء:

١٩: ٢٦ تحيا أمواتك، تقوم الجثث، استيقظوا ترنموا -يا سكان التراب-.

وفيه:

١٣: ١٢ فلنسمع ختام الأمر كله، اتق الله، واحفظ وصاياي؛ لأن هذا هو الإنسان كله.

١٤: ١٢ لأن الله يحضر كل عمل إلى الدينونة على كل خفي إن كان خيراً أو شراً.

وورد في الأسفار كلام عن يوم الرب، ولكن لا يدري هل هو من بقايا النصوص التي تثبت الآخرة أم من النصوص التي تتكلم عن مجيء ملك اليهود في آخر الزمان..

اسمع إلى هذه النصوص التي يعترئها بعض الغموض:

ففي سفر أشعيا:

١٣: ٤ صوت جمهور على الجبال شبه قوم كثيرين.. صوت ضجيج ممالك
أمم مجتمعة. رب الجنود يعرض جيش الحرب.

١٣: ٥ يأتون من أرض بعيدة من أقصى سماوات الرب، وأدوات سحقه
ليخرب كل الأرض.

١٣: ٦ ولولوا؛ لأن يوم الرب قريبٌ قادمٌ كخرابٍ من القادر على كل شيء.

١٣: ٧ لذلك ترتخي كل الأيدي، ويذوب كل قلب إنسان.

١٣: ٨ فيرتاعون تأخذهم أوجاعٌ ومخاض، يتلوون كوالدة، يبهتون بعضهم
إلى بعض، وجوههم وجوه لهيب.

١٣: ٩ هو ذا يوم الرب قادمٌ قاسياً بسخطٍ، وحمو غضب؛ ليجعل الأرض
خراباً، ويبيد منها خطاتها.

وفي سفر يوشع:

١: ١٥ آه على اليوم لأن يوم الرب قريبٌ يأتي كخراب من القادر على كل شيء

وفيه:

٢: ٣١ تتحول الشمس إلى ظلمة، والقمر إلى دم قبل أن يجيء يوم الرب العظيم
المخوف.

وفيه:

٣: ١٤ جماهير جماهير في وادي القضاء؛ لأن يوم الرب قريب في وادي القضاء

٣: ١٥ الشمس والقمر يظلمان والنجوم تحجز لمعانها

وفي سفر صفنيا:

١: ١٤ قريب يوم الرب العظيم. قريب وسريع جدًا صوت يوم الرب. يصرخ حينئذ الجبار مرا

١: ١٥ ذلك اليوم يوم سخط، يوم ضيق وشدة، يوم خراب ودمار، يوم ظلام وقتام، يوم سحب وضباب

وفي سفر أشعيا:

١٢: ١٣ فلنسمع ختام الامر كله اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله

١٢: ١٤ لأن الله يحضر كل عمل إلى الدينونة على كل خفي إن كان خيرا أو شرا

وفي سفر الجامعة

٣: ٢٠ يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما.

فرفض المفكر الديني موريتس لازاروس فكرة خلود روح الفرد وفكرة الآخرة. أما هرمان كوهن، فيرى أن خلود الروح في اليهودية ينطبق على الشعب ككل، لا على أفراد، فالشعب هو وحده الذي لا يموت (فتاريخه أزلي) ^(١).

وهنا تعرف لماذا يذكر الله المصير الأخروي للكفار بآياته وللمؤمنين في هذا الموضع، ففي مقابل هذا التجاهل الفاحش للحياة الأخروية في التوراة الموجودة الآن ترى التربية القرآنية تكرر ذكره.



(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

القسم الثالث

أسس الإدارة الراشدة التي تضمن أداء
الحقوق الإنسانية إلى أصحابها

(النساء: ٥٨-٥٩)

آيات هذا القسم:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ (النساء: ٥٨-٥٩).

المناسبة والاتصال:

أدار الله السورة على بيان حق الجنس الإنساني في الاستقرار والانتشار، ولذا لا بد أن يقيم أفراد الحقوق الإنسانية المختلفة المتبادلة، وذكر تعالى شأنه في القسمين السابقين الدور الخطير الذي يمارسه الصنف القيادي الذي يشتري الضلالة ويهدف إلى إضلال العالم؛ ليحرم الإنسانية من حقوقها.. لقد كشف الله عن أجناسهم، وطبيعتهم الدنسة القائمة على تزكية النفس، وتزكية مجرمي العالم، والهوى المريض والشهوات العابثة، والبخل، والحسد، ومضادة إرث إبراهيم عليه الصلاة والسلام.. ينتمي هؤلاء المعتدون على الحقوق العالمية إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، وقد بينا أن ذلك حقيقة عرفية قرآنية في اليهود والنصارى ويلحق بهم المسلمون، وحتى لا تظن أن مسألة الحقوق الإنسانية مجرد كلام ديني عاطفي جاء هذا القسم الإداري

الدستوري لتجد فيه أن الله جل مجده أنزل إلى البشرية آيتين مركزيتين في السورة تبيان الأسس الدستورية والتشريعية للإدارة الراشدة التي يجب إنشاؤها لتوصل الحقوق إلى الإنسانية، حتى يمكن للعالم أن يستوفي حقوقه.

وبذا تُرسي آيات هذا المحور الأسس الدستورية التي تبني أمةً متمدنة محكومةً بتشريعاتٍ واضحةٍ يمكنها إيصال الحقوق إلى أهلها، وجعل الحقوق المادية والعقلية والمعنوية واجباتٍ محددة تسهر عليهما الحكومات المتولية للأمور العامة، وهنا ترى الإعجاز القرآني في تصوير أسس الإدارة الراشدة التي تقوم بدورها في إيصال الحقوق الإنسانية لأصحابها بواسطة طريقين:

الطريق العام: بأداء الأمانات إلى أهلها.

والطريق التنظيمي الخاص: الحكم بين الناس بالعدل، وتوابع، ذلك، ثم يرفع الله لنا صراطاً مستقيماً في بيان كيفية إنشاء سلطة تنظم كل ذلك، والعلاقة بينها وبين الإنسانية التي تديرها، ويضع الله لنا بصائر دستورية مدهشة تسبق كل النظم الإدارية الحديثة، وعندها تجد البشرية في ظل هذه الإدارة الراشدة خيراً وأحسن تأويلاً في واقعها وحياتها، حيث ترى الله جل جلاله يبين لك ذلك هنا في آيتين فقط بصورة معجزة أهم الأسس الدستورية للقيادة البشرية الراشدة بصورةً تشريعية مذهلة.. هاتان الآيتان تقرران الأسس الدستورية التي يمكننا أن نرد إليها آلاف المسائل والأحكام الموجودة والحادثة، وهذه الأسس هي:

الأساس الأول:

أداء الأمانات إلى أهلها، وذلك يعني القيام بحقوق الإنسان، بمنح كل إنسان حقوقه في الحياة، بعيداً عن مؤسسات العنصرية، والفساد الأخلاقي، وسوق السلاح، وتجارة الحروب والاعتداء.

فالأمانة من الأمن، وَيُصَرِّفُنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨)، والأمانات جمع أمانة، وهي: ما يُؤمَّنُ عَلَيْهِ الإنسانُ، مِنَ الْأَمْنِ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، تشمل الحقوق المختلفة التي يجب على الإنسان أداؤها بإعطاء كل ذي حقِّ حقه، فأداء الأمانات إلى أهلها أساس الأمان الفردي، والمجتمعي، والعالمي.

وَمَعْنَاهَا: سُكُونُ الْقَلْبِ، وَطُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ عند التعامل مع الأمين؛ وَعَدَمُ الْخَوْفِ من خيانتِهِ، أو غدرِهِ، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ (آل عمران: ٧٥)؛ فالأمانة تقتضي ثلاثة أركان: الطرف الأول: (المؤمن)، والطرف الثاني: (المؤمن)، والطرف الثالث: الحق الذي تم الائتمان عليه، وهو الذي نسميه: (الأمانة)، فيدخل فيه كل الحقوق البشرية المادية والمعنوية، التي تصلح أن تكون موضعاً للائتمان عليه من قبل طرفٍ لآخر؛ ولذا جمع الله الأمانة في الآية، والأمانة يمكن تعريفها بأنها حق الغير، فالإنسان إِمَّا أَنْ يَتَعَاطَلَ مَعَ رَبِّهِ، أَوْ مَعَ سَائِرِ الْعِبَادِ، أَوْ مَعَ نَفْسِهِ، وَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَرعى أمانة تعامله مع هذه الجهات الثلاث، وفهم السلف هذا الشمول العظيم لمعاني الأمانة، فعن أَبِي الْعَالِيَةِ، قال: الْأَمَانَةُ مَا أُمِرُوا بِهِ، وَنَهُوا عَنْهُ^(١)، ومن هنا تدرك بسهولة لأي شيء تكرر جمع الأمانة في القرآن الكريم.. اسمع الله عز وجل يقول لك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧)، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون: ٨، المعارج: ٣٢)، ولهذا التنوع سمي الله البيوع والتجارات أمانة فقال: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِينَ أَوْثَقْنَ أَمْنَتَهُمْ﴾ (البقرة: ٢٨٣)، وبين النبي ﷺ هذا التنوع الهائل للأمانات حتى في الكلام البيني فقال: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِحَدِيثٍ

(١) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي برقم: (٥٠٢).

ثُمَّ التَّفَتَ فَهُوَ أَمَانَةٌ»^(١). بهذا يتضح أن رَدَّ الودائع مظهرٌ يسيرٌ من الأمانات.. لقد دخل في مفهوم الأمانة كل شيء من الحديث الذي يكون بين اثنين إلى إقامة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى إقامة أعظم الحقوق الكونية بالإيمان بالله وحده لا شريك له، ولأن الأمانة تمثل الحقوق والواجبات البشرية جميعاً عَظَّمَ الله شأنها فَقَالَ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ (الأحزاب: ٧٢)، ويدخل في الأمانة: إفشاء العلم ونشره، وتعليم ما لا يسع جهله، وهي أمانة تجب على العلماء بالفعل والتنفيذ، وعلى المقتدرين بالتهيئة المناسبة. انظر لرحابة فهم ابن عباس رضي الله عنه حيث ذكر قول ربنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

ثم قال: يدخل فيه وعظ السلطان النساء يوم العيد^(٢)، فمن الأمانة أن تؤدي السلطة التنفيذية حق النساء في أن يجتمعن وأن يتم تعليمهم يوم العيد، وهنا تطرب عندما تشعر بهذا المعنى في الآية؛ إذ لم يقل ربك جل ثناؤه: أن تؤدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها بل أوجب أداء الأمانة إلى أهلها، فالله ائتمنك على قدرات كثيرة لتؤديها إلى أهلها، فمن ذلك: أنه ائتمن أهل العلم على العلم، وأهل الحكم على الحكم، وأهل القدرة على القدرة، وأهل الجاه على الجاه، وأهل المال على المال.. ائتمن كلاً منهم على نوعٍ أو أنواعٍ ليقوموا بأداء الأمانات إلى أهلها الذين ينبغي إيصال الأمانة إليهم.

والأمانة العملية في الحياة تمثل روح الإسلام، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما خطبنا نبي الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها، إلا الأمانة، قال: يؤتى

(١) أبو داود (٤ / ٤١٨) برقم ٤٨٧٠.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩ / ٩٥).

العبد يوم القيامة، وإن قتل في سبيل الله، فيقال: أد أمانتك، فيقول: أي رب، كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه؛ حتى إذا ظن أنه خارج قلت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها، وأشد ذلك: الودائع. قال -يعني زاذان-: فأتيت البراء بن عازب، فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود! قال: كذا، قال: صدق، أما سمعت الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(١).

فأساس إقامة الحقوق الإنسانية أداء الأمانة، وهي الوسيلة الوحيدة لمواجهة تأمر الحسدة بالخلاء من مجرمي العالم الذين يزكون أنفسهم، ويكون معهم عصابات الإجرام الإنسانية.. أداء الأمانة أهم وسيلة تبعد الرأي العام عن الوقوع في أيدي المجرمين، وتبقي الوضع على خير حالٍ تنموي مستقر، وأحسن عاقبة ومصيراً.

ويجب أداء الأمانات إلى أهلها، ولو كانوا فجرة، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هِيَ مُبَهَمَةٌ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ^(٢)، وقد قطع النبي ﷺ بتوجيهاته الحازمة، فقال: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»^(٣).

أجل! إنه خلق المؤمنين، وليس خلق الفيتو الذي يمتصون حقوق

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٤٨٠) برقم: (١٧٠١)، وحسنه مشهور سلمان، وذكره الألباني في الصحيحة برقم: (٢٩٩٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٢/ ٢٢٢) برقم (٣٣٢٣٠).

(٣) الترمذي (٣/ ٥٦٤) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني.

الآخرين بالهوى والتشهي والظلم، واسمع إلى استنباط أهل العلم ذلك من هذه الآية، فقد قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: ثَلَاثَةٌ يُؤَدِّينَ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ: الْأَمَانَةُ، وَالْعَهْدُ، وَصِلَةُ الرَّجْمِ^(١).

بل يوسع ابن عباس رضي الله عنه فهمنا لذلك كأنه يكلم هؤلاء الذين يستبيحون أموال الناس بغير حق، فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، فإنه لم يرخص لموسر ولا معسر أن يمسكها^(٢).

فهذه الآية تبين أهم قواعد التعامل الحيوي البيني، فهي أساس النمو في الموازين الاقتصادية، والأمن الاجتماعي، ومن دونها تختل الأنظمة، ويأكل الناس بعضهم بعضاً على هيئة أسوأ من أوضاع حيوانات الغابات.. هنا تعلم لماذا يحذر النبي صلى الله عليه وسلم في بلاغه العالمي من خلال نظره المستقبلي من رفع الأمانة في حياة الناس، فعن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيُظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى فِيهَا أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ كَجَمْرِ دَحْرَجَتْهُ عَلَى رِجْلِكَ فَتَقَطُّ فَتَرَاهُ مُتَبَرِّجًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، وَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فَيَقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ، وَلَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ لَيْثَنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهَ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهَ عَلَيَّ سَاعِيهِ وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا^(٣)..

(١) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٣١) برقم: (٢٦٠١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٩٣).

(٣) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٩/ ٦٦).

وترى الإعراض عن هذا التوجيه الإلهي واضحًا في تحول كثير من الناس والمؤسسات العالمية إلى مجموعات من المرتزقة الذين يأكلون الأمانات، ويجعلونها مغانم، فعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله صلاة الصبح، فلما صلى صلاته ناداه رجل: متى الساعة؟ فزجره رسول الله صلى الله عليه وآله وانتهره وقال: «اسكت» حتى إذا أسفر رفع طرفه إلى السماء فقال: «تبارك رافعها ومدبرها». ثم رمى ببصره إلى الأرض فقال: «تبارك داحيها وخالقها». ثم قال: «أين السائل عن الساعة؟». فجثا رجل على ركبتيه فقال: أنا بأبي وأمي سألتك فقال: «ذاك عند حيف الأئمة، وتصديق بالنجوم، وتكذيب بالقدر، وحتى تتخذ الأمانة مغمنا، والصدقة مغرمًا، والفاحشة زيارة، فعند ذلك هلك قومك»^(١)،

وظن بعض الناس أن الآية نزلت في حادثة خاصة هي ما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة -أي وهو يناولهم مفاتيح الكعبة-: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»^(٢)..

إلا إنك ترى أن هذه الحادثة لم يرد فيها في طريق صحيح أنها سبب نزول الآية، والآية عامة تقرر أداء الأمانات إلى أهلها بأنواعها..

واسمع إلى هذا النموذج الفريد في بيع الأمانة ضمن التاريخ الصافي للتطبيق القرآني حيث يحكي أمية بن بسطام، قال: «جاءت يونس بن عبيد امرأة بجبة خز، فقالت له: اشتريها، فقال: بكم تبيعيها؟ قالت: بخمسمائة، قال: هي خير من ذلك،

(١) البزار ٣/ ٣٨٤، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧ / ٦٣٣): «رواه البزار وفيه من لم أعرفهم».

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٩ / ٣٢٨).

قَالَتْ: بِسِتِّمَاتِهِ، قَالَ: هِيَ خَيْرٌ مِنْ ذَاكَ، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ: هِيَ خَيْرٌ مِنْ ذَاكَ حَتَّى بَلَغَتْ أَلْفًا وَقَدْ بَذَلَتْهَا بِخَمْسِمِائَةٍ «، ويحكي مُؤَمِّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ إِلَى سُوقِ الْخَزَازِينِ فَقَالَ: مِطْرَفُ بَارَبَعِمَائَةٍ، فَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: عِنْدَنَا بِمِائَتَيْنِ، فَادَى الْمُنَادِي بِالصَّلَاةِ، فَانْطَلَقَ يُونُسُ إِلَى بَنِي قُشَيْرٍ لِيُصَلِّيَ بِهِمْ فَجَاءَ وَقَدْ بَاعَ ابْنُ أُخْتِهِ الْمِطْرَفَ مِنَ الشَّامِيِّ بَارَبَعِمَائَةٍ، فَقَالَ يُونُسُ: مَا هَذِهِ الدَّرَاهِمُ؟ قَالَ: ذَاكَ الْمِطْرَفُ بَعْنَاهُ مِنْ ذَا الرَّجُلِ، قَالَ يُونُسُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا الْمِطْرَفُ الَّذِي عَرَضْتُ عَلَيْكَ بِمِائَتَيْنِ دِرْهَمٍ، فَإِنْ شِئْتَ خُذْهُ وَخُذْ مِائَتَيْنِ، وَإِنْ شِئْتَ فَدَعُهُ، قَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ: بَلْ أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ مَنْ أَنْتَ وَمَا اسْمُكَ؟ قَالَ: يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ قَالَ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَكُونُ فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، فَإِذَا اشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَيْنَا، قُلْنَا: اللَّهُمَّ رَبِّ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ، فَرِّجْ عَنَّا، أَوْ شَبِّهْ هَذَا، فَقَالَ يُونُسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ»^(١).

إنه حق تأدية الأمانات إلى أهلها، سواءً كانت تلك الأمور من بابِ المَذَاهِبِ وَالدِّيَانَاتِ، أَوْ مِنْ بَابِ الدُّنْيَا وَالْمُعَامَلَاتِ، وفي مقدمتها أمانة الحكم، وفي مقدمة من يؤمر بهذا الحق المؤمنون من أمة النبي ﷺ. ولا ينبغي لأحد أن يتعلل أو يعتذر عن عدم قدرته على أداء الأمانات إلى أهلها، فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم، وقد قيل:

لَوْ صَحَّ مِنْكَ الْهَوَى أُرْشِدْتَ لِلْحِيلِ

الأساس الثاني:

أعظم الأمانات بعد أمانة التوحيد: أمانة الحكم بالعدل، وَبُصَّرْنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، ومعنى الآية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَيَأْمُرُكُمْ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ مُطْلَقًا - مسلمهم وكافرهم - أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ.

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣ / ١٥).

فانظر لجمال ذلك: العدل مطلوب مع كل أحد، والآية منسجمة مع مقصد السورة الأصلي في إثبات الحقوق الإنسانية عموماً، وحسبك أن تجد مثل هذا النص ليطمئن غير المسلم لأمانة المسلم وعدله.. وعلى ذلك عاشت الأقليات غير المسلمة واثقة من نيل حقوقها في المجتمعات المسلمة كما هو معلوم عبر التاريخ قبل أن تستجد المجتمعات الغربية هذه المبادئ في السنوات الأخيرة فقط.

تعال لتأمل مسألة أخرى وهي اقتران الأمانة بالحكم بالعدل لأن أول مظاهر الأمانة تولية الأكفاء الذين يعدلون، ويمكن التفريق بين الأمانة والعدل بأن يقال:

الأمانة حق في ذمتك تؤديه إلى الغير، والعدل حق عند الغير تؤديه إلى الغير، ولكنك عند التوسع تجد أن العدل يدخل فيه أن تنصف من نفسك، فالعدل ذاته أمانة لكنه يتعلق بأمانة القوة أو بأمانة القضاء، وانظر لفهم زيد بن أسلم لهذا الموضوع حيث قال: نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ في ولاية الأمر^(١).

وهناك ضياء آخر في الآيات حيث جاء الأمر بالعدل بعد أن بين الله فيما سبق أنه آتى بعض أهل الكتاب الملك والحكمة وآتاهم ملكاً عظيماً، لكنهم لم يرعوه حق رعايته، ولا استمعوه حق استماعه، ولا قاموا بأداء حقوقه.. فأمر هذه الأمة بتصحيح مسار ذلك الاعوجاج الإسرائيلي والنصراني المذهل، فإن حكموا بين الناس فليحكموا بالعدل لا بشريعة الظلم والمحاباة العنصرية التي زخرت تحت شعارات كثيرة منها ما يسمى (الفتو).

والحكم: الإلزام بالنافع، والردع عن الضار، فيقال: حَكَمْتُ السفينة وأَحْكَمْتُه، إذا أَخَذْتَ على يده، ومنه: حَكَمَةُ اللَّجَامِ، وَهِيَ الْحَدِيدَةُ الَّتِي تُجْعَلُ فِي فَمِ الْفَرَسِ، وَيُقَالُ: أَحْكِمُ فَلَانًا، أَيِ أَمْسِكُهُ قَالَ جرير:

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٩٠).

أَبْنِي حَنِيفَةً أَحْكِمُوا سَفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضِبَا
فصار الحكم بالعدل الإلزام به، والعدل عِبَارَةً عَنْ إِيصَالِ الْحَقِّ إِلَى صَاحِبِهِ
بِأَحْسَنِ الطَّرِيقِ، ويكون بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ، وهو المِثْلُ، وَالْعَدِيلُ: المِثْلُ وَفُلَانٌ يَعْدِلُ
فُلَانًا أَيُّ يُسَاوِيهِ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلْ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ (المائدة: ٩٥)، قَالَ مُهْلَهُلُ:

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلِّبٍ	إِذَا ظَهَرَتْ مُخَبَّأَةُ الْخُدُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلِّبٍ	إِذَا خَافَ الْمُغَارَ مِنَ الْمُغِيرِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلِّبٍ	إِذَا طُرِدَ الْيَتِيمَ عَنِ الْجَزُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلِّبٍ	إِذَا مَا ضَيَمَ جَارُ الْمُسْتَجِيرِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلِّبٍ	إِذَا ضَاقَتْ رَحِيْبَاتُ الصُّدُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلِّبٍ	إِذَا خَافَ الْمَخُوفُ مِنَ الثُّغُورِ

فالعدل هو القيمة الحقيقية، وأما المساواة فقد تكون عدلاً، وقد لا تكون كذلك
إذا لم تعط كل ذي حقِّ حقَّه، أما إعطاء بعض الأطراف أكثر من حقه، أو إعطاء
بعضهم أقل من حقه، فذلك الظلم المحض، والعدل يكون في تقسيم الحقوق،
وفي تنفيذ هذا التقسيم، وهو الذي فصله الله بقوله: ﴿لَا تَطْلُمُونْ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾
(البقرة: ٢٧٩).

وأعظم الأمانات على الإطلاق بعد التوحيد وعدم الشرك: أمانة الحكم بين
الناس سواء أكانت من الملك والرئيس والقاضي والوزير، أو من الحاكم الذي
يقصده الناس ليكون مرجعهم عند الاختلاف ولو لم يكن ملكاً أو رئيساً أو وزيراً،
وربما تقول ولماذا بالذات ذكر الحكم بالعدل بعد الكلام عن وجوب أداء الأمانات؟
تعال بنا للتساءل عن مراتب الناس في الأمانة: أليس أعظم الناس أمانة هو الذي ائتمنه
إنسان على مبلغ عظيم من المال؟ أليس كلما كثر المال الذي أضعه عندك يزيد عبء

تحمله، وثقل أدائه؟ إذن فكيف ترى بمن ائتمنه الناس على أديانهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم وعقولهم، وطلبوا منه الحكم في ذلك، وفوضوا إليه إدارة كل ذلك؟

ولماذا لا يذكر الله هذا الأساس العظيم في أداء الأمانة، وأعظم التبعات إنما تقع على المتسلطين من ذوي النفوذ والرئاسات الذين يضلون الملايين أو يهدونهم سواء السبيل؟

لقد كان دأب الربانيين أن يذكروا من صمدوا للحكم بين الناس أن يؤدوا الأمانات بالحكم بالعدل، ويحذروا من أدنى غش يصل إلى الرأي العام عن طريقهم، فعن الحسن: قَالَ: أَتَيْنَا مَعْقِلَ بْنِ يَسَارٍ نَعُوذُهُ، فَدَخَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: أُحَدِّثْكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(١).

هنا نفهم لماذا قال الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ثم بين عظمة التشريع الإسلامي الذي يجمع بين وجوب أداء الأمانات وإقامة العدل فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعْظُمُ بِهِ﴾ (النساء: ٥٨).

إن العدل قوام الملك، ودوام الدول، ورأس كل مملكة سواء أكانت نبوية أم اصطلاحية^(٢)، فجاءت هذه الجملة لبيان خصوص أمانة الحكم لأهميتها بعد أن عمم الكلام على الأمانات في الجملة السابقة، وقد ملأ الكلام عن أمانة الحكم حيزاً طويلاً، ومحاور متتابعة، وملفات متنوعة من هذه السورة، فذكر الله أمانة التحاكم اعتباراً من الآية ٦٠ إلى الآية ٧٠، ثم أمانة إدارة الأمن القومي العسكري والأمني وحماية

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٨٠).

(٢) سراج الملوك (ص: ٥١).

المستضعفين في الأمة الإسلامية اعتبارًا من الآية ٧١ إلى الآية ٨٧، ثم أمانة التعامل مع العناصر المدمرة للجسد الإسلامي وهم العناصر المعروفون بالمنافقين، ثم ذكر أمانة الدماء البريئة المسلمة والمسالمة، وعصمتها، وحرمتها، ثم أمانة التقاضي والحذر من الدفاع عن الذي يختانون أنفسهم، ثم أمانة إنشاء المؤسسات المدنية التي تأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، ثم أمانة إقامة حقوق النساء والزوجات خاصة، ثم أمانة الانتماء والولاء ورفع الظلم الاقتصادي والفكري عن البشرية...

كل هذه المحاور والملفات الرائعة التي تديرها سورة النساء لحماية الحقوق البشرية قائمة على أساسين: أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل، وهما العاملان المؤثران في صلاح المجتمعات وسعادتها في الدنيا والآخرة، ولأن الحكم بالعدل رأس صلاح الدنيا، وأساس هداية العالمين، وقوام سعادة البشرية كرر الله الأمر به في مواضع متعددة مثل قوله -جلّ مجده-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ (النحل: ٩٠)، وقوله: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٨)، وقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ (النساء: ١٣٥) وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ (ص: ٢٦) وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الْعَدْلِ الْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِي مَدْمَةِ الظُّلْمِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَخْشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ (الصفافات: ٢٢) وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (إبراهيم: ٤٢) وَقَالَ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ (النمل: ٥٢) فَإِنْ قِيلَ: الْغَرَضُ مِنَ الظُّلْمِ مَنْفَعَةُ الدُّنْيَا أَجَابَ اللَّهُ عَنِ السُّؤَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥٨).

وقد قيل: من عدل في سُلْطَانِهِ اسْتَعْنَى عَنْ أَعْوَانِهِ، وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْمَلِكُ يَبْقَى عَلَى الْكُفْرِ وَلَا يَبْقَى عَلَى الظُّلْمِ، وَاللَّهُ يَقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ الْكَافِرَةَ، وَيَبِيدُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ الْمُسْلِمَةَ، وَفِي ذَلِكَ قَالُوا:

عَلَيْكَ بِالْعَدْلِ إِنَّ وَلِيْتَ مَمْلَكَةً وَاحْذَرْ مِنَ الْجورِ فِيهَا غَايَةَ الْحذرِ
فَالْمَلِكُ يَبْقَى عَلَى الْكُفْرِ الْبَهِيمِ وَلَا يَبْقَى مَعَ الْجورِ فِي بَدْوٍ وَلَا حَضَرٍ

وبعض المفاهيم السائدة عند الناس في غاية الغرابة والبعد عن العدل، فالمدير مثلاً يردد ويزبد في أداء الموظف لأمانة وظيفته - وهذا جيد - ولكنه ينسى أمانة مسؤوليته، وبعض الناس يشدد في أمانة البيع بمائة أو مائتين لوزن مدٍّ أو صاع أو كيلو أو كيلوين ثم هو يطفف في مناقصات تبلغ الملايين، بل ربما تلاعب بثروات الأمة التي تكفيها لأجيال، فيتلاعب بها مع الشركات العابرة للقارات ثم يذهب يتسول لشعبه، والقوانين الجاهلية الأولى والأخرى متفننة في تشريع الظلم وإسباغ المشروعية له، وترجع كلها إلى وضع امتيازات لجهات، أو إظهار الغضب على جهات مثل القوانين التي يضعها من يسمون بالثوار بدافعِ الْعَصَبِ عَلَى مَنْ كَانُوا مُتَوَكِّلِينَ الْأُمُورَ قَبْلَهُمْ، ومثل قوانين الفيتو التي وضعتها أمم تظهر أن لها امتياز التلاعب بحقوق الأمم وثرواتهم بل تستعبد الأمم بهذا النظام العنصري الأكثر شناعة في التاريخ الذي يسمى الفيتو، وتخيل أن هذا الحق العنصري الظالم قد استخدم لإشاعة الظلم العالمي منذ تأسيس الأمم المتحدة عام ١٩٤٥، إلى عام ٢٠١٠ تقريباً بصورة بشعة، فقد استخدم الاتحاد السوفيتي وروسيا حق الفيتو (النقض) ١٢٣ مرة، والولايات المتحدة ٧٦ مرة وبريطانيا ٣٢ مرة وفرنسا ١٨ مرة، بينما استخدمته الصين ٨ مرات..

عد بنا إلى جمال العدل القرآني واقتران أداء الأمانة إلى أهلها بإقامة العدل في الحكم يدل على شدة العلاقة بينهما، وقد بين النبي ﷺ شدة العلاقة بينهما، وأن من أعظم مظاهر خيانة الأمانة تولية غير الأكفاء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّى

إِذَا قَضَىٰ حَدِيثُهُ قَالَ: أَيْنَ - أَرَاهُ - السَّائِلُ، عَنِ السَّاعَةِ قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ إِذَا وُصِدَ الْأَمْرُ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ^(١).

وقد بين النبي ﷺ جسامة مسؤولية الحكم، فعن ابن عباس ؓ يرفعه قال: «ما من رجلٍ ولي عشرة إلا أتى به يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه حتى يقضى بينه وبينهم»^(٢). وهل هذه الجسامة لمسؤولية العدل والمحاسبة الشديدة عليها تجعل من الأفضل ترك المسؤولية، واعتزال الإمرة؟

بل هذه الجسامة للمسؤولية تجعل الحرص على العدل قائداً لأعظم الأجور يوم القيامة، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ..»^(٣)، فبدأ بالإمام العادل لعظم أثره في إصلاح البشرية، وعن أنس بن مالك ؓ: عن النبي ﷺ قَالَ: «لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت، وإذا حكمت عدلت، وإذا استرحمت رحمت»^(٤)، وقد بين الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ القواعد القرآنية العامة التي أنزلها الله لإدارة الحكم بالعدل في جميع المجالات فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ عَلَى الْحُكَّامِ ثَلَاثًا: أَنْ لَا يَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ، وَأَنْ يَخْشَوْهُ وَلَا يَخْشَوْا النَّاسَ، وَلَا يَشْتَرُوا بِآيَاتِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا. ثُمَّ قَرَأَ ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصْلُونِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦)، وَقَرَأَ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٢٣).

(٢) الطبراني في الكبير ١٠ / ٢٨٢ برقم ١٢٥٢١، والأوسط ١ / ٩٤ برقم ٢٨٦، وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ١٦٨).

(٤) مسند أبي يعلى (٧ / ٩٨) قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف.

وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُ
الْكُفْرَ وَآخِشُونَ وَلَا تُشْتَرَوْا بِبَائِنَاتٍ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿٤٤﴾ (المائدة: ٤٤).

الأساس الثالث:

الشعور بالقيمة العالية والموثوقية الرفيعة للتوجيهات الإلهية.

ويثبت الله الشعور بذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨): هنا ربما تتعجب وتخطبني قائلاً: ماذا الذي تقوله؟ هذا مجرد ختام
للآية.. أقول لك: صحيح، وكونه تذييلًا رائعًا للآية لا يعني أنه لا يقدم أساسًا من
أسس الإدارة الراشدة، فربما جاريتني -أيذك الله- وقلت: وما علاقة الشعور بالقيمة
العالية للتوجيهات الإلهية بالإدارة الراشدة التي تمنح الإنسانية الحقوق؟ عندها:
أنظرنني وتأمل معي:

إن هذا الشعور بالقيمة العالية والموثوقية الكاملة للتوجيهات الإلهية يجعل
الحاكم والسلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية على ثقة تامة بوجود حلول يجب
استنباطها من هذه التوجيهات.. حلول للمشاكل الحالية، والأحداث المستجدة،
والأمور المتوقعة، ولذا يقول الله لك: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي
نعمَ شَيْءٌ يَعْظُمُ بِهِ، أَوْ نِعْمَ الَّذِي يَعْظُمُ بِهِ.. نعم الذي يوجهكم إليه مما يقيكم
المكروهات المستقبلية؛ إذ تنعم به حياتكم، وتطمئن به نفوسكم.. فبعد أن يذكر
الله الأساسين الكبيرين لإدارة الحياة (أداء الأمانات والحكم بالعدل) يجذب العالم
لتطبيق ذلك ببيان الأثر الكبير لتطبيق التوجيهات الربانية على مستوى الحياة البشرية
فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨).. إنه يحثهم على
استشعار مدى الثقة بالنص القرآني حيث تجد البشرية دولاً وأفراداً كل نعمة في اتباع
أوامر الله والسير وفق التعاليم القرآنية.

وَالْوَعْدُ: النُّصْحُ الذي يصحبه التذكيرُ بالعواقب والمآلات المستقبلية تذكيرًا يرق له القلب^(١)، ولماذا كان وعظ الله شيء يُتنعم به؟

لأن الله جل جلاله لا ينتفع من هذه الأوامر.. أنتم من ينتفع بها، وأعظم الأوامر نفعًا ما لا تجد فيه مصلحة للآمر؛ إذ صارت المصلحة كلها خالصة للمأمور، ونعمت الأوامر التي أَمَرَنَا الله بها؛ لأنه الكامل العلم والحكمة، فالأمر صدر عن علمٍ كامل، وحكمةٍ مطلقة، فلا يُخاف من أن يعتري هذه الأوامر النقص أو الخلل.. بل يطمئن السامع لها، ويثق بها، فكأنه جل ثناؤه يقول: يا أيها الناس، إن الله نعم الشيء يعظكم به، ونعمت العظة يعظكم بها عندما أَمَرَكُم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن تحكموا بين الناس بالعدل ليكون في ذلك صلاح المجتمعات، وإسباغ الأمن والأمان عليها.

ثم بين الله جل ذكره الرقابة الإلهية الدائمة لمدى تطبيقهم لتلك الأسس الثلاثة ﴿إِنَّا لِلَّهِ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ بأقوالكم وأفعالكم التي يتم من خلالها تطبيقكم لتلك التوجيهات القرآنية، فهذه الجملة الختامية «أَعْظُمُ أَسْبَابِ الْوَعْدِ لِلْمُطِيعِ، وَأَعْظُمُ أَسْبَابِ الْوَعْدِ لِلْعَاصِي» كما يقول الرازي، ولذا قال النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٢)، وحتى تفنى إلى أمر الله، وتحسن في تذوق التوجيهات السابقة ختم الله الآية بتذكيرك بهاتين الصفتين ليناسب ذلك أداء الأمانة والحكم بالعدل فإن السمع يتعلق باللفظ والبصر يتعلق باللحظ، فالله سميع للفظك بصير بلحظك، فلا يفتننك الشيطان فتتلاعب بلفظك أو تخادع بلحظك في الأمانة أو في الحكم بالعدل؛ إذ من الناس من يؤدي الأمانة صورة لا حقيقة، أو يوهم الناس أنه يحكم بالعدل صورة لا حقيقة، وما أكثر ما شاع هذا في زماننا، ولكن الله تعالى جده

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ١١٨١)، مقاييس اللغة (٦/ ١٢٦).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١/ ٢٠).

يخبرك أنه سميع بصير فأين تفر منه؟

وهو سميع بصير لكلامك وأفعالك التي تثبت حقيقة شعورك بالثقة بالوعظ الإلهي، وتثبت اعتزازك به.

ولاحظ أن الصفات الإلهية جاءت على المبالغة مع أنه كان يمكن أن تأتي على صيغة اسم الفاعل، فيقول: سامع ومبصر، ولكنه أتى بهذه الصيغة: سميع بصير ليُعلمك أنه السامع لكل شيء المبصر لكل شيء حتى لا يفوته شيء، وأتى بكان لما سبق أن أخبرناك أن صفاته ملازمة لذاته، فهو سميع بصير قبل أن يخلق المخلوقات جل شأنه.

الأساس الرابع:

يجب التزام النظام الدستوري الذي يحكم تفكير الإرادة الراشدة وتصرفاتها في المتفق عليه، والمتنازع فيه. وهذا النظام الدستوري يتمثل في المصادر والأصول التشريعية، وقد ذكر الله هذه الأصول في قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩).

وهذه المصادر التي يجب الرجوع إليها في التشريعات المتعلقة بالأمانات والعدل، وفض النزاعات، سواء أكان ذلك من قبل الحكام أم قبل المحكومين، ولذا قال الرازي: «هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ شَرِيفَةٍ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَكْثَرِ عِلْمِ أَصُولِ الْفِقْهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفُقَهَاءَ زَعَمُوا أَنَّ أَصُولَ الشَّرِيعَةِ أَرْبَعٌ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى تَقْرِيرِ هَذِهِ الْأَصُولِ الْأَرْبَعَةِ بِهَذَا التَّرْتِيبِ»^(١).

(١) تفسير الرازي (١٠ / ١١٢).

فالمناسبة والاتصال هنا في غاية الوضوح، وتظهر الآية أن الله لَمَّا أَمَرَ الرُّعَاةَ وَالْوُلَاةَ بِالْعَدْلِ فِي الرِّعِيَّةِ أَمَرَ الرِّعِيَّةَ بِطَاعَةِ الْوُلَاةِ، وأخضع الحكام والمحكومين لأربعة مصادر دستورية حاسمة هي المصادر الآتية:

الأصل الأول: الرجوع إلى الله سبحانه من خلال الرجوع إلى القرآن الكريم، وَبَيَّضْنَا بِذَلِكَ قَوْلَهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

فبدأ الآية بخطاب المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ ليخبرهم أن حقيقة إسلامهم التي يعلنونها، وينتسبون إليها، وربما تفاخروا بها، تقتضي أن يلتزموا بما سيذكره.

الأصل الثاني: الرجوع إلى النبي ﷺ، ونجد كلامه في سنته المطهرة إذا كانت غير مردودة، وفقاً لمعايير أهل الحديث: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

هنا ينبغي أن نشير إلى قوم جاءوا ظلماً وزوراً يزعمون أن ظهور الإسلام، وبعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم كان سبباً في تخلف العرب، وتبعهم بعض أصحاب المراهقة الفكرية، والخبرة السياسية المحدودة من المتأخرين، فأرادوا نبذ الصبغة الإسلامية، واستبدالها بمراهقة فكرية غرورة ليقيموا الحكومة التي تنافس العالم؟ هكذا زعموا.. قَلْبُ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ، واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي تالين كتابه لترى أن الاستقامة على هذين المصدرين العظيمين أقامت التاريخ لهذه الأمة التي غرقت في التخلف لما نبذتهما وراءها ظهرياً... يحتوي هذان المصدران على كل ما تتمنى الإنسانية أن يشرق عليها مما يزيل كل قيود الظلم العنصرية، إذ ترى أن أهم القواعد التي دار عليهما المصدران إقامة حقوق الإنسانية في التكريم البشري، والمعرفة الكونية لسبب الماضي، واتجاه المصير في المستقبل، وَالْيُسْرُ، وَرَفْعُ الْحَرَجِ وَالْعُسْرِ، وَحَظْرُ الضَّارِّ، وَإِبَاحَةُ النَّافِعِ،

وَكُونُ مَا حُرِّمَ لِذَاتِهِ يُبَاحُ لِلضَّرُورَةِ، وَمَا حُرِّمَ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ يُبَاحُ لِلْحَاجَةِ، وَرَدُّ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، والحكم بالعدل، لا بنظام الفيتو العنصري.

فأعاد فِعْلَ الطاعة مع الرسول ﷺ ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ مَعَ أَنَّ حَرْفَ الْعَطْفِ يُغْنِي عَنْ إِعَادَتِهِ لِيُظْهِرَ أَنَّ للرسول ﷺ أَنْ يَجْتَهِدَ فَيَسْتَقِلَّ بِإِصْدَارِ التَّشْرِيعَاتِ؛ فهو مبلغ عن ربه، قائم بأمره، لا ينطق عن الهوى، ومهما قال فهو مسدد بالوحي، وليحذر ممن يتردد في التسليم لقوله ﷺ وخبره مستقبلاً؛ إذ ذلك طريقة الانسلاخ من الإسلام كله، ومن معجزات النبي ﷺ الغيبية خبره عن ذلك، حيث يحذر المسلمين ممن يتردد في التسليم لأمره ﷺ وخبره مستقبلاً؛ ولذا قَالَ ﷺ: «لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ مُتَكِنًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا نَذْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ»^(١).

الأصل الثالث: الرجوع إلى أولي الأمر المستنبطين من المصدرين السابقين أصالة، أو نيابة، ويذكر الله ذلك في قوله: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩) وهم أهل الحل والعقد الذين تكون لهم السلطات العليا في البلد المسلم، ويضمون السلطة التشريعية والرقابية والقضائية، ويتقدمهم العلماء وذوو العقل والفقه ودين الله كما يقول مجاهد، وعنهم تنبثق تولية الأمراء والقيادات التنفيذية التي تدير مصالح الأمة.

فلم يقل ولي الأمر بل وأولي الأمر منكم فمن هم أولو الأمر المذكورون في الآية؟ الأمرُ المُشَارُ إِلَيْهِ هنا هو ذاته الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨)، فذهب بعضهم إلى أنهم العلماء، وذهب آخرون إلى أنهم الحكام والأمراء، واسمع لمجاهد يصفهم فيقول فيهم: أصحاب محمد ﷺ، وربما قال: أولي العقل والفقه ودين الله^(٢)، فاجمع كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ لتجده عنى أنهم أولو العقل

(١) أبو داود (٤ / ٣٢٩).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٠١).

والفقه ودين الله، ومثل لهم بأصحاب النبي ﷺ.

وعند الجمع بين هذه الأقوال تجد النور في فهمهم للآية؛ إذ معنى ذلك أن أولي الأمر ابتداء هم أهل الحل والعقد وهم الذين تكون لهم السلطات العليا في البلد المسلم، ويتكونون من العلماء وذوي العقل والفقه ودين الله كما يقول مجاهد.. هذا يعني:

أن الصفات الأساسية لهم: قوة العارضة العقلية، والاستقامة السلوكية، ويكون أساسهم العلماء العاملون، كما يوجد فيهم الخبراء من جميع التخصصات، وآلية اختيارهم قد تكون بالتركية والشهرة بين الناس كما في عهد النبي ﷺ والقرون المفضلة، وقد تكون بالانتخاب المقيد بشروط محددة في المنتخبين، وهذه الآلية أنسب لواقعنا وعصرنا الذي بعد عن عهد النبوة، وتكون هذه السلطة التشريعية الرقابية يتم اختيار السلطة القضائية والسلطة التنفيذية، ثم تكون السلطات الثلاث النظام العام الذي يجتهد على حراسة المجتمع وسياسة الدنيا بالمنهج الذي ارتضاه الله للبشرية. وقد تم تطبيق هذا التصور في القرون المفضلة ولكن وفق تفصيلات مختلفة، وصور متعددة مع حدوث خلل جزئي كلما ابتعد الزمان عن عهد النبوة.

وعنهم ينبثق تولية الأمراء والقيادات التنفيذية التي تدير مصالح الأمة، ويكونون عليهم رقباء، فينشأ عن سلطاتهم تقسيم الوظائف الرئاسية والوزارية، وبذا ينتظم أهل الحل والعقد من: مسؤولي السلطة القضائية والتنفيذية والتشريعية، والعلماء وكبار المسؤولين العسكريين والاقتصاديين الذين يتولون المصالح العامة.

وينشأ عن مرجعية أهل الحل والعقد سلطتان:

١- سلطة الإجماع في القرارات الصادرة عن أهل الحل والعقد بإجماعهم.

لا عندما يختلفون، وهذا المصدر نستنبطه من المصادر الثلاثة السابقة فإن أهل الحل والعقد (السلطات التشريعية والرقابية والقضائية)، والسلطات التنفيذية قد يجمعون على شيء، فيجب الرجوع إليه، فعن أبي مالك الأشعرى قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلَاثٍ خِلَالٍ أَنْ لَا يَدْعُو عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ فَتَهْلِكُوا جَمِيعًا وَأَنْ لَا يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ وَأَنْ لَا تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ»^(١)، وقد أشار إلى هذا الاستنباط الرازي والنيسابوري، فقال: «تعين أن يكون ذلك المعصوم كل الأمة أي أهل الحل والعقد وأصحاب الاعتبار والآراء»^(٢).

٢- وسلطة القوة التنفيذية التشريعية، والرقابية، والقضائية، الذين تجب طاعتهم في غير معصية.

وبذا يظهر واضحاً قول من جمع بين العلماء والأمراء في مفهوم أولي الأمر^(٣)؛ إذ يعني ذلك أن العلماء هم أصحاب التشريعية والرقابية والقضائية، والأمراء هم أصحاب السلطة التنفيذية الخاضعة لسلطة العلماء الذين يؤيدهم المستشارون من شتى التخصصات.

وهذا واضحٌ تمام الوضوح من فعل الصحابة عندما اختاروا أبا بكر في الشورى التي تم عقدها في سقيفة بني ساعدة، فاجتمعوا عليه عن سواء لم يخالف في ذلك أحد من بعدهم إلا ما ذكر عن تأخر علي بسبب مرض فاطمة عليها السلام، وبعد أن يتم اختيار أهل الحل والعقد لمن يقوم بالسلطات التنفيذية تجب الطاعة للسلطة التنفيذية المعينة من قبل السلطة التشريعية ثم تبقى السلطة الرقابية والقضائية قائمة لمراقبة

(١) أبو داود (٤ / ١٥٨)، وصحح الألباني الجملة الثالثة.

(٢) تفسير النيسابوري (٢ / ٤٣٥)، تفسير المنار (٥ / ١٤٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٢ / ٣٤٥).

سلوك السلطة التنفيذية، والأمة تفرض سلطتها، ولكن من خلال أهل الحل والعقد، ويتصفون كل في تخصصه بالصفات الأربع المذكورة في القرآن الكريم لأصحاب الولايات ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥).

المجتمع الراشد يقوم على أساس العدل من جهة الحاكم، وعلى الطاعة والالتزام بالقوانين والقواعد والنظم والقرارات من جهة المحكوم، وينظم طبيعة العدل، وتفصيلاته، وطبيعة الطاعة وتفصيلاتها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولذا قدم ذكر طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وجعل طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ مطلقة دون قيد لبيان وجوب هذه الطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر وما يهوى الإنسان وما لا يهوى.. سواء أكان النشاط الحياتي الذي حكم فيه الشرع له أو عليه دون تردد أو مجاملة لأحد كائناً من كان، ولذا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَقُّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَيُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَحَقُّ عَلَى الرَّعِيَّةِ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا.

فالآيتان تفصلان الحقوق والواجبات التي على كل جهة من جهات الأمة حكماً ومحكومين، وبين الطبري هذا التناسق بينهما فقال: هو خطاب من الله ولادة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من وَلُوا أمره في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية. يدل على ذلك ما وعظ به الرعية في: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الراعي بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة^(١).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٩٢).

عن مصعب بن سعد قال، قال علي عليه السلام كلمات أصاب فيهن: «حقُّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدِّي الأمانة، وإذا فعل ذلك، فحقُّ على الناس أن يسمعوا، وأن يُطيعوا، وأن يجيبوا إذا دُعوا»^(١).

ولكن الرجوع إلى أولي الأمر، ليس على إطلاقه، بل مقيد بما لم يخالف الأصلين السابقين، ويُبَصِّرنا بذلك أن الله لم يعد كلمة: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ مع أولي الأمر؛ ليبين أن طاعتهم تبعية للمصدرين السابقين، وليست أصلية، وذلك ضمن المجتمع المسلم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩).

تعال لتملأ عينيك من الإعجاز البياني الذي يختزل الأحوال التشريعية المختلفة، فالله ذكر طاعته مطلقة دون تقييد باللفظ الصريح الأمر بها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ ثم ذكر طاعة الرسول ذكرًا مطلقًا دون قيد فقال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، لكنه لما ذكر أولي الأمر قيد طاعتهم بأن تكون تابعة لطاعة الله ورسوله عليه السلام؛ إذ لم يعد فعل الطاعة مع أولي الأمر ليبين أن طاعتهم مقيدة بما في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.

فيجب طاعة أولي الأمر بناء على طاعتهم لله وطاعتهم لرسوله عليه السلام لا في الأمور المخالفة لذلك، فطاعتهم تبعية وليست أصلية، وهذا يؤدي إلى أن تكون جميع القوانين والتشريعات والنظم مستمدة من مصدر وحيد هو الشريعة الإسلامية.. وهذا ينافي أن تجعل بعض المجتمعات الإسلامية الشريعة مجرد مصدر رئيس فقط للتشريعات والقوانين ونظم المجتمع.

فإذا مثل أهل الحل والعقد الأمة، فاجتمعوا على أمر، فهو إجماع معصوم أو

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٤٩٠).

كإلجماع القريب من الحق، وإن اختلفوا وضعت آليات لصدور القرار عنهم حيث تجب طاعته، وبين النبي ﷺ ضرورة الطاعة للسلطات التنفيذية المكونة من الأمراء ليتم الانضباط، ويحد من الفوضى في المجتمع، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي^(١).

ولكن النبي ﷺ بين حدود هذه الطاعة، وأنها لا تكون في معصية، فعن ابن عمر، رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ، وَلَا طَاعَةَ»^(٢).

ونهى لذلك عن منازعة أولي الأمر أي الخروج عليهم ما داموا لم يأمرؤا بمعاصي متتابعة يظهر منها المروق من الدين؛ فعن جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ قُلْنَا أَصْلَحَكَ اللَّهُ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعَنَا، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ^(٣).

قال ابن حجر مفصلاً المعنى: «وعند أبي بكر بن أبي شيبة من طريق أزهر بن عبد الله عن عبادة رفعه: «سيكون عليكم أمراء يأمرونكم بما لا تعرفون، ويفعلون ما تنكرون، فليس لأولئك عليكم طاعة» قوله عندكم من الله فيه برهان أي نص آية أو

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٧٧).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٦٠).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٥٩).

خبر صحيح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل. قال: النووي المراد بالكفر هنا المعصية، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاية الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم، وقولوا بالحق حيثما كنتم انتهى. وقال غيره: المراد هنا المعصية والكفر، فلا يعترض على السلطان إلا إذا وقع في الكفر الظاهر والذي يظهر حمل رواية الكفر على ما إذا كانت المنازعة في الولاية فلا ينازعه بما يقدح في الولاية إلا إذا ارتكب الكفر، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية، فإذا لم يقدح في الولاية نازعه في المعصية بأن ينكر عليه برفق ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف»^(١).

اضمم إلى جناحك هذه الكلمات القرآنية النبوية بالإجلال، وتأمل معهما ما ذكر في شرح النووي وابن حجر.. وأخبر بها عبيد السلطان، وعبيد سفارات الاستكبار الدولي في هذه الأيام.. أخبرهم عن القرآن والسنة وفهم أهل العلم لهما.. أخبرهم وذكرهم بأيام الله في الدنيا والآخرة.

ولقد نهى النبي ﷺ عن مفارقة الجماعة لمجرد شيء يكرهه الإنسان من أميره، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شَبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٢).

تذكر أن عدم المفارقة لا يعني عدم النصيحة، ولا يعني عدم قول الحق، ولا يعني ترك الأمر بالمعروف، ولا يعني ترك النهي عن المنكر.

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٨).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٥٩).

وفَرَّقَ النبي ﷺ بين منازعة الأمر؛ إذ تكون مقيدة بالكفر البواح، وبين عدم الطاعة فإن مجرد الأمر بالمعصية كافٍ في عدم الطاعة.. فانظر لتجد أن النبي ﷺ بقدر ما يأمر بطاعة تجده ينهى عنها حال وجود معصية، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ، وَلَا طَاعَةَ»^(١)، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قَالَ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسٍ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ^(٢).

وقد ذكر أنه أمرهم بأمر فيه معصية واضحة، فعن عليٍّ ﷺ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَعَصِبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَّا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا فَلَمَّا هَمُّوا بِالْدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبَعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَدَخَلُهَا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ حَمَدَتِ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ^(٣).

ونحن نرى في التطبيق الراشد للصحابة الكرام - ﷺ - أن الطاعة لولي الأمر ليس على إطلاقه، بل هو مقيد بأن لا يكون في معصية، ولا حتى في أمور اجتهادية يغلب على الفرد أنها مخالفة للشريعة، واسمع إلى بعض الأمثلة

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٧٨).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ٥٧).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٧٩).

المضيئة في ذلك، فعَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ صَبَأْنَا صَبَأًا فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِّنَّا أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ رَجُلٍ مِّنَّا أَسِيرَهُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِّنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ^(١).

وقال خالد بن الوليد ﷺ: بعثني رسول الله ﷺ في سرية ومعني عمار بن ياسر، فأصبنا ناسًا منهم أهل بيت قد ذكروا الإسلام، فقال عمار: إن هؤلاء قد وحدوا، فلم ألتفت إلى قوله فأصابهم ما أصاب الناس. قال: فجعل عمار يتوعدني لو قد رأيت رسول الله ﷺ فأخبرته فأتى النبي ﷺ فأخبره، فلما رآه لا ينصره وَلَّى وعيناه تدمعان -لعل ذلك لظنه خطأ فعله- قال: فدعاني فقال: «يا خالد لا تسب عمارًا؛ فإنه من يسب عمارًا يسبه الله، ومن يبغض عمارًا يبغضه الله، ومن يسفه عمارًا يسفه الله» قال خالد: استغفر لي يا رسول الله، فوالله ما منعني أن أجيبه إلا تسفيهي إياه قال خالد: وما من شيء أخوف عندي من تسفيهي عمار بن ياسر يومئذ^(٢).

واسمع لهذا الحديث المهيّب الجامع: فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٢٠٣).

(٢) المستدرک على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (٣ / ٤٣٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

سَفَرٍ فَنَزَّلْنَا مُنْزِلًا، فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ
 إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: الصَّلَاةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 فَقَالَ «... فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْخَزَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا
 فَأَعْطَاهُ صَفَقَةً يَدِهِ وَثَمَرَةً قَلْبِهِ فَلْيُطْعِمْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ
 الْآخَرِ». فَذَنُوتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ أَنْشُدْكَ اللَّهَ أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ سَمِعْتُهُ أَذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي. فَقُلْتُ لَهُ هَذَا ابْنُ
 عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَتَأَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ
 مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ قَالَ فَسَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ أَطْعَمُهُ فِي
 طَاعَةِ اللَّهِ وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ^(١).

الأصل الرابع: إقامة المحاكم الدستورية، واللجان الشرعية لفض النزاع بالرجوع
 إلى الكتاب والسنة عند التنازع، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ نُنْزِعْكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
 وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ٥٩).

التَّنازُعُ: من نزاع الشيء ينزعه نزعاً، فهو منزوع ونزيع، وانتزعه فانتزع: اقتلعه
 فاقتلع على وجه الاستلاب. وانتزع الرمح: اقتلعه ثم حمل، وانتزع الشيء: انقلع
 شِدَّةُ الْإِخْتِلَافِ، وَهُوَ تَفَاعُلٌ مِنَ التَّرْعِ، أَيِ الْأَخْذِ، قَالَ الْأَعَشَى:
 نَارَعْتُهُمْ قُضِبَ الرِّيحَانِ مُتَكِنًا وَقَهْوَةٌ مَزَّةٌ رَأَوْقُهَا خَضِلُ

(١) صحيح مسلم (٦ / ١٨)، الجشر: إخراج الدواب للرعى، ينتضل: يرمى بالسهم.

فَأُطْلِقَ التَّنَازُعُ عَلَى الْإِخْتِلَافِ الشَّدِيدِ الَّذِي يَشْبَهُ أَنْ يَقْتُلَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّرَفَيْنِ أَوْ الْأَطْرَافِ شَيْئًا مِنْ عِنْدِ الْآخَرِ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِلَابِ وَالْجَذْبِ لِمَا لَيْسَ لَهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْمَزَاحِ الْمُتَبَادِلِ كَمَا يَحْدُثُ بَيْنَ الْأَصْحَابِ أَوْ الْأَزْوَاجِ فَهُوَ تَفْكَهُ يَدُلُّ عَلَى التَّمَتُّعِ وَالنَّعِيمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيُمُ﴾ (الطور: ٢٣).

وإن كان ذلك على سبيل تبادل الرأي، فهو مؤدٍّ إلى الفشل؛ إذ لا ينبغي أن يؤدي الاختلاف في الرأي إلى التنازع كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا﴾ (الأنفال: ٤٦) ﴿فَنَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ (طه: ٦٢)، ولا ينتهي إلا بانكسار أحد الأطراف كسرًا لا يبقى وحدة الفريق، ولا يحافظ على توافقه الفكري كالذي تسمعه في قوله جل ثناؤه: ﴿إِذْ يَتَنَزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ (الكهف: ٢١).

وهذا هو المراد في هذه الآية، فقولُه ﴿نَنَزَعُمُ﴾ يدل على الاختلاف الفكري الشديد في قضية اختلافًا يؤدي إلى التجاذب، حتى يكاد كل طرف أن يقلع شيئًا يعتبره الآخر حقًا له.

وقوله ﴿فَإِنْ نَنَزَعُمُ﴾ يحتمل الوقوع، وذلك يعني أن الله تعالى ذكره قرر الوجود الطبيعي للتنازع، ويتصور التنازع بين ثلاث فئات: بين السلطات الثلاثة والأمة، وبين السلطات الثلاث نفسها: القضائية والتنفيذية والتشريعية، وبين أعضاء كل سلطة بذاتها، وبين أفراد الأمة أي فيما بينهم، وَيَشْمَلُ التَّنَازُعُ تَنَازُعَ الْعُلَمَاءِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ فِي شُؤْنِ عِلْمِ الدِّينِ، فَمَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَمَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ فِي تَفْسِيرِ

التَّنَازُعِ بَتَنَازُعِ أَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّمَا هُوَ تَنْبِيْهُ عَلَى الْفَرْدِ الْأَخْفَى مِنْ أَفْرَادِ الْعُمُومِ، وَلَيْسَ تَخْصِيصًا لِلْعُمُومِ^(١).

فعند التنازع لا بد من تكوين مجالس شرعية خاصة للفصل تشبه المحاكم الدستورية العليا، ولا يرجع في ذلك إلى الأغلبية أو الأكثرية، وفي النظم الحديثة يتم التلاعب برأي الأكثرية حسب معايير متعددة لا تقف عند التهريج الإعلامي بل تصل إلى شراء الذمم، وتمويل الحملات وفق قواعد المصالح المتبادلة بين مراكز القوى والنفوذ؛ وذلك لأن قوله: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩) يدخل فيه عرض المسألة المختلف فيها المتنازع عليها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما يدخل فيه الرجوع إلى الخبراء الماهرين، وأصحاب الذكر والرأي في كل مسألة بحسبها لتنزيل الحكم الشرعي بحسبه، ولا بد مع ذلك من مراقبة الله تعالى في طلب أنجلاء الحق في مواقع النزاع، تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى^(٢).

وهذا يقتضي البحث بجهد عن القواعد العامة والخاصة المبثوثة في الكتاب والسنة مما يعضد الرأي الذي يميل إليه كل طرف، وليس الاختيال بالفهم السياسي المتفوق، أو بالحصافة والذكاء الذي حرم منه الطرف الآخر.

لعلك تُكَبِّرُ الآنَ فقه أبي حازم حينما قال مسلمة بن عبد الملك: أَلَسْتُ أَمْرَتُمُ بِطَاعَتِنَا فِي قَوْلِهِ ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾؟ قال: أليس قد نزلت عنكم إذا خالفتم الحق

(١) التحرير والتنوير (٥ / ١٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥ / ١٠٠).

بقوله ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؟ (١).

الأصل الخامس: القياس: ويُبَصِّرُنَا به قوله: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فلا يراد بالتنازع ما يكون حول أمر منصوص عليه في الكتاب، والسنة، والإجماع، بل حول أمر غير منصوص عليه، فأسهل الطرق لمعرفة حكمه القياس على مثله مما هو منصوص.

الأساس الخامس: الشورى.

فالأمر المشار إليه في قوله ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ هو ذاته الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَتِيمٌ﴾ (الشورى: ٣٨)، والصفات العامة التي يجب توفرها في كل هذه الوظائف أربع، ذكرت في قوله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسَتْ جَرَتِ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ (يوسف: ٥٥).

فالأمور العامة في قضايا الأمن الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي لا بد فيها من الشورى الحقيقية، وكذلك من يتولاها، ولذا وجب اختيار الأكفاء من العلماء والأمراء والأكفاء في المجالات المختلفة ليكونوا مجلس أهل الحل والعقد، وأهم الصفات التي ينبغي توافرها فيهم الصفات الأربع: القوي الأمين الحفيظ العليم، وجميعهم يخضعون لسلطة الكتاب والسنة، ويقوم العلماء المؤهلون بعملية الاستنباط من الكتاب والسنة في مسائل الأمن أو الخوف أي مسائل السلم والحرب، والبناء والإعمار، وحل مشاكل البلاء والبوار، وقد ذكر الله ذلك بدقة واضحة لا لبس فيها فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ

(١) الكشف للزمخشري (١/ ٥٥٦).

أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ (النساء: ٨٣)، وبوب البخاري: باب قول الله تعالى: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، وَأَنَّ الْمَشَاوَرَةَ قَبْلَ الْعَزْمِ وَالتَّيِّينِ لِقَوْلِهِ: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} فَإِذَا عَزَمَ الرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِبَشَرٍ التَّقَدُّمُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَاوَرَ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْمَقَامِ وَالْخُرُوجِ، فَرَأَوْا لَهُ الْخُرُوجَ، فَلَمَّا لَبَسَ لَأَمَّتْهُ وَعَزَمَ قَالُوا: أَقِمْ، فَلَمْ يَمَلْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْعَزْمِ وَقَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ يَلْبَسُ لَأَمَّتْهُ فَيَضَعُهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ»، وَشَاوَرَ عَلِيًّا وَأَسَامَةَ فِيمَا رَمَى أَهْلَ الْإِفْكِ عَائِشَةَ، فَسَمِعَ مِنْهُمَا حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ فَجَلَدَ الرَّامِينَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى تَنَازُعِهِمْ، وَلَكِنْ حَكَمَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، وَكَانَتِ الْأُيَمَّةُ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الْأَمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ لِيَأْخُذُوا بِأَسْهَلِهَا فَإِذَا وَضَحَ الْكِتَابُ، أَوِ السُّنَّةُ لَمْ يَتَعَدَّوْهُ إِلَى غَيْرِهِ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةٍ عُمَرُ كُھُولًا كَانُوا، أَوْ شُبَّانًا، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١).

ومجلس أهل الحل والعقد الذي يتكون في أصله من (العلماء، والخبراء) يختارون السلطات التنفيذية، ويتفقون على إيجاد السلطة القضائية التي تكون مستقلة في ميزانيتها، ويشترط في أصحابها العلم المؤصل يَأْنِ يَكُونُوا عَالِمِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ليفصلوا في قضايا النزاع لا بالأهواء بل بالرجوع إلى الكتاب والسنة، فالفارق بين القوانين البشرية الوضعية والقوانين الإسلامية أن المرجعية

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ١٣٨).

الحاكمة عندنا هي الكتاب والسنة، فلا تجوز عبادة الأكثرية بل يجب أن يرجعوا إلى الكتاب والسنة ويعرضون المستجدات على أصولهما وقواعدهما، فالأكثرية لا تستلزم الحقيقة والإصابة في الحكم، فالنبي ﷺ رجح في أحد رأيي الأكثرين مخالفاً لرأيه، ورجح في بدر الرأي الموافق لرأيه ولم يكن هناك أكثرية ظاهرة^(١).

ولا ينبغي أن يوجد تنازع في المسائل الدينية المحضة لأن المرجع فيها هو النص، وما لم يرد فيه نص وسعه الخلاف في النظر بعد الرد إلى أصل معتبر، وإنما النزاع في المسائل الدينية ذات الصبغة الدنيوية مما لم يرد فيه نص ظاهر وتجاوزتها الأدلة، واختلف النظر في المصالح الموافقة للشريعة.

والشورى تقتضي الرقابة العليمة على السلطة التنفيذية.. لقد كان ذلك أمراً بديهياً في العهود الزاهرة، فقد دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية، فقال: السلام عليك أيها الأجير، فقالوا: قل السلام عليك أيها الأمير، فقال: السلام عليك أيها الأجير، فأعادوا قولهم وأعاد قوله، فقال معاوية: دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول، ونظم ذلك أبو العلاء المعري فقال:

مُلَّ الْمُقَامُ فَكَمْ أَعَاشِرُ أُمَّةٍ أَمَرْتُ بِغَيْرِ صَلَاحِهَا أُمَرَاؤُهَا
ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا فَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا

أنموذج راشدي لكيفية التعامل مع المسائل المتنازع فيها:

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ خَصْمٌ نَظَرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ وَجَدَ فِيهِ مَا يَقْضِي بِهِ، قَضَى بِهِ بَيْنَهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِي الْكِتَابِ،

نَظَرَ هَلْ كَانَتْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ سُنَّةٌ، فَإِنْ عَلِمَهَا، قَضَى بِهَا، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ، خَرَجَ فَسَأَلَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: أَتَانِي كَذَا وَكَذَا، فَنَظَرْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَفِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ أَجِدْ فِي ذَلِكَ شَيْئًا، فَهَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، قَضَى فِي ذَلِكَ بِقَضَاءٍ، فَرُبَّمَا قَامَ إِلَيْهِ الرَّهْطُ، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَضَى فِيهِ بِكَذَا وَكَذَا، فَيَأْخُذُ بِقَضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ جَعْفَرٌ: وَحَدَّثَنِي غَيْرُ مِئْمُونٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِينَا مَنْ يَحْفَظُ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ، وَإِنْ أَغْيَاهُ ذَلِكَ، دَعَا رُؤُوسَ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاءَهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَإِذَا اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى الْأَمْرِ، قَضَى بِهِ، قَالَ جَعْفَرٌ: وَحَدَّثَنِي مِئْمُونٌ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَغْيَاهُ أَنْ يَجِدَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، نَظَرَ هَلْ كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ ﷺ فِيهِ قَضَاءٌ، فَإِنْ وَجَدَ أَبَا بَكْرٍ ﷺ قَدْ قَضَى فِيهِ بِقَضَاءٍ، قَضَى بِهِ، وَإِلَّا دَعَا رُؤُوسَ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاءَهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى الْأَمْرِ قَضَى بَيْنَهُمْ^(١).

الأساس السادس:

منع إدخال أي جهات أجنبية لتكون وساطات إصلاح عند التنازع. وهذا الأساس تبصرنا به الثقة التي يجب أن نغرسها بالمصادر التشريعية الإسلامية، وهذه الثقة تجدها في قوله تعالى جده: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩)، فما عند الله خير وأحسن عاقبة ومصيرًا إذا قورن بها أهم الشرائع الأرضية وأعظمها.

ومعنى ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أن رجوعكم إلى مصادركم التشريعية، وإلى الهيئات التي تشرف على تنفيذ هذه المصادر خير لكم وأحسن تأويلًا أي أحسن عاقبة

(١) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجواهر النقي (١٠ / ١١٤).

ومصيراً من أن تفكروا بديل عنها، وقوله ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ﴾ ليس اسماً التفضيل على بابهما بل المراد تماماً كما في قوله تعالى ذكره: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (الفرقان: ٢٤)، فإن قوله ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ لا يعني أن أهل النار عندهم خير في المستقر وعندهم حسن ولكنه أقل مما عند أهل الجنة، وكذلك هذه الآية فإن قوله ﴿خَيْرٌ﴾ ﴿وَأَحْسَنُ﴾ ليسا على بابهما في أفعل التفضيل بل المراد أن هذه المصادر وما ينبثق عنها هي التي تحوي الخيرية الكاملة، والحسن التام الذي يترتب عليه المصير الحسن، والنتائج الطيبة.. فانظر كم سبب رجوعنا إلى الوساطات الأجنبية من الآلام والأوهام، ويمكن القول: هما على بابهما، إذ يبدو لكم أن هناك خيرية ما، وحسناً ما في تشريعات مناقضة للمنظومة التشريعية الإسلامية.. فإن بدا لكم ذلك فلتتقنوا أن المنظومة التشريعية الإلهية الظاهرة خير لكم وأحسن مصيراً وعاقبة في شؤونكم الحيوية المختلفة.

إن الالتزام بالأصول التشريعية السابقة هو خير للأفراد والمجتمعات وأحسن تأويلاً أي مرجعاً ومصيراً من كل مصلحة متوهمة يظنها الإنسان في غير الشريعة..

يترتب على ذلك شيوع الخير في نفسية الأفراد وأوضاع المجتمعات، وتوابع ذلك من الاستقرار الاقتصادي، والعدل الوظيفي والمجتمعي، وعدم شيوع الطبقية أو الطاغوتية التي يحرص أصحابها على تصدير التشريعات المناسبة لهم دون النظر إلى غيرهم، والاطمئنان إلى العاقبة الحسنة والمستقبل المشرق لمن يفعل ذلك، وهذا هو المعنى الأول لقوله ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، فقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يعني الاطمئنان على صدق الإيمان من الإنسان حيث يجعل أكبر همه معرفة حكم الله وحكم رسوله ﷺ، وهذا هو المعنى الثاني لقوله ﴿وَأَحْسَنُ

تَأْوِيلًا ﴿١﴾، إن قوله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يعني أن الرجوع إلى المصادر التشريعية السابقة هو الذي يحقق المصلحة، ويدراً المفسدة، ولا يتنافى هذا مع قَاعِدَةُ جَلْبِ الْمَصَالِحِ وَحِفْظِهَا وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ وَإِزَالَتِهَا؛ لأن الذي يجلي الضوابط العامة لكون الأمر مصلحة أو مفسدة هي الشريعة، والمصالح المرسلة كما يقول القرافي: عِنْدَ التَّحْقِيقِ ثَابِتَةٌ فِي جَمِيعِ الْمَذَاهِبِ، وَمِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَيْهَا حَدِيثُ: «لَا ضَرَرَ، وَلَا ضِرَارَ».

وكذلك فإن قوله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يعني الاجتهاد الشديد في البحث عن مراد الله تعالى في الأمور المختلفة مهما كانت غامضة ودقيقة، ومن لم يفعل ذلك فهو يحمل بذور الشر للعالم ويحاول جر الناس إلى مصير مجهول مليء بالمخاطر؛ لأن البحث عن المراد الشرعي ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

ستقول: أليس هذا الأساس قد سبق في الأساس الثالث؟

والجواب: بلى سبق ما يماثله، لكن الثقة التي بصرنا بها قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمَ يَعْظُمُ بِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ (النساء: ٥٨) ثقة اقترنت بالرقابة الإلهية على تطبيق أداء الأمانة وإقامة العدل، والثقة هنا لا بد من إعادتها وذلك لمنع إدخال أي وساطات أجنبية تأتي من الخارج لتحاول الفض بين المتنازعين.. حسبك فقط أن تنظر إلى النتائج الكارثية لدخول المؤسسات الأممية المرتزقة لتكون وساطات بين المتنازعين من الأمة.. حسبك أن ترى ذلك لتعلم لماذا قال الله جل في علاه عن التزام الأحكام الدستورية السابقة في بيان الإدارة الراشدة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

«تِلْكَ أَصُولُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَدَنِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ الْقَضَائِيَّةِ لَا تَرَى فِيهَا عَوْجًا

وَلَا أُمْتًا، وَلَا تُبْصِرُ فِيهَا غَلًّا وَلَا قَيْدًا، وَلَيْسَ فِيهَا عُسْرٌ وَلَا حَرْجٌ، وَلَا مَجَالٌ فِيهَا
لِلْاضْطِرَابِ وَالْهَرْجِ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهَا إِلَّا الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ،
بِحَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ حَالُ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ حُجَّةَ اللَّهِ عَلَى نَوْعِ
الْإِنْسَانِ، إِذْ لَمْ تَكْتَحِلْ بِمِثْلِ عَدْلِهِمْ عَيْنُ الدُّنْيَا إِلَى الْآنِ»^(١).



(١) تفسير المنار (٥ / ١٥٧).

القسم الثاني

(قوى النفاق) هم الصنف الثاني الذي يحارب الإدارة
الراشدة، ويمنع الإنسانية أن تنال حقوقها، وتنعم بما هو
خير وأحسن تأويلاً (النساء: ٦٠-٦٥)

آيات هذا القسم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ
يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا
﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ
عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا
اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا
سَلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (النساء: ٦٠-٦٥).

المناسبة والاتصال:

ذكر الله سابقاً الصنف القيادي الأول الذي يعمل على تدمير الإدارة الراشدة لكي
يمنع البشرية من استيفاء حقوقها المشروعة، وهم الذين يشتركون الضلالة وينشرون
الإضلال في العالم، وينتمون إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، ثم بين أهم أصول

الإدارة الراشدة التي تعطي الحقوق لأهلها، وهنا يذكر الله الصنف الثاني من مانعي الحقوق البشرية. إنه الصنف الخطير الذي يختلف عن الصنف الأول في قدرته على التلون.. فهو يزعم الإسلام، ويحاول تدمير أي محاولة لقيام الإدارة الراشدة.. يبذل جهوداً مدهشة ليمنع من وصول الحقوق البشرية لأهلها، فيمنع الأمانات أن تؤدي إلى أهلها، ويحارب كل سبيل يتم من خلاله الحكم بالعدل بين الناس، ويزعزع الثقة في التوجيهات الإلهية.. ويفصل الله جل مجده في هذا القسم الأسس التي تعرفنا بهذا الصنف، وخطورة هذا الصنف أنه خفي متلون يزعم أنه آمن بما أنزل الله إلى النبي ﷺ وأمن بما أنزل من قبله، لكن يصر على تحكيم الطاغوت، إنه يجسد أهم صور خيانة الأمانة، ويبذل أعظم الجهود ليصد الإنسانية عن النبي ﷺ ومعرفة سنته الصحيحة، وسيرته العطرة الصالحة، ويزعم أنه بذلك يحسن إلى المسلمين، ويريد التوفيق في القرارات الدولية، وكما ترى فإن هذا الصنف يتحالف بصورة فجأة مع الصنف الأول، وهنا تعلم لماذا كانت وصية لويس التاسع للقضاء على المسلمين مقولته الشهيرة: لا يقطع الشجرة إلا أحد أغصانها.. إنك تراهم على المستوى الإعلامي يصرون على التحاكم على الطاغوت وحتى يبقى ظاهراً كأنه غصن من شجرة الإسلام يحسن ألفاظه ويجملها فينبذ التشريع من الشريعة، ويجعلها مجرد مصدر إلهام.

وَيُبَصِّرُنَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِأَهْمِ الْمَعَالِمِ الَّتِي تَعْرِفُنَا بِهَذَا الصَّنْفِ، وَهِيَ:

المعلم الأول: يكرر الطغاة الزعم بأنهم يؤمنون بالوحي الخاتم، والكتب السابقة، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

يعجب الله تعالى عبده القارئ لكلامه فيقول له: انظر إلى هذه المخلوقات

الغريبة، وتأملها بعينك فإن فيها أعاجيب تُتأمل.. إنهم الذين يزعمون أنهم آمنوا، فكلمة يزعمون من (زعم)، ومُضَارِعُهُ مُثَلَّثُ الْعَيْنِ، والزعم هو القول من غير صحة ولا يقين، فيقال الزعم والزعم، وقال الشاعر:

زَعَمْتَ غَدَانَهُ أَنَّ فِيهَا سَيِّدًا صَحْمًا يُوَارِيهِ جَنَاحُ الْجُنْدُبِ ^(١)

فكلمة (زعم) تدل على عدم وجود دليل يؤكد صحة القول الوارد، ولذا قال الأصمعي: الزَّعُومُ مِنَ الْغَنَمِ الَّتِي لَا يَعْرِفُونَ أَبَهَا شَحْمٌ أَمْ لَا، وقد تَسْتَعْمَلُ الزَّعْمُ فِي الْخَبَرِ الْمُحَقَّقِ بِالْقَرِينَةِ، كَقَوْلِهِ:

زَعَمَ الْعَوَازِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ صَدُقُوا وَلَكِنْ غَمَرَتِي لَا تَنْجَلِي

فَقَوْلُهُ صَدُقُوا هُوَ الْقَرِينَةُ، وبين الراغب أنه يغلب أن يكون الزعم حكاية قول يكون مظنة للكذب، ولهذا جاء في القرآن في كل موضع ذم القائلين به ^(٢) نحو: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنِيَ قُلُوبُنَا وَرَبِّي لَتُبْعَثَ﴾ (التغابن: ٧)، وَقَالَ: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفْرٍ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام: ٩٤)، وَقَالَ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نُحُورًا﴾ (الإسراء: ٥٦)، وَقَالَ: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (الكهف: ٥٢)، وقيل للضمان بالقول والرئاسة زعامة فليل للمتكفل والرئيس زعيم للاعتقاد في قوليهما إنهما مظنة للكذب.

ولماذا ذكر الله زعمهم الإيمان بالكتب السابقة بعد أن ذكر أنهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى النبي ﷺ؟ لأنهم يملأون الآفاق، ويسودون الإعلام والصحف الطباق بمدى احترامهم للكتب الإلهية، وحمائيتهم لها، وقيامهم على أمرها،

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١٠).

(٢) مفردات غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٢١٣).

ويحاولون الكلام عن ذلك في كل مناسبة، ولكنهم يكذبون في الواقع العملي.. فهذه الصفة من علاماتهم البارزة.

المعلم الثاني: يتميزون بالإرادة المتجددة في التحاكم إلى الطاغوت، وهو كل مُعظم عندهم صار رمزاً للطغيان، والإعراض عن حكم الرحمن سواء أكان بشراً أم تشريعات وتقاليد، مع أنهم يجب أن يكفروا بكل ما يصاد أمر الله في الخلق، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: ٦٠).

فهم قوم ينتمون إلى المجتمع الإسلامي، ويعلنون أنهم آمنوا بما أنزل إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في حياتهم ثم تناقض أفعالهم أقوالهم، فتصبح دعواهم كذباً محضاً، إذ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وانظر إلى هذه الدقة في وصفهم: فلم يقل يتحاكمون إلى الطاغوت بل يريدون أن يتحاكموا إليه، والإرادة من الرود وهو التردد والإكثار في طلب الشيء برفق، يقال: راد وارتاد، ومنه الرائد لطالب الكلاء، وباعتبار الرفق قيل: رادت الإبل في مشيها ترود روداناً، فالإرادة بالنسبة للمخلوق منقولة من راد يرود إذا سعى في طلب شيء، والإرادة في الأصل قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وجعل اسماً لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل^(١)، ولكنها في حق الله جلّ ذكره صفة كمال تدل على الحكم المتوجه إلى المراد به.

فهم يطلبون أن يُحَكِّمُوا الطاغوت رغبة في ذلك، والطاغوت ما يسبب الطغيان للإنسان من قوانين أو أصنام أو أهواء أو عبودية، فيدخل فيه كل من غلوا في تعظيمه بتقديمه على الله ورسوله ﷺ، ولذا قال الطبري: «يعني إلى: من يعظمونه، ويصدرون

(١) مفردات غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٢٠٦).

عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله»^(١)، ومن الطاغوت جميع من يُتَحاكم إليه ممن يضاد حكمهم حكم الله ورسوله ﷺ، مثل التحاكم إلى الدستور الذي وضعه جنكيز خان، وذكر ابن كثير أن اسمه الياسق، ويدخل فيه القوانين الوضعية، والتقاليد والأعراف البشرية المضادة للشريعة.

فهؤلاء خونة الأمانات من المناوئين للخير والتأويل الحسن يصرون على التحاكم للطاغوت لأنه يؤدي إلى زيادة طغيانهم، وغيهم وإجرامهم، ويفرون من حكم الشريعة التي تؤدي إلى إشاعة العدل والحق والمساواة.

والتحاكم إلى الطاغوت يعني عدم الكفر به بل يعني الإيمان به، والتسليم له، وذلك ينافي ما أمرهم الله.. ألم يقل جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦) ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (البقرة: ٢٥٦)، فالله أمر باجتنب الطاغوت في سورة النحل، والاجتناب أمرٌ بليغ يدل على الابتعاد الحذر منه، والحذر هنا يعني ألا يغفل المرء فيقترب وهو لا يشعر، وكذلك أمر الله بالكفر بالطاغوت هنا، والكفر يعني جحود الطاغوت وليس أن يُتَحاكم إليه.

فإذا زعموا أنهم يؤمنون بالكتب الإلهية، فكيف يتحاكمون إلى الطاغوت؟ السؤال ليس هكذا.. بل كيف يريدون مجرد إرادة أن يتحاكموا إلى الطاغوت؟

إن انتسابهم للإسلام يقتضي أن يكفروا بالطاغوت لا أن يتحاكموا إليه فاستبدلوا نعمة الله بالإسلام كفرًا به مع إصرارهم أنهم مسلمون.

وَيُبَصِّرُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿بَأَنَّ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٠٧).

الشیطان لا یتركهم.. إنها الخطة الشیطانیة المرعبة فی إیصال العباد إلى مرحلة الضلال البعید، وهنا تجتمع الإرادتان: إرادتهم المذكورة فی أول الآیة، وإرادة الشیطان فی إضلالهم فیستجیبون لإرادتهم متبعین فی ذلك الشیطان الذی یبعدهم عن هدی الرحمن، وتكون النتيجة أن یضلوا فیتیهوا تیهًا عظیمًا بعیدًا، ویأخذوا معهم المجتمعات إلى هذه الضلالات والخسائر الكبیرات، والإرادة منهم ومن الشیطان تدل على شدة الرغبة فی تنفيذ ما یطلبونه، ولكنهم یسلکون لذلك برفقٍ قد یجعل أفعالهم تخفی حقیقتها على غیرهم.

ویدخل فیهم المتحاكمون إلى غیر شرع الله آیا كانوا فمنهم المتحاكمون إلى المحاکم غیر الإسلامیة، والقوانين الجاهلیة، ومنهم المتنازعون فی المسائل العلمیة مع وضوح الدلیل ثم یأبون إلا قول فلان المخالف للدلیل، ومنهم الجماعات التی سنت لها قوانین تقوم على تقدیس الجنس أو التراب وتقدیمه على الشرع.

المعلم الثالث: خرق أهم الحصون الأمنیة للهویة الإسلامیة بالصد عن رسول الله ﷺ، وذلك یعنی أنهم یصرون على أن یصدوا الناس عن التحاکم إلى السنة، ویمنعون قیام مؤسساتها، ویظهرون محاربة التطبيق النبوی للكتاب المبین، وهذه الصفة علامة ظاهرة، یُصَرَّنَا بها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفَقِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (النساء: ٦١).

هلم إلى أعظم علامة ظاهرة لهم: إنه تشکیکهم فی السنة النبویة، وصدهم عن حکم رسول الله ﷺ.. انظر تفصیل الآیة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفَقِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ﴾ لم یقل: یصدون عما أنزل الله.. لأنهم یتشدقون بأنهم یعرفون کتاب الله.. لكنهم یریدون تفسیره بأهوائهم، فیصدون عن النبی ﷺ.

وصدّه عن الأمر يعني منعه، وصرفه، وردعه، فهو صَادٌّ من قوم صُدَّادٍ، وهي صَادَّةٌ من نسوةٍ صَوَادٍ، وقريب من ذلك: صدّ من الشَّخص ضَجَّ وأعرض كما في قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ؛ لأنهم يريدون إثارة الضجيج للصد عن حقائق التوحيد.

فكلمة ﴿صُدُّودًا﴾ تدل على أنهم يصرفون الناس عن التحاكم إلى السنة النبوية، ويمنعونهم، ويردعونهم.. فانظر كيف اختزلت هذه الكلمة مشاهد تصرفاتهم المختلفة في الحرب المسعورة التي يشنونها لمن يتحاكم إلى السنة النبوية، وأكد صدهم بقوله: ﴿صُدُّودًا﴾؛ ليدخل فيه كل أنواع الصدود بما في ذلك إنشاء مؤسسات تشوه وتشوش السنة النبوية، والتطبيق النبوي للقرآن الكريم... أهؤلاء وقر الإيمان في قلوبهم؟ من أجل ذلك كان أعظم ما تميز به الأنصار رضاهم برسول الله ﷺ وإقبالهم عليه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَنْصَارَ فَقَالَ: «أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ». فَقَالُوا لَا إِلَّا ابْنُ أُخْتٍ لَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ ابْنَ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ». فَقَالَ «إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبِرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ. أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ»^(١).

﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ﴾ من أجل ذلك يستبين المؤمنون الحقيقيون بمدى بحثهم عن التطبيق النبوي للقرآن الكريم وليس بمدى تفسير القرآن الكريم بأهوائهم وشهواتهم..

وبلغت حساسية الصحابة في تتبع أقوال النبي ﷺ ومعرفتها وتطبيقها حدًا تعلم منه لماذا كانوا الأعلى شأنًا في عالمهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: استوى النبي

(١) صحيح مسلم (٣ / ١٠٦).

ﷺ على المنبر يوم الجمعة فقال للناس: اجلسوا فسمعه ابن مسعود وهو على باب المسجد فجلس فقال له النبي ﷺ: «تعال يا ابن مسعود»^(١).

وتأمل في الآية، فأصل ﴿تَعَالَوْا﴾ المناداة لحضور نفعٍ اشتقت من مادة العلو كأن المنادي في علو والمنادى عليه أسفل، وقوله ﴿عَنْكَ﴾ يدل على شدة بغضهم للسنة، وطعنهم فيها، ولذا أكد ذلك بقوله ﴿صُدُّوْا﴾، كما أن هذا التأكيد له فائدة أخرى: أن صدودهم صار عظيمًا فدخل فيه إعلانهم له، وتبجحهم بهذا الصدود.

وطلب الحضور الذي يظهر من خلال قوله تعالى جده: ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يدل على صورة محسوسة لزيادة بيان ضلال هؤلاء في شرك الحاكمية؛ إذ يصورهم في مكان بعيدٍ ومنادي الرشد يناديهم ليتجشموا عناء مجاهدة أنفسهم، ويفارقوا أهواءها، ويحضروا إلى حيث الرشد الحقيقي، فيتركوا التحاكم إلى القوانين الأرضية الجائرة، ويتحاكموا إلى الشريعة الراشدة المطهرة.

ولذا روى الطبري السياق التاريخي الذي نزلت فيه هذه الآيات حيث كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو إلى اليهود؛ لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة، وكان اليهودي يدعو إلى المسلمين؛ لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة. فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهنٍ من جُهيّنة، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ حتى بلغ ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٠ - ٦٥)^(٢).

وذكر أنه اختلف نفر من اليهود من قريظة والنضير ونفر من المنافقين، فأراد

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (١ / ٤٢٠)، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه تعليق الذهبي في التلخيص: على شرطهما.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٠٨).

المنافقون التحاكم إلى كاهن يقال له أبو بردة، وقيل: بل اختار المنافقون التحاكم إلى كعب بن الأشرف، فقال اليهود: لا بل النبي ﷺ يُنْفَرُ بَيْنَنَا، فتعالوا إليه! فأبى المنافقون، وانطلقوا إلى أبي بردة فسألوه، فقال للمنافقين: أعْظِمُوا اللَّقْمَةَ - يقول: أعْظِمُوا الْخَطَرَ - فقالوا: لك عشرة أوساق. قال: لا بل مئة وسق، ديتي، فإني أخاف أن أنْفَرُ النُّصِيرَ فتقتلني قريظة، أو أنْفَرُ قريظة فتقتلني النُّصِيرَ! فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أوساق، وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّلْعُوتِ﴾ - وهو أبو بردة - ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١)، وذكر ابن حجر أن الطبري روى بإسناد صحيح عن ابن عباس ؓ أن حاكم اليهود يومئذ كان أبا برزة الأسلمي قبل أن يسلم ويصحب، وروى بإسناد آخر صحيح إلى مجاهد أنه كعب بن الأشرف^(٢).

المعلم الرابع: إظهار الرجوع إلى الحق عند وقوعهم في المصائب، مع سرد الاعتذارات عن الخيانات السابقة، ويُصَرِّفُنا بذلك قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (النساء: ٦٢).

يقسمون الأيمان أن باعثهم على الصد عن حكم الله وحكم رسوله ﷺ هو البحث عن مصالح الأمة والإنسانية والإحسان إليها، وعندما يعتذرون يعلنون أن مرادهم الإحسان والتوفيق أي المداراة والمصانعة لدفع إجرام المعتدين كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾ (المائدة: ٥٢)،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥١١).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٥ / ٣٧).

فيزعمون أن الصد عن السنة النبوية فعلٌ سياسيٌّ عبقرِيٌّ في ظنهم يوفقون به بينهم وبين القوى العالمية، ويستمدون به التوفيق من الله! كيف؟ بالصد عن رسول الله ﷺ، فانظر للتلاعب.

والاستفهام في قوله ﴿فَكَيْفَ﴾ للتهويل العظيم، فهم لا يعاتبون أنفسهم ولا ينتقدون انحرافهم، ولا يراجعون القرارات الهامة في حياتهم، بل يكررون الأيمان المتعددة أن باعثهم على الصدود هو الإحسان والتوفيق، ويقع كثيرٌ من المنتسبين إلى الإسلام في شيء من هذه العلامة، ويزيد الأمر سوءاً أننا نظن عندما نقرأ هذه الآيات أنها تخص المنافقين، وأن المتدينين عنها بمنأى وحصن حصين، وأن الحركات الإسلامية معصومة من هذا التلاعب المهين، مع أن القرآن واضح كل الوضوح والأصل أنه يخاطب المنتسبين به قبل غيرهم.

والآية تتضمن تهديداً مستقبلياً بأنه ستحدث لهم مصائب مستقبلية لا يجدون معها سبيلاً سوى اللجوء إلى النبي ﷺ ومراجعة الحق، ولا بد منه في الخطاب الدعوي السياسي؛ وإلا كثرت صفوف هؤلاء المرضى بما يجدون من لين في غير محله.

المعلم الخامس: التعامل معهم يجب أن يتسم بالحُسن والحذر في الوقت ذاته لشدة الخبث الذي يتسم به قياداتهم، ولاستيعاب المغرر به من أتباعهم، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (النساء: ٦٣)؛ إذ لا يمكن أن يعاملوا معاملة الأعداء الصرحاء ويصعب أن يعاملوا معاملة الأصدقاء الموالين.

ويُبَصِّرُنَا الله جل جلاله بكيفية التعامل معهم فيقول: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه العبارة تستخدم في بيان اختلاف أحوالهم فمنهم النشطون

الخونة، ومنهم المغرر بهم، وقلوبهم تختلف في رغباتها وإراداتها، كما أنك عندما تسمع هذه العبارة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تشعر بأن يشير فيك تفضيع أمر القيادات الخائنة منهم وشدة شناعته، فلا يحيط بما في قلوبهم من الخبث إلا الله؛ إذ هم العدو الحقيقي الأسوأ، فينتمي بعضهم للمنافقين وبعضهم لمرضى القلوب عباد الدينار والدرهم وشهوات البطون والفروج، وبعضهم للجهل المركب، ولأنهم متفاوتون في مراداتهم وأهدافهم؛ فإن هذه الجملة المباركة تقتضي ألا يرد المرء زعمهم إرادة الإحسان والتوفيق، ولكنه لا يترك لومهم وتقريعهم والتشريب عليهم في انحرافهم عن حكم الله وحكم رسوله ﷺ، والتعامل الحسن الحذر يقتضي أيضًا أن تنبه ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ والإعراض يقتضي عدم تمكينهم من ولاية أو مسؤولية لأن ذلك خيانة للأمانة، ويقتضي صرف الوجه عنهم، فلا يقبل عليهم بالإكرام والاحترام والبشاشة دائمًا، ويقتضي عدم قبول عذرهم كما يقتضي ألا ترد زعمهم أنهم يريدون الإحسان والتوفيق، ولكنك تطالبهم بمقتضى إيمانهم بأن يتركوا التحاكم إلى الطاغوت، والإعراض عنهم يقتضي عدم الحرص على إرجاعهم إلى ما يجب عليهم لشدة صدهم، وعدم إكرامهم بما يشعرون بالأمان في مؤامراتهم، ولا بد من أن تظهر أنك تشعر بالريبة نحوهم لبيقيهم ذلك على وجل خائفين من سوء العاقبة شاكين هل استطاعوا خداع المسلمين مجددًا أم لا.. وَلِذَلِكَ كَانُوا يَحْذَرُونَ أَنْ تَنْزَلَ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ، وبذلك يخفف من شرهم، ويمكن استيعاب المغرر بهم من أتباعهم، ولكن لا تكتفي بالإعراض عنهم بل انتقل إلى أمر آخر ﴿وَعَظُّهُمْ﴾ عظمهم الموعظة الحسنة، وهذا يقتضي التعميم في الخطاب، والموعظة تذكير ونصح مشفق يقترن بالتخويف من المآلات المستقبلية لأفعالهم الحالية، فتزجرهم عن الوقوع في النفاق والمكر والكيد والحسد والكذب وتخوفهم من عقاب الآخرة، ولا تكتفي بوعظهم، بل ينقلك الله إلى مرحلة موازية لا

بد منهم فيقول عنها - عزَّ جازؤه -: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾:

هذه الجملة تدل على ضرورة النصيحة المحاسبة لهم، فإما ان تكون على ظاهرها، ويكون المعنى: قل لهم في خاصة أنفسهم على وجه السرية فيما بينك وبينهم قولاً بليغاً يكشف لهم عن معرفتك بخيانتهم.

وتحتمل الجملة تقديمًا وتأخيرًا، والتقدير: وقل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم يَغُوصُ فِي أَعْمَاقِهَا، ويكشف خبيئة دسائسها ومؤامراتها وخياناتها ببيان التحركات التي قاموا بها من خلال التقارير الظاهرية والأمنية عن تحركاتهم المريبة - كما قال الرازي -: «وَقُلْ لَهُمْ فِي مَعْنَى أَنْفُسِهِمْ الْخَبِيئَةَ وَقُلُوبِهِمُ الْمَطْوِيَّةَ عَلَى النِّفَاقِ قَوْلًا بَلِيغًا، وَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ فَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ إِخْفَاؤُهُ، فَطَهَّرُوا قُلُوبَكُمْ مِنَ النِّفَاقِ وَإِلَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِكُمْ مَا أَنْزَلَ بِالْمُجَاهِرِينَ بِالشُّرْكِ أَوْ شَرًّا مِنْ ذَلِكَ وَأَغْلَظَ»^(١).

والفرق بين الوعظ السابق والقول البليغ هنا أن الوَعْظ هنا يتعلق بالنُّصْح الْمُتَعَلِّقُ بِالْمَالَاتِ الْمَأْسَاوِيَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْقَوْلُ الْبَلِيغُ يتعلق بكشف واقعهم بما يشكل ردعاً لهم عسى أن يرجعوا إلى الحق، فيظهر منه الإحاطة بتحركاتهم وخياناتهم، ويكشف خبيئة دسائسها ومؤامراتها، والبليغ الذي يبلغهم عن مآلات تصرفاتهم في الدنيا.

فبصرتنا الآية بضرورة التنويع بين النصيحة، والمحاسبة والتهديد على وفق مصلحتهم الحقيقية ومصالح الإنسانية، وربما اقتضى ذلك السرية، وربما اقتضى العلنية.. كل ذلك تبصره به الآية في الوقت ذاته حسب مقتضيات الحال في التعامل مع هذه النفوس، والمصلحة العامة للأمة الإسلامية، وهذا يقتضي التخصيص مع السر أو الإعلان حسب ما تقتضيه الحكمة.

(١) تفسير الرازي (١٠ / ١٢٤).

ولذكر الوعظ والقول البليغ هنا أهمية خاصة؛ إذ ترى كثيرًا من المسلمين يكتفي باللقاءات السياسية معهم، ويعرض عن تطبيق مفهوم الوعظ والقول البليغ، فيخسر وهو يظن نفسه يصنع النجاح.. يخسر إظهار هويته، وتجميع من ينتمي إليه حوله، ويخسر خلخلة تفكير هذا الصنف الخطير، وزعزعة أتباعهم من حوالهم، وكم جنى الفعل السياسي المحض الخالي من تطبيق مفهوم هذه الآيات.. كم جنى على التحركات الصادقة.

المعلم السادس: السنة النبوية تمثل المرجعية المركزية لإدارة شؤون الحياة.

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٦٤)، فينبغي إخراجهم أمام الرأي العام بأن يتم كشف مدى التزامهم بالإسلام بمقياس الرجوع إلى السنة النبوية المقبولة، وأن يُحْثُوا إذا أظهروا ما يُعَكِّرُ ذلك على أن يستغفروا الله، ويطلبوا استغفار الرسول ﷺ في حياته، ويراجعوا سنته بعد وفاته، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤)، ولاحظ أنه ينبغي أن نحثهم على أن يستغفروا الله لا أن نحرص على تفسيقهم أو تكفيرهم:

هذه الجملة المباركة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تبصرك بتوقع مستقبلي لردة فعل الناس بعد إرسال الرسل، فأَيُّ رَسُولٍ بُعِثَ فإنه يجب أن يطاع إذ يستمد طاعته من الله، وقوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني بتوفيق الله لمن أطاعه، وإعانتة على لزوم تلك الطاعة، ومعنى ذلك أن غير الموفقين يكلهم الله إلى أنفسهم، فيأبون إلا المعصية «فَمِنَ الرُّسُلِ مَنْ أَطِيعَ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَصَى تَارَةً أَوْ دَائِمًا، وَقَدْ عَصَى مُوسَى فِي مَوَاقِعَ، وَعَصَى عِيسَى فِي مُعْظَمِ أَمْرِهِ، وَلَمْ يُعَصِّ مُحَمَّدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الْمُحِقِّينَ إِلَّا

بِتَأْوُلٍ، مِثْلَ مَا وَقَعَ فِي يَوْمِ أُحُدٍ إِذْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٢)»^(١).

وكلمة ﴿يَاذِنِ اللَّهُ﴾ تحمل معنى آخر، فهي تدل على أن شرعية طاعة هذا الرسول جاءت من الله جل جلاله، فكيف يطعن في سنته طاعنٌ يزعم أنه ينتسب إلى الإسلام؟

وكما يحمل هذا المعنى تسليّةً للنبي ﷺ عندما يوجد من يخالفون أمره، ويصرون على التحاكم إلى غيره فإنه يحمل معنى التثريب على هؤلاء المعرضين عن طاعة رسوله ﷺ، إذ إن الله لم يشرع الشرائع ليتم الإعراض عنها وبناء شرائع قائمة على الأهواء.. تأمل الآية لتمدك ببصيرة واضحة:

كل رسول بعث ومعه شريعة ليتم طاعته في تلك الشريعة، فما فائدة الزعم باتباع دين مع عدم طاعة ذلك النبي؟. والآية تخيف من لم يطع النبي ﷺ من المسلمين بأنه قد يكون منتمياً إلى هذه الفئة الخائنة التي تزعم الإيمان وتأبى التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ، أو يتشبه بها وهو لا يشعر، فليستيقظ ولا تأخذه نشوة الغرور العلمي أو الواقعي ليُعرض، فالتمسك بالسنة والتحاكم إليها لأنها المبينة للقرآن في جميع الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

والآية تبين سبب طاعة الرسول ﷺ لأن الله جعل له هذه الطاعة فهي بإذنه، وإنما ذكر إذن الله تعالى حتى لا يتوهم أن هذه الطاعة قد تؤدي إلى الطاغوت فيأتي من يزعم أنه لا يريد تقديس البشر، فلا يعطي النبي ﷺ مكانته، ولا يوقر ما ثبت من سنته ﷺ.

وبعد هذه القاعدة العامة في كل رسول يُبَصِّرُنَا الله جل جلاله بألا نسارع إلى

(١) التحرير والتنوير (٥ / ١٠٩).

تكفير هؤلاء أو تفسيقهم بل أن نخبرهم حال ظلمهم لأنفسهم بإصرارهم على تحكيم الطاغوت أو ارتكابهم للمعصية بأن يسارعوا إلى استغفار الله جل جلاله، وأن يأتوا إلى النبي ﷺ ليستغفر لهم إن كان حيًّا، وأن يراجعوا سنته ويظهروا محبته إن كان ميتًا ﷺ، وفي هذا بيان لمكانة النبي ﷺ، وإظهار لمنزلة السنة النبوية؛ إذ يبين الله - عزَّ جاره - أن قبول التوبة لا يتم ممن أعرض عن أمر الرسول ﷺ إلا أن يظهر صدق التوبة باستغفار الرسول له في حياته ﷺ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤).

وقد بدأ الجملة بكلمة ﴿لَوْ﴾ ليبين أنه حرف شرط غير جازم يفيد التعليق في الماضي أو المستقبل، يستعمل في الامتناع أو في غير الإمكان، أي: امتناع الجواب لامتناع الشرط فتقول: لو كنت غنيا لتصدقت بنصف مالي، وهنا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤)، فامتنع أن يجدوا الله توابًا رحيمًا لما منعوا أنفسهم من المجيء ليستغفروا الله ويستغفر لهم الرسول.. فما لهم لا يبادرون؟ ما لهم لا يفعلون؟

وانظر كيف جعل جرائمهم ظلمًا لأنفسهم.. إن حقيقة شرك التشريع عندهم ظلم لأنفسهم.. إن صدهم عن النبي ﷺ أو عن سنته ظلم لأنفسهم.. قد نفهم أن إنسانًا يظلم غيره؛ إذ يحاول أن ينقص حظوظ غيره ليأخذها.. لكن أن يظلم نفسه أي يصيب نفسه بالنقص.. فما هذا؟

نعم إن شرك التشريع ليس إلا ظلمًا للنفس.. إن الصد عن رسول الله ليس إلا ظلمًا للنفس؛ إذ يتعد الإنسان إن اقترف هاتين السيئتين عن الحياة السعيدة التي توازن بين الروح والجسد، وتوازن بين الأولى والأخرى، ويرضى بعاجل من الطمع يوشك أن يفارقه.. ولكن الله لم يجعل هؤلاء في يأس من روحه ولا من رحمته،

ففتح لهم الباب واسعاً للعودة من ظلمهم لأنفسهم، وشرط لذلك ثلاثة أمور: أن يأتوا النبي ﷺ، وبعد وفاته أن يراجعوا سنته، ويثبتوا على ملته، ثم لا يكفي ذلك حتى يستغفروا الله جل جلاله، ثم لا يكفي ذلك فيضموا إلى هذين الأمرين أن يستغفروا لهم النبي ﷺ، وبعد وفاته يكون البديل عن استغفاره ﷺ أن يحسن أخلاقه بعد الإكثار من الرجوع إلى سنته ﷺ، وأن يكثر من الصلاة عليه، ولعله يدل على ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: إن رسول الله ﷺ قال في مجلس: «ألا أحدثكم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة» ثلاث مرات يقولها. قلنا: بلى يا رسول الله. فقال: «أحسنكم أخلاقاً»^(١).

وكذلك كثرة الصلاة على النبي ﷺ فإنها تعرض عليه فعن أوس بن أوس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟ يَقُولُونَ بَلَيْتَ. فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢).

فإن جاءوا فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول تكون النتيجة المجيدة: ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَابًا رَحِيمًا﴾، وجعل الله هذه الجملة جواباً لـ ﴿لَوْ﴾ ليدل على أنهم لم يجدوا الله تواباً رحيماً لأنهم لم يسلكوا سبيل المغفرة فلم يستغفروا الله ولم يأتوا النبي ﷺ ليستغفروا لهم في حياته، ولم يراجعوا سنته ويطبقوها بعد موته، وانظر كيف أتى بصيغة المبالغة: تواباً رحيمًا، ليدل على تأصل توبته ورحمته، وعلى كثرة ذنوب عباده حيث

(١) أحمد (٢ / ٢١٧) برقم ٧٠٣٥، وحسنه الأرناؤوط، وراه الترمذي (٤ / ٣٧٠)، برقم ٢٠١٨، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني.

(٢) أبو داود (١ / ٤٠٥) برقم ١٠٤٩، وصححه الألباني.

تقابلهم التوبة مهما كثرت أعدادهم أو كثرت ذنوبهم.

المعلم السابع: أهم قانون كلي يمنع الوقوع في شرك الطاعة.

ويقيم الإيمان الحقيقي تربية النفس على ثلاثة الإيمان الصادق التي تذكر بالثلاثية في الآية السابقة: التحاكم إلى النبي ﷺ في أمور الحياة وخاصة فيما تتم فيه الخصومة، وعند معرفة الحكم النبوي لا بد من أن يزول الحرج أي الضيق من القضاء النبوي، وأن يتم التسليم الكامل لقضائه، وذلك يعني الرجوع غير المتردد لسنته ﷺ، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا﴾ (النساء: ٦٥).

إن الله يعلمنا كيف ننشر في وسائل التعليم والإعلام ما يجعل المتحاكمين إلى الطاغوت يضطرون إلى الاستقامة على ما يقتضيه زعمهم بأنهم مسلمون، فشرط الله جل جلاله ليتحقق الإيمان أن يلتزموا بالتحاكم إلى النبي ﷺ حتى يظهر أن الإيمان حقيقي.. إن ذلك تأكيدٌ عظيمٌ على ضرورة تتبع سنة النبي ﷺ، والتزام حكمه؛ إذ نفى الله الإيمان عمن لا يفعل ذلك فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ وَأَكَّدَهُ بِالْقَسَمِ وَبِالتَّوَكُّيدِ اللَّفْظِيِّ، «وَأَصْلُ الْكَلَامِ: فَو رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَالْعَرَبُ تَأْتِي بِحَرْفِ النَّفْيِ قَبْلَ الْقَسَمِ إِذَا كَانَ جَوَابُ الْقَسَمِ مَنْفِيًّا لِلتَّعْجِيلِ بِإِفَادَةِ أَنَّ مَا بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ قَسَمٌ عَلَى النَّفْيِ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ الْجُمْلَةُ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهَا، فَتَقْدِيمُ النَّفْيِ لِلْإِهْتِمَامِ بِالنَّفْيِ، كَقَوْلِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ:

فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبُهَا صَحِيحًا وَلَا أَشْفَى بِهَا أَبَدًا سَقِيمًا» (١)

(١) التحرير والتنوير (٥ / ١٠٩)، وقال: «وَلَيْسَتْ (لَا) هَذِهِ هِيَ الَّتِي تَرُدُّ مَعَ فِعْلِ الْقَسَمِ مَزِيدَةً وَالْكَلَامُ مَعَهَا عَلَى الْإِثْبَاتِ، نَحْوُ: ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ (الْقِيَامَةُ: ١) وَفِي غَيْرِ الْقَسَمِ نَحْوُ: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ (الْحَدِيد: ٢٩)، لِأَنَّ تِلْكَ لَيْسَ الْكَلَامُ مَعَهَا نَفْيًا».

إنها عبارة واضحة صريحة في تحديد شرط الإيمان، فشرط الإيمان التحاكم إلى الرسول ﷺ في كل شيء مهما صغر ﴿حَتَّى يُحْكَمُواكُمُ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، وشجر يشجر شجورًا وشجرًا، إذا اختلف واختلط و«تشاجر القوم»، تنازعوا في الكلام والأمر «مشاجرة وشجارًا»، مأخوذٌ عندي من التفاف الشجر، فإن الشجر يتداخل بعض أغصانه في بعض، ولم يتبين، ومعلوم بأن تحكيم الرسول ﷺ لا يعني تحكيم شخصه بل تحكيم شريعته، والالتزام بمنهجه، والبحث عن سنته لا التخلي عن ذلك لمجرد وجود العناء في التمييز بين الصحيح والضعيف، والآن عد إلى الآية لتجد أن الله جعل مجرد التحاكم إلى سنة النبي ﷺ غير كافٍ في تحقيق الإيمان حتى يضم إليه أمرين

فقال الله عن الأول: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ والخرج الانزعاج والضيق الشديد والقلق كما في قوله تعالى ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (الأنعام: ١٢٥)، فهو يأمر بالآلا يحدث أدنى تردد في النفس أو في الصدر من الحكم المتوصل إليه، «وليس المراد الحرج الذي يجده المحكوم عليه من كراهية ما يلزم به إذا لم يخامرهُ شك في عدل الرسول وفي إصابته وجه الحق»^(١).

وقال عن الثاني: ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ (النساء: ٦٥) والتسليم القلبي المطلق بنتائج التحاكم، فأمر بالتسليم الباطني مع الانقياد الظاهري.

وعدم الحرج والتسليم يعنيان التحرك لتنفيذ ذلك دون إبطاء أو تراخ.. وقد ذكر الله هذا الركن الركين من معاني الإيمان: ركن التحاكم إلى سنة النبي ﷺ في مواضع متعددة مبينًا مناقضة الممتنع عنه لحقيقة الإيمان كما في قوله تعالى جده: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فِزْيُ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ

(١) التحرير والتنوير (٥ / ١١١).

يَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ هُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿النور: ٤٧ - ٥١﴾^(١).

قال الطاهر بن عاشور: « ثُمَّ إِنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ التَّقَاضِي لَدَى قَاضٍ يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ قَدْ يَكُونُ لِلطَّغْنِ فِي الْأَحْكَامِ الإِسْلَامِيَّةِ الثَّابِتِ كَوْنَهَا حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ كُفْرٌ لِدُخُولِهِ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا ﴾ (النور: ٥٠) وَقَدْ يَكُونُ لِمُجَرَّدِ مُتَابَعَةِ الْهَوَى إِذَا كَانَ الْحُكْمُ الْمُخَالَفُ لِلشَّرْعِ مُلَائِمًا لِهَوَى الْمَحْكُومِ لَهُ، وَهَذَا فُسُوقٌ وَضَلَالٌ، كَشَأْنِ كُلِّ مُخَالَفَةٍ يُخَالَفُ بِهَا الْمُكَافَأُ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ لِاتِّبَاعِ الْأَعْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ لِلطَّغْنِ فِي الْحَاكِمِ وَظَنُّ الْجَوْرِ بِهِ إِذَا كَانَ غَيْرَ مَعْصُومٍ »^(٢).

الآن فكر كثيرا في الأحكام الواردة في هذه السورة لتفكر الرجال والنساء جيدا بأحكام مثل واجبات الزوجة وحقوقها، وواجبات الزوج وحقوقه.. فليفكر التجار في موضوع الربا.. ليفكر ولاية أمر المسلمين بحقوق إخوانهم المستضعفين ممن ذُكرت حقوقهم في هذه السورة.

تعال معي لنجمع كل هذه الآيات التي تتكلم عن أمانة الحاكمية، وشرك الحاكمية مع قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء: ٥٩) إذ قال الله بعدها: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ

(١) في تفسير الرازي (١٠ / ١٢١): « وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ دَلَالٌ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ أَوْ أَوَامِرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الإِسْلَامِ، سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشُّكِّ أَوْ مِنْ جِهَةِ التَّمَرُّدِ... ».

(٢) التحرير والتنوير (٥ / ١١٢).

أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ ﴿الآيات (النساء: ٦٠)﴾ . ألا ترى فيها إشارة إلى أن كل قضية نزلت فلا بد أن يجدها الإنسان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ صراحة أو إيماء بالطريق الأصلي أو بالطريق التبعية.. وإنما ذكر ما يتعلق بالسنة في هذه الآيات المباركات ليشير إلى دعوى الزاعمين أنهم يحمون كتاب الله ثم يطعنون في سنة رسول الله أو يعرضون عنها..

ومن الأمثلة العملية التي فهم الصحابة - رضي الله عنهم - أنها تدخل في عدم التسليم للحكم النبوي ما ذكره الزبير بن العوام أنه حاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسول الله ﷺ للزبير اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك فغضب الأنصاري فقال يا رسول الله، أن كان ابن عمّتك؟! فتكّون وجه رسول الله ﷺ ثم قال اسق ثم أحس حتى يبلغ الجدر فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ حقه للزبير، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي سعة له وللأنصاري فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوعى للزبير حقه في صريح الحكم قال عروة قال الزبير والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية (١).

واسمع إلى ومضة من المدرسة التربوية الطاهرية العملاقة عند تأمل الحديث، حيث قال عن خصم الزبير «والأنصاري»، قيل: هو غير معروف، وحبدًا إخفاؤه» (٢)، فقد كان قضاء النبي ﷺ في المرة الأولى صلحًا، وكان قضاؤه الثاني أخذًا بالحق، وكان هذا الأنصاري ظن أن النبي ﷺ أراد الصلح بينهم على وجه فيه توفير لحق الزبير جبرًا لخطأه، ولم ير في ذلك ما ينافي العصمة، فقد كان الصحابة متفاوتين

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٤٥)، والجدر هو ما يدار بالخلل من التراب كالجدار.

(٢) التحرير والتنوير (٥ / ١١٣).

فِي الْعِلْمِ بِحَقَائِقِ صِفَاتِ الرَّسُولِ مَدْفُوعِينَ فِي سَبْرِ النُّفُوسِ بِمَا اعْتَادُوهُ مِنَ الْأَمِّيَالِ
وَالْمُصَانَعَاتِ، فَنَبِّهَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّ ذَلِكَ يَجْرُ إِلَى الطَّعْنِ فِي الْعِصْمَةِ. وَلَيْسَ هَذَا
الْأَنْصَارِيُّ بِمُنَافِقٍ وَلَا شَاكٍّ.

والمقتضى العملي لذلك: الاهتمام العظيم بسنة النبي ﷺ، والتنقيب عن
المقبول منها، وتمييزه عما لا يثبت، وإقامة الجهود الكبرى لإقراءها، وتعليمها،
وإشاعتها، ونشر أبحاثها.



القسم الثاني من الأمانات

الثمار العظيمة لتطبيق الأوامر الإلهية، وأداء الحقوق الإنسانية وترك تحكيم الطاغوت (النساء: ٦٦ - ٧٠)

آيات هذا القسم:

﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۖ وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ﴾ (النساء: ٦٦ - ٧٠).

المناسبة والاتصال:

ذكر الله جلّ ذكره في القسم السابق حال الصنف الثاني الذي لا يؤدي الأمانات إلى أهلها، ويمنع الحقوق الإنسانية، ويشكل تهديدًا للإدارة الراشدة، ويحكم الطاغوت، وإذا كان الرجوع إلى أسس الإدارة الراشدة خيرًا وأحسن تأويلًا لأنها تمكن الإنسانية من الحصول على حقوقها - فإن الله يُجَلِّي لنا في هذا القسم بعض الثمار العظيمة عندما تطبق الإنسانية الأوامر الإلهية بأن تؤدي الأمانات إلى أهلها، وتحكم بين الناس بالعدل، وتترك تحكيم الطاغوت، وهذه الثمار تبصرنا بها الآيات في هذا القسم وهي:

الثمرّة الأولى: التحاكم إلى الرسول ﷺ.

يعني القدرة على إدارة النفس الإنسانية بمقاومة أهوائها المستكبرة، ومعاندتها المفتخرة، والثقة بأن الحكم الشرعي خير وأحسن تأويلاً، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦)، فهو يدل على معنيين يدلان على قدرتهم على أن يتحكموا بأهوائهم:

الأول: أمرناهم بالتحاكم إليك في أمور الحياة، فشق على بعضهم، ولو أمرناهم بأعظم المشاق من قتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم لم يطع إلا قليل منهم،

الثاني: هم يعاندون كل أمرٍ إلهي، فأمرناهم بالمحافظة على الحياة الإنسانية ففعلوا العكس فقتلوا أنفسهم وإخوانهم، وشردوا أنفسهم وإخوانهم من ديارهم، ولو أمروا بعكس ذاك بأن يقتلوا أنفسهم لعاندوا فما فعلوه:

يكشف الله في الآية حقيقة تفكير الذين لا يؤدون الأمانات إلى أهلها، فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦)، فالاطلاع على تفكيرهم يجعلنا ندرك الواقع الحقيقي، ولا نغتر بالكثرة العددية التي لا تحدث في اجتماعها على الحق إلا نادراً، ونحترس ممن يزعمون الإيمان والطاعة، وتبصرنا الآية المباركة بمعنيين:

المعنى الأول: الواو عاطفة على ما قبلها: أي نحن كلفناهم أن يتحاكموا إليك فيما شجر بينهم، وذلك يقتضي أن يعرفوا سترك وسيرتك، وليس في ذلك مشقة عظيمة عليهم، فتردد بعضهم، ولو كلفنا هؤلاء الذين يزعمون بأنهم آمنوا بالتكاليف الشاقة مثل أن يقتلوا أنفسهم أو يتركوا ديارهم ويهجروا الأموال والأوطان في سبيل غايةٍ أسمى ما فعلوه إلا قليلٌ منهم، فهنا عتابٌ عجيب، وبيانٌ مبهرٌ ليسر الشريعة الخاتمة؛ فهو يذكر أن هذا التكليف الشاق ليبين أنه لم يحدث، فلم يكلف الله

الإنسانية في الشريعة التكاليف العسيرة، وكأنه يقول: لو كتبنا على الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ما كتبناه على بني إسرائيل مثلاً كأن يقتل كل واحد أخاه، أو يهجر الأوطان والديار فكيف يكون موقف هؤلاء الزاعمين للإيمان من ذلك؟ ما فعلوه إلا قليل منهم.. أما يكفيهم أنا رحمتناهم وخفنا عنهم، ولم نوجب عليهم العبادات الشاقة مثل الجهاد إلا في نطاقٍ محدودٍ، فقد كانت كفارة بعض الذنوب مباشرة القتل حقيقة بأن يقتل المرء نفسه أو يقتله أخوه، وهجر الأوطان يماثل قتل النفس، وبين مجاهد بن جبر ذلك المعنى فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾، كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضاً بالخناجر، لم يفعلوا إلا قليل منهم^(١)، فنحن لم نطلب منهم قتل أنفسهم ولا ترك ديارهم بل أيسر الأمور أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وأن يتحاكموا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولاحظ أنه قرن بين قتل النفس والخروج من الوطن، وذلك لأن قتل النفس تعني إخراج الروح من وطنها وهو الجسد، والخروج من الديار تعني إخراج الأجساد من أوطانها وهي الديار، وكلاهما شاقٌّ مشقة عظيمة كما يدل ذلك على مكانة الأوطان في نفوس بني الإنسان.

والمقصود بالضمير في قوله ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ الأمران معاً: القتل والخروج، وذلك لِأَنَّ الْفِعْلَ جِنْسٌ وَاحِدٌ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ ضُرُوبُهُ وَأَنْوَاعُهُ، أَي مَا فَعَلُوا مَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ بالنصب لأنه مستثنى، أو بالرفع قراءة ابن عامر على أنه بدل.

لماذا ذكر الله جل ذكره قتل النفس، وهجر الديار؟ لأن كثيراً منهم يتشددون بأنهم مستعدون أن يبذلوا أنفسهم دفاعاً عن الأوطان، وحراسة للشوايت.. فليحذر

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٢٦).

من يقال له ذلك؛ لأنهم لا يفعلون ذلك على الحقيقة.

المعنى الثاني: وهو معنى رائعٌ تميل إليه النفس في فهم الآية يضاف إلى المعنى الأول، ويعرض هذا المعنى ابن كثير رحمه الله فيقول: «يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِرُوا بِمَا هُمْ مُرْتَكِبُونَ مِنَ الْمَنَاهِي لَمَّا فَعَلُوهُ؛ لِأَنَّ طِبَاعَهُمُ الرَّدِيئَةَ مَجْبُولَةٌ عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ، وَهَذَا مِنْ عِلْمِهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِمَا لَمْ يَكُنْ»^(١)

فالمراد من الآية: هم أسرى لعنادهم واستكبارهم فيقابلون الأوامر الإلهية التي تحافظ عليهم وعلى الإنسانية بالعكس منها، فلما أمرهم بالمحافظة على الإنسانية صنعوا نقيض ذلك، ولذا يقتربون المنكرات فيقتلون إخوانهم، ويخرجونهم من ديارهم، فكَنَى عن إخوانهم بلفظ (أنفسهم).. والمراد من هذا المعنى أنهم يطيعون أهواءهم وأنفسهم الأمارة بالسوء، فيعاندون الأمر لمجرد صدوره عن ربهم، فلما لم يأمرهم أن يقتلوا إخوانهم بادرُوا فأراقوا دماءهم، ولو أنا كتبنا عليهم أن افعلوا ذلك ما فعلوه إلا قليل منهم.

والآية تدعو إلى التربية على الاستعداد للتضحية بأعز الأمور الدنيوية كالتضحية بالأنفس أو راحة المسكن إذا كتبها الله تعالى، والمعنى هنا فيه تسلية للنبي صلوات الله وسلاماته عليه وللمسلمين عندما يرون من يعرض عما جاء من السنة.. أفلا يرون أنهم يعرضون عن كلام ربهم، والآية تحملنا أمانة طاعة الله تعالى مهما كان التضحيات وثمارها، وعندما تبحث عن المناسبة والاتصال بين هذه الآية وبين ما سبق سترى فيما سبق أنه تمّ تقرير أن أصل أداء الحقوق يقوم على فكرة أداء الأمانات إلى أهلها، ثم ذكر الله تعالى ثلاثة مظاهر للأمانة:

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٢).

الأول: أمانة الحكم بالعدل من جهة الحكام، وأمانة الطاعة بالمعروف من جهة المتحاكمين.

الثاني: أمانة التحاكم إليه وإلى رسوله ﷺ لا إلى الطاغوت،

ثم عقب على ذلك بذكر الثالث، وهو أمانة طاعة الله تعالى مهما كان التضحيات والثمار العظيمة لذلك، والتشويق لها ببيان ثمارها، وذلك لأن الطغاة والطواغيت يحاولون تمييع هذه القضية بذكر مستجدات العصور، وتكوين مجموعات الضغط التي تنشط لنشر ذلك، وذكر مثل هذا أيضاً تمهيداً لذكر أمانة الإعداد الأمني للمسلمين حماية للعدل ونصرة للمستضعفين.

وهذه التربية تؤدي إلى إيجاد الصدق في التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ مهما كانت التبعات والتضحيات، وكما فعل المهاجرون بتعريض أنفسهم لذلك ثلاث عشرة سنة، هم فيها عند أعداء الله مضغة لحم بين مخالب نصور تتخاطفها.

والآية تزرع فينا أحد أهم الأمور في التعامل مع هؤلاء الزاعمين: ألا نبحث عن الكثرة، ونشغل أنفسنا بها؛ إذ الكثرة لا تجتمع على الحق إلا نادراً.

الثمرة الثانية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (النساء: ٦٦)

فاتباع الأوامر الإلهية خير لهم من كل مصلحة عاجلة يظنونها أولى:

انظر كيف عبر عن أوامره سبحانه بأنها وعظ لهم؛ لأنها تتضمن النصح المقترن بالرحمة، والتحذير من التبعات المستقبلية إن لم يقوموا بما يؤمرون به.. فيقول: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم مما اختاروه لأنفسهم في القيام بالمصالح التي تضمن لهم الرقي والمجد في الحياتين مهما بدا من تضحية في طاعة الله فمآلها إلى خير الأفراد والمجتمع.

ومن الثمرات العاجلة التي تبين الخيرية المذكورة هنا ما بينه النبي ﷺ بنفسه
للأنصار لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمَوْلَفَةِ قُلُوبَهُمْ
(فَطَفِقَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي رِجَالًا الْمِئَةَ مِنَ الْإِبِلِ) وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا
إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ (فَقَالُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا
وَسُيُوفُنَا تَقَطَّرُ مِنْ دِمَائِهِمْ)، فَخَطَبَهُمْ: (فَقَالَ مَا حَدِيثُ بَلْعَنِي عَنْكُمْ فَقَالَ فَقَهَاءُ الْأَنْصَارِ
أَمَّا رُؤُسَاؤُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا وَأَمَّا نَاسٌ مِّنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ فَقَالُوا يَغْفِرُ اللَّهُ
لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقَطَّرُ مِنْ دِمَائِهِمْ) فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ
أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِي وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي
كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ «يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله قالوا
صدق الله ورسوله قال ألم تكونوا ضاللا فهداكم الله قالوا صدق الله ورسوله قال ألم
تكونوا فقراء فأغناكم الله قالوا صدق الله ورسوله. ثم قال ألا تجيبونني ألا تقولون أتيتنا
طريدا فأويناك وأتيتنا خائفا فأمناك» قَالَ مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كُلَّمَا
قَالَ شَيْئًا قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ قَالَ لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ جِئْنَا كَذَا وَكَذَا أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ
النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رَحَالِكُمْ^(١)..

الثمرة الثالثة: ﴿وَأَشَدُّ تَثْبِيتًا﴾ (النساء: ٦٦).

والتَّثْبِيتُ: التقوية حتى يصبح المثبت راسخاً، فالطاعة تؤدي إلى الثبات على
المبادئ ولزوم الحق، فإن استقام الصالح ومات يكون موته على الحق تثبيتاً لغيره:
وإنما ذلك يكون بطلب الطاعة بعد الطاعة، فمن كانت له بداية محرقة، كانت له
نهاية مشرقة، كما قال الحُصَيْنُ بْنُ الْحُمَامِ:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِيَ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٢٠٠)، أحمد (٣ / ٥٧).

الثمرة الرابعة: ﴿وَإِذَا لَا تَيْنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٦٧).

فوصف الأجر بأنه من لدن الله، وأنه عظيم، وذلك يدل على أنه غير محدود كمًّا وكيفًا: فالأجر المترتب على الاستعداد للطاعة غير محدود، وهذه الجملة تدل على أن ما قبلها كان ثمراتٍ دنيوية، وإذن تدل على محذوف، والتقدير: وإذا فعلوا ذلك لأتيناهم من لدنا أجرًا عظيمًا، وبين الزمخشري أن كلمة «إذا» جوابٌ لسؤالٍ مُقدَّر، كأنه قيل: ماذا يكون من هذا الخير والتَّشْيِيتِ. فقيل: هو أن نُؤْتِيَهُمْ مِنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْتِي مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠).

ولقد عظمَ الله الأجر الممنوح منه تعظيمًا مشوقًا للنفوس الطامحة الطامعة.. اللهم أذقنا حلاوته: فقال: ﴿لَا تَيْنَهُمْ﴾ فأتى بد(نا) الدالة على التعظيم، ولم يقل لايتهم، ليعظم العطاء بتعظيم المعطي، ثم قال ﴿مِّنْ لَّدُنَّا﴾ وكأنه سيعطيك الأجر مقابل العمل، ثم يزيدك شيئًا خاصًا من لدنه كمًّا في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥) ثم وصفَ هذا الأجرَ بالعَظِيمِ، وَالشَّيْءُ الَّذِي وَصَفَهُ أَعْظَمُ الْعُظَمَاءِ بِالْعَظَمَةِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ فِي نِهَآيَةِ الْجَلَالَةِ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١).

الثمرة الخامسة: ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ٦٨).

والصراط المستقيم يجدون منه صوابية اتخاذ القرارات، ووضوح الرؤية في الحياة، ويشكل جسر العبور إلى الجنة بعد الحساب يوم القيامة

الثمرة السادسة: اكتساب أحسن الرفقة التي يفتخر بالانتساب إليها.

ويُبيِّنُنا بها قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٤٣) برقم ٣٢٤٤.

النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ (النساء: ٦٩-٧٠):

إنه - تعالى جده - يكمل ثمرات تنفيذ ما يوعظون به أي يطيعونه لكنه هنا أعاد طلب الطاعة مجدداً فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ لماذا أعاد جل جلاله؟

إنه التشويق للتنفيذ، والتهييج ليتصف المنفذ بكمال الطاعة، ويستمر عليها ولا يأتي بمناقضها إلا على سبيل الزلل الذي تمحوه التوبة، وهو التشويق إلى الثمرة المدهشة التي سيجدها المنفذ.. للنتيجة العظيمة التي سيحققها.. للهدف الكبير الذي سيصل إليه.. اسمع له بتلهف حيث قال تعالى ذكره: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ من المشهورين العظماء، فكلمة ﴿مَعَ﴾ تدل على أَنَّ مَكَانَةَ مَدْخُولِهَا أَرْسَخُ وَأَعْرَفُ^(١).. والصحبة للعظماء يتطلع لها المتنافسون، وإذا كان النبي ﷺ يشاقق للرفيق الأعلى الأسعد فكيف غيره؟ فعن عائشة قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: «إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ» فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَصَرَهُ الْقَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى» فَقُلْتُ: إِذَا لَا يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ^(٢)، وعنهما قالت: لما مرض النبي ﷺ أخذت يده، فجعلت أمرها على صدره، ودعوت بهذه الكلمات: اذهب البأس رب الناس، فانترع يده من يدي، وقال: «أَسْأَلُ اللَّهَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى الْأَسْعَدَ»^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٥ / ١١٦).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ١٢).

(٣) أحمد (٦ / ١٢٠) وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

فذكر الله جل جلاله في الآية أربعة مراتب للمصحبة:

المرتبة الأولى: مرتبة الأنبياء ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾.

والمرتبة الثانية: مرتبة الصديقين ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾.

و«الصديقون»: الذين بالغوا في الصدق والتصديق للأنبياء، واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقوا بهم، ف«الصديق»، «فِعْلٌ» من «الصدق» إذا كان مدمناً على الصدق والتصديق للصادقين، كما يقال: «رجل سَكِير» من «السُّكْر» إذا كان مدمناً على ذلك، و«شَرِيبٌ»، و«خَمِيرٌ»، ويظهر أن «الصديق» يجمع ثلاث صفات: يُصَدِّق قولَ الصادق آخذاً به دون تردد أو تباطؤ أو تثاقل، فيصدق قول ربه جل وعز، ويصدق قول نبيه ﷺ دون تردد، فلا يحتاج إلى البينة بل يشغل نفسه بشيء واضح: هل قال الصادق فيصدق، أم لم يقل، ولا يطلب على ما قال برهانا، وهنا تدرك لم يقول ربي جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ (الحديد: ١٩)، والصفة الثانية: أن يتحرى الصدق فلا يكذب في صغير ولا كبير حتى يكتب عند الله صديقا، وربنا الرحمن يقول: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (الزُّمَر: ٣٣)، والصفة الثالثة: أن تصدق أفعاله أقواله، ومنه قوله جل ثناؤه في صفة مريم: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (سورة المائدة: ٧٥).

فالصديقون «زَكَتْ فِطْرَتُهُمْ، وَاعْتَدَلَتْ أَمْرِجَتُهُمْ، وَصَفَتْ سَرَائِرُهُمْ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِمَجَرَّدِ عُرْوَصِهِ لَهُمْ، فَهُمْ يُصَدِّقُونَ بِالْحَقِّ عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهِهِ، وَيُبَالِغُونَ فِي صِدْقِ اللِّسَانِ وَالْعَمَلِ، كَمَا نُقِلَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ (ع)»^(١).

(١) تفسير المنار (٥/ ١٩٨).

واسمع إلى جانب من جوانب هذا التصديق الفريد الذي اتسم به عبد الله بن عثمان المشهور بأبي بكر الصديق، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانُوا آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَعَوْا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوْ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَا أُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدَوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقَ ^(١)، ويحدث النبي ﷺ عن جمع أبي بكر لهذه الخصال فيقول: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ فَمَا أُؤْذِي بَعْدَهَا» ^(٢).

والمرتبة الثالثة: مرتبة الشهداء ﴿وَالشَّهَدَاءُ﴾:

وَالشَّهِيدُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ، وَهُوَ الَّذِي يَشْهَدُ لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَةِ وَالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ فِي هَذَا الْكَوْنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٨) ثم يجتهد في القيام بشهادة الحق حتى يقدم حياته ثمناً لإقامة الحجة على الناس من خلال دمائه، فصار شاهداً على الحق الذي ضحى بنفسه من أجله، وهذا هو المعنى المراد هنا، ويكون الشهداء أعظم الناس شهادة على أداء الأنبياء لرسالاتهم مما ورد في قوله عز شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣).

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم مع تعلیقات الذہبی فی التلخیص (٣ / ٦٥)، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٣٠٦.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٦).

المرتبة الرابعة: الصالحين ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾:

وَالصَّالِحُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ صَالِحًا فِي اعْتِقَادِهِ وَفِي عَمَلِهِ.. في سريرته وعلانيته^(١)، والصالح هو الذي يكون صالحًا للقيام بواجباته في الحفاظ على صلاح الأرض، وبذا يكون صالحًا ليدخل الجنة، ويرافق النبيين والصديقين والشهداء، ويكون صالحًا لينال رضوان الله جل في علاه.

ووفق هذه المراتب يتقلب الفائزون، فالصالح قد يرتقي إلى مرتبة الشهيد، وقد يرتقي إلى مرتبة الصديق، وقد يرتقي عندما يختاره الله اختيارًا خاصًا ليكون في مرتبة النبي: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (النحل: ٢).

ومرافقة الكاملين من أعظم النعيم، فقد قال تعالى: ﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ ومعناه: التَّعَجِيبُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا أَحْسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا، والرفيق مشتق من الرفق وهو التلطف المتحجب ولينُ الجَانِبِ، وخفض الجناح، ولطافة المعشر، ونبل الفعل حضراً وسفراً رخاء وشدة، والصَّاحِبُ يُسَمَّى رفيقا لرفقه بصاحبه «فَبَيْنَ تَعَالَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ يَكُونُونَ لَهُ كَالرُّفَقَاءِ مِنْ شِدَّةِ مَحَبَّتِهِمْ لَهُ وَسُرُورِهِمْ بِرُؤْيَيْهِ»^(٢).

وَوَحَّدَ الرَّفِيقَ وَهُوَ صِفَةٌ لِجَمْعٍ، لِأَنَّ الرَّفِيقَ وَالرَّسُولَ وَالْبَرِيدَ تَذَهَبُ بِهِ الْعَرَبُ إِلَى الْوَاحِدِ وَإِلَى الْجَمْعِ قال تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٦)، وقال الشاعر:

دَعَوْنَ الْهَوَى، ثُمَّ ارْتَمَيْنَ قُلُوبَنَا بِأَسْهُمِ أَعْدَاءٍ، وَهُنَّ صَدِيقُ^(٣)

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٣٢).

(٢) تفسير الرازي (١٠ / ١٣٦).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٣٢).

بمعنى: وهن صدائق. والمعنى: وحسن، هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم، رفقاء في الجنة^(١).

وتشعر بالنور الغامر من هذه الآية عندما يُتبعها الله بقوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٧٠)، والفضل الزيادة المخصوصة التي لا يقابلها عملٌ سابق.. اللهم أذقنا أوفر الحظوظ من هذا الفضل.. كيف لا يكون فضلاً من الله وهو جل شأنه يختصر على البشرية مشوار التجارب عندما ينعم عليها بهذه الأنظمة التشريعية الفذة؟ كيف لا يكون فضلاً من صاحب الفضل الأكمل، وهو -عزَّ جأزه- يُكسب الأجر الكبير على العمل اليسير؟ كيف لا يكون فضلاً وهو يرفع المرء درجاتٍ في الجنات ليتنعم بالصحبة العلوية التي تستجيش مشاعر كل قلب، وتستثير كل عطفة صدق؟.

وهذه الآية أسرت قلوب المسلمين بمضمونها، فعن سعيد بن جبير؛ قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان! ما لي أراك محزوناً؟». فقال: يا نبي الله! شيء فكَّرت فيه. فقال: «ما هو؟». قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك، ونجالسك، وغداً تُرفع مع النبيين؛ فلا نصل إليك. فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ...﴾ الآية، فبعث النبي ﷺ، فبشره^(٢)، وعن عائشة قالت: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي، وأحبُّ إليَّ من أهلي، وأحبُّ إليَّ من ولدي، وإنِّي لأكونُ في البيت فأذكرُك، فما

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٣٢).

(٢) قال ابن كثير (٢ / ٣٥٤): رَوَى هَذَا الْأَثَرُ مُرْسَلًا عَنْ مَسْرُوقٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَعَامِرِ الشَّعْبِيِّ، وَقَتَادَةَ، وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِهَا سَنَدًا..

أَصْبِرْ حَتَّى آتِيكَ، فَانْظُرْ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنْ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، خَشِيتُ أَلَّا أَرَكَ. فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾^(١).

وسأل رجل رسول الله ﷺ عن قيام الساعة، وأقيمت الصلاة، فلما قضى صلاته، قال: أين السائل عن الساعة؟ قال الرجل: أنا يا رسول الله، قال: ما أعددت لها، فإنها قائمة؟ قال: ما أعددت لها كثير عمل، غير أنني أحب الله ورسوله. قال رسول الله ﷺ: «فأنت مع من أحببت» قال: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام، ما فرحوا بهذا الحديث، قال: فكان أنس يقول: فنحن نحب الله ورسوله. وفي لفظ: فَأَنَا أَحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَحِبُّ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحَبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ^(٢).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَائِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ، أَوْ الْمَغْرِبِ لِنَفَاضِلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(٣).

إنها آية النور، وحديث الأمل الصادق، فتشرق الأرض بنور ربها، وتبتهج النفوس بنور مولاها.

(١) قال ابن كثير ت سلامة (٢ / ٣٥٤): وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمُقَدِّسِيُّ فِي كِتَابِهِ: «صِفَةُ الْجَنَّةِ»، مِنْ طَرِيقِ الطَّبْرَانِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ مُسْلِمٍ الْخَلَّالِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرَانَ الْعَابِدِيِّ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ: لَا أَرَى بِإِسْنَادِهِ بَأْسًا، وَرَوَى نَحْوَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ (١ / ١٥٢) مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ وَمَنْبَعُ الْفَوَائِدِ (٦ / ٣٦٧): «رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ، وَالْأَوْسَطِ، وَرَجَالَهُ رَجَالُ الصَّحِيحِ، غَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرَانَ الْعَابِدِيِّ، وَهُوَ ثِقَةٌ»

(٢) المنتخب من مسند عبد بن حميد (١ / ٤٠٣).

(٣) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٤ / ١٤٥).

ومن الأعمال الموصلة إلى هذه المتعة - متعة الصحبة التي لا يقدر أحد أن يصفها - ما جاء عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوُضُوئِهِ وَحَاجَّتِهِ فَقَالَ لِي «سَلْ». فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ». قُلْتُ هُوَ ذَاكَ. قَالَ «فَاعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(١).

«لقد كان الأمر يشغل قلوبهم وأرواحهم.. أمر الصحبة في الآخرة.. وقد ذاقوا طعم الصحبة في الدنيا! وإنه لأمر يشغل كل قلب ذاق محبة هذا الرسول الكريم.. وفي الحديث الأخير أمل وطمأنينة ونور..»^(٢)، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ^(٣).

وهذا مضمار المنافسة والمسابقة لمن أراد الدخول فيه.. فهل من مشمٍ له؟

قال الرازي معقباً بنظرة قرآنية تربوية غامرة: «قَالَ الْمُحَقِّقُونَ: لَا نُنْكِرُ صِحَّةَ هَذِهِ الرُّوَايَاتِ إِلَّا أَنْ سَبَبَ نَزُولِ الْآيَةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ الْبَعْثُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالتَّرْغِيبُ فِيهَا، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ خُصُوصَ السَّبَبِ لَا يَقْدَحُ فِي عُمُومِ اللَّفْظِ، فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي حَقِّ جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَأَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ فَازَ بِالذَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ وَالْمَرَاتِبِ الشَّرِيفَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى»^(٤).

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ بأوضاع عبادته، وبما يصلحهم، وبما يتنافسون فيه.. كفى به عليمًا بخباياهم، وآهاتهم الداخلية، ومشاعرهم، وهم يحبون أن يجدوا لذة تلك

(١) صحيح مسلم (٢ / ٥٢).

(٢) في ظلال القرآن (٢ / ٧٠٠).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ٤٩).

(٤) تفسير الرازي (١٠ / ١٣٢).

الرفقة الحسنة السعيدة.. اسمع إليهم، وكيف أثرت فيهم هذه الآية.

فعن عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ، يَقُولُ: يَا إِخْوَتَاهُ أَلَا تَبْكُونَ خَوْفًا مِنَ النَّيرانِ؟ أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ بَكَى خَوْفًا مِنَ النَّارِ أَعَاذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا، يَا إِخْوَتَاهُ أَلَا تَبْكُونَ خَوْفًا مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَا إِخْوَتَاهُ أَلَا تَبْكُونَ؟ بَلَى، فَابْكُوا عَلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ أَيَّامَ الدُّنْيَا لَعَلَّهُ أَنْ يُسْقِيَكُمْوهُ فِي حَظَائِرِ الْقُدْسِ مَعَ خَيْرِ الْقَدَمَاءِ وَالْأَصْحَابِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أَوْلَيْكَ رَفِيقًا، قَالَ: ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهِ^(١).

وَلَمَّا مَاتَ عَطَاءُ السَّلِيمِيِّ حَزِنْتُ عَلَيْهِ حُزْنًا شَدِيدًا فَرَأَيْتُهُ فِي مَنَامِي فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ أَلَسْتَ فِي زُمْرَةِ الْمَوْتَى؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَمَاذَا صِرْتَ إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ. فَقَالَ: صِرْتُ وَاللَّهِ إِلَى خَيْرٍ كَثِيرٍ وَرَبِّ غُفُورٍ شَكُورٍ، قَالَ: قُلْتُ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ طَوِيلَ الْحُزْنِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَتَبَسَّمْ وَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ يَا أَبَا بَشِيرٍ لَقَدْ أَعْقَبَنِي ذَلِكَ رَاحَةً طَوِيلَةً وَفَرَحًا دَائِمًا، قُلْتُ: فَفِي أَيِّ الدَّرَجَاتِ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أَوْلَيْكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩)^(٢).

وعن صَخْرِ بْنِ رَاشِدٍ، قَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ فِي مَنَامِي بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدِمْتَ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَمَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ قَالَ: غَفَرَ لِي مَغْفِرَةً أَحَاطَتْ بِكُلِّ ذَنْبٍ، قَالَ: قُلْتُ: فَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ قَالَ: بَخٍ بَخٍ ذَاكَ ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أَوْلَيْكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩)^(٣).

وعن الْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ، يَقُولُ: «لَمَّا احْتُضِرَ أَخِي عَلِيُّ بْنُ صَالِحٍ، رَفَعَ بَصَرَهُ ثُمَّ قَالَ ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦ / ١٦١).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦ / ١٧٢).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦ / ٣٨٥).

أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿ (النساء: ٦٩) ثُمَّ خَرَجْتَ نَفْسُهُ ، قَالَ: فَنَظَرْنَا إِلَى جَنِّهِ فَإِذَا تُقْبُ فِي جَنِّهِ وَقَدْ وَصَلَ إِلَى جَوْفِهِ وَمَا عَلِمَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ» ^(١)، وَعَنْ، زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: أُوغِمِي عَلَى الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: « أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَصَلَّى اللَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿ (النساء: ٦٩) ^(٢).. اللهم أسالك إيمانًا لا يرتد ونعيمًا لا ينفد ومرافقة نبينا محمد ﷺ في أعلى جنات الخلد:

زَعُمُونِي أَحَبُّ هِنْدًا وَمَيَّا	قَدْ أَتَى الزَّاعِمُونَ شَيْئًا فَرِيًّا
مَا لِهِنْدٍ وَلَا لِمَيٍّ نَصِيبٌ	فِي فُؤَادِ امْرِئٍ أَحَبَّ النَّبِيَّا
مُصْطَفَى اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ الْبَرَايَا	مُجْتَبَاهُ حَبِيبُهُ الْقُرَشِيًّا
أَشْرَقَتْ شَمْسُ فَضْلِهِ فَرَاَهَا	كُلُّ مَنْ لَمْ يَكُنْ غَبِيًّا غَوِيًّا
جَاءَ وَالنَّاسُ عَنْ هُدَى اللَّهِ ضَلُّوا	فَهَدَاهُمْ لَهُ الصِّرَاطَ السَّوِيًّا
قَدْ أَقَامَ الدَّلِيلَ فِيهِمْ كَلَامَ اللَّهِ	أَوْ لَا فَالْصَّارِمَ الْمَشْرِفِيًّا
فَعَلَيْهِ يَا رَبِّ صَلِّ صَلَاةَ	تَجْمَعُ الْفَضْلَ لَا تُغَادِرُ شَيْئًا



(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٢٩).

(٢) المحتضرين لابن أبي الدنيا (ص ٢٣٦).

المحور الخامس

التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ
الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين
(النساء ٧١-١٠٤)



وفيه: بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وذلك يقتضي تطبيق استراتيجية أخذ الحذر، والبحث عن أرض العدل والكرامة.

المناسبة والاتصال

لمست كيف فصلَ الله في المحور الرابع أهم أسس الإدارة الراشدة التي تعطي الحقوق لأصحابها، وهذه الأسس هي:

الأساس الأول: أداء الأمانات إلى أهلها، ولو كانوا فجرة.

والأساس الثاني: أمانة الحكم بالعدل.

والأساس الثالث: الشعور بالقيمة العالية، والموثوقية الرفيعة للتوجيهات الإلهية.

والأساس الرابع: التزام المصادر والأصول التشريعية في المتفق عليه، والمتنازع فيه.

والأساس الخامس: الشورى.

والأساس السادس: منع تدخل الجهات الأجنبية في التحكيم عند التنازع، فهذا أثر من آثار الثقة بالمصادر التشريعية الإسلامية، وبناء على ذلك فإن التحاكم إلى الطاغوت، من أهم صور خيانة الأمانة، وعدم الحكم بالعدل، وهو الذي يمنع البشرية من استيفاء حقوقها، والتنعم بما هو خير وأحسن تأويلاً.

كما مضى في المحاور السابقة الكلام عن الأنظمة التشريعية التنظيمية التي يُمنح من خلالها لأبناء البشرية حقوقهم فيتلدزون بما هو خير وأحسن تأويلاً في حياتهم، وبعد أن بنى الله جل ذكره الأسرة المركزية والأسرة الإنسانية الكبيرة، وأسّس المجتمع الحقوقي في واقعه الأسري والإداري بصورة مذهلة، والإدارة الراشدة

التي تؤدي الأمانات إلى أهلها، وتحكم بين الناس بالعدل جاء هذا المحور في موقعه المنطقي ليفصل لنا ضرورة أن نجعل محور سياسات الإدارة الراشدة تدور على الأمن الداخلي والسلام العالمي القائم على العدل، وهذا ما يميز المجتمع المدني الذي أقامه النبي ﷺ في المدينة.

ففي هذا المحور الحقوقي الأمني المذهل يبين الله أن السلم والسلام أساس العلاقات الداخلية والدولية في التعامل مع الآخرين؛ وليتم ذلك لا بد من تطبيق الاستراتيجية الأمنية العسكرية التي سماها الله عز وجل (أخذ الحذر)؛ ونسج القرآن خطوطها ودوائرها بصورة مذهلة؛ فإن المجتمع الضعيف الرخو من الناحية الأمنية يكون فريسة سهلة للمجرمين في داخله، والطامعين المعتدين من خارجه، وهؤلاء الأشرار غالبًا ما يكونون من البخلاء الحسدة ذوي الأفعال الأنانية الذين يعبدون شهواتهم ومصالحهم الذاتية في داخله أو خارجه.

أهمية استراتيجية (أخذ الحذر) في صنع الأمن الداخلي، والسلام الخارجي:

بث الحياة الإنسانية يقتضي الاستقرار والإعمار، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا اعتمد على صنع الأمن الداخلي والسلام الخارجي، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا وفق هذه الاستراتيجية الكبيرة (أخذ الحذر) فإنها تعني الاستعداد الأمني والعسكري بالقوة البشرية والتسليحية والمخابراتية على أوسع نطاق.

لاحظ كيف تسيّر بك الآيات: أخذ الحذر، والحث على الاستعداد لبذل النفس في سبيل التضحية لأجل المبادئ الحقّة (في سبيل الله) ومن ذلك الدفاع عن المستضعفين، ثم التحذير من مس أي جهة ترفع راية السلام وتكف اليد، ولا يمكن للعدو الشرس أن يذعن للسلام إلا عندما يعلم قوة خصمه.. لا يمكن للدّيب الجائع الغادر أن يكون حكيماً؛ فكيف عن اعتدائه إلا عندما يعلم أن الطرف الآخر لديه

الاستعداد للدخول في معركة ذات خطورة شديدة على الطرفين ، وقد ألف (إدوارد لتواك EDWARD N. LUTTWAK) كتابه العسكري المهم: (الاستراتيجية: منطق الحرب والسلام STRATEGY: THE LOGIC OF WAR AND PEACE)، ومن أبرز ما يقابلك فيه في أول الفصل الأول قوله:

إن كنت تريد السلام فاستعد للحرب «if you want peace, prepare war» هنا ينقلنا الله -عزَّ جأزه- إلى أهم الاستراتيجيات التي تبني المجتمع الحقوقي في المدينة النبوية باعتبارها أهم ميادين تطبيق تأدية الأمانات إلى أهلها، وإقامة العدل في مدينة النبي ﷺ، حتى يتم حمايتها من التحالف السيء الذي قام بين من يشتركون الضلالة وينشرون الضلال في العالم وبين الذين يتحاكمون إلى الطاغوت ممن ينتسب إلى المسلمين، وهي أهم الاستراتيجيات التي تبني المجتمع الحقوقي: إنها استراتيجية إشاعة السلام مع العالم التي تستلزم تطبيق استراتيجية أخذ الحذر، واستراتيجية نصرة المستضعفين (النساء: ٧١-١٠٤).

فكان هذا المحور في موضعه المناسب، فالعدل المتميز الذي تؤدي به الحقوق إلى أهلها تنفذه القوة الحامية في هذا المحور، وبذا ترى أن الإسلام جاء لحماية الإنسانية، وللمحافظة على الأمن القومي، ونصرة المستضعفين في الأرض، ولأجل ذلك أقام الله جل ذكره عددًا من الخطط الاستراتيجية الأساسية في المجالات الأمنية والعسكرية، وهذا الترتيب يليق بالأمة التي أخرجت لتكون خير أمة للناس بنشرها للعدل ومحاربتها للظلم، وحماية الإنسانية من الهجمات الخارجية والداخلية من مجموعات الشر الذين يترصبون بها السوء، وقد بين الله أسس الاستقرار في الأمة من خلال المصادر التشريعية والرقابية والقضائية في المحاور السابقة، فكان لا بد من ذكر ما يتعلق بحفظ الأمن الداخلي والخارجي، وقد قيل بأن الإسكندر قال لحكماء

الهَند: أيهما أفضل العدل أم الشجاعة؟ فقالوا: لو عدل ما احتاج إلى الشجاعة^(١)، وهذا غير صحيح؛ فإن العدل لا بد له من قوة تحميه، العدل هو الأصل لكنه يضيع دون قوة، وهنا نعلم لماذا جاء الكلام عن إدارة الملف العسكري والأمني في البشرية بعد الكلام عن الحكم بالعدل، وجعل الله رأس الكلام عن الملف الأمني استراتيجية أخذ الحذر.

ولتحقق مقاصد المحور انقسم إلى الأقسام الآتية:

القسم الأول: أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: استراتيجية (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية (النساء: ٧١-٧٣).

القسم الثاني: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: استخدام الخيار العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين، و لصناعة حالة (توازن قوى) وجاهزية الردع (النساء: ٧٤-٧٦).

القسم الثالث: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، وعدم الدخول في مواجهات غير متكافئة، والسلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي (النساء: ٧٧-٧٩).

القسم الرابع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تطبيق قوانين توازن الردع لضبط مجالي الأمن والخوف من خلال طاعة القيادة النبوية مطلقاً، والاستنباط من التدبر القرآني وفق الفهم النبوي (النساء: ٨٠-٨٧).

(١) درر السلوك في سياسة الملوك، لأبي الحسن لماوردي تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض، (ص: ٩٣).

القسم الخامس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إلقاء السلم، وكف الأيدي، وعدم التعاون مع المعتدين (النساء: ٨٨-٩١).

القسم السادس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: حفظ الدماء الإنسانية وحراستها من أهم دلائل الإيمان، والتحذير من التفريط فيها تحت ذريعة التطبيق للسياسة الأمنية أو العسكرية (النساء: ٩٢-٩٤).

القسم السابع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المجاهدين القائمين على حراسة الجانب الأمني، والحفاظ على حقوق المستضعفين (النساء: ٩٥-٩٦).

القسم الثامن: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلى أرضٍ تحفظ فيها الكرامة الإنسانية وفق النظام الإلهي (النساء: ٩٧-١٠٠).

القسم التاسع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: الصلاة، فهي من أهم الدعائم الأمنية وهي أهم مقومات البث الإنساني، والعبودية الصادقة، والجمع بينها وبين سياسة أخذ الحذر (النساء: ١٠١-١٠٤).



المحور الخامس: التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين (النساء ٧١-١٠٤): وفيه: بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وذلك يقتضي تطبيق استراتيجية أخذ الحذر، والبحث عن أرض العدل والكرامة. وتكون هذا المحور من تسعة أقسام:

القسم الأول

أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: استراتيجية (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية [النساء: ٧١-٧٣]

القسم الثاني

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: الإعداد العسكري العالي لصناعة حالة (توازن الردع)، واستخدام الحل العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين [النساء: ٧٤-٧٦]

القسم الثالث

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، وعدم الدخول في مواجهات غير متكافئة، والسلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحمة أمام الاستكبار المعتدي [النساء: ٧٧-٧٩]

القسم الرابع

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تطبيق قوانين توازن الردع لضبط مجالي الأمن والخوف من خلال طاعة القيادة النبوية مطلقاً، والاستنباط من التدبر القرآني وفق الفهم النبوي [النساء: ٨٠-٨٧]

القسم السادس

من مبادئ استراتيجية
صنع الأمن المجتمعي، والسلام
العالمي: حفظ الدماء الإنسانية
وحراستها من أهم دلائل الإيمان،
والتحذير من التفريط فيها تحت
ذريعة تطبيق السياسة الأمنية
[النساء: ٩٢-٩٤]

القسم الخامس

من مبادئ استراتيجية
صنع الأمن المجتمعي، والسلام
العالمي: إلقاء السلم، وكف
الأيدي، وعدم التعاون مع
المعتدين [النساء: ٨٨-٩١]

القسم الثامن

من مبادئ استراتيجية
صنع الأمن المجتمعي، والسلام
العالمي: تعظيم مكانة المهاجرين
في سبيل الله إلى أرضٍ تحفظ فيها
الكرامة الإنسانية وفق النظام الإلهي
[النساء: ٩٧-١٠٠]

القسم السابع

من مبادئ استراتيجية صنع
الأمن المجتمعي، والسلام العالمي:
تعظيم مكانة المجاهدين القائمين
على حراسة الجانِب الأمني،
والحفاظ على حقوق المستضعفين
[النساء: ٩٥-٩٦]

القسم التاسع

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي:
الصلاة من أهم الدعائم الأمنية وهي أهم مقومات البث الإنساني والعبودية
الصادقة، والجمع بينها وبين سياسة أخذ الحذر النساء (١٠١-١٠٤)

شكل (٩) صورة تلخص أقسام المحور الخامس، ويظهر في كل قسم
مبدأ من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي



القسم الأول

أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي:
استراتيجية (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور
والأخطار الخارجية، والداخلية (النساء: ٧١-٧٣)

آيات هذا القسم:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَتْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ (النساء: ٧١-٧٣). وتبصرنا الآيات بضرورة (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية من خلال القوانين الآتية:

القانون الأول: المؤمنون هم المعنيون بنشر الأمن والسلام في العالم ويُبَصِّرُنَا الله بذلك بخطابه للمؤمنين في قوله جل ذكره: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ٧١)؛ فالكتلة المؤمنة تحالف ديني متميز يجب أن يُعْنَى بإحلال الأمن في أنفسهم والعالم، ومن أهم وسائل ذلك اعتماد استراتيجية أخذ الحذر من الشرور كلها، وهي استراتيجية قرآنية فريدة مدهشة بنت المجتمع المدني المكون من المسلمين وغيرهم على السلام العادل.

لقد خاطب الله جل جلاله المؤمنين ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ليذكرهم بالوحدة الإيمانية التي جمعتهم، وأنها أساس لنشر النور والخير والسلام حولهم، وبهذا الخطاب بنى الاستعداد الأمني على المبدأ الإيماني العقدي..

انظر كيف يبني القرآن الكريم الاستعداد الأمني على المبدأ الإيماني العقدي، فهو لم يقل خذوا حذرکم مباشرة، وإنما بدأها بقوله ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فكأنه يقرر أن عدم أخذ الحذر ينافي بالإيمان، وهناك بعد آخر في قوله ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، وهو أن أخذ الحذر ينبغي أن يكون قائماً على الأسس الإيمانية، وليس قائماً على الأهواء الشخصية، ولا التعصب لجنس أو هوية حزبية، أو جماعة تنظيمية..

لماذا يخاطب الله جل جلاله المؤمنين؟ لأنهم أولى الناس بأن يقوموا بنشر السلام في العالم؛ فالنبي ﷺ يوضح أفضل الإسلام عندما سئل عنه فيقول: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(١)، والمقصود سلامة جميع الناس، ويوضح ذلك الرواية الأخرى التي قال فيها ﷺ مبيناً التعريف العملي للمسلم والمؤمن: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»^(٢)، ويحدث فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ عرّف المسلم والمؤمن بهذين التعريفين في بيان عالمي ذكره في أعظم مجامع المسلمين في حجة الوداع، فقال: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»^(٣).

القانون الثاني: (أَخْذُ الْحِذْرِ) يكون بعد (أَخْذِ الْحَذَرِ)؛ فالْحَذَرُ هو التيقظ الناتج عن الخوف المترقب، وهو يؤدي إلى البحث عن كيفية الاحتراز والحماية من أمور مخيفة، وهذا ينقلنا إلى المرحلة الثانية، وهي أَخْذُ الْحِذْرِ الذي يعني الاستعداد للأخطار المتوقعة، فأخذ الْحَذَرِ يعني قبول الخوف الذي يجعل الإنسان متيقظاً للخطر، وأخذ الْحِذْرِ يعني الانتقال من مرحلة الخوف المتيقظ إلى الاستعداد لمواجهة الأخطار المتوقعة.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١/ ١١)، برقم ١٠، ومسلم (١/ ٦٥)، برقم ٦٤.

(٢) أحمد (٢ / ٣٧٩) برقم ٨٩١٨، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي.

(٣) أحمد (٦ / ٢١) برقم ٢٤٠٠٤، وصحح إسناده الأرناؤوط.

وذلك مثل الحذر من أخطار الحساب في الآخرة التي ذكرها الله في قوله عز وجل: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ (الزمر: ٩)، أو الحذر من مراقبة الله لعبده ومحاسبته القادمة، وأخذ الحذر يجعله حذراً من أن يقع في الأخطاء والخطايا، وتستنشق عبير هذه الفائدة من قول الله جل شأنه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران: ٢٨)، وهذا التفريق بين الحذر والحذر أولى مما قرره بعض المفسرين من أنهما بمعنى واحد كالإثر والآثر والمثل والمثل، وتفصل لك ذلك هذه الآية المباركة: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعُ حَذِرُونَ﴾ (الشعراء: ٥٦) ففيها قراءتان: الأولى قراءة نافع وأبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب ﴿حَذِرُونَ﴾ بدون ألف، والثانية ﴿حَذِرُونَ﴾ وهي قراءة الكوفيين وابن عامر بخلف هشام^(١)، وكلتا القراءتين تصوران استراتيجية أخذ الحذر على أعلى نطاق وفق مشهدين، وهذا متوقع من القوة الفرعونية التي كانت تعد القوة العالمية الأولى في ذلك الزمان:

فالمشهد الأول تصوره القراءة الأولى: ﴿حَذِرُونَ﴾ حيث تصور فرعون وهو يصدر بياناً عاماً لشعبه حول استعدادده لمواجهة الإسرائيليين، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعُ حَذِرُونَ﴾ أي إِنَّا نَخَافُ شَرَّهُمْ^(٢) لكنه ليس خوفاً سلبياً بل نخاف من تحركاتهم خوفاً دفعنا إلى مراقبتهم، فقد قدمت لنا مخابراتنا الأمنية التقارير الكافية حول التحركات الإسرائيلية المسلمة، أي أخذنا الحذر منهم.

والمشهد الثاني تصوره قراءة الكوفيين ﴿حَذِرُونَ﴾ بالألف يعني بعد أن خفنا شرهم وأمدتنا أجهزتنا الأمنية بتحركاتهم، فقد أعتدنا لهم جيوشنا التي ستفتك بهم وتعيدهم، ولذا زعم رواة التاريخ أن فرعون هياً عدداً كبيراً من جيشه (قيل ستمائة ألف) لملاحقة بني إسرائيل، فالبداية ﴿حَذِرُونَ﴾ بمعنى خائفون من شرهم نرقب

(١) شرح طيبة النشر في القراءات، لابن الجزري، ضبطه وعلق عليه: أنس مهرة، دار الكتب العلمية || بيروت، ط ٢، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م (ص: ٢٨٨).

(٢) تهذيب اللغة (٤/ ٢٦٧).

تحركاتهم، والنهاية ﴿حَذِرُونَ﴾ بمعنى مُسْتَعِدُّون، وكذلك فرق بينهما أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، فقال: حاذرون: متأهبون. ومعنى حَذِرُونَ: خائفون^(١)، وزاد الزمخشري الأمر إيضاحاً في الفرق بين الكلمتين، فقال: رجل حذر: متيقظ محترز، وحاذر: مستعد. كما قال الشاعر:

فلا غَرَوْا إِلَّا يَوْمَ جَاءَتْ مُحَارِبٌ إلينا بألفٍ حاذِرٍ قَدْ تَكْتَبَا
لأن الفَرَعَ متيقظٌ ومتأهبٌ^(٢).

وبذا فإن أخذ الحذر يقتضي التخوف الإيجابي الذي يؤدي إلى التيقظ وعدم الغفلة، أي: تيقظوا وافزعوا، وترتب على ذلك أن تنظروا إلى الأحداث على وفق منهجية المؤامرة إن كان في الوقائع ما يشير إليها، وإنه ليطول عجبك ممن ينفي نظرية المؤامرة، فيقول: أنتم دائماً تزعمون أن الدين كله مؤامرة وهذا كله يدل على كسلكم، والأمر على العكس مما يقوله، فزعمنا بوجود مؤامرة لوجود المؤشرات الواقعية والنصوص القطعية التي تدل عليها، وهذا الزعم جزء من استراتيجية أخذ الحذر، وشعورنا بذلك يؤدي إلى ما قاله أرنولد توينبي في نظريته «الحركة والخوف والاستجابة»؛ إذ ذلك يدفعنا إلى المرحلة الثانية التي عبرت عنها قراء: ﴿وَأِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ (الشُّعْرَاء: ٥٦)، أي: مُسْتَعِدُّون متأهبون متيقظون لا نياماً كسالى واهمين.. إن استراتيجية أخذ الحذر تقتضي الحذر ثم الحذر وذلك يعني التأهب التام استعداداً للطوارئ المستقبلية، ولذا قال الزمخشري في معناها: «والمعنى: احذروا واحترزوا من العدو ولا تمكثوه من أنفسكم»^(٣)، ويعرف الطبري ﷺ أخذ الحذر تعريفاً بديعاً

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٦٢٦).

(٢) أساس البلاغة (١/ ١٧٦).

(٣) تفسير الزمخشري (١/ ٥٣٢).

فيقول: «خذوا جُنَّتكم وأسلحتكم التي تتقون بها من عدوكم لغزوهم، وحربهم»^(١)،

وأخذ الحذر يكون من الجهات التي يتوقع منها الشر، فليس الأمر مقيداً بالجنس ولا الجنسية ولا الدين ولا الهوية الثقافية، فقد تأتي الشرور من بعض من يتسبون إلى الإسلام إما لأنهم جهلة وإما لأنهم كذبة متكبرون، وإما لأنهم مغرر بهم، ولكن أخذ الحذر لا يعني أن تجري الأجهزة الأمنية في طلب عورات الناس أو الشك فيهم، وابتغاء الريبة في تصرفاتهم دون مبرر ظاهر. ويبدد تساؤل بشأن قوله جل ذكره: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ من أي شيء من الأخطار الداخلية أم الخارجية؟ وفي أي مجال؟ وفي المجالات الأمنية أم الثقافية؟ والجواب: كل داخل في مفهوم هذا القانون الدستوري: خذوا حذرکم داخلًا من البطانة الفاسدة، أو المجموعات العميلة الخائنة، أو الفاسقين الفجرة الذين يزعمون الأمن لمطامع ذاتية، أو تأويلات دينية فاسدة.

وخذوا حذرکم من الاختراق الخارجي، فالآية تشمل أخذ الحذر الأمني، والعسكري من المنافقين في المدينة وأمثالهم، ومن كفار قريش في مكة وأمثالهم، وهذا يقتضي الاستعداد العسكري، والأمني على أوسع نطاق.

وأخذ الحذر يقتضي ابتكار وسائل للدفاع والحماية التي تُجَنُّ من يحتمي بها أي: تخفيه عن الأنظار فلا يهتدى إليه، أو لا يوصل إليه مثل الدروع سواء كانت من خلال المعاهدات ذات التوثيق الدقيقة جدًا، والواضحة جدًا حتى لا يحصل الاختلاف ولا تتلاعب الأطراف بالثغرات القانونية من خلالها، فالطبري أخبرنا بأن نأخذ الجُنَّة والسلاح، فهل يعتبر من يشتري أسلحته من عدوه أخذًا حذرًا؟ قد يقال بأنه قد يشتري سلاحه من عدوه ويأخذ حذرًا منه، لكن عدوه قد يجعل المصيدة في

(١) الطبري (٨ / ٥٣٦).

هذا السلاح الذي يبيعه، فحقيقة خذوا حذرکم تؤدي إلى أمرٍ آخر لا بد منه وهو لزوم صنع السلاح الذي يوفر الحماية أي: اصنعوا أسلحتکم بأنفسکم، واصنعوا كل ما يؤدي إلى استقلالکم وعدم ارتهانکم للخارج سواء أكان في مجال السلاح أم في مجال النُظم والتشريعات، أم في مجال التكنولوجيا، أم في نظم المعلومات، أم كان في مجال الصناعات والأغذية، أم الاستقلال الغذائي، فكلمة ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ كلمة استراتيجية عجيبة شاملة، وكلما قرأت هذه الآية ما أزال أتعجب من حال مَنْ عندهم مثل هذا المبادئ ثم يعتمدون في صناعاتهم على الآخرين، فأين أخذ الحذر؟ أين تطبيق هذه الآية؟ لقد نزل هذا القانون قبل ١٤٠٠ عام، وهنا نعرف لماذا يصير كثير من المناوئين والمتعصبين والجاهلين على عدم ظهور الخطاب القرآني في الواقع الإنساني؛ إذ القرآن هو الذي يبنى استراتيجياتنا الأمنية والدفاعية، ويشيع السلام في العالم عندما تعلم جهات الشر أن هناك من يمكن له أن يردعها إن اختارت التصرفات العدوانية الخاطئة.

ما الذي تقتضيه استراتيجية أخذ الحذر غير ما سبق؟

إنها تقتضي إعداد المنظومات الأمنية والمخابراتية التي تكفل الأمن للمجتمع، وتكون متنبهة للثغرات المتوقعة التي سيجاول العدو النفاذ من خلالها، ولذا يخبر فرعون في بلاغ عاجل عن تبليغ الجهات الاستخباراتية له عن قيام موسى ﷺ بقيادة بني إسرائيل للهرب من السجن الجماعي الذي كانوا يعيشون فيه، ويصف الله كيف لخص فرعون لجنده وقادة ملكه المشهد بقوله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَيْنِ ۝٥٣ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (الشعراء: ٥٣ - ٥٦) .. أفيكون صاحب القوة الطاغية الغاشمة أكثر انتباهًا لما يزعمه أخطارًا ممن يعملون على تطبيق العدل في أنفسهم ومجتمعاتهم؟

كما أن استراتيجية أخذ الحذر تقتضي التنبه للقضايا اليسيرة التي قد يغفل عنها الإنسان لشدة المداخلة والمعايشة لغيره، واسمع إلى الله يبين ذلك فيقول: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن: ١٤)، وهذا لا يعني أن تشك في الأهل والأولاد، ولا يعني أن تقلب حياتك مع الأولاد والأزواج إلى أن تحول الحياة إلى جحيم، بل يعني ألا يستسلم الإنسان لدعوات الشيطان التي قد ترد على لسان الولد أو لسان الزوجة؛ لأن الإسلام ربانا على عاطفة عظيمة جداً تجاه الأهل والأولاد فالله يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) فبنى الحياة على عاطفة شديدة السيطرة على النفس الإنسانية، وينبها الله إلى ضرورة ألا تجرنا العاطفة إلى أن ننسى أخذ الحذر حماية لنا ولهم من التبعات لو وقعنا فيها كترك الواجبات، أو نسيان مساعدة الآخرين بسبب الاشتغال لزيادة الترف للأسرة، لكن الآية تعني ضمن ما تعني أن بعض الأولاد وبعض الأهل ربما ضغط على الإنسان لترك واجباته تجاه ربه أو تجاه مجتمعه، أو ربما ضحى بدينه أو مجتمعه لأجل ترفيه أسرته، وحقيقة الأمر أنه يقضي على أسرته لأنه إن لم يكن صادقاً أميناً مع مجتمعه ظهر الفساد الذي يوشك أن يرتد على أسرته ومنجزاته الشخصية.

وبذا يجتمع لنا من هذا اللفظ الوجيز: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أن نعد الوسائل التي تكفل وتحقق لنا الأمن العام والخاص، ولم يبين لنا سبحانه ممن نأخذ الحذر، وذلك ليشمل كل الثغور الأمنية والعسكرية والتعليمية والإعلامية التي يمكن أن يدخل من خلالها أهل الشر من أولياء الشيطان، وقد خصص الله بالذكر الحركة المنافقة التي تعيث فساداً في جسد المجتمع الإسلامي فقال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (المنافقون: ٤).

وتأمل في التعبير القرآني العجيب هنا ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، والأخذ تناول

الشيء البعيد المحسوس، والأصل فيه: « حَوَزَ الشيء وجَبَّه وجمعه »^(١)، كأنها شيء مأخوذ، لم يقل: يا أيها الذين آمنوا احذروا، كأنه شيء ملموس دلالة على شدة الاستعداد، وجمع كل تلك الاستراتيجيات الممكنة وحوزها، وعدم الغفلة عنها وليس النوم والاستئمان وزعم الفأل والأمل، والأمني الخيالية، وبذلك يضع الله لنا صورة محسوسة مدهشة تتمثل في ضرورة وضع أعلى الاستراتيجيات الأمنية المحققة للحذر.

وهذه الاستراتيجية تقتضي أن ننشط أعلى برامج الاستعداد لاتقاء شر العدو، كما يقتضي ذلك إعدادًا داخليًا خاصًا في جميع المجالات التعليمية والإعلامية والعسكرية فإنه يقتضي دراسات تفصيلية ترصد واقع العدو، ومدى قوته، وأماكن ضعفه، وكيفية التواصل معه، لأنه قد نصل معه إلى اتفاق أو هدنة ندرسه عن قرب، والواقع الجغرافي والاجتماعي والتاريخي لأرضه وقومه مما يسمى بالجغرافيا الجيوسياسية، وقد قالت العرب: « قَتَلَتْ أَرْضُ جَاهِلَهَا »^(٢)، وينبغي تسليط الأضواء على مقدار خطوط التعاون بينه وبين غيره من الأعداء الآخرين، وكيفية الوصول إلى التفريق بينهم وتسليط بعضهم على بعض، ومن أهم معالم أخذ الحذر الوصول إلى الاكتفاء الذاتي في السلع الأساسية الغذائية، وكيفية التخلي عن الاعتماد على الآخرين في الاحتياجات الحياتية الأساسية، ويدخل في أخذ الحذر: صناعة الأسلحة المختلفة، وعدم الاعتماد على الآخرين في اختراعها وتوفيرها.

ومن أعظم وسائل أخذ الحذر: تكوين الأمة الواحدة وتكثير العدد المدرب، والبدائل القيادية.

(١) معجم مقاييس اللغة، اتحاد الكتاب العرب (١/ ٨٦).

(٢) مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، لبنان (٢/ ١٠٨).

ومن أعجب ما طرأ على المسلمين زعم بعضهم أن أخذ الحذر ينافي الإيمان بالقدر، فانظر كيف يضرب هؤلاء كتاب الله بعضه ببعض، فالله الذي أمر بأخذ الحذر هو الله وحده الذي قال: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩)، لكن لا يعني إيماننا بالقدر ألا نأخذ الحذر، وهل إيماننا بالقدر منعنا من أن نسلم؟ كان الناس مشركين في الجاهلية ثم أسلموا، واحتج المشركون من قبل بالقدر على عدم إسلامهم فقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٤٨)، فهذا القول من الأقوال التي لا يستطيع الإنسان أن يتصورها عند التأمل أن أخذ الحذر ينافي الإيمان بالقدر، بل كلاهما يصدق بعضه بعضاً، ومثل هؤلاء في الاستدلال بالقدر مثل الذين يتخذون الكتاب عضين، ويخالفون سنة الرسول الأمين ﷺ، ولو صح ما يقولون لبطلت الشرائع كما يقول الرازي رحمه الله، فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً.

وكما ترى فإن القرآن الكريم يرسم للمسلمين بدقة تفصيلية مدهشة استراتيجيات الانتصار في المعارك التي تفرض عليهم من قبل المعتدين.. ويقدم التفصيلات التكتيكية للمعارك المتوقعة، ويبين طبيعة الواقع العسكري الذي يتولى حماية الأمة، وحماية المستضعفين في الأرض.. وتأمل هنا كيف يتم الغوص في التفصيلات العسكرية والأمنية.. أفترى القرآن مجرد كتاب يتكلم عن العبادات الشعائرية الخاصة أم كتاب هداية في كل تفصيلات الحياة؟ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

إن القرآن ليس مجرد كتاب يعلم شعائر العبادات، بل يهدي لحماية الحياة.

القانون الثالث: من أهم مبادئ استراتيجية أخذ الحذر: بناء الجيش الذي يحمي المجتمع، ويمكنه أن يعدد أشكال النفير الأمني، والعسكري بين نفر الثبات أي

المجموعات الصغيرة (مثل الألوية)، ونفر الجميع، أي: النفر العام؛ ويُصَرَّنَا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾.

ومعنى ﴿انْفِرُوا﴾ اخرجوا إلى أماكن بعيدة، حال كون خروجكم قويا متأهباً مستعداً مستعجلاً، لأن النفر يقتضي الحركة السريعة المنتبهة، وليس الخروج الهادئ، وكلمة نفر هنا تعني الاستعداد وأخذ أقصى درجات التأهب النفسي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ (التوبة: ١٢٢)، فجعل الذهاب إلى طلب العلم نوعاً من النفر.. لماذا؟

لأنه يتطلب أن يستعد الإنسان لطلبه، وأن يُعطي العلم حقه، ولا يذهب ذهاب الكسالى إليه، إذا فمعنى انفروا، أي: اخرجوا لِلْحَرْبِ، من نفر ينفر نفراً، فَمَصْدَرُهُ النَّفْرُ، بِخِلَافِ نَفَرَ يَنْفِرُ - بضم العين - فِي الْمُضَارِعِ فَمَصْدَرُهُ النَّفُورُ، أي: الهرب، وهذه الكلمة تدل على التحرك بانزعاج وفزع، وليس المقصود بها أن يكون مضطرباً وخائفاً، بل أن يكون مستعداً متأهباً ليس غافلاً ولا كسلاً، أي: بخفة واهتمام وجمع للطاقة المركزة في الفعل والتفكير وعدم التفريط والتجافي والتباعد، فهو - كما قال الراغب -: الانزعاجُ عن الشيءِ وإلى الشيءِ، كالْفَزَعِ إلى الشيءِ وعن الشيءِ. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤١)، وقال: ﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (فاطر: ٤٢)، ونَفَرَ إلى الحربِ يَنْفِرُ وَيَنْفِرُ نَفْراً، ومنه: يَوْمُ النَّفْرِ. قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾^(١)

والثُّبَاتُ جمع «ثُبَّة»، و «الثُّبَّة»، العصبية والجماعة المنفردة، «قال زهير^(٢):

وَقَدْ أَغْدُو عَلَى ثُبَّةٍ كِرَامٍ
نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٨١٧).

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، اعتنى به وشرحه حمدو طماش، دار المعرفة، لبنان - بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥ م (ص: ١٢).

ومعنى الكلام: افرعوا لحماية أمن مجتمعكم ثبات، أي: جماعاتٍ صغيرةٍ أو كبيرة انفروا إلى عدوكم جماعة بعد جماعة متسلحين^(١) أو انفروا جميعاً فينفر الجيش كاملاً أو تنفر الأمة بجميع أفرادها، وهذا يقتضي تدريب الأمة جميعاً...

إن البيان الإلهي الخاتم يبين لنا بدقة مدهشة أن نتعامل وفق ما يحقق الانتصار في الواقع، ولذلك قسم الخروج أو النفر إلى أمرين: أن ننفّر ثبات، أي: جماعات صغيرة، أو أن ننفّر جميعاً، ما الفرق بين أن ننفّر جماعات صغيرة أو أن ننفّر جميعاً؟ الفرق بحسب مقتضيات الواقع، قد يقتضي الواقع العسكري أن يتم النفر على هيئة جماعاتٍ قليلة، وقد يقتضي أن يتم النفر على هيئة جماعات قليلة متفرقة متتابعة كما حصل مثلاً مع خالد بن الوليد رضي الله عنه في مؤتة فإنه فرق جيشه إلى مجموعة جماعات يوهم العدو بدخول مددٍ جديدٍ لهم، وقد يكون من الحكمة أن تكون النفرة عصبائية، وهي نفرة السرايا والمجموعات، وقد تكون الحكمة في النفرة الجماعية وهي النفرة العامة، فيتم فعل الأنسب لمتطلبات الأمن القومي الإسلامي، ولذا قد يقتضي الأمر توزيع الأدوار بين فئات متعددة في الأمة إما بتنسيق مشترك أو بأن يصبر كل طرف على الآخر في سبيل تحقيق الغايات العظمى، فالمراد افعّلوا الأنسب لمتطلبات الأمن المجتمعي، وتوزيع الأدوار بين النفر العام، أو النفر المحدود، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنه: قوله ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾، يقول: عصباً، يعني سرايا متفرقين ﴿وَأَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾، يعني: كلكم^(٢).

وهذا كله ينبغي أن يُكوّن قيادةً واحدة تنسق بين الجميع كما حصل في معركة بدر، كان المجموع ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ولكن طريقة إدارتهم للمعركة قائمة

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٣٦).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٣٧).

على الثبات، فانقسموا إلى ثلاثة أقسام كما ورد في مسند الإمام أحمد، أما الشباب فكانوا يحاربون العدو ويطاردونه، وأما مجموعة أخرى فحازوا الغنائم وجمعوها لأنها تعين في الدعم الاقتصادي، وأما المجموعة الثالثة وهم الشيوخ فبقوا تحت الرايات يحرسون النبي ﷺ لا ينال منه العدو غرة، وبذلك طبقوا استراتيجية أخذ الحذر أثناء المعركة على أعلى ما يكون: أخذ حذر من الناحية الهجومية، وأخذ حذر من الناحية الاقتصادية، وأخذ حذر من ناحية حماية القيادة النبوية ﷺ، ثم حصل بينهم خلاف في مسألة توزيع الغنائم من الأحق بها، فأنزل الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١).

وقد يقتضي الأمر إرسال المجموعات الصغيرة لإقامة حرب العصابات في جهات محددة، فعن مجاهد في قول الله: «فانفروا ثبات»، قال: فرقاً، قليلاً قليلاً^(١). وهذه الجملة تعطي آفاقاً واسعة مدهشة في التخطيط العسكري والسياسي؛ إذ يمكن تبادل الأدوار بين الأفراد والجماعات والمجموعات، والأمة ولو لم يكن بتنسيق مشترك، وقد شعر عمرو بن كلثوم بأهمية هذا المبدأ في استراتيجية أخذ الحذر فقال^(٢):

فأما يوم خشيتنا عليهم فنصبح غارة متلبينا
وأما يوم لا نخشى عليهم فنصبح في مجالسنا ثينا

كما تقتضي هذه التفصيلات العسكرية تدريب جميع أفراد الأمة على النفر في أي لحظة، وبذا يكون التدريب العسكري واجباً لكل فردٍ إعداداً له للنفرة العامة أو الخاصة في أي لحظة، فقد يحتاج إلى مجموعة أو سرية محدودة لمواجهة الأخطار المتعلقة بالأمن، وقد يحتاج إلى الأمة جميعاً، وهو ما يؤدي هذه الأيام إلى إقامة

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٣٧).

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق إميل يعقوب، (ص ٧١).

النشاط الذي يسمى الخدمة الوطنية، فالخدمة والتدريب العسكري تكون لجميع أفراد الأمة، لأن جميع أفراد الأمة مشتركون في حماية مجتمعهم، وحماية البلد الذي هم فيه، ليس حماية البلد قائمة على مجرد الانتماء الدائم أو الانتماء المؤقت، بل جميعهم ما دام اشتركوا في مسكنٍ فينبغي أن يدافعوا عنه، فهذه الآية تؤسس لضرورة تدريب جميع أفراد المجتمع؛ فقوله ﴿انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ تقتضي أنه قد يأتي يوم يجب على الأمة كلها أن تنفر، فكيف لها أن تنفر إذا كانت غير مستعدة، ذلك يعني أن تعود على الاستعداد، وتدريب على الحد الأدنى من التدريب لمواجهة أي أخطارٍ محتملة.

والله.. ما زال المرء يحار ويعجب من أمة عندها مثل هذه الآية البينة المعجزة المدهشة ثم هي تؤكل من كل جانب ومن كل مكان.. ويعجب أكثر من ذلك ألا تكون مثل هذه الآيات ضمن المعجزات المعدودة في التشريع الإسلامي، لأن الإنسان لا يصل إلى هذه التشريعات إلا بعد فترةٍ طويلة من الخبرة.. انظر الآن إلى الدول العظمى التي تنتج أسلحة الردع المتعددة وما تزال تخترع وتخترع،

وهذه الآية تبين أن استعمال السلاح والتدريب عليه حق من الحقوق العامة لكل فردٍ في الأمة، ويكون إنتاج ما تحتاج إليه الأمة مما يسبب لها الاكتفاء في المجالات المختلفة حق من حقوقها وواجب يلزم من صار مسؤولاً عنها.

والدول التي تحترم نفسها، وتحرص على أمنها القومي تسارع إلى ذلك بغض النظر عن كونها دولاً معادية أم مسالمة، فهاهو رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو، في تغريدة على «تويتر» عند قتل قواته لأربعة عشر فرداً في سوريا بينهم ضباط في الحرس الثوري: «لدينا مبدأ بسيط وواضح نحرص دائماً على التعبير عنه؛ من يريد أن يمس بك، فإن عليك أن تمس به مسبقاً... لن نسمح لأحد أن يمس بنا»، وفق قوله، ورأى نتياهو أن «تحقيق الأمن في الحاضر، هو شرط أساسي لتحقيق

الأمن في المستقبل، وما يحدث اليوم هو تعبير عظيم وقوي للغاية عن تحقيق أمننا في المستقبل».

القانون الرابع: من أهم مبادئ استراتيجية أخذ الحذر: الحذر الأمني الشديد من المجموعات (اللوبيات) المرجفة المخدلة. وبصرنا الله بهم في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَئَنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضَلُّ مِنْ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧١-٧٣)، فهم يقومون بعملية التبطيء السيء؛ لتدمير جميع خطط الحماية الأمنية في المجتمع، وأهم صفاتهم.

الصفة الأولى: يتمون للمسلمين، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾، ولم يقل: «فيكم»، فدخل فيهم المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والغافلون، والمقصرون، وربما بعض صالح المؤمنين:

وللأسف فإنك تجد كثيرًا من المفسرين يقصر الآية على المنافقين.. هذا القصر يؤدي إلى فقه خاطئ في التعامل مع الواقع المؤلم؛ إذ يحتمل أن يكونوا من السماعين لهم من صالح المؤمنين.. وهنا ربما تتساءل مستغربًا: أمعقول أن يوجد من صالح المؤمنين سماعون للمنافقين؟ تجيبك الآية بنفسها فلاجل ألا تسيطر الغفلة على قوى الحق والعدل نجد التأكيد في هذه الجملة بأقوى المؤكدات عن هذه العناصر المخربة لخطط الحماية الأمنية وعن السماعين لهم، انظر إلى النص الدستوري المبارك: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَئَنَّ﴾ فأكد فحوى الجملة بأن المشددة المؤكدة الناصبة، وباللام الداخلة على خبر إن، وبلام القسم، ف«دخلت» اللام في قوله: ﴿لَمَنْ﴾، وفتحت، لأنها «اللام» التي تدخل توكيدًا للخبر مع «إن»، كقول القائل: «إن في الدار لمن يكرمك». وأما «اللام» الثانية التي في «ليبتئن»، فدخلت في جواب القسم، كأن

معنى الكلام: وإن منكم أيها القوم لمن والله ليبطئن^(١).

لاحظ -أيديك الله- يقول: ﴿مِنْكُمْ﴾ ولم يقل (فيكم)، فالكلام ليس عن المنافقين فقط بل يدخل في المتكلم عنهم فئة من المؤمنين، وهذا تحليل عظيم للواقع الإسلامي المعاصر، وبيان صريح بأن نعترف بأننا قد نكون من هذه الفئات، فهي ليست من عملاء المخابرات الخارجية، وليست من المنافقين بالضرورة.. إذا كان منا من يبطئ فمن باب أولى من أدخل نفسه معنا وهو ليس منا، فالآية تتكلم عن بعض المؤمنين أكثر من تكلمها عن المنافقين، ولكنها بطريقة أخرى تشير إلى المنافقين، وبذا لا يظهر لي صواب ميل بعض المفسرين كالطبري رحمه الله إلى قصر الآية على المنافقين.

لماذا نؤكد على أن الآية قد تشير إلى المنافقين وبعض المؤمنين؟ لأن عدم الاعتراف بذلك يجعلنا نشرب شرب الهيم من الأوهام، فندمر استراتيجية أخذ الحذر، فحاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه أرسل رسالة تتعلق ببعض الأسرار الأمنية إلى قريش، وهذا يعد خيانة عظمى مع أنه من أهل بدر، والنبى صلى الله عليه وسلم بين أنه لم يفعل ذلك خروجا من الإيمان، بل قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ صلى الله عليه وسلم أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ»^(٢)، فقد وقع ذلك من هذا الجبل إيمانا وتقى، فكيف لا يقع من غيره صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة أجمعين، فلم نهرب من كلمة ﴿مِنْكُمْ﴾ ونقول هذا يستشنع أن يقع من المؤمنين؟ فإذا هربنا من الاعتراف ببشرتنا أدى ذلك إلى فقه خاطئ في التعامل مع الواقع المؤلم.

الصفة الثانية: لا يقومون بالمهام الأمنية الحارسة للمجتمع، ويُبصِّرنا بذلك قوله: ﴿لِيَبْطِئَنَّ﴾، فالبطء تأخر الانبعاث في السير.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٣٩).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ١٨٦) برقم ٣٠٠٧.

وهذه الكلمة تدل بحروفها الثقيلة على العمل الثقيل الهائل الذي تسببه هذه العناصر عندما تصر على القعود وعدم القيام بالمهام الحارسة للمجتمع المسلم، فيتثاقلون عن القيام بواجباتهم الأمنية.

الصفة الثالثة: ينشطون في زرع الثقل عن القيام بالواجبات الأمنية عند الآخرين، وتكوين مجموعات مخذلة، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَيُبَطِّلَنَّ﴾؛ إذ تدل هذه الكلمة أصالة، أو تبعاً على هذا الصنف، فالتشديد للدلالة على تكرار الفعل في نفسه، وعلى محاولة صاحبه أن يؤثر على غيره؛ ليكون مثله في التخلف عن القيام بواجباته الأمنية، فيتأخر ويؤخر غيره ^(١)، واستعمل النبي ﷺ هذا الفعل متعدياً فقال: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» ^(٢)، فلا يكتفي هذا الصنف بعدم خروجه حتى يتحول إلى أداة نشطة لتخذيل غيره، وذلك لئلا يكون وحيداً في الفضيحة، والأعمال القبيحة، وهناك سبب آخر أن يحول فعله القبيح إلى مجد ويمسح عنه أن يكون قد اقترف كبيرة من الكبائر، فهو عندما يتأخر عن مكارم الأمور يبحث عن المبررات في التأخر، ويوهم الناس أنه من خلال تأخره استطاع أن يحمي مصالحهم.. هكذا تتكون المجموعات المخذلة المرجفة (اللوبيات المجرمة) التي يكون أثرها في الإجرام أسوأ من المعتدين الخارجيين.

الصفة الرابعة: الأنانية المفرطة، وعدم تحمل تبعات مواجهة تحديات الحياة، وَيُبَصِّرُنَا بِهَا قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَصَبْتُمْ مَصِيبَةً قُلْتُ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٧٢).

إنهم يتعدون ويعدون المجتمع حولهم عن رؤية الأحداث بصورة شرعية،

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٥٢).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٧١).

فيكونون رؤية قائمة قائمة على المصلحة الشخصية الخاصة، فعند المصيبة التي تحل على الصف المطيع لله تعالى يرفع أحدهم عقيرته، فيقول: أنا بطأت عن القيام بالواجبات الأمنية من أجل السلامة العامة؛ لأن الذين قاموا بها أصيبوا إما بالقتل أو الجراح، أما أنا فألهمني التفكير السديد ﴿لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾، و﴿شَهِيدًا﴾ بمعنى حاضر وهو المعنى الأول، ويُصَرِّفُنا بأنانيتهم كأنه يقول: إثارة للسلامة وعدم المواجهة كان هو القرار الصائب بدليل أن المسلمين الذين لم يستمعوا له وخرجوا للجهاد قد أصيبوا، وهو لم يكن حاضرًا، ويحمد الله على ذلك إذ لم تصبه جراح أو ألم أو قتل «وسرّه تخلفه عنكم، شماتة بكم، لأنه من أهل الشك في وعد الله الذي وعد المؤمنين على ما نالهم في سبيله من الأجر والثواب، وفي وعيده. فهو غير راج ثوابًا، ولا خائف عقابًا»^(١)... نسي أن الله جعل حدوث المصيبة في الجهاد من أعظم أماكن الطاعات والقربات، بل جعلها من الأمور الحسنة المرغوب فيها فقال: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَاءٍ إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ (التوبة: ٥٢).

نسى أن المسلم إذا أصيب بجرح أو تأذى فهو في سبيل الله، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: ١٢٠).

فصارت وظيفة هذه الفئة المخدلة العمل قصداً أو بغير قصدٍ على إنهاك الصف المسلم.. هذه الفئة يزين لها الشيطان أعمالها، فتعمل على إنهاك العقول الرشيدة باسم العقل، ويطلبون منها الهرب الدائم، ورفع راية الاستسلام باسم القبول

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٣٨).

بالحلول الممكنة.. ومع المدى تصبح الحلول الممكنة عين التدمير البطيء أو السريع لأصحاب الحق، وبعضهم يعبر عن هذا باسم المصالح والحفاظ على الدماء مع أن حقيقة الأمر أن تلك الحلول قد تؤدي إلى المزيد من إراقة الدماء، إن هؤلاء هم الذين يرقصون على جراح المظلومين، ويقتاتون من دماء المستضعفين.

وستسأل: لماذا يذكر الله هذه الصفات عن هذا الصنف المبطل؟

الجواب: لأن ذلك جزء من استراتيجية أخذ الحذر؛ فإن كان الإنسان المبطل المبطل منافقاً، فهذا شأنه.. هذه طبيعته.. هذه وظيفته: العمل على تدمير أصحاب الحق، وإن كان مؤمناً فقد يكون موقفه بسبب ضعف إيمانه، أو لأن طريقة تفكيره خاطئة، فينبغي أن ننبهه وننتبه منه أيضاً.. لا أن ننجر إليه لمكانته أو لسابقته الإيمانية، لذا كان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: (إياك وزيغة الحكيم، ولا يُنئِنك ذلك عنه)^(١) يعني هذا مؤمن حكيم عالم، ولكن إياك وما يقع فيه من الزيف، ولا يُنئِنك، أي: لا تبتعد عنه ولكن احذر من زيغته.

الصفة الخامسة: إثارة الدنيا على الآخرة من خلال كره معالي الأمور الحقيقية، ويُبصِّرنا بذلك المعنى الثاني لقوله: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾، فالشهيد هو الذي قضى نحبته مواجهاً لتحديات إحلال السلام والأمان في المجتمع، وهذا هو المعنى الثاني للكلمة:

فيجوز أن يكون معنى ﴿شَهِيدًا﴾ الشهيد بالمعنى الشرعي، فيكون كلامه للاستهزاء والسخرية بطلب الصالحين الشهادة لإحلال السلام للآخرين، فكأنه لم يعرف الإيمان طرفة عين؛ إذ يجعل أجل الأهداف الحقيقية في الحياة شيئاً يسخر منه.. كذلك يقول المنافقون ومرضى القلوب دائماً، واسمع إلى الله يحكي عنهم في سورة الأنفال: ﴿إِذْ

(١) سنن أبي داود، (٢٠٢/٤)، قال الأرنؤوط: أثر إسناده صحيح.

يَكُونُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ لَا دِينَ لَهُمْ ﴿٤٩﴾ (الأنفال: ٤٩).

وبهذا يكون ديدن هذه الفئة الفت في عضد المؤمنين، وتوهين قواهم، وتشكيكهم في جدوى المجاهدة والمناضلة عن الحقوق، وتقديم التضحيات في سبيل إعزاز دينهم ورفعة أمتهم وأمن مجتمعهم.

لماذا يذكر الله هذه الصفات عن هذا الصنف المبطل؟

لأنه إن كان منافقاً فهذا شأنه وحاله وطبيعته لا نكلفه فوق طبيعته ولكننا نفضح نفاقه، وإن كان ضعيف الإيمان فقد نسي كل شيء يربطه بالمسلمين: نسي أخوته لمجتمعه ونسي إيمانه، فنذكر له أنه يسير على صفات المنافقين، ويركب متن رواحل الخاسرين.

الصفة السادسة: التخفي وسط المؤمنين، فلا يفطن له إلا أولو الأبواب منهم، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَيْنَ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ﴾ (النساء: ٧٣):

قد يتسلل الواحد منهم إلى إدارات التوجيه، وعندما يفوز المؤمنون في مواجهة التحديات، يشعر بأنه ليس منهم، فيتمنى أن لو كان معهم.

انظر كيف يؤكده الله غرابة مواقف هذا الصنف المريض المنتكس، فيؤكده باللام الموطئة لجواب القسم في قوله ﴿وَلَيْنَ﴾، معناه وأقسم لئن أصابكم، وبلام جواب القسم وبنون التوكيد في قوله ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ثلاث مؤكدات كما في السابق.. كل ذلك ليؤكد لقوى الخير حقيقة يغفلون عنها في غمرة الأحداث المتعاقبة، وكثرة الضجيج الذي يصدر عن التلاعب العالمي والإقليمي بهم.. التأكيد المتتابع ليوظ الصالحين من غفلتهم عن الحذر من هذا الصنف بأنواعه.. إن الصالحين قد يغفلون عن وجود هذا الصنف المبطل بينما هو يتسلل في إعلامهم وتعليمهم، ومنتدياتهم، وربما تسلل إلى أهم مراكز أمنهم القومي.

والمقصود هنا تحذير مجتمع المؤمنين إما من الصنف المريض القلب مع صحة إيمانه، وإما من الصنف المنافق؛ إذ كل منهم يقوم بالدور ذاته في الإبطاء والتبطيء مع تفاوت حجم السوء الذين يحدثه كل منهم.

الصفة السابعة: نسيانه لكل صلة إيمانية أو محبة رحمية، أو وشيجة قربي، أو إحسان يد عندما تحدث الأحداث الفاصلة، وَيُصِرُّنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾:

وتعال إلى البلاغة القرآنية حيث تأخذ أنفاسك عندما ترتقي عرشاً لا يمكن للكلام البشري الوصول إليه؛ فجملة ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْقَوْلِ وَمَقُولِهِ أَي بَيْنَ قَوْلِهِ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وقوله حكاية عنهم ﴿يَلَيَّتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فكلمة مودة جاءت نكرة منفية في سياق التشبيه؛ فإن كان مؤمناً أصاب قلبه مرض فاحذروا منه؛ إذ يتكلم بحسد ولؤم بخلاف المؤمنين الذين هم إِخْوَةٌ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وهم جسد واحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحبه لنفسه، ويد واحدة على من سواهم، ويحتمل أن يكون القائل مؤمناً ويشعر بالندم لأنه بطأ فيقول: يا ليتني كنت معهم، وإن كان منافقاً فهو لا يذكر أي إحسانٍ أنعم المجتمع المسلم به عليه، وهذا يجعلنا نقول: إن الآيات وردت في المؤمنين كما هي في المنافقين، وانظر إلى أهل البدع الكبرى كيف يعيشون بين المؤمنين، فيأكلون خيراتهم، ويجدون من رفقهم وإحسانهم حتى إذا علا وارتنى المفسدون على المؤمنين نسي أولئك كل مودة كانت بينهم وبين المؤمنين، والمودة إما أن تكون حقيقية إن صدرت هذه المقولة من ضعفة المؤمنين، وإما أن تكون صورية إن كانت المقولة صادرة من المنافقين..

وبالقدر الذي تدل فيه هذه الجملة على تحذير المؤمنين من هذا الصنف المبطن الذي يعمل ضد أمنهم القومي، ويحاول أن يربك حساباتهم الشرعية والواقعية إلا

أن الأسلوب الذي جاء فيه هذا التحذير مثيرٌ جداً من الناحية البلاغية؛ إذ هذه الجملة ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ يَنِّكُمْ وَيَبْئَنُهُ مَوَدَّةٌ﴾ تستدر كل عطف، وتحمل كل عتاب لمن أصاب قلبه مرض، فاتصف بصفات المنافقين دون أن يشعر، وصار من المبطلين المبطّنين، ثم عمل الحسد في نفسه عمله لما رأى انتصار المؤمنين فقام يقول: يا ليتني كنت معهم.. فيذكره الله بالمودة السالفة، والمحبة السابقة حيث كان يبادل إخوانه الابتسامات الحانية، ويظهر لهم المحبة الخالصة.. وتعجب من هذه العبارة التي تحمل التحذير، وتتضمن في الوقت ذاته أجمل التأثير عسى أن يتأثر من زلت قدمه من المؤمنين فوقع في هذه الخصلة من خصال الذين في قلوبهم مرض والمنافقين وهناك بعد بلاغي ثالث في كلمة ﴿مَوَدَّةٌ﴾ هنا، فهو إنما ذكرها لأن الذين يقولون هذا القول من مرضى القلوب ومن المنافقين كانوا يبالغون في إظهار الود والشفقة والنصيحة للمؤمنين^(١)، وهذا يعني مزيداً من التحذير الشديد من أفعالهم، وعدم الاغترار بنصحهم وإظهار مودتهم.

وفي كلمة ﴿يَكُنْ﴾ من قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ يَنِّكُمْ وَيَبْئَنُهُ مَوَدَّةٌ﴾ قراءتان: الأولى: قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ﴾ بالتاء لتأنيث مودة، وقد جاء مثل هذه القراءة في المجمع عليه قوله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (يونس: ٥٧).

والباقون بالياء لأن المودة مؤنث غير حقيقي مع وجود فاصل بين الفعل والفاعل، ومما يشبه ذلك من المجمع عليه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

الصفة الثامنة: حب المناصب والمجد الدنيوي أو الأخروي ولكن عبر

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٢٦).

الدعوى الفارغة، ويُصَرَّنَا بذلك قول الواحد منهم: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٣).

فهذا الإبطاء والتبطيء يجر لهؤلاء المنتكسين تارة السرور بالسلامة، وتارة الشعور بالغيظ والحسرة والندامة، فعندما يحصل الانتصار لا يكون همهم تصويب رؤيتهم وفق مبدأ الطاعة الشرعي بل يلومون أنفسهم أنهم لم يركبوا الموجه ليجدوا مغنماً مع المنتصرين، ولشدة حسدهم للصف المتقدم المثابر لا يعدون انتصار المطيعين انتصاراً لهم، ولا فوزهم فوزاً لهم، بل يتلهفون على ما فاتهم من مكانة وغنيمة.

إن هذا الصنف المبطل يتربص بالصف المطيع المقدم التضحيات فإن حصلت المصيبة لهم فرحوا بقراراتهم الجبانة، وإن تحقق النجاح لمن يواجه تحديات الحياة، وحصل الانتصار للمطيعين تمنوا أنهم معهم: ليجدوا الفوز بمنصب، أو شرف أو مال، أو أجرٍ أخروي.

نعود الآن إلى السؤال الذي يفرض نفسه: من هؤلاء المُبْطِلُونَ المُبْطُتُونَ؟

حاول كثير من المفسرين أن يجعلوا هذه الصفات حصرية على المنافقين، واستثقلوا كما استبشعوا صدورها من قوم مؤمنين، فكيف يمكن أن تصدر من بعض الأنصار أو من بعض المهاجرين؟.. هكذا وأوارحهم الله.. تأمل في الآيات لترى أن ما ذهبوا إليه ليس صحيحاً لا من الناحية الأسلوبية القرآنية، ولا من الناحية الطبقية..

أما من حيث الأسلوب القرآني: فإن الله جل شأنه إن أراد أن يذكر المنافقين ذكرهم بالاسم كما في سورتهم.. أما إذا لم يذكرهم بالاسم بل أشار بالوصف إلى قوم بين صفاتهم فهذا يدل على أن هذه الصفات موجودة في كل من يقع فيها أو يطبقها ولو كان من المؤمنين المخلصين.. ألا ترى أن حاطب بن أبي بلتعة كان من أهل بدر ثم وقع منه شيء ليس بالهين في حق المسلمين إلا أن ذلك غمر في بحر

حسناته؟ إن الآيات توقظنا إلى حقيقة أنفسنا التي قد نسقط في براثن أمرها بالسوء عسى أن نتقي ذلك الوقوع، فإن عجزنا لما غرس فينا من الطبيعة فإن الآيات تخاطب المجموع ليُعينَ الذاكرُ الناسي، ويُنبّهَ اليقظُ الغافل..

وفي هذه السورة إشارة واضحة إلى أن بعض الصفات السيئة تكون كاملة في المنافقين لكن مقدارها لا يصل إلى الكمال في المؤمنين، ولا يمنعهم ذلك من أن يمسه منها طيف، وطائف من الشيطان.. انظر إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (النساء: ٦١) فصرح بأن المنافقين يصدون عن رسول الله ﷺ صداً عنيفاً.. أفدنا ذلك من التأكيد.. ومعنى ذلك أنه قد يوجد من المؤمنين من يصد عن التحاكم إلى رسول الله ﷺ لتأويل ظهر له، أو ضعف طراً عليه.. وما قصة الأنصاري البدري الذي قال لرسول الله في مخاصمته للزبير: أن كان ابن عمك يا رسول الله، وجعل الزبير قصتهما تلك داخلة -فيما يحسب- في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

وأما من الناحية النفسية البشرية فإن المتقين يمسه طائف من الشيطان، فيُذَكِّرون فيتذكرون، وربما فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم كما وصفهم الله في سورة آل عمران.. إلا أنهم لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون.. إن هذه الآيات تعالج واقع المؤمنين في أنفسهم عندما يعترهم الضعف، ويتتابهم الخور، وتهجم عليهم وساوس الشيطان فربما جادلوا في الحق بعدما تبين.. وبذا فإن كل ما فيه لوم وتقريع في هذه الآيات: من التحاكم إلى الطاغوت، ووجود الحرج من قضاء الرسول ﷺ، والتبطيء، وخشية الناس كخشية الله، وإذاعة ما فيه أمر من الأمن أو الخوف مما يخلخل صفوف المؤمنين..

كل ذلك يشمل المؤمنين يحذرهم من أنفسهم، كما يشمل المنافقين يفضحهم أمام المؤمنين، لكنه يكون في المؤمنين شيئاً عارضاً إن وجد من يذكّرهم بقوة، ويأطّرهم على الحق رجعوا فرحين برجعهم، ويكون ذلك في المنافقين على حد الكمال في السوء، فيمضون في غيهم، ويشتدون في جرمهم.



القسم الثاني

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام
العالمي: استخدام الخيار العسكري عند الحاجة إليه لحماية
المستضعفين و لصناعة حالة (توازن قوى) وجاهزية الردع
(النساء: ٧٤-٧٦)

آيات هذا القسم:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ
أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾
(النساء: ٧٤-٧٦).

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله في القسم الأول أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي
والسلام العالمي، وهي الاستراتيجية الأمنية (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من
الشُرور والأخطار الخارجية، والداخلية يذكر الله هنا أن من استراتيجيات صنع
الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: الإعداد العسكري العالي لصناعة حالة (توازن
الردع)، ولإثبات القدرة على استخدام الحل العسكري عند الحاجة إليه لحماية
المستضعفين، وهنا تشعر بمدى حاجة الكليات الأمنية والعسكرية لأن تُدرّس هذا

المحور المدهش، وأن تنهل منه ما يؤدي إلى إلهامها للراقي بمهماتها، وذكر الله في هذا القسم عدة أسس تبين ضوابط الحل العسكري عند الاضطرار إليه:

الأساس الأول:

الاستعداد للحل العسكري، والإقدام عليه عند تحتمه. ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله جل ذكره: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ (النساء: ٧٤)، فحددت هذه البصيرة القرآنية: سبب القتال وهو أن يكون في سبيل الله لا في سبيل القتل أو الغرور أو الكبر أو السيطرة على الثروات أو الانتقام، وحددت الشخصيات التي يجب بناؤها لتقاتل بإخلاص، وهم الذين يبيعون الحياة الأولى الدنيا بالحياة الآخرة العليا.

هنا يحث الله جل شأنه عباده على الاستعداد للحل العسكري عند تحتمه، فيقول: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾، ويحق لك أن تسأل: ما الفرق بين قوله ﴿فَأَنْفِرُوا﴾ وقوله ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾؟

الجواب: هناك أمر بالنفر، والنفر لا يقتضي القتال، ولكنه يقتضي التأهب والحماية وقد يؤدي إلى الالتحام وقد لا يؤدي، أما هنا فقد أمر الله بالقتال بعد الكلام عن الفئات المخدلة المبطنة ليبين أن قتال المعتدين أهل الشرور في وقته وزمانه ومكانه مطلوب، ما دمنا اضطررنا إليه، وقوله ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يبين لك أهم ضابط للقتال؛ إذ ينبغي أن يكون في سبيل الله، والسبيل هو الطريق الذي فيه سهولة وجمعه سبل كما قال تعالى ذكره: ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ وَانْهَرًا وَسُبُلًا﴾ (النحل: ١٥)، وقال جل شأنه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ (طه: ٥٣)، ويستعمل السبيل في الطريق السهل الواضح الذي يتوصل به إلى شيء خيراً كان أو شراً، كما قال جل مجده: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقال تعالى جده: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ (يوسف: ١٠٨)، وكلاهما واحد لكن أضاف

الاول إلى الأمر وهو الله سبحانه وتعالى، والثاني إلى السالك بهم وهو محمد ﷺ^(١). و﴿يَشْرُونَ﴾ معناها يبيعون فشَرَى مُقَابِلُ اشْتَرَى، مِثْلَ بَاعَ وَابْتَاعَ وَأَكْرَى وَاكْتَرَى، قَالَ ابْنُ مَفْرُغٍ^(٢):

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَةً
أي: بعت بردًا، وتحسر عليه.

والاستعمال القرآني قائم على أن شَرَى بمعنى باع كما قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ (يوسف: ٢٠)، أَي: بَاعُوهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكْرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ (البقرة: ١٠٢)، أَي: بَاعُوهَا وَقَالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٠٧) أَي يَبِيعُهَا، وَالبَاءُ فِي صِغَةِ الْبَيْعِ تَدْخُلُ عَلَى الثَّمَنِ الْمَقْبُوضِ، فَحددت هذه البصيرة القرآنية: سبب القتال وهو أن يكون في سبيل الله لا في سبيل القتل أو الغرور أو الكبر أو السيطرة على الثروات أو الانتقام، وحددت الشخصية التي يجب بناؤها لتقاتل بإخلاص، فوصفهم بأنهم: يبيعون الحياة الأولى الدنيا بالحياة الآخرة العليا، ومعنى هذه الجملة المباركة ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ فليقاتل في سبيل الله الذين يبيعون الدنيا، ويشتررون الآخرة بدلًا منها، فالخطاب هنا للمؤمنين المخذلين وغير المخذلين: إن كنتم أيها المؤمنون حقًا تريدون بيع الدنيا وشراء الآخرة التي هي الحياة الحقيقية.. إن كنتم أيها المؤمنون تريدون شراء الحياة الخالدة وهي الآخرة فقاتلوا، ولكن لا تقاتلوا للعبث واللعب وتجارة الأسلحة والسيطرة على الثروات، وإنما ينبغي أن يكون قتالكم في سبيل الله الذي يعني إحلال العدل وحماية المستضعفين، مثل قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَسْتَبَشِرُوا

(١) مفردات غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٢٢٣).

(٢) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، دار الحديث - القاهرة، ١٤٢٣ هـ (١/ ٣٤٩).

بَيِّعْكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ ﴿التَّوْبَةُ: ١١١﴾.. فقال: ﴿يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ لماذا؟ تعظيمًا للمقاتلين في سبيله، وفضيحةً للمبطلين المخذلين.

وحسبك أن يقابل البيان القرآني المدهش بين الحياتين مقابلة فيها غرابة ظاهرة تدعو للتأمل؛ إذ عبر عن الحياة الأولى بالحياة الدنيا، وعبر عما يقابلها بالآخرة، فيمكنك جعل ذلك على مبدأ (الاحتباك) الرائع، ويكون التقدير: يشرون الحياة الأولى الدنيا بالحياة الآخرة العليا، ويمكنك أن تقول أيضًا مع ذلك إنما كان التركيز على وصف الحياة الأولى بالدنيا لأنه لا يوجد وصف يجعلها أقل ولا أذل في أعين بني الإنسان من هذا الوصف، وإنما وصف الحياة العليا بالآخرة لأنها الباقية، فلو لم يكن فيها إلا السلامة من النار لكان ذلك كافيًا في اشترائها، فكيف إذا ضم إلى ذلك ما فيها من النعيم لمن فاز في هذه الصفقة العظيمة؟

الأساس الثاني:

الحل العسكري لا يعتمد على النتيجة عند تحتمه، بل على القيام بالواجب. قاله يقول: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤).

في الأساس الأول بني الله الشخصية السوية التي يمكنها أن تقوم بالتبعات الأمنية والعسكرية في سبيل الله، أي: لحماية المجتمع والمستضعفين، وهنا يبني الله النفسية التي تؤمن بأنها فائزة سواء قُتِلَتْ أم غلبت، فإن أجبرتم على القتال فيجب عليكم أن تقاتلوا، فلا تقولوا: لا نملك فرصة للانتصار، ما دام القتال متحتمًا، ولا مفر منه إلا حياة مؤلمة، فيجب عليكم أن تقاتلوا، فكل نتيجة تترتب عليه فهي انتصارٌ ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لم يقل فينتصر، فمهما كانت النتيجة فهي انتصار؛ إذ يترتب على الالتحام أحد أمرين: إما أن يُقتل المشارك،

وينتصر الجيش من بعده، وإما أن يَغْلِبَ، أي: يبقى على قيد الحياة منتصرًا، وعلى الحاليين سيجد أجرًا عظيمًا يعلم الله مقداره سواء أكانت النتيجة أن يُقتل المجاهدون أم أن يَغْلِبُوا عدوهم.. اسمع إلى ذلك مرة أخرى في الآية ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤).. هذه الآية تعطينا هدية ضخمة توجد الردع عند كل أهل الشر والعدوان، فطالما غفلنا عن هذه الحقيقة، وهي أساس الانتصار الحقيقي، وهذه الفكرة الهدية أن المساواة بين المقتول في سبيل الله تعالى وبين المنتصر في المعركة في الأجر قائمة، فالمقتول في سبيل الله إذا أراد الله فقد فاز فوزًا عظيمًا، ومثله المنتصر، بل نلاحظ تقديم المقتول في سبيل الله تعالى ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾؛ لأن بعض الناس يعتقدون إذا انكسر القائم بهذا الواجب، فقتل وحلت عليه الهزيمة فقد جر مصيبة على نفسه وعلى قومه.. هذا الفهم في هذه الحالة غير صحيح بما أن خياراته نفدت، والخيار الوحيد الباقي له غير القتال هو الاستسلام المذل الذي يود معه أن يموت مراتٍ.

وهذه الجملة المباركة يستبين معناها بجلاء من خلال تطبيق قواعد الاحتباك العربي، فقد ذكر الله القتل أولاً، والغلب ثانياً، ويكون المعنى: ومن يقاتل في سبيل الله فيُهْزَمُ ويقتل، أو يَغْلِبُ ويسلم فسوف نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا، وهذه الجملة ردُّ بليغ على المَبْطُطِّين المَبْطُطِّين؛ إذ ما الذي يخافه المسلمون من القتال عند وجوبه وتحتّمه؟ هل يخافون أن يَغْلِبُوا؟ فما الضير في ذلك؟ والأجر العظيم ثابتٌ في كل الأحوال.. إن هذا الأساس الرائع من أسس أخذ الحذر تضمن ردع المعتدين، عندما يشعر المعتدي بأن المجتمع الذي يريد أن يأكله ويهجم عليه ويقتل أبنائه ويستولي على خيراته.. عندما يشعر المعتدي أن هذا المجتمع مستعد للتضحية إلى آخر حد فإن هذا سيردعه، وسيجعله يهرب ويحسب ألف حساب، لكن إن رأى بأن هذا المجتمع خائف من المواجهة فإنه سيزداد عداءً واعتداءً، فحقيقة هذا الأساس هو بناء لأهم أسس استراتيجية

أخذ الحذر، وحماية الأمة من محاولة الاختراق والاستيلاء عليها، ولذا قال الطبري: «وهذا حُصٌّ من الله المؤمنين على جهاد عدوه من أهل الكفر به على أحيائهم غالبين كانوا أو مغلوبين، والتهاون بأقوال المنافقين في جهاد من جاهدوا من المشركين وأن لهم في جهادهم إياهم -مغلوبين كانوا أو غالبين- منزلة من الله رفيعة»^(١).

وتأمل في الآية مجدداً لترى أن الله جل جلاله يقول: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ ولم يقل يُؤْتِيهِ، وذلك لأن الأجر العظيم الذي يجده إما أن يجده من ربه خالصاً وإما أن يغلب عدوه فيجد الأجر من ربه، وما يستتبع الغلبة من النصر والجاه والسيادة التي يسبغها عليه الناس.

الأساس الثالث:

تفاوت العدد لا يشكل أهمية في خطة الحماية الناجحة. فالله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُكْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: بما أن القتال قد تحتم ليس هناك مجال، إما أن تواجه الإبادة التامة، أو يستولي عليك العدو ويقوم بإهانتك وإبادتك تدريجياً، وإما أن تقاوم وقد تنتصر أو لا تنتصر، ففي هذه الحالة تفاوت العدد لا يشكل أهمية، ولقد استسلم الأندلسيون لعدوهم ووقعوا العهود خمسين شرطاً، بين أبي عبد الله الأحمر الصغير آخر ملوك غرناطة المسلمة وبين إيزابيلا وفرنالدو ملوك أسبانيا، ولم يلبثوا حتى نقض المعتدون كل تلك العهود وأبادوا المسلمين وأجبروهم على أن يتنصروا، ثم أقاموا محاكم التفتيش الرهيبة، التي يفترض أن تدان على مستوى الهيئات الدولية لشدة قسوتها وهمجيتها. فالمقصود أن تفاوت العدد لا يشكل أهمية في خطة الحماية الناجحة حال تحتم

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٤١).

القتال عندما لا يجد الإنسان مفرًا من المواجهة، بل على العكس قد يشكل هذا الاندفاع للإصرار على المواجهة ردعًا للمعتدي لذا قال الله ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ويذكر البقاعي هذه البصيرة المستقاة من الجملة السابقة فيقول: «اقتصاره على هذين القسمين حث على الثبات ولو كان العدو أكثر من الضعف ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ فَلَئِمَّةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٩) ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ١٣) والله مع الصابرين»^(١).

ومما ينبثق عن ذلك أن الأصل عدم الوقوع في الأسر حال المواجهة، فإله ذكر احتمالين فقط، ولم يذكر ثالثًا، فقال: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فالوقوع في الأسر قد يكون أسوأ بكثير من أن يُقتل المرء وإن أجازه بعض أهل العلم؛ إذ قد تغلب على المعتدين الوحشية، ويستمتعون بفنون التعذيب في التعامل مع الأسرى حتى يود أحدهم لو مات ولم يقع أسيرًا، كما قال المتنبي^(٢):

كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنِيَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

الأساس الرابع:

أهم أهداف القتال في سبيل الله تعالى: الدفاع عن حقوق الإنسان بأداء الأمانات إلى أهلها، والدفاع عن الحكم بالعدل. وهذا بصرنا به مجيء هذه الاستراتيجية بعد تقرير ما سبق، ونصرة المستضعفين سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، والمستضعفون هم من استباح الظالمون كرامتهم، ويُبَصِّرُنَا بهذا الهدف قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥ / ٣٢٧).

(٢) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لمصطفى سبيتي، لبنان: بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٤، ٢٠٠٩ م (٢ / ٢٠٢).

كلمة ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ معطوفة على ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، والتقدير: وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وفي خلاص المستضعفين مِنَ الرِّجَالِ، أو يكون مَعُطُوفًا عَلَى اسْمِ اللَّهِ، والتقدير: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين، ويكون تخليص المستضعفين من سبيل الله ولكنه عطفه عليه من باب عطف الخاص على العام لأهميته أو لغياب حضوره عندهم، وَأَجَاَزَ الزَّمَخْشَرِيُّ أَنْ يَكُونَ: وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مَنْصُوبًا عَلَى الْإِخْتِصَاصِ يَعْنِي وَأَخْتَصَّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ خَلَاصَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، لِأَنَّ سَبِيلَ اللَّهِ عَامٌّ فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَخَلَاصُ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَعْظَمِ الْخَيْرِ وَأَخَصِّهِ.. عد بنا إلى الاستفهام:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ هذا استفهام إنكاري توبيخي.. ما معنى أنه توبيخي؟ حدد ابن هشام ضابط الإنكار التوبيخي بأن ما بعد أداة الاستفهام واقع وفاعله ملوم، فهم لم يقاتلوا في سبيل الله لإنقاذ المستضعفين، وفعلهم هذا يستحق اللوم، وهذه الآية تحرض المسلمين على إنقاذ المستضعفين المظلومين عموماً حتى لو كانوا غير مسلمين؛ فإن إنقاذ المستضعفين واجب حتى لو كانوا كفاراً، لأن الشريعة الإسلامية جاءت بالعدالة للعموم؛ فالله جَلَّ مجده يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥)، وقال تعالى جده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨) وقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

الأساس الخامس:

عدم جعل الأولوية للمكان الذي ولد فيه الإنسان، وإنما جعل الأولوية للمكان

الذي يكون فيه تكريم الإنسان، ويقام العدل فيه، فليست الأولوية للتراب، بل للإنسان الذي يعمر التراب، وهذا الأساس يُبَصِّرُنَا به قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

في هذه الآية يصرخ المستضعفون من الرجال والنساء والولدان.. يطالبون بالخروج من أرض الظلم إلى أين؟ مفهوم الآية واضح: إلى أرض العدل.. ولا يكون ولاء الإنسان للأرض مطلقاً، بل للأرض التي يجد فيها العدل، وينجو من الظلم، والأراضي التي يفشو فيها الظلم لا قدسية لها؛ إذ المراد إيجاد أرض العدل ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥)، فإن لم توجد أرض العدل الحقيقي فيبحث المرء عن الأرض التي يوجد فيها القانون، وتكون مفاستها أقل من غيرها، ويمكنه أن يجد السعة فيها على أن يعبد الله بحرية، وهنا لا بد من الموازنة بين الأراضي المختلفة في إيجابياتها وسلبياتها، والمصالح التي تتحقق فيها، والمفاسد التي تخف أو تنعدم فيها.

مهلاً أعد سماع الآية: ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ المستضعفون من النساء والولدان أمرهم بين واضح بحكم طبيعة تكوينهم وأجسادهم، لكن ما قصة المستضعفين من الرجال ولماذا قدم الرجال أولاً؟

لقد بلغ من الظلم في هذه القرية أن الرجال الذين يمكن أن يدفعوا عن أنفسهم لا يستطيعون.. الرجال الذين يقومون على احتياجات النساء والولدان لا يستطيعون أن يجلبوا اللقمة للنساء والولدان، فإذا كانوا مستضعفين لا يستطيعون أن يضمّنوا أدنى حقوقهم لفشو الظلم في هذه القرية فكيف بالنساء والولدان؟ والآية تصور لك حالة من القهر الرهيب الذي أصاب عموم الناس، واستنفد حقوقهم بل بدأ يأكل حياتهم

وكرامتهم.. وصل الحرج والضيق بهم أنهم ودوا الهرب والخروج من مكانهم.. فلم يعودوا يطلبون الماء ولا الغذاء ولا الدواء ولا الحاجات الأساسية؛ لأنهم لا يجدونها أصلاً فهم أموات كالأحياء، وأحياء كالأموات.. وقولهم ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ تبيين أنهم فقدوا كل من يمكنه أن يزيل عنهم ذلك الظلم أو يخففه عنهم حتى أنهم كانوا يتوسطون ببعض الظلمة يعطونهم مالا أو يكون بعضهم له قرابة نسبية، أو يتوسطون بمن يزعمون نصره الحقوق الإنسانية.. لقد فقدوا ذلك كله أيضاً.. حسبنا الله! انظر كم تصور الآية من معاناتهم وحزنهم وقهرهم.. والله المستعان.. فلم يبق لهم أمام هذه الحالة من الظلم القامع إلا أن يطلبوا الخروج من تلك القرية الظالم أهلها، وعبر عن هذه المدينة أو الدولة الظالم أهلها بالقرية لأنه أراد اجتماع الظالمين فيها على استضعاف المستضعفين، فالقرية مشتقة من (قري) يَدُلُّ عَلَى جَمْعٍ وَاجْتِمَاعٍ. مِنْ ذَلِكَ الْقَرْيَةُ، سُمِّيَتْ قَرْيَةً لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا، وَيَقُولُونَ: قَرَيْتُ الْمَاءَ فِي الْمِقْرَةِ: جَمَعْتُهُ^(١)، وانظر لجلال التعبير القرآني المدهش حيث يصور مقدار تواطؤ المؤسسات الإعلامية والتعليمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على ظلم المستضعفين في الأرض حتى أصبحوا لا يرجون أكثر من الهرب منهم.. والآية تعطينا أساساً عظيماً من أسس تطبيق خطة أخذ الحذر، وهو عدم تمجيد الأرض التي يفشو فيها الظلم بل إن صنع الانتصار يكمن في البحث عن أرض يقام فيها العدل لتكون منطلق نشر للعدل في الأراضي التي يفشو فيها الظلم، ولذا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة مع أن مكة أقدس بقاع الدنيا، وافتخر عبَّاسُ بْنُ مَرْدَاسٍ بِاقْتِحَامِ خَيْلِ قَوْمِهِ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، فقال^(٢):

(١) الصحيح من أحاديث السيرة النبوية (ص: ٤٤٧).

(٢) شرح ديوان الحماسة، لأحمد بن محمد الأصفهاني (ص: ١٠٤).

شَهِدْنَ مَعَ النَّبِيِّ مُسَوِّمَاتٍ حُنَيْنًا وَهِيَ دَامِيَّةُ الْحَوَامِي
وَوَفَّعَةَ خَالِدٍ شَهِدَتْ وَحَكَّتْ سَنَابِكَهَا عَلَى الْبَلَدِ الْحَرَامِ

ولاحظ عنونة هذه القضايا لتجد أن الله أشار إلى استراتيجية نصرته المستضعفين، وليس إلى ما تشيعه بعض النظم الحديثة من نصرته الأقليات؛ لأن لفظ: نصرته الأقلية، أفضى به الأمر كثيرًا إلى تدمير الأكثرية، فالأقلية لفظة مبهمة، وقد يكون من معانيها الأقلية المتمردة الخارجة عن القانون.. تصحح لنا الآيات الفهم والمصطلح، فالعبرة بمحاربة الظلم الذي يستضعف الآخرين، سواء أكانوا أكثرية أم أقلية، وهنا يبدو التفوق القرآني واضحًا في نصرته الحقوق البشرية مقارنة بالنظم الوضعية، وذكر الفئة المستضعفة أقوى من الأقليات؛ إذ المستضعفون فئة تذكر بالعدل لا على طلب الاستقواء.

الأساس السادس:

أهمية القيادة الراشدة في أزمنة الظلم الصعبة، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

انظر للدعاء الذي يدل على طلبهم لقيادات راشدة تجمع بين الموالاة للمظلومين والنصرة لهم، وقد فهم ابن عباس رضي الله عنه ذلك من الآية فقال: «يُرِيدُونَ أَجْعَلْ عَلَيْنَا رَجُلًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ يُوَالِيَنَا وَيَقُومُ بِمَصَالِحِنَا وَيَحْفَظُ عَلَيْنَا دِينَنَا وَشَرْعَنَا»^(١)، فالولي يدل على القرب والمحبة، وقد يكون هذا الولي على حبه لهم غير قادرٍ على نصرهم، فلذا طلبوا النصير الذي يكون قادرًا على نصرتهم فقال: ﴿وَأَجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾، وقد يكونان غير مسلمين؛ وقد يجتمع الوصفان، وقد ينفرد كل منهما، فيجد المرء العدالة من غير المسلمين، كما في حالة النجاشي، والواقع

(١) تفسير الرازي (١٠ / ١٤٢).

المعاصر الذي نرى فيه النصره من غير المسلمين أوسع بفتح بلدانهم، والسماح بالتفاعل الإيجابي مع مجتمعاتهم.

ولكن الجملة القرآنية تعطينا بعداً أوسع، فهم يطلبون من الله حالة الكمال في النصره بأن يجعل لهم ولياً محباً ناصراً، فإن لم يكن فإنهم يطلبون وجود الولي الذي يبادلهم العاطفة، ولو لم ينصر، ويطلبون النصير الذي يعينهم ولو لم يكن ولياً محباً. والآية فيها حثٌ عظيم على مواجهة القوة الظالمة بالقوة الصادقة العادلة، وليس بالاستكانة والذلة.

الأساس السابع:

تحديد أهم أهداف الحل العسكري، وهو القتال في سبيل الله لتحقيق أعظم مصالح الإنسانية، وأقوى إنجازات البشرية بإنقاذ المستضعفين، وتحقيق العدل، والوقوف ضد الطغيان الظالم المجرم، يُبَصِّرُنَا به قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ فالذي يقاتل للطغيان الفردي أو الجماعي أو السيطرة على الآخرين أو المتعة فهو في سبيل الشيطان.

لاحظ أن هذه هي المرة الرابعة التي تكررت فيها جملة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في ثلاث آيات متتابعات: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤)، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٥)، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٦).

لماذا تتكرر هذه الجملة بهذه الصورة الواضحة؟

إن الله يريد أن ينقي هذا المفهوم من الأغراض الرديئة التي صورته على أنه محبة في القتال لذاته، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن القتال الحقيقي هو

يكون في الطريق الواضح السهل الذي شرعه الله، وبذا نفهم بأن الأصل في القتال المنع في الإسلام، فمتى يباح؟ إذا كان في سبيل الله لا في سبيل الأهواء الشخصية، ليس في سبيل المجد الشخصي، ليس في سبيل السيطرة على خيرات الآخرين، ليس في سبيل الاستكبار وتكوين امبراطورية كبرى، القتال ليس مشروعاً من أجل إيذاء الآخرين، القتال ليس مشروعاً من أجل بيان الاستكبار العالمي، فالقتال مشروع في حالة واحدة وهو أن يكون في سبيل الله فقط، والحل العسكري، لا يجوز أن يلجأ إليه للاستمتاع، ولا للأهواء الشخصية، ولا للانتقام، ولا للإجرام، ولا للاعتداء، ولا للسيطرة على خيرات الآخرين، ولا للعلو، ولا للاستكبار، بل ليكون في سبيل الله.. الإسلام لا يعرف القتال للغنمة، ولا للسرقة، ولا لبناء المجد الشخصي، وطموحات الاستعلاء في الأرض، ولا لتمجيد جنس على جنس، ف«لَمَّا بَيَّنَّ وَجُوبَ الْجِهَادِ، بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا عِبْرَةَ بِصُورَةِ الْجِهَادِ. بَلِ الْعِبْرَةُ بِالْقَصْدِ، وَالِدَّاعِي»^(١).

ويمكن بيان القتال الذي يكون في سبيل الله بأنه إنما يكون لصالح بث الحياة الإنسانية؛ إذ له أربعة أهداف:

الهدف الأول: القتال لحماية الديار والأبناء، كما قال تعالى ذكره في قصة بني إسرائيل: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ (البقرة: ٢٤٦).

الهدف الثاني: إزالة الفتنة وحماية الكرامة الإنسانية أن تهان، وحماية حق الإنسان في الاختيار، وخاصة حماية المستضعفين، والدفاع عن حقوق الإنسان التي عبر عنها أداء الأمانات إلى أهلها، حيث تنال الأسرة الصغيرة والكبيرة في المجتمع حقوقها، والدفاع عن الحكم بالعدل، وبصرنا بهذا أن الله أمر بأخذ الحذر بعد أن

(١) تفسير الرازي (١٠ / ١٤٢).

قرر جميع المبادئ الفاضلة في سورة النساء، وبين الخطر الذي يهدد هذا الرشد في إدارة الأمور الإنسانية عندما ذكر لنا التحاكم بالطاغوت، ثم قال بعد: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَنَاتٍ جَمِيعًا - إِلَى أَنْ قَالِ جَلْ مَجْدُهُ - فَلْيَقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ (النساء: ٧١ - ٧٤).

فإنقاذ المستضعفين يعتبر في سبيل الله، سواء كانوا مسلمين أم كفارًا، وَيُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥)، ويدخل ضمن معاني الفتنة: التعذيب الذي يؤدي إلى اختيار عقيدة محددة نتيجة للقهر والضغط الشديد، فبعض المفسرين فسروا كلمة (فتنة) بأنه الشرك، وهذا تفسيرٌ بالنتيجة التي تنتج عن التعذيب، فالتعذيب الموجه للشعوب المستضعفة يجبرهم على اعتناق عقيدة محددة، وهنا لا بد من الحرب الهجومية الوقائية لإزالة قلاع الظلم، ودك معازل التعذيب والإجرام التي تسوم المستضعفين سوء العذاب، وبذلك يتحقق أن يكون الدين لله، ما معنى ذلك؟

معناه أن يكون الدين بين الإنسان وربه، فلا يكره أحدٌ على أن يدخل في هذا الدين أو ذاك، فلا يكره على الشرك كما لا يكره على الإيمان، فيختار المرء بينه وبين ربه الدين الذي يظنه صوابًا، وَيُبَصِّرُنَا بهذا الهدف قوله تعالى ذكره: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ لَنتَهَوًّا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣١) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمَ الْمَوْلَى وَنَعَمَ النَّصِيرُ﴾ (الأنفال: ٣٩، ٤٠).

الهدف الثالث: رد الاعتداء، وردع قوى البغي والعدوان، وَيُبَصِّرُنَا بذلك قول الله جل شأنه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩)، وذكر الله في سورة البقرة ذلك في قوله جل شأنه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي

سَبِيلَ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴿البقرة: ١٩٠﴾، ولكن اعتداءهم عليكم لا يحملنكم على الاعتداء عليهم بغير وجه حق، لذلك قال بعدها مباشرة ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

الهدف الرابع: القتال الرادع ضد الأهداف المظنون فيها الاعتداء، وهي التي تسميها الدول المعاصرة اليوم: (الحرب الوقائية، أو حرب الردع)، إلا أن للمعارك العسكرية آدابها العظيمة في المنظور الإسلامي، وأشار الله إلى هذا الهدف في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ (التوبة: ١٢٣).

فالإسلام لا يشرع القتال لتحقيق الأطماع العاجلة والمكاسب المادية الزائلة .. بل إن من أهم أهداف القتال في الإسلام تمكين البشر من نيل حقوقهم الفردية والمادية بعدالة وإنصاف .. ولذا يجب أن ينصر المسلمون المستضعفين في الأرض، ولو كانوا كفاراً .. إنه القتال لتمكين البشرية من التمتع بخيرات الحكم بالشرعية الإسلامية، التي تكفل لكل ذي حق حقه، حتى لو كان كافراً، أو بهيمة، أو أرضاً ..

وهنا تدرك مهيع الرشاد الذي سلكه النبي ﷺ لينفي الأغراض الأنانية للقتال، وبين الغرض الأسمى الذي تطل منه رحمة الله على العباد، فعن أبي موسى قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١).

فمن أراد من المبطلين كفارة عن أفعاله المخذلة، فكفارته الانضمام للقتال، وبيع الحياة الدنيا بالآخرة، وعدم الطعن على من قُتِل، فهو كالذي يغلب له أجر عظيم، فلم يفته شيء، بل هو مقدم عليه في الذكر، وروى مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ إِلَّا كَانُوا

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ١٣٦) برقم ٧٤٥٨.

قَدْ تَعَجَّلُوا ثَلَاثِي أَجُورِهِمْ وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُحْفِقُ وَتُصَابُ إِلَّا تَمَّ أَجُورُهُمْ»^(١).

على ماذا تدل هذه الآية ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥)؟

تدل على أن القتال غير مشروع لمجرد التمتع بالقتال، ولذلك نحن ننكر إيذاء الحيوانات فكيف بإيذاء أحد من البشرية، فمصارعة الثيران وقتالها لمجرد اللهو حرام عندنا، مع أن بعض الشعوب إلى الآن تفتخر بإجراء هذه المسابقات الوحشية، وتستمع بالتعذيب والقتل الموجه للحيوان.. فمن ينكر ذلك كيف يجيز العبث بحياة بني الإنسان؟ إذا كان الإسلام ينكر ذلك فكيف لا ننكر أن يقتل الإنسان الإنسان، فالأصل في القتال عدم مشروعيته، وإنما مشروعيته لأهداف يتم من خلالها حماية الحياة البشرية وكرامتها، وكما يقول رشيد رضا رحمته الله: «القتال في نفسه أمر قبيح، ولا يمكن أن يجيز العقل السليم ارتكاب القبيح، إلا لإزالة شر أقبح منه، والأمور بمقاصدها وغاياتها»^(٢)، فالآية إذاً واضحة ترسل رسائل للعالم وخاصة الكذبة الذين ملأوا الأبواق الإعلامية تنفيراً من الإسلام، وأن الإسلام دين عنف، ترسل لهم رسالة واضحة بأن الإسلام دين الانتصار للحقوق.. ولذا ينصر المسلمون المستضعفين في الأرض ولو كانوا كفاراً.. القتال في الإسلام لتمكين المستضعفين من التمتع بالخيرات التي هي من حقوقهم، وليس للاستيلاء على خيرات الآخرين.

فأهم علامة تدل على صدق القتال في سبيل الله تعالى أن يكون القتال لنصرة المستضعفين وهذا تبصرنا به هذه الآية ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ

(١) صحيح مسلم (٣/١٥١٥)، برقم ١٩٠٦.

(٢) تفسير المنار (٥/٢١١).

الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴿٧٥﴾، وبذا يتم إحلال العدل محل الظلم، والرحمة مقام القسوة، والصدق مقام الأكاذيب المجرمة التي يقهقه بها مفسدو العالم.. وانتزاع الحقوق للمستضعفين من الظالمين لا يمكن أن يتم بطريق آخر غير القتال في سبيل الله تعالى غالبًا إلا في حالات نادرة، وذلك أن الحقوق التي لا تحميها القوة مهددة يلعب بها الطواغيت كيفما شاءوا، ولأن طبيعة المجرم الأثيم تأبى إلا البقاء على حالة الإجرام التي يعتز بها بعد أن طبع على قلبه، فلا يرجى من مفاوضته خيرًا، ولا يفاوض على الحقيقة إلا أن يعلم أن دولة إجرامه إلى أفول.

وتصور هذه الآية عندما نزلت على المسلمين في المدينة تحرضهم على إنقاذ المستضعفين في مكة وما حولها.. وربما كانت هذه الآية أحد أعظم أسباب فتح مكة، فقد كان من بنود صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل. فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم. فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهرًا، ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً بماء لهم يقال له الوثير قريب من مكة، فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ، وأن عمرو بن سالم ركب إلى رسول الله عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوثير حتى قدم المدينة إلى رسول الله ﷺ يخبره الخبر، وقد قال أبيات شعر، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشده إياها:

يا ربّ إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتمو ولداً، وكنا والداً ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصرًا عتدا وادعُ عباد الله يأتوا مددا
 فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفًا وجهه تربدا
 في فيلق كالبحر يجري مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
 ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رصدا
 وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
 هم بيتونا بالوتير هجدا فقتلونا ركعًا وسجدًا

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم»، فما برح حتى مرت عانة في السماء، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»، وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبعثهم في بلادهم^(١).

وَيُصِرُّنَا به قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقِنُّلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقِنُّلَهُمْ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ بأن الآية تغرس في نفوس المسلمين ألا ينشغلوا بأهمية التجميع والترقيع في الصفوف بقدر ما يشغلهم الكيف، والجوهر، والبناء الإيماني، ولقد رأينا كثيرًا من الجهات المنتسبة للإسلام تشغل بالتجميع وتستكثر من قوى المجتمع مهما كانت انتماءاتها، فماذا آل إليه الأمر؟ دخل الفساد في نفوس أفرادها عندما غفلت عن تربيتهم، وإصلاحهم، وخدعتها القوى التي زعمت أنها تؤازرها.. وكانت عاقبة جهدها خسرًا في نهاية المعركة.. أعد سماع الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقِنُّلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقِنُّلَهُمْ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ الإيمان أولاً لو كانوا يعلمون.. ولذا تجد مصاصي الدماء العالميين، ومالكي الشركات العابرة للقارات يئنون لو كان هناك حاكم مسلم يظهر التدين في حكمه، ويعبرون عن استنكارهم من تحول أي بلد مسلم

(١) الصحيح من أحاديث السيرة النبوية (ص: ٤٤٧).

إلى بلد ديني.. إنهم يعلمون أهمية الإيمان في صد عدوانهم واستكبارهم، ويعلمون مقدار ضعفهم إذا اتسم من يقابلهم بالإيمان، وإنما وصف الله جل ثناؤه كيد الشيطان بالضعف، لأن أولياءه لا يقاتلون رجاء ثواب، ولا يتركون القتال خوف عقاب، وإنما يقاتلون حمية أو حسداً للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. والمؤمنون يقاتلون مَنْ قاتل منهم رجاء العظيم من ثواب الله»^(١).

فما فائدة الدفاع أو الاستعراض العسكري إذا خلا من الروح العسكرية؟ ما فائدة الأسلحة إذا لم توجد القوة الدافعة التي تحركها؟ ولذا قال الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ ﴿لَمَّا بَيَّنَّ وَجُوبَ الْجِهَادِ بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا عِبْرَةَ بِصُورَةِ الْجِهَادِ. بَلِ الْعِبْرَةُ بِالْقَصْدِ وَالِدَّاعِي﴾^(٢)، الحروب تختلط فيها المصالح بالأديان، ولكن الحروب الظالمة كلها أساسها الطغيان، فقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وصف دقيق لطبيعة الحروب في العالم، فمن حارب لأجل العدل وإنقاذ المظلومين فهو في سبيل الله، ومن قاتل في سبيل المصالح الشخصية، والأطماع السياسية، والأمجاد الدنيوية فهو في سبيل الطاغوت.. والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، لتحقيق كل المناهج الجاهلية ومنع المنهج الإلهي، وإقرار كل الشرائع الجاهلية ومنع الشريعة الإسلامية، وإقامة كل القيم الجاهلية ومنع القيم القرآنية.

الأساس الثامن:

تعتمد المؤسسات والميلشيات الطاغوتية المجرمة على الكَيْد، وهو السَّعْيُ فِي فَسَادِ الْوَقَاعِ وَالْحَالِ، عَلَى جِهَةِ الْخَدَاعِ وَالْإِخْتِيَالِ. يُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى مَجْدُهُ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٤٧).

(٢) تفسير الرازي (١٠ / ١٤٢).

فأصحاب الكيد بذأ يسعون فِي إِيْقَاعِ الصَّرَرِ عَلَى جِهَةِ الْحِيلَةِ.. إنهم يلجأون إلى إفساد الواقع بطرق فاسدة.. تأمل بشاعة هؤلاء القوم، ولكنهم يحققون بالكيد إنجازات كبيرة كما قيل^(١):

فَهَرَّتِ الْعِدَا لَا مُسْتَعِينًا بِعُصْبَةٍ وَلَكِنْ بِأَنْوَاعِ الْخَدَائِعِ وَالْمَكْرِ

لكن هذا الكيد كله ضعيف مهزوم إن تمسك الطرف الآخر بالأسس التي ذكرناها في مواجهة كيد الشيطان.. لماذا وصف كيد الشيطان بالضعف؟ لأنه لا يملك قوة يقهر بها قلوباً، ولا يملك حجة يقنع بها قلوباً، فيلجأ إلى الحيلة لإفساد الوضع الصحيح، وقد يحتال القوي في جسد لخوفه من الهزيمة في عقل، فيحتال أكثر، وهنا تعلم لماذا تزداد القوى المستكبرة احتيالاً عبر مؤسساتها المخبرانية القذرة، وعبر المبعوثين الأميين ليزيدوا قضايا المستضعفين خبائلاً، والأصل الحذر منها، كالحذر من الضعيف المحتال .



(١) الجنى الداني في حروف المعاني، (ص: ٢٩٩).

القِسْمُ الثَّالِثُ

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، وعدم الدخول في مواجهات غير متكافئة، والسلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي (النساء: ٧٧-٧٩)

آيات هذا القسم:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ الذِّينِ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْفَىٰ وَلَا نُظَلِّمُونَ فَنِيلاً ۝٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿

(النساء: ٧٧-٧٩).

المناسبة والاتصال:

هذا المحور مليء بالمفاجآت لحماية الحقوق البشرية في معرفة ربهم، ومعرفة أنفسهم، والمحافظة على الجنس البشري ليستمر بث الرجال والنساء، وقد بين الله جل جلاله في القسم الأول أن أهم استراتيجيات صنع الأمن والسلام استراتيجية (أخذ الحذر) لتحمي المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية، وذلك

في الآيات (٧١-٧٣)، ثم أوضح في القسم الثاني أن من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: الإعداد العسكري العالي لصناعة حالة (توازن الردع)، واستخدام الحل العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين، وذلك في الآيات (٧٤-٧٦)، وحتى لا يفهم ذلك خطأً ويُنسب للإسلام إشاعة القتال ترى القرآن الحكيم المحكم ينقلك نقلاً منطقياً إلى أن تعلن للعالم أن الأصل في الإسلام كف اليد عن الآخرين بما أن الكرامة الإنسانية محفوظة، ويمكن للمرء أن يقيم مبادئه الفكرية دون اضطهاد ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، لكن ذلك يعني في الوقت ذاته مواجهة الأشرار الذين يضطهدون الكرامة الإنسانية، ونصرة المستضعفين.. ولكن المواجهة تبقى طارئة، ولها وقتها المناسب، وهنا قد يتخلف جزء من المجتمع المدني عن فقه الأمرين، فيتحمس بعضهم للمواجهة العسكرية وعدم كف اليد في وقتٍ يتمكنون فيه من الحصول على مبادئ الكرامة الإنسانية، أو في وقتٍ غير مناسبٍ لافتماع المواجهة، ويتهرب بعضهم من المواجهة عندما يأتي وقتها المناسب، وخاصة حين تقتضيها حماية المستضعفين، فلننظر إلى البصائر القرآنية الواردة في هذا الموطن، ولنتأملها على أنها قوانين شاملة لاستنقاذ حقوق البشرية، وإظهار القوى الصالحة بمظهر التكيف مع الوقائع المختلفة:

القانون الأول: يجب أن نشاهد الواقع كما تصفه لنا البصائر القرآنية، فالتنوير الإلهي للبصيرة القلبية أوثق مما تراه العينان في الحالات الواقعية وخاصة في ميدان معالجة النفوس الإنسانية، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَكَ بِمَا لَا يَخْلُفُ فِيهِ مِنْهَا يُجَادِلُونَكَ فِي الدِّينِ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ...﴾.

هذه الجملة القرآنية المبتكرة المتكررة، تغرس فينا بصيرة واضحة: الله في القرآن يلفت نظرك إلى أصناف البشر، وأنواع الخلق، وتصرفاتهم: لتعرف كيف تتعامل معهم، ولتثق أن إعلام الله لك بهم أقوى مما تراه عينك، فلا تحاول أن تكتفي

بنظر بصرك، وتستغني به عن النظر الذي ينور الله به بصيرتك، فتقع في الضلالة والهوى.. والاستفهام للفت النظر والتعجب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: تعال لنريك، أو تعال لتنظر شيئاً عجباً، أنت غير متبهِ له بعينيك، أي: بعيني بصيرتك.. لا أن تحاول أن تبصر بنفسك لتهوي وتسقط في الضلال ويصيبك التيه في التفكير، إنما تعال وانظر سنريك نحن.. ووضعه على سبيل الاستفهام لبيان التحضيض والإزعاج والتشويق من أجل أن يرى الإنسان حقيقة الأمر، فهو يرى هؤلاء الناس ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.. هم صنف من الناس، ولكنه لا يراهم على حقيقتهم، والقرآن يبصره بحقيقتهم، والتعبير ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يمدك ببصيرة شائقة في التصوير: إنه يخبرك بأن القرآن بصيرتنا.. يخبرك بأنه بصرنا في رؤية الأشخاص والأحداث، والحقائق، والتقدير: ألم تر إلى فريق من الذين قيل لهم: كفوا أيديكم.. انظر إليهم.. شاهد حقيقتهم..

القانون الثاني: الأصل الواجب على المسلم كف اليد، ونشر السلام، فالقتال ليس هو الأصل في الإسلام، بل أذن فيه لاحقاً لقيام مقتضيات له، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله: ﴿قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾.

﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ من القائل لهم: إن الواجب أن تكفوا أيديكم؟ جاء بهذا الفعل المبني لما لم يُسمَّ فاعله ليحتمل أن يكون القائل الله جل جلاله في كتابه، وليحتمل أيضاً أن يكون القائل الرسول ﷺ في سنته، وليحتمل أن يكون القائل أولو الأمر أهل الحل والعقد من المستنبطين من أهل العلم الذين يقومون بالحكم الشرعي ليناسب الحالة الحيوية الراهنة.. واستنباطهم يجعلهم يقولون للمتحمسين: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فأنتم تقدرتون على فعل ذلك، ولا تبسطوا أيديكم بقتال أو إيذاء لعدم الحاجة؛ إذ أنتم تعيشون وفق مبادئ الكرامة الإنسانية، ولعدم المناسبة في التوقيت، والآية توضح لك بجلاء أن عدداً من المتحمسين أرادوا

بسط أيديهم ليتناولوا العدو القرشي أو غيره في زمن النبي ﷺ بالقتال، فقليل لهم كفوا أيديكم؛ فبوادر مد الأيدي قد ظهرت منهم خلال كلامهم واستعراضهم، وأراد النبي ﷺ أن يبين لهم أن القتال ليس هو الأصل، بل أذن الله فيه لاحقاً، وأمر به لقيام مقتضياته، ومن المواقف التي رويت لنا تبين هذه الحماسة ما قاله العباس بن عباد بن نضلة ليلة بيعة العقبة الثانية: (والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا) فقال رسول الله ﷺ مبيناً أن مثل ذلك يحتاج إلى إذن، وأن الغدر ليس من شيمة المسلم، وأنه لا بد من استنفاد الوسائل السلمية: «لم أؤمر بذلك»^(١).

فطلب من الصحابة أن يتحملوا الأذى؛ ليرسلوا للعالم الرسالة واضحة أن الإسلام هو رسالة الرحمة العالمية، ولا يمكن لها، ولا يليق بها أن تعبر عن أهدافها المنقذة للإنسانية ابتداءً ببسط اليد بالسلاح، فقد روى ابن عباس أن جمعاً من الصحابة الكرام، منهم: عبد الرحمن بن عوف أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة، فقال: «إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا»، (فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال، فكفوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ السَّابِقُونَ السَّابِقِينَ﴾) (٢)، وأظن القائل (فلما حولنا إلى المدينة) عبد الرحمن بن عوف لأن ابن عباس كان يدارسه القرآن -كما روى البخاري- فليس المراد أن عبد الرحمن هو الذي كف، بل المراد قوم كانوا أظهروا الحماسة قبل فرض القتال، فلما فرض إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله.. وإلا فعبد الرحمن أحد السابقين البدرين وأحد العشرة المبشرين، وأحد الستة أهل الشورى، وهو أحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام.

(١) أحمد (٣ / ٤٦٠).

(٢) النسائي (٦ / ٢)، وصحح إسناده الألباني.

ومما يؤكد أن الأصل في الإسلام السلم، قول النبي ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمْهُمْ فَاصْبِرُوا»^(١).

وقوله: ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ تبصرنا بضرورة نشر التربية، والوعي، والتواصي بالحق: فهو فِعْلٌ لما لم يسمَّ فاعله، فمن القائل؟ يحتمل أن يكون: الله، ويحتمل أن يكون الذي يأمرهم بالقسط من الناس، سواء أكانوا من الأنبياء أم من ورثتهم أم من عامة الخلق من العقلاء. يخاطبهم الله جل مجده بأمر هو جزء من دينهم، وكذلك يخاطبهم الصالحون من الأنبياء ومن بعدهم: كفوا أيديكم، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة.. ولكنك تراهم يطالبون ما لم يطلبه منهم ربهم وهو الله الذي له الخلق والأمر.. وأقرب الناس شبهاً بهم ما فعله أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد كانوا لا يأترون بأمره ولا ينتهون عما ينهاهم.

إن الحياة التي تكون وفق مراد الله لا تجري على حسب الأهواء بل ينبغي أن تسير على المنهج المستقيم الذي أمر به الله، فهو راحم الأرض والسماء، ففي فترة من الفترات قال الله لهم عن طريق رسوله ﷺ أو عن طريق الصالحين الذي يعلمون القرآن والسنة النبوية: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾، فهو طالبهم بكف اليد لأن ذلك هو الأصل في الإسلام، ولكنهم يطالبونه بشيء آخر، وهو أن يقاتلوا.. فأين تسليمهم لربهم؟.

دعنا نأخذ مثلاً تطبيقياً يلوح لنا في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صلح الحديبية، فقد أوشك أن ينشب القتال مع المستغلين لسيطرتهم على المسجد الحرام؛ إذ أصروا على أن يمنعوا من قصد البيت الحرام من العمرة، ولكن الله سلم، وتنزل النبي ﷺ فوقع معهم صلح الحديبية، وأمر الله جل مجده المسلمين بكف اليد بناءً على الصلح، لكن عمر بن الخطاب لم يستوعب ذلك، فكيف يعطون الدنية في دينهم، وهو من

(١) البخاري (٤ / ٦٢)، برقم ٢٩٦٦.

أصدق الصادقين سيِّدٌ من سادة الأمم بعد الأنبياء والمرسلين وبعد أبي بكر الصديق، وكما قال النبي ﷺ له: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»^(١)، لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يستطع أن يستوعب توقيع صلح الحديبية، فسأل النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا» فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا فَتَرَكْتُ سُورَةَ الْفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ فَتَحَ هُوَ قَالَ: نَعَمْ»^(٢). فهذا كف لليد مع أن القوة تميل إلى جهة النبي ﷺ حتى قال ﷺ لرسول قريش: «إِنَّا لَمْ نَجْعَ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ وَأَصْرَتْ بِهِمْ فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً»^(٣).. فصار كف اليد هو الأصل، ولولا أن المعتدين يلجئون القائمين بالعدل إلى الحرب لما كان قتال في الأرض، وتلك سنة سحر نارها شر ابني آدم عليه السلام.

والذي ذكر عمر بمبدأ كف اليد هو النبي ﷺ ثم أبو بكر الصديق، وتنوع القائل يدل على أن المجتمع كله قائمٌ بأمر الله سبحانه وتعالى، متعاون على ذلك، فبعضهم قائل وبعضهم مستمع، وفي المقابل هناك فائدة أخرى تلوح من بناء الفعل لما لم يسم فاعله وهو بيان الاختلاف وتفاوت القائلين، فإذا كان القائل النبي ﷺ، فلا يملك السامع أمامه إلا أن يكون كما قال الله جل ذكره: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)، لكن إن كان القائل أحد المجتهدين في الساحة العلمية أو الساحة الدعوية فلا بد أن يوضع الاجتهاد في ميزان المناقشة.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٥٣) برقم ٣٢٩٤.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٢٦) برقم ٣١٨٢.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٥٣) برقم ٢٧٣١.

إذ مسائل الخوف أو الأمن مسائل سيادية لا ينفرد بها مجتهد أو مسؤول، فلا تؤخذ بصورة فردية، فلا بد فيها من الاجتهاد الجماعي الحقيقي القوي، فلا يقررها فرد نصب نفسه طاغوتاً أو مجموعة سدنة سموا أنفسهم علماء له فهذا من أهم المفاهيم التي تهذب وترشد العمل الإسلامي وخاصة في الواقع المعاصر الذي يتميز بأنه شديد الظلمة، كثير الفتن، فانظر كيف استفدنا ذلك من قوله ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾، ولا تتحقق هذه الفوائد لو كان التعبير: قال الله لهم، أو قال لهم الرسول.

ويُصَرِّفُنا قوله: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، أن نعتصم دائماً بالصلاة، التي تنزل السكينة بتقديم حقوق الخالق، والزكاة التي تنزل الأمن، بتقديم حقوق الخلق، ولا ينبغي أن نجزع على عدم تقديم ما لا نستطيع، فإن وجدت بيئة آمنة ليقيم الإنسان عباداته، ويأمن في اعتقاداته، فذلك العدل الذي ينشده، فلا يكون إن افتعل عنفاً إلا معتدياً.

القانون الثالث: يجب الحذر من العقلية المبطئة فلها ارتباط بالعقلية المندفعة المتحمسة، إذ كلاهما يتخذ قراراً في موضعه غير المناسب، وربما رأيتهم يُظهرون الحماسة العالية في الموضع الخطأ ثم يهربون بعيداً عندما تدق ساعة الصدق، ويُصَرِّفُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ :

فيظهرون أنهم مستعدون للتضحية، وسيقدمون أنفسهم ليكونوا أول الشهداء دفاعاً عن حق الإنسان في اختيار الإيمان أو دفاعاً عن الأوطان وعن الديار والأهل والولدان، ثم ينكصون إذا التقى الجمعان، ويولون الأدبار إذا جاءت ساعة الفرقان، فيخشون الناس كخشية الله «القهار الجبار، الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد»^(١).

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧١٢).

وتبصرنا إذا الفجائية في قوله جل ذكره: ﴿إِذَا فِرَيقٌ مِّنْهُمْ﴾ بحلول المفاجأة التي لا يتوقعها الناس منهم؛ إذ يخالفون الدعاوى المتحمسة السابقة، فهم يريدون من الإسلام ما خف حمله، ولانت غنيمته، ويُبَصِّرُنَا الله بذلك لتكون القيادة العلمية والسياسية على دُرْبَةٍ في كيفية التعامل مع هذا الموقف المتناقض.

ويُبَصِّرُنَا قوله: ﴿إِذَا فِرَيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، بضعف أنفسنا، وأنا يجب أن نتوقع أن يحدث ذلك من كل منا إلا النبي المعصوم ﷺ، فذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في المنافقين، والأمر ليس كذلك، فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿إِذَا فِرَيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء الذين تحمسوا، وهؤلاء الذين تحمسوا صنفان: فمنهم المؤمنون اعترى الخلل تفكيرهم، ومنهم المنافقون، فكلمة ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي من القائلين الطالبين للمواجهة في الوقت الذي قيل لهم ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾، فالله سبحانه وتعالى في قوله ﴿إِذَا فِرَيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ يحدثنا عن طبيعة موجودة في الناس، ولا حل أمامها إلا المجاهدة لدواعيها، وأن تعد القيادة العلمية الإدارية نفسها لوجود ذلك، وتتوقعه حتى منها هي، وهذا يعني ضرورة المؤسسية في قيادة الأعمال الكبيرة، وقوله تعالى ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ هذا أعظم من خوف الناس؛ لأن الخشية هي خوفٌ مقترنٌ بالتعظيم، فمثلاً بعضهم قد يكون من القيادات العلمية والسياسية، وقد يكون بعضهم من الصفوف المختلفة، وألقي في قلبه الخوف والتعظيم للعدو الصائل، ليس الخوف المحض بل الخوف المقترن بالتعظيم الذي هو الخشية، وهو الذي عبر الله عنه في قوله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وتبصرنا كلمة ﴿أَوْ﴾ الدالة على التنوع باختلاف مشارب هؤلاء القوم ومدى اضطرابهم، فالناس يتفاوتون في خشية البشر، فمنهم من يخشى البشر كخشية الله وهذا يمكن أن تقع فيه جميعاً، ومن ذا يبرئ نفسه منه، ومنهم من يخشاهم أعظم من خشيته لله وهذا غالباً هو المنافق، والمؤمن قد تعثره هذه الخشية

للناس ثم يتذكر، فإذا هو مبصرٌ للحق منقاد له، والمريض القلب والمنافق ينقادان للهوى، وينبذان موجبات التقوى.

وحتى لا تزيع أفهامنا فنظن أن كل متحمسٍ ينقلب حماسه تبطيئاً وتخذيلًا تجد الآية تضبط لك هذا الوعي؛ إذ تسمع الله يقول: ﴿إِذَا رَئِيتُ مِنْهُمْ يُخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ فعبّر عن هذا الصنف بقوله: ﴿فَرِيقٌ﴾؛ لأنه ليس كل من رفع شعار الاستعداد نكص عند حضور ساعة الجهاد، ولذلك أراد الله جل مجده أن يرشد لنا الوعي حتى لا تنتهم كل متحمسٍ، بل ينبغي أن نتلطف مع من يظهرون الحماسة العالية، ونبين لهم أن الأصل في الإسلام السلم، والصبر على إيذاء الناس، وأن اللجوء إلى غير ذلك يحتاج مبررات متعددة، ولا بد أن يجتهد لها المستنبطون، وهنا تبرز حاجة القيادات السياسية إلى القيادات العلمية الراشدة وليس إلى القيادات العلمية المتلصصة، كما ننجو بهذا التفكير من الوقوع في خطيئة تصنيف كل من تحمس بأنه متهورٌ أو مدعٍ.

القانون الرابع: ضرورة التركيز على اختيار أعضاء المجلس الاستشاري لكل فرد، واختيار أصحاب الأقلام والكلام، فهم حجر الزاوية في اتخاذ القرارات الفاصلة، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْقِتَالِ إِلَى اللَّهِ أَوْ إِلَى سُلْطَانٍ مُّطَاعٍ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾. فهم حركوا الناس كخشيّة الله أو أشدّ خشيّة، فهو لاء ذموا لتخطيهم واتخاذهم القرارات غير السوية، وربما كانوا ضمن هيئة استشارية، فأربكوا صانع القرار.

فهؤلاء المستشارون ينصبون أنفسهم مشيرين بالحقائق في الأزمات، فينصبون أنفسهم باعتبار أنفسهم أهل استشارة وأهل رأي مع أن حقيقة أمورهم أنهم خائفون على أنفسهم خوفًا عظيمًا، وبعضهم أسوأ من بعض، فإذا تكلموا عن المصلحة فهم

لا يعنون بذلك سوى مصالحهم الخاصة.. خذ مثلاً ما قاله المشيرون على الأحمر الصغير ملك غرناطة فقد غطوا خوفهم بأن عبثوا بفقهِ الأولويات والموازانات زاعمين أن مصلحة الناس فيما يشيرون به من الاستسلام لفرناندو وإيزابيلا الملكين الصليبيين، وما قولهم وفعالهم إلا لتغطية الخوف الشخصي الذي تملك قلوبهم، فقد حاول القائد الفذ موسى بن أبي غسان أن يبين لهم أن ساعة الصفر قد حانت لما أظهروا البكاء فقال: «تركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء، وإنني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة، ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة. ذلك هو موت مجيد، فلنمت دفاعاً عن حرياتنا وانتقاماً لمصائب غرناطة، وسوف تحتضن أمتنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاتهِ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا الله أن يقال: إن أشرف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها».

ثم صمت موسى، وساد المجلس سكون الموت، وسرح أبو عبد الله البصر حوله، فإذا اليأس ماثل في تلك الوجوه التي أضناها الألم، وإذا كل عزم قد غاض في تلك القلوب الكسيرة الدامية. عندئذ صاح «الله أكبر لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولا راد لقضاء الله. تالله لقد كتب عليّ أن أكون شقيّاً، وأن يذهب الملك على يدي». وصاحت الجماعة على أثره: «الله أكبر ولا راد لقضاء الله»، وكرروا جميعاً أنها إرادة الله ولتكن، وأنه لا مفر من قضائه ولا مهرب، وأن شروط ملك النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه. فلما رأى موسى أن اعتراضه عبث لا يجدى وأن الجماعة قد أخذت فعلاً في توقيع صك التسليم، نهض مغضباً وصاح: «لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم. إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب

بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي، والسياسات والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق. هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة، التي تخشى الآن الموت الشريف. أما أنا فوالله لن أراه»^(١).

وأهم علامة تبين فساد العقلية التي يتحرك بها المستشار الخائب خلطه للأوراق وتردده، وظنه السيء بدينه وربّه. وَيُبَصِّرُنَا اللَّهُ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتْنَةَ لَوْلَا أَخَرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ (النساء: ٧٧).

انظر لهؤلاء المستشارين السيئين والفريق المبطل المبطى.. يحاولون أن يخلطوا الأوراق، ويجعلوا الموقف المريب المخطئ صواباً؛ فبدلاً من الاعتراف بخطئهم أو جنبهم قلبوا الأمر؛ إذ قاموا فقالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتْنَةَ لَوْلَا أَخَرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ (النساء: ٧٧).

وكلمة ﴿رَبَّنَا﴾ تدل على أنهم يناجون ربهم فيما بينهم وبين أنفسهم، ويعتمدون على حلم الله ورحمته، وهذا يرجح لنا أن كلمة ﴿مَنْهُمْ﴾ في أول الآية يدخل فيها المؤمنون.. يتأخرون عن اتخاذ القرار المناسب في اللحظة المناسبة، ويزعمون أنهم يريدون الاستعداد قبل ذلك، ولذا يقولون ﴿لَوْلَا أَخَرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.. أي: لنكون أشد استعداداً وأكمل قوة، وغالباً لا يأتي هذا «القريب» أبداً، وللأسف فإنهم لا يشعرون أن عدوهم سيخضد قوتهم، ويكسر حدهم كلما تقدم في مواقعه، كما تدل هذه الكلمة على أن هؤلاء أقرب إلى الإيمان منهم إلى النفاق، ولكنهم يضيقون من التشريع الإلهي الذي يعالج أمور الحياة إذا ترتبت عليه التبعات ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتْنَةَ﴾ انظر للآلم والأسى الذي يعترهم حتى صرخوا في مناجاتهم السرية أو العلنية لربهم.

(١) دولة الإسلام في الأندلس (٥ / ٢٥٥).

فإن كان هؤلاء مؤمنين فهذا الكلام منهم تخرج، والآية تصف نوعاً من الحرج الذي وجدوه من هذا التشريع الذي فيه حياتهم، فهم مسلمون ويؤمنون بالله لكنهم يريدون أن تكون التكاليف دائماً غير ذات شوكة شأن بني إسرائيل عندما عصوا موسى في دخول الأرض المقدسة، وإن كانوا منافقين فهذا اعتراض، فشأن المنافق أن يعترض على شرع الله سبحانه.. الطعن في الأحكام التشريعية، لكنك ترى من السياق أن هذا التصرف يمكن أن يصدر من المؤمنين المتقين أيضاً.. ألا ترى مقدار مناجاتهم لربهم وتضرعهم ورجائهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفُتَالَ﴾.. أترى ذلك يصدر عن منافقين متلاعبين؟ والآية صالحة لتصف حال الفريقين على تفاوت في الشعور النفسي والقناعة بالإسلام.

وبذا تجدهم هنا يقومون بالتغطية على تفاقلهم أو خيانتهم لحقوق المستضعفين وخوَرهم في مواجهة المعتدين بالتماس الأعذار كأن يقولوا: نحن مستعدون للقتال ولكن ليس هذا وقته، وهو ضد المصلحة في هذا التوقيت، فلو يؤخر قليلاً لأننا لم نستعد جيداً ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، وكلمة ﴿أَخَّرْنَا﴾ إما أن تدل على أنهم يزعمون أن المصلحة في غير هذا القرار، وإما يزعمون أنه ينبغي أن يكونوا أكثر استعداداً، وهذا هو العذر الدائم المناهض للمجد والحق والعدل.. إنه الكلام الذي يدمر العزائم.. هو التسويف، وادعاء عدم الاستعداد مع أن المواجهة حتمية، فيقولون: ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سنكون عندها أقوى وأمضى.. ما أدرهم لربما كانت العافية النسبية التي هم فيها توشك أن يسطلمها العدو، ويحيلها إلى هباء.. انظر إلى الحرية النسبية التي وجدها المسلمون في المدينة حيث تنفسوا الصعداء.. لقد حاول العدو إجهاضها وإنهاء الانجازات التي تحققت خلالها.. وإلا لماذا أصر أبو جهل على الوصول إلى أقرب نقطة للمسلمين في بدر مع علمه أن أبا سفيان قد نجا؟.

وهذه البصيرة رسالة لكل من يريد انتصار العدل في العالم بينها لنا ابن عباس عليه السلام، فيقول: نهى الله تبارك وتعالى هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم^(١).

القانون الخامس: يجب أن تعالج النفوس المتهربة من تبعات القيام بالواجب بتذكيرهم بأنهم سيجدون النفع المادية والروحية العظمى والصفقة الرابعة، والتجارة التي لا خسارة فيها كلها في الآخرة مقابل ثمن دنوي يسير، ويُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قوله: ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، هنا تُربي القوة الإيمانية في العقول والقلوب، وتزداد قوة باستحضار حال الدنيا والآخرة والمقارنة بينهما:

هذه الكلمة العذبة ﴿قُلْ﴾ تحوي منهجاً متكاملًا يتضمن الإعلام والتبليغ، والتبيين، والتثقيف، والتربية.. هذه الكلمة تشعرك بالاعتزاز؛ إذ الله يوجهك مباشرة لتعالج الأمور بالطريقة الصحيحة، والمعنى: أعلم هؤلاء والعالم بأن نصر المستضعفين واجب، ولا يتم إنقاذهم من المعتدين الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت من أولياء الشيطان إلا بالمواجهة، والتهرب من تبعات هذه المواجهة حقيقته أن المتهرب يتغني عيشًا في الدنيا، فلماذا يريد الدنيا؟ ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ومتاع الدنيا كلها من قصورٍ وأنهارٍ وعيشٍ رغيدٍ قليلٌ عند مقارنته بالآخرة، والآخرة هي الدار الحقيقية، أما من حيث زمن التمتع، فالتمتع في الدنيا محدود بعمرٍ الذي ينقضي كأضغاث أحلام، والتمتع في الآخرة ممتد الزمان لا حدود له.. فأَيُّ الدارين تفضل؟

وأما من حيث كمية التمتع فأنت في الدنيا لا تستطيع التمتع أكثر من حدود قوتك لكنك في الآخرة تمتع بجسد يضاعف في كل قواه عما أنت عليه الآن، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عن أهل الجنة: «عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»^(٢).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٥٠).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٦٠) برقم ٣٣٢٧.

وأما من حيث الإمكانيات والشهوات والثروات فإنك تتمتع هنا حسب إمكانياتك العمرية والجسدية، وهناك لا تعلم ما أخفي لك من قرة أعين.

والممتع الشيء المستلذ المنتفع به، وفي المقارنة بين متاع الدنيا والآخرة يقول قيس بن أبي حازم: سمعت مستورداً أخا بني فهر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بماذا يرجع»^(١)، وقرأ الحسن هذه الآية المباركة: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ثم قال: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا صَحِبَهَا عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا إِلَّا كَرَجُلٍ نَامَ نَوْمَةً، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ بَعْضَ مَا يُحِبُّ، ثُمَّ انْتَبَهَ.

وقد قال شيخ الإسلام إسماعيل المقري:

إلى كم تَمَادَى فِي غُرُورٍ وَغَفْلَةٍ وكم هَكَذَا نَوْمٌ إِلَى غَيْرِ يَقْظَةٍ
لَقَدْ ضَاعَ عُمْرٌ سَاعَةً مِنْهُ تُشْتَرَى بِمِلءِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَيْةَ ضَيْعَةٍ
أَيُنْفَقُ هَذَا فِي هَوَى هَذِهِ الَّتِي أَبَى اللَّهُ أَنْ تُسَوِيَ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ
أَتَرْضَى مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَعَيْشَةِ مَعَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِعَيْشِ الْبَهِيمَةِ
أَفَانِ بِبَاقٍ تَشْتَرِيهِ سَفَاهَةً وَسُخْطًا بِرِضْوَانٍ وَنَارًا بِجَنَّةٍ
أَأَنْتَ صَدِيقٌ أَمْ عَدُوٌّ لِنَفْسِهِ فَإِنَّكَ تَرْمِيهَا بِكُلِّ مُصِيبَةٍ
لَقَدْ بَغْتَهَا هَوْنًا عَلَيْكَ رَخِيصَةً وَكَانَتْ بِهَذَا مِنْكَ غَيْرَ حَقِيقَةٍ
وكان الصالحون يُنْشِدُونَ:

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ اللَّهِ فِي دَارِ الْمُقَامِ نَصِيبٌ
فِي أَنْ تُعْجِبَ الدُّنْيَا رَجَالًا؛ فَإِنَّهَا مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَالزَّوَالُ قَرِيبٌ^(٢)

(١) سنن الترمذي (٤ / ٥٦١)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٣٦٠).

وقوله ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يذكر بأن الله يحكم بالقسط ولا يغفل شيئاً في الحساب، فاطمئن لن تظلم شيئاً لا من رزقك وأجلك في الدنيا ولا من عاقبة عملك في الآخرة إلا أن الله يعاملك بالفضل لا بالعدل في الحسنات، وبالإحسان لا بالميزان في الأعمال الصالحات:

فالجزاء في الدنيا والآخرة من جنس العمل فلا تظلمون شيئاً من أعمالكم، وآجالكم.. ولا من أرزاقكم.. مالكم؟ أتخافون لو واجهتم عدوكم من نقص رزقكم أم من نقص أجلكم؟ اطمئنوا فلا تظلمون ولو بمقدار فتيل، والفتيل: حَبْلٌ دقيقٌ من ليفٍ، وقد يُشَدُّ على الحَلَقَةِ التي عند مُلْتَقَى الدُّجْرَيْنِ فهذا معنى، والفتيل هو السَّحَاةُ التي في شَقِّ النَّوَاةِ فهذا معنى ثانٍ، والفتيل هو ما فَتَلْتَهُ بين أصابعك من الوَسَخِ كالْفَتِيلَةِ فهذا معنى ثالث^(١)، والمعاني الثلاثة تدل على تحقير الدنيا من جهة، وعلى قيام الله بالقسط في محاسبة العباد سواء أكان الحساب نتيجة للمقدمات الدنيوية في الأعمال، أم كان جزاء في الآخرة على ما سبق في الدنيا من تحركات، فلا يمكن أن تظلموا فتيلاً أي ولو كان شيئاً يسيراً ولو كان صغيراً يساوي ما يفتل بين أصبعين من الوسخ المجتمع.. لا تتوقعوا أن يخسكم الله حقكم، ولكن توقعوا في المقابل أن الله سيحاسبكم على السيئات مهما صغرت كما يحاسبكم على الحسنات مهما قلت.

وتدل هذه الكلمة على أنه لا يمكن أن تنقص آجالكم وأرزاقكم بمقدار الفتيل سواء أشاركتم في تحرير المستضعفين أم لم تشاركوا، وكذلك لا تظلمون فتيلاً إن تقاعستم عن القتال في موطنه، وستكون نتيجة تقاعسكم مزيداً من الهزائم وتضييع الحقوق، وتنقلنا الآية نقلاً مدهشاً رائعاً إلى مشهدين بناءً على القراءتين الواردتين في قوله ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، فقد قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر، وَرَوْحٌ عَنْ يَعْقُوبَ،

(١) القاموس المحيط (ص ١٠٤١).

وَوَلَّيْنَا بِالْيَأْسِ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، وهذه القراءة تبين لنا أن الله خاطبهم أولاً فقال: ﴿قُلْ مَنَعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ ثم قال لرسوله ﷺ: ولا يظلمون في واقعهم ولا في حسابهم فتيلاً، وأما قراءة الجمهور بالتاء ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فالخطاب ينتقل من كلام الله مع الرسول ﷺ حولهم ليصور انتقال المشهد إلى كلام الرسول ﷺ أو المؤمنين معهم. أي: أنتم لا تظلمون فتيلاً لا في آجالكم ولا في أرزاقكم ولا أموالكم عندما تواجهون أو حتى عندما لا تواجهون، فَمِمَّ تَخَافُونَ إِذْنَ؟

ولكن الله يعاملك في الآخرة بالفضل لا بالعدل في الحسنات، وبالإحسان لا بالميزان في الأعمال الصالحات، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسَنَ إِسْلَامُهُ يَكْفُرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا»^(١)، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨).

القانون السادس: تعالج عقدة الخوف من الموت، بأن نذكر أنه آتٍ بغض النظر عن سببه، فلنحرص على أن يكون سببه أرباح في التجارة وليكن التخطيط للمستقبل بعده أجود، وَبُصِّرْنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَيَنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾، فَبُصِّرْنَا هذا التذكير بكيفية المعالجة العقلية لعقدة الخوف من الموت؟ فالموت المكتوب سيأتيكم في المكان الذي أنتم فيه ولو كنتم في بروج مشيدة، فالموت «بإزائكم أين كنتم، وواصل إلى أنفسكم حيث كنتم، ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعه»^(٢).

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ١٧) برقم ٤١.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٥٢).

وبما أن الموت لا بد منه فلنحرص على الإعداد الجيد والواعي لما بعده لتكون تجارتنا وتخطيطنا المستقبلي أكثر وعياً، وأعظم ربحاً، والبروج هي القصور المحصنة المنيعة المرتفعة، وسميت بروجاً لظهورها وبروزها للناظرين، ومن ذلك بروج السماء في قوله تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ (الفرقان: ٦١)، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج: ١)، فيقال: تَبَرَّجَتِ الْمَرْأَةُ، إِذَا أَظْهَرَتْ مَحَاسِنَهَا، ووصف هذه البروج بأنها مشيدة، ومُشَيِّدة كلمة لها بريقها في وصف البروج، فإما أن تكون من الشَّيد بالكسر، وهو المطلي بالجص، أو المِلاط وبالفتح المصدر. تقول: شاده يشيده شيداً: جصصه. والمشيد: المعمول بالشَّيد. والمُشَيِّدُ، بالتشديد: المُطَوَّلُ^(١)، وشاده شيداً بالفتح، أي: أحكمه، فكل ما أُحْكِمَ من البناء، فقد شَيِّدَ، وتَشَيَّدَ البناء: إِحْكَمَهُ وَرَفَعَهُ.

فانظر كيف جمعت هاتان الكلمتان: (بروج مشيدة) أو صافاً مدهشة تبرز معانيها من ورائها، فالبروج القصور والمنازل المحصنة الرفيعة، وهي مشيدة، أي: مطلية بالشَّيد لتكون مشيدة، أي: محكمة متراصةً من جهةٍ، ولتبدو مزينة مزخرفة من جهة أخرى، ولتكون مشيدة، أي: متطاولة، دلالة على رفاية أصحابها، وعلى الرغم من أنك ترى الارتفاع الذي تنقطع الأنفاس في كلمة بروج إلا أن كلمة مشيدة في أحد معانيها أكسبتها ارتفاعاً جديداً، فصارت مرتفعة ارتفاعاً مضاعفاً.

والمعنى: أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم مختبئين أو لاجئين أو مقيمين في بروج عالية مرتفعة ارتفاعاً مضاعفاً تزينت للناظرين وأحكم بناؤها فلا يستطيع أحدٌ خرقها أو كسرَها، أو زحزحتها.. لم ينقض سيل المعاني المدرار بعدُ، فلو تناولت

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٤٩٥)، وانظر: تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٥٤)، ويسند الطبري هنا عن السدي تفسيراً فريداً في معنى البروج، فهي عنده قصور بيض في سماء الدنيا، مبنية، كما ينقل عن بعض أهل البصرة أن «المشيدة» بالثقل الطويلة، وأما «المشيد» بالتخفيف، فإنه المزِين.

هذه العبارة كاملة ﴿أَيَّنَّمَاتَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ لوجدت تكملة للصورة؛ إذ تضيف لك معنى آخر عند النظر إلى الجمع في قوله ﴿بُرُوجٍ﴾؛ فتبصر كمعنيين يستتران خلفها:

فإما أن يكون المعنى: هناك بُرُوجٌ متعددة تحمي واحداً أو مجموعةً، وإما أن تدل على برجٍ يحمي كل واحدٍ، وهي تفتح عينيك على الغرور الذي يغشى أعين الغافلين من بني الإنسان عندما يهرب الأغنياء والأقوياء منهم يريدون الخلود في الحياة الدنيا، فإما أن يختبئ الواحد أو المجموعة منهم خلف بُرُوجٍ مشيدة، أي: أنه يحمي ببرج وراء برج وراء برج، ومؤسسة محلية وراء مؤسسة إقليمية، وراء مؤسسة دولية، ويلوذ بمؤسساته المخبرانية وراء مؤسساته المالية وراء مؤسساته العسكرية وراء مؤسساته المعلوماتية وراء مؤسساته التشريعية القضائية الدولية.. إنها حصونٌ متعددةٌ متنوعةٌ يحمي بها تدفعه إلى الغرور وإلى الزور وراء الغرور.. أظن أنه محميٌّ من الموت -بعد كل هذه الحماية المتعددة-؟

وكذلك يدل الجمع في قوله جل ذكره ﴿بُرُوجٍ﴾ على جمعٍ من الأقوياء الأغنياء قد اختبأ كلٌ منهم في برجه.. أفيظنون أن تعدد الأبراج تتعب ملك الموت أن يأتي كل واحدٍ منهم في مكمته أو حصنه أو مأمنه.. فإن كانوا يتيقنون بالموت فما الذي يجعلهم يأبون المواجهة في موضعها؟ ما الذي يجعلهم لا يطبقون استراتيجية أخذ الحذر التي تقتضي الاشتباك في وقته المناسب؟ لأن ذلك يؤدي إلى الموت، فأينما يكونون يدركهم الموت ولو كانوا في بُرُوجٍ مشيدة قد تنوعت إلى حمايات متعددة، وبما أن الموت لا بد منه فلينظر المرء أي الحياتين أبقى وأرقى وأصفى وأنقى، كما يقول المتنبي في قصيدته الراشدة التي يكاد يفصل فيها هذه الآية:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا

وَتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ هُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانًا
رُبَّمَا تَحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيَالِيهِ ه وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَا
غَيْرَ أَنَّ الْفَتَى يُلَاقِي الْمَنَايَا كَالِحَاتٍ، وَلَا يُلَاقِي الْهَوَانَا
وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضْلَلْنَا الشَّجْعَانَا
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدَّ فَمِنْ الْعَجْزِ أَنْ تَمُوتَ جَبَانًا^(١)

وها هو خالد بن الوليد رضي الله عنه يجسد هذا المعنى الذي غفل عنه الناس؛ إذ بكى لما حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَقَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا زَحْفًا، وَمَا فِي جَسَدِي شِبْرٌ إِلَّا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ رَمِيَّةٌ بِسَهْمٍ أَوْ طَعْنَةٌ بِرُمْحٍ؛ فَهَا أَنَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي حَتْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ الْعِيرُ؛ فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبْنَاءِ، وَلَمَّا دَخَلَ عَلَى عَثْمَانَ جَعَلَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْمَعْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَرَى الْمَوْتَ لَا يُبْقِي عَزِيزًا وَلَمْ يَدَعْ لِعَادٍ مَلَاذًا فِي الْبِلَادِ وَمَرْبَعًا
يُبَيِّتُ أَهْلَ الْحِصْنِ وَالْحِصْنُ مَغْلُوقٌ... وَيَأْتِي الْجِبَالَ فِي شَمَارِيخِهَا مَعَا^(٢) وَقَدْ
قِيلَ مِنْ قَبْلِ: فِي أَحَدِ مَلُوكِ الْعِرَاقِ بَنَى قَصْرًا سَمَاهُ الْحَضَرُ:

وَأَخُو الْحَضَرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَلَهُ تُجْبَى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ
شَادَهُ مَرَمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْسًا فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ
لَمْ تَهْبُهُ رَيْبُ الْمَنُونِ فَبَادَ الْمَلِكُ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُورُ
أَيْنَ كَسْرَى كَسْرَى الْمَلُوكِ أَنْوَشِرَوَانُ أَمَّ أَيْنَ قَبْلَهُ شَابُورُ
وَبَنُوا الْأَصْفَرِ الْكَرَامُ مَلُوكُ الرُّومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ
أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمَعِيرُ بِالذَّهْرِ أَنْتَ الْمَبْرَأُ الْمَوْفُورُ

(١) شرح ديوان أبي الطيب المتنبّي، لمصطفى سبتي (٢/ ٢٣٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١).

أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الوثِيقُ مَنْ الْأَيَّامِ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ
أَمْ رَأَيْتِ الْمُنُونِ أَبْقَيْنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرٌ
ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْخَيْرِ وَالْأَمَّةِ وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقَبُورُ
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَّ وَأَلُوتَ بِهَا الصَّبَا وَالْدَّبُورُ^(١)

وهذا الوصف للبروج المشيدة يذكر بما يجتهد طواغيت الدنيا في تشييده ثم ما يلبثون إلا يسيرًا، فما هو إلا أن تمضي مدتهم، فيردون إلى الله مولا هم الحق، ويتركون ما شيدوه وراء ظهورهم، فما أغنت عنهم بروجهم وعروشهم شيئًا، وإذا كان الأمر كذلك: فما الفرق بين الموت عند المواجهة والموت في البروج المشيدة؟ ف «لا تجزعوا من الموت، ولا تهربوا من القتال، وتضعفوا عن لقاء عدوكم، حذرًا على أنفسكم من القتل والموت»^(٢)، وكأن المتنبي التقط ذلك فقال:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ
يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّئِيمِ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرءِ تُغْنِي وَلَا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ^(٣)

ولأهمية هذه الحقيقة وكثرة غفلة المخططين لمستقبلهم عنها ترى القرآن مليئًا بتكرار هذه الحقيقة التي تضعف النفس عن تذكرها واستيعابها.. أليس الله يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٤) وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿الرَّحْمَنُ: ٢٦، ٢٧﴾ ويقول جل ذكره ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٨٥) ويقول تعالى شأنه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا

(١) البدء والتاريخ (٣/ ٢٠١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٥١).

(٣) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لمصطفى سبتي (١/ ٢٧٣).

لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴿٣٤﴾ (الأنبياء: ٣٤) ويقول جل مجده: ﴿قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأحزاب: ١٦).

وحكماء العرب في الجاهلية قبل الإسلام تمتعوا بأنفة لا تراها في مسلمي اليوم وهم يزعمون أنهم مسلمون فيها هو زهير يقول:

وَمَنْ خَافَ أَسْبَابَ الْمَنِيَّةِ يَلْقَهَا وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بُسْلَمٌ^(١)

وها هو عمرو بن كلثوم من أعظم شجعان العرب يردد:

وإنا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا^(٢)

وقال طرفة بن العبد:

أَلَا أَيُّهَذَا اللَّائِمِي أَحْضُرُ الْوَعَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ، هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي؟

فإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَدَعْنِي أَبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي^(٣)

القانون السابع: تغير الحوادث الدنيوية بين السيئة والحسنة لا يعني الشك في المنهج الذي تأمر به القيادة النبوية سواء أكان كفاً لليد أم مواجهة للرد والصد، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله: ﴿وَإِنْ تُصِبَّهِمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبَّهِمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، فالنظر الصحيح في أحداث العالم يُبَصِّرُنَا به قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، فيجب اتباع المنهج بغض النظر عن الآثار المترتبة، وعدم الجمع بين القدر والسبب يدل على ضعف فهم ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

قد تأمر القيادة النبوية بكف اليد، وقد تأمر بالمواجهة، وحينها يشعر بعض الموجودين بأن كف اليد حسنة، والمواجهة سيئة، وربما ترى أنه ترتب ما يحسن حدوثه

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، (ص: ٧٠).

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق إميل يعقوب، (ص: ٦٦).

(٣) ديوان طرفة بن العبد، (ص: ٣٣).

على أحد الأمرين، وترتب ما يسوء حدوثه على الآخر، وعندها يضطرب بعضهم في الحكم على الأحداث، فينسبون الحسنة إلى الله، وينسبون السيئة إلى القيادة النبوية، أو إلى القيادة المستنبطة، وقد يكون هؤلاء مؤمنين، وقد يكونون مرضى قلوب.. قد يكونون منافقين؛ وهنا تبصرنا الآية بالخلل العام الذي يعتري هؤلاء القوم في تفكيرهم، وتعالج عقدة الاضطراب العقلي والنفسي عند هؤلاء الخائفين المترددين المؤثرين للسلامة، فهذه العقدة نبتت من عبادتهم لله على حرفٍ وهم لا يشعرون، حيث يرفعون عقيرتهم بشكر الله حال نزول الحسنة من الرزق والغيث والفرج والتوفيق، ولكنهم ينسبون كل هزيمة إلى وجود الذين يأمرون بالقسط من الناس، وربما نسبوا لهم السيئات، وزعموا أن وقوع المصائب كان بسبب استعجال الصالحين والمدافعين عن حقوق المستضعفين ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، والحسنة والسيئة في القرآن يطلقان: إما على الأعمال الصالحة والسيئة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هُود: ١١٤)، وإما على ما يجد الإنسان من خير أو شر ضمن الأقدار الكونية: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٨)

ويظهر أن المراد بالحسنة هنا: الحادثة الملائمة مثل المنفعة وكثرة الرزق، ورغد العيش، ونجاة الأولاد، وأمن المكان، وكل خير وبركة ورخاء اقتصادي، ونعيم، ومن ذلك الانتصار في المعارك الحيوية السياسية والعسكرية، ويراد بالسيئة الحادثة البغيضة مثل: المكروه والمصيبة، والهزيمة والبلاء في المواجهات العسكرية أو السياسية، فيخلطون بين نقد إدارة الصالحين للأمور، وبين عدم النظر في أمور القضاء والقدر، ويدخل تبعاً في الحسنة الطاعة، وفي السيئة المعصية.

فالمؤمن ينظر إليها من حيث التسبب فيرى أن له دوراً في ذلك، لكنه أيضاً

ينظر لها من حيث الخلق والصنع الأصلي فيعلم أنها من عند الله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ وبذا يتم معالجة النقص الحاد لفهم الأمور الدقيقة، فالفقه فهم الأخرى من الكلام: بـ «التَّوَصَّلْ إِلَى عِلْمٍ غَائِبٍ بِعِلْمٍ شَاهِدٍ» كما قَالَ الرَّاعِبِيُّ، وترى هنا أنه جل في علاه ذمهم ذمًا شديدًا على بلادة عقولهم، ولم يصفهم بأنهم لا يفقهون حديثًا، بل لا يكادون يفقهون حديثًا، وهذا التعبير يكتنز إظهار صنفين منهم ليعلمنا أن نتعامل مع كل صنفٍ على حدة:

فيحتمل أن هذا التعبير يدل على سوء تفكيرهم حتى أنهم يكادون ألا يفقهوا حديثًا، وهذا أشد ذمًا من أن يقال: لا يفقهون حديثًا والمعنى لا يقربون أن يفقهوا حديثًا، وتكون كلمة ﴿لَا﴾ مقدمة، وهذا صنفٌ من الناس أعماه العناد عن أن يفقه الواضح من الرأي أو الإرشاد، ويحتمل أن يكون معنى قوله جل جلاله: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ قربوا ألا يفقهوا لكنهم فقهوا أخيرًا، وهذا صنفٌ ثانٍ يعاندون فتعمى عقولهم عن رؤية الأحداث، ومع الصبر يظهر لهم وجه الحق.

فما الذي لا يكادون يفقهونه في سياق الآيات؟

إنه قضية القدر!

أي: ما لهم لا يدركون كيف يجمعون بين حقيقة ملك الله للكون وبين حرية التصرف الإنساني، فالإرادة الإلهية تدير الكون، وكما أن لله الخلق للمخلوقات فله الأمر الذي يدير حركتهن، والأمر واضحٌ جدًّا، وهم لا يكادون يفقهون هذا الموضوع ولا يكادون يفقهون حديثًا أي حديثٌ كان يخاطبهم به غيرهم، والجمع بين خلق الله للكون وبين الحرية الإنسانية في العمل واضحٌ.. أفيتعامون عنه؟

فالله خلق الكون، وخلق سننه العامة التي تسيره، وجعل الكواكب والمجرات

والذرات في فلك يسبحون، وخلق الأسباب، وجعل لها تأثيراً، وداول بين السراء والضراء في حياة المخلوقات، وفي الوقت ذاته خلق الإنسان وهداه السبيل ليختار إما شاكراً وإما كفوراً، ورتب على اختياره النتائج المستحقة، فإن جاءت النتائج حسنة أو سيئة فكل من عند الله الذي رتب على الاختيار النتائج المستقرة غير المتغيرة، فالحسنة والسيئة كل من عند الله، والذي لا يفقه الحديث جاهل لا يستحق التصدر للكلام؛ إذ لا يحسن فهم الأمور.. فما لهذا الاعوجاج في تصوير الأحداث، دون الرجوع إلى المبادئ الإيمانية العقدية الراسخة في تفسير أحداث الكون؟ ما لهم لا يفقهون أن الله يقلب حالات الضراء والسراء على المجتمعات؟ ما لهم لا يفقهون فيجعلون التفسير المادي المحض الذي يعتمده السياسيون هو المسيطر؟.

﴿وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ هل يمكن أن تأتي سيئة من الله؟

كلا! بل المراد أنها سيئة بالنسبة لتفكيركم ونظركم، فالخير كله من الله، وتأمل في المسألة أكثر، واضرب لهم مثلاً بطالب مهمل نال جزاءه العادل فرسب في الامتحان.. إنه يظن أن هذه سيئة أصابته.. نعم! فالإخفاق سيئة لكنها سيئة بالنسبة له، غير أنها حسنة بالنسبة للعالم.. إن المعلم الأمين الذي حكم على الطالب بالسوب حرس العالم من أن يفعلوا مثل هذا الطالب أو أن تمسهم جرائمه لو نجح دون استحقاق حتى صار من صانعي القرار.. ويسهل عليك أن تتصور مقدار الجريمة عندما يدخل بعض الطلبة الفاشلين كلية الطب مع أنهم لا يستحقون الدخول؛ إذ مستواهم العقلي والعملي لا يؤهلهم لذلك.. كيف سيصنعون بالمجتمع لو صارت أبدان الناس بين أيديهم يوماً؟

ثم إنها سيئة بالنسبة له في تلك اللحظة، فلو أنها أيقظت قلبه، وحركت مشاعره،

وجعلته يعود طلباً لتحقيق الفوز والانتصار عبر المثابرة وبذل الجهد في الليل والنهار لكانت حسنة تامة في حقيقتها.

القانون الثامن: الجمع بين القدر والسبب يظهر سر التقلبات الكونية والعلاقة بين الخلق الإلهي والاختيار الإنساني، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، فالחסنات من عند الله خلقاً، وإنشاء، واستمراراً، ولكن انقلاب الحسنة سيئة يكون من نفس الإنسان تسبباً، ومن الله عقوبة، فلا يناقض هذا قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

فإن الله أراد بالعالم الرحمة' فأنشأ له كل حسنة.. يراها الإنسان خيراً في الصحة والنفس والمال والحال وغير ذلك، وذلك من الله، وإلا قل لي: من أين جاءك هذا الخلق المستقيم، وهذا الهواء العظيم الذي تحتاجه مع كل نفس؟.. بأي استحقاق حصلت على هذا الجسد القويم، والأرض المسخرة؟

أما إن رأى الإنسان سوءاً طارئاً فهو بسبب ذنوبه التي اقترفتها نفسه، فاستمرار الحسنة بلطف الله وفضله، وانقلاب الحسنة سيئة سببه تلاعب النفوس البشرية، وبذا نفهم معنى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، فوجود الابتلاء القدري المحض بالسراء والضراء لا يعني عدم النظر إلى الأسباب؛ فإن الضراء لا تصيب الإنسان إلا بسبب شيء من عند نفسه ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾.

ولا تناقض بين قوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وقوله ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾؛ إذ الآية الأولى تذكر أن الحسنة من الله إيجاداً وفضلاً واستمراراً، وهي الأصل والسيئة تأتي لعمل الإنسان بالشر في الحسنة فتقلب الحسنة إلى ضدها،

وذلك من نفس الإنسان تسبباً، وإلا فهي من الله عقوبة.

ولا تقع السيئة والشر إلا بسوء استعماله للخير كما بين النبي ﷺ ذلك بيانا وافيا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، يُحَدِّثُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ فَقَالَ: «إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يَفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ تُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، وَلَا يُكَلِّمُكَ؟ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ، فَمَسَحَ عَنْهُ الرَّحْضَاءُ، فَقَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» وَكَانَتْ حِمْدُهُ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعَ يَقْتُلُ، أَوْ يُلِيمُ، إِلَّا أَكَلَةَ الْخَضِرَاءِ، أَكَلْتُ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا، اسْتَقْبَلْتُ عَيْنَ الشَّمْسِ فَثَلَطْتُ وَبَالَتْ وَرَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَصِرَةٌ حُلُوءٌ، فَنِعَمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أُعْطِيَ مِنْهُ الْمُسْكِينِ وَالْيَتِيمِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذْهُ بَغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ، وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

«فَاللَّهُ قَدَّرَ الْمَنَافِعَ وَالْمَضَارَّ بِعِلْمِهِ وَقَدَرَهُ وَخَلَقَ مُؤَثِّرَاتِهَا وَأَسْبَابَهَا، فَهَذَا الْجُزْءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لِقَوْلِهِ: قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»^(٢).

والله خلق المخلوقات برحمته ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى﴾^(٣) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿(الأعلى: ٢، ٣)، ودفع عنها الآلام، وجهاز لها الأجهزة التي تدفع عنها الأسقام، وتمكنها من الالتذاذ بكل ما حولها، فهذا كله من عند الله، ثم إن الأمر السيء يأتي المكلف بفقدان إحدى الحسنات التي قدرها الله له لأحد سببين لا ثالث لهما: إما ابتلاء وإما عقوبة، فهذا معنى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ فإن فعل سبب السيئة منعه الله من استمرار

(١) البخاري (٢ / ١٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥ / ١٣١).

أحد الحسنات أو كلها فتكون السيئة عند ذلك من الله، كما قال قتادة: «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك»، عقوبة، يا ابن آدم بذنبك. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب رجلاً خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»^(١)، وعن أبي سعيد الخدريّ وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال: «ما يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(٢)، وعن مطرف بن عبد الله قال: ما تريدون من القدر، أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: من نفسك، والله ما وكلوا إلى القدر وقد أمروا وإليه يصيرون^(٣).

وقد قال - تعالى مجده -: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَجِيَّتٍ﴾ (سبأ: ٥٠)، ف«لا تعلق للقدرية بهذه الآية، لأن الحسنه والسيئة المذكورتين ههنا لا ترجعان إلى الطاعة والمعصية، واكتساب العباد بحال، لأن الحسنه التي يراد بها الخير والطاعة لا يقال فيها: أصابتنى. إنما يقال: أصابته سيئة، على معنى: عمل أصابت فلانا حسنة، على معنى: عمل خيرا، وكذلك: أصابته سيئة، على معنى: عمل معصية، غير موجود في كلامهم، إنما يقولون: أصاب سيئة إذا عملها واكتسبها»^(٤).

«قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْجَبَّائِيُّ: قَدْ ثَبَتَ أَنَّ لَفْظَ السَّيِّئَةِ تَارَةً يَقَعُ عَلَى الْبَلِيَّةِ وَالْمِحْنَةِ، وَتَارَةً يَقَعُ عَلَى الذَّنْبِ وَالْمَعْصِيَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَضَافَ السَّيِّئَةَ إِلَى نَفْسِهِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨) وَأَضَافَهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى الْعَبْدِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٥٨).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٧ / ١٤٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٢ / ٣٦٣).

(٤) التفسير الوسيط للواحدى (٢ / ٨٤).

أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴿ فَلَا بُدَّ مِنَ التَّوْفِيقِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَإِزَالَةِ التَّنَاقُضِ عَنْهُمَا، وَلَمَّا كَانَتِ السَّيِّئَةُ بِمَعْنَى الْبَلَاءِ وَالشُّدَّةِ مُضَافَةً إِلَى اللَّهِ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ السَّيِّئَةُ بِمَعْنَى الْمَعْصِيَةِ مُضَافَةً إِلَى الْعَبْدِ حَتَّى يَزُولَ التَّنَاقُضُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْمُتَجَاوِرَتَيْنِ، قَالَ: وَقَدْ حَمَلَ الْمُخَالَفُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى تَغْيِيرِ الْآيَةِ وَقَرَأُوا: (فَمِنْ تَعْسِكَ) فَغَيَّرُوا الْقُرْآنَ وَسَلَكُوا مِثْلَ طَرِيقَةِ الرَّافِضَةِ مِنْ ادِّعَاءِ التَّغْيِيرِ فِي الْقُرْآنِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَ إِذَا فَصَلَ تَعَالَى بَيْنَ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَأَضَافَ الْحَسَنَةَ الَّتِي هِيَ الطَّاعَةُ إِلَى نَفْسِهِ دُونَ السَّيِّئَةِ وَكِلَاهُمَا فِعْلُ الْعَبْدِ عِنْدَكُمْ؟

قُلْنَا: لِأَنَّ الْحَسَنَةَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ فَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْهَا بِتَسْهِيلِهِ تَعَالَى وَالطَّافَهُ فَصَحَّتِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ، وَأَمَّا السَّيِّئَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ فَهِيَ غَيْرُ مُضَافَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ تَعَالَى فَعَلَهَا، بَلْ أَرَادَهَا اللَّهُ بِمَقْتَضَى إِرَادَتِهَا الْكُونِيَّةِ لَا الشَّرْعِيَّةِ وَإِلَّا فَإِنْ مَالَ الْقَوْلُ بِذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَفْعَلُ وَيَحْدُثُ مَا لَا يَرِيدُهُ اللَّهُ تَقْدِيرًا وَأَزْلًا، وَلَا بِأَنَّهُ أَمَرَ بِهَا، وَلَا بِأَنَّهُ رَغِبَ فِيهَا، فَلَا جَرَمَ انْقَطَعَتْ إِضَافَةُ هَذِهِ السَّيِّئَةِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» (١).

ويدخل في الصور الواردة في الآية ما ورد عَنْ جَابِرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جَاءَ أَعْرَابِيٌّ النَّبِيَّ ﷺ فَبَايَعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَجَاءَ مِنَ الْغَدِ مَحْمُومًا فَقَالَ أَفْلَنْي فَأَبَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَقَالَ الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ تَنْفِي خَبَثِهَا وَيَنْصَعُ طَيِّبُهَا (٢).

القانون التاسع: دور الرسول ﷺ تبليغ الرسالة، ولا يملك الرسول تغيير الحوادث، بل ذلك إلى الله الذي وضع أنظمتهم وسننهم، وصار شاهداً على الرسول المبلغ، وعلى رد فعل المبلغ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكُنْ بِاللَّهِ

(١) تفسير الرازي (١٠ / ١٤٧).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٩).

شَهِيدًا ﴿ (النساء: ٧٩) ويرتبط بالتغيرات الكونية أن تتذكر طبيعة الوظيفة النبوية، فدور الرسول تبليغ الرسالة، أما تغير حوادث الكون فلا يعود إلى الرسول، بل إلى الله الذي وضع أنظمتهم وسننهم، وصار شاهداً على الرسول المبلغ، وعلى رد فعل المبلغ وَيُصَرِّفُنا بذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٧٩).

فالنبي ﷺ مرسل إلى الناس ليكون مبلغًا، ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ يسمعون منك كلام من بالرسالة حباك فأعلاك، يرتشفون الشهد من سنالك، ويهتدون بهداك ويتبعون خطاك، وتنعكس عليهم أنوار النبوة عند مرآك، ويظهر على أخلاقهم ما رأوه في سنتك من تقاك، ويبين الطاهر ﷺ هنا أن المراد بالرسول مَعْنَاهُ الشَّرْعِيُّ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ: وَهُوَ النَّبِيُّ الْمُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ لَفْظُ لِقَبِي دَالٌّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ اسْمُ الْمَفْعُولِ بِالْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ^(١)، فكأن الله يقول له: أرسلناك للناس رسولاً ولم نرسلك لتؤثر في إيجاد حوادث أو إعدامها، ولا تدل الحوادث المفرحة على صدق الرسالة، ولا الحوادث المؤلمة على عدم صدقها، ووجه الخطاب للنبي ﷺ كأنه يقول له: يكفي أن تتيقن أنت برسالتك أمام شبهاتهم وحسبك شهادة ربك أمام كفرهم.



(١) التحرير والتنوير (٥ / ١٣٤).

القسم الرابع

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام
العالمي: تطبيق قوانين توازن الردع لضبط مجالي الأمن
والخوف من خلال طاعة القيادة النبوية مطلقاً، والاستنباط
من التدبر القرآني وفق الفهم النبوي (النساء: ٨٠-٨٧)

آيات هذا القسم:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاءَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ
غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٣﴾ فَقَنْتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفُّ إِلَّا نَفْسُكَ
وَحَرِضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ۝٨٤﴾
مَنْ يَشْفَعْ شَفْلَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْلَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا ۝٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَجِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
اللَّهِ حَدِيثًا ﴿ (النساء: ٨٠-٨٧).

المناسبة والاتصال:

بين الله في القسم الثالث أن من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي،

والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، ولكن السلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي، وهنا يبين مجموعة من قوانين سياسة (توازن الردع)، وهي سياسةٌ تحقق الأمن الداخلي والسلام والخارجي، تبدأ بإظهار الصلابة الإيمانية الفكرية من خلال طاعة القيادة النبوية مطلقاً، والاستنباط من التدبر القرآني وفق الفهم النبوي، فطاعة القيادة النبوية ﷺ من أهم مبادئ الأمن الفردي والجماعي، وهي ركيزة حقيقية في إحلال السلام العالمي، تجعل المخربين في الداخل والعدو في الخارج يخافون أن يعملوا ضد أمن المجتمع بالتخريب الفكري أو العملي، فيفصل الله -تعالى مجده- في هذا القسم موضوع طاعة القيادة النبوية، ويذكر حال العناصر المخربة على الناس عندما يموهون تلاعبهم بادعاء الطاعة والاتباع، وكيف ينشرون الشائعات في مجالي الأمن أو الخوف لزعزعة الاستقرار، ويحاولون إيقاع بعض الصالحين في شباكهم، ويبين كيفية التعامل معهم، كما يذكر مجموعة من القوانين الاستراتيجية التي توصل إلى حالة توازن الردع لتحقيق تبادل التحية مع الأطراف المختلفة، وبذا ينشأ الاستقرار، ويُصاغ ذلك على هيئة قوانين تعين على ضبط الأحوال، وهذه القوانين هي الآتية:

القانون الأول: طاعة القيادة النبوية من أهم أركان الأمن الداخلي والسلام الخارجي، ولا تصح دعوى الإيمان بالقرآن دون الإيمان بفهم النبي ﷺ وتطبيقه له، **وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠).**

تبصرنا هذه الجملة بالارتباط الشديد بين طاعته جل شأنه وطاعة رسوله ﷺ؛ فالله يطاع لذاته فهو رب العالمين، والرسول ﷺ يطاع لأنه المبلغ عنه، وقد قرر الله تعالى جده ذلك فيما سبق من قوانين الآيات، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٦٤).

فما الطاعة؟

الطاعة إجابة إلى مطلوب باللسان أو ما يقوم مقامه بتنفيذ ما يقول فعلاً أو تركاً..
والتعبير القرآني عن طاعة الرسول يأتي على ثلاثة أنحاء:

النحو الأول:

أن يتم التعبير عن طاعة الله ورسوله بتوحيد فعل الطاعة مثل قوله -تعالى مجده-:
﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٢)، وقوله:
﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٣٢)، وقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۚ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١)، وقوله:
﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٠)،
وهنا يكون الأمر كله من الله إجمالاً وتفصيلاً، والرسول مبلغ عن ربه في ذلك.. كذا قيل، وأظن للسياق أثراً في بيان سر هذه الصياغة.

النحو الثاني:

تكرار الأمر بالطاعة مثل قوله تعالى ذكره: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (النساء: ٥٩)، وقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾ (المائدة: ٩٢)،
وقوله: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ (النور: ٥٤)، وقوله: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (محمد: ٣٣)،
وقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (التغابن: ١٢).

وهنا يكون الأمر مجملاً من الله كالصلاة، ويفصله النبي ﷺ.

النحو الثالث:

أن يفرد الرسول بذكر وجوب طاعته مثل قوله تعالى ذكره: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)، ومثل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، وهنا يكون الأمر مجملًا ومفصلاً من النبي ﷺ إما بتوقيف من الله، والنبي ﷺ عبر عن ذلك بكلامه، وإما بتوفيق منه، فقد فوض الله رسوله ﷺ ليجتهد في الصياغة أو ليجتهد في المعنى والصياغة،

ومثال ذلك: النصوص الدستورية حاکمة على كل القوانين، ولكنك تجد نصًا دستوريًا يعطي تفويضًا بتشكيل لجان لوضع قوانين تفصيلية، أو تكتب المذكرات التفسيرية لهذه القوانين، وهذا حال النبي ﷺ المبلغ عن الله جل جلاله، وهذا كله يدفعك إلى أن تبحث في كل جزئية في حياة النبي ﷺ، وتبذل الجهود العظيمة للتأكد من صدورها عنه أي التأكد من صحتها، ولا تقنع بمجرد هوى عارض منك أو من غيرك في قبولها أو ردها.

ثم إنك ترى قومًا من قومنا يصرون على الرد للسنّة بمحض الرأي والصد عن الرسول لعارض هوى يزعمون بذلك إن أرادوا إلا إحسانًا إلى الأمة والإسلام وتوفيقًا للقرآن مع معترك الأيام فما أرادوا بذلك على المدى البعيد إلا العبث بالقرآن، وإثبات آرائهم وأهوائهم ونسبتها إلى كتاب ربهم، وهنا يأتي التحذير النبوي الذي أرسله النبي ﷺ معجزة خبرية تتجاوز الدهور، وتعبّر العصور، وهو الذي رواه المقْدَامُ بْنُ مَعْدِيكَرَبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحْلَوْهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرَّمُوهُ أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبْعِ وَلَا لُقْطَةٌ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنَى عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ

أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعَقِّبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاءِهِ»^(١).

وهذه الآية تبين أهم أسس الأمن القومي بعد كتاب الله تعالى ذكره، وذلك يعني أن تجعل الأمة للسنة النبوية المكانة الأسمى، وتحذر أشد الحذر ممن يطعن فيها أو في حملتها ونقلتها وهم الصحابة الكرام ﷺ.. قد يقول قائل: هل الصحابة معصومون من الخطأ؟ نقول: لا ولكن الله قال في القرآن عنهم ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، فالله سبحانه وتعالى لم يبين عصمة تتعلق بهم، ولكنه بين رضاه عنهم من خلال غلبة حسناتهم الزاخرة الكثيرة على أخطائهم إن وقعوا فيها، ويكفي أن نفهم من الآية أن طاعة الرسول تعني أن السنة هي المفسرة للقرآن..

وهنا ترى الاتصال القرآني في أوج صوره، وترى تكامل المفاهيم في الشريعة الإسلامية في أبهى أشكالها، فهذه الآية «كَالتَّكْمِلَةِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ (النساء: ٧٩) بِاعْتِبَارِ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ رَدِّ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الرَّسُولَ مَصْدَرُ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تُصِيبُهُمْ، ثُمَّ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٩) إلخ، المؤذن بأنَّ بَيْنَ الْخَالِقِ وَبَيْنَ الْمَخْلُوقِ فَرْقًا فِي التَّأْثِيرِ وَأَنَّ الرَّسَالَهَ مَعْنَى آخَرَ فَاحْتَرَسَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ عَنْ تَوْهَمِ السَّامِعِينَ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي أُمُورِ التَّشْرِيعِ، فَاثْبَتَ أَنَّ الرَّسُولَ فِي تَبْلِيغِهِ إِنَّمَا يُبْلِغُ عَنِ اللَّهِ، فَأَمْرُهُ أَمْرُ اللَّهِ، وَنَهْيُهُ نَهْيُ اللَّهِ، وَطَاعَتُهُ طَاعَةُ اللَّهِ»^(٢).

والمراد أنه لا بد من اتباع سنة رسول الله ﷺ في جميع الأمور التعبدية والعقدية

(١) أبو داود (٤ / ٣٢٨) برقم ٤٦٠٦، وصححه الألباني، ورواه أحمد بن حنبل (٤ / ١٣٠) برقم ١٧٢١٣، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبي عروف الجرشى فمن رجال أبي داود والنسائي وهو ثقة.

(٢) التحرير والتنوير (٥ / ١٣٥).

والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وقد لخص السيوطي معنى السنة بقوله:
 قَوْلُ النَّبِيِّ وَالْفِعْلُ وَالتَّقْرِيرُ سُنَّتُهُ وَهَمُّهُ الْمَذْكُورُ
 ومن فوائد مجيء هذه الآية بعد السابق: الرد على من يكتفي في الاستدلال
 بالقرآن دون البحث في تفسير النبي ﷺ القولي والعملي له.

وينقل النبي ﷺ هذه الحقيقة القرآنية وهو يربي أمته فيقول: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»^(١). والتقييد بالأمر الذي أمره النبي ﷺ واضح، فقوله (أميري) يراد به من أمره النبي ﷺ أو من نال الإمرة وفق المبادئ النبوية حيازة للمنصب، وقيامًا بمقتضياته، فليس كل عاثر فاسق اغتصب الإمرة ينزل عليه هذا الحديث، فالأمر المشار إليه أي على مختلف الزمان والمكان الذي التزم بالإمارة من خلال ما شرعته في كيفية التأمر والتزم بما أمره به النبي ﷺ، وليس في كل أمير أمر نفسه، وقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ مِنْ أَقْوَى الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّهُ مَعْصُومٌ فِي جَمِيعِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَفِي كُلِّ مَا يُبَلِّغُهُ عَنِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ لَوْ أَخْطَأَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لَمْ تَكُنْ طَاعَتُهُ طَاعَةَ اللَّهِ وَأَيْضًا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَمْرٌ بِمُتَابَعَتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وَالْمُتَابَعَةُ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ فِعْلِ الْغَيْرِ لِأَجْلِ أَنَّهُ فِعْلٌ ذَلِكَ الْغَيْرِ، فَفَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِمَّا أَنْ يَكُونَ تَوْفِيقِيًّا أَوْ تَوْفِيقِيًّا فَكَانَ الْآتِي بِمِثْلِ ذَلِكَ الْفِعْلِ مُطِيعًا لِلَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ فَثَبَتَ أَنَّ الْإِتْيَادَ لَهُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَفِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ، إِلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ، طَاعَةً لِلَّهِ وَإِتْقَانًا لِحُكْمِ اللَّهِ^(٢)، وهنا لا بد أن نميز بين ما يصدر عن النبي ﷺ من الأقوال والأفعال:

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٧٧).

(٢) تفسير الرازي (١٠ / ١٤٩).

النوع الأول: تصرفات تشريعية: وهي ما صدر عن رسول الله ﷺ مما هو لاتباع والاقتداء. وهي إما أن تكون:

تصرفات للتشريع العام: وهي تتوجه إلى جميع الأمة إلى يوم القيامة. وتكون بالتبليغ، أو بالفتيا.

وإما أن تكون تصرفات للتشريع الخاص: وهي مرتبطة بزمان أو مكان أو أحوال أو أفراد معينين، ولا تتوجه إلى الأمة كافة، وسماها بعض العلماء التصرفات الجزئية أو الخطاب الجزئي. ويندرج تحتها التصرفات بالقضاء، والتصرفات بالإمامة، والتصرفات الخاصة.

فمعظم ما يبلغه الرسول بقوله وفعله إما أن يكون توقيفياً وإما أن يكون توفيقياً، وكلاهما تبليغ عن الله باعتباره ﷺ رسولاً؛ فالوحي لا يقره على اجتهادٍ ربما كان الأصوب في غيره، وبذا وجبت طاعته في الأمرين معاً من حيث إنه رسول، ويحدث الله عنه قوله: ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: ٥٠)، بل عد السرخسي الحنفي ذلك جزءاً من البيان القرآني فقال: «وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَأْمُورًا بِالْبَيَانِ لِلنَّاسِ قَالَ تَعَالَىٰ ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ بَيِّنٌ لِلْكُلِّ، وَمَنْ وَقَعَ لَهُ الْعِلْمُ بَبَيَانِهِ أَقَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَقَعْ لَهُ الْعِلْمُ أَصَرَّ»، ويبين لنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ذلك فيقول: كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: أنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق»^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا

(١) أحمد (٢ / ١٦٢)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير الوليد بن عبد الله.

رسول الله إنك تداعبنا. قال: «إني لا أقول إلا حقاً»^(١).

النوع الثاني: تصرفات غير تشريعية: وهي تصرفات لا يقصد بها الاقتداء والاتباع، لا من عموم الأمة، ولا من خصوصهم، مثل التصرفات الجبلية، والتصرفات العادية، والتصرفات الدنيوية التي لا تظهر قرينة على الاقتداء بها، والتصرفات الخاصة بالنبي ﷺ، ويدخل في التصرفات غير التشريعية ما يقوله النبي ﷺ من أمور الدنيا التي تعتمد على التجربة والخبرة ومن أبرز الأدلة التي تبين بناء المنهج التجريبي في عهد النبي ﷺ ما جاء عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ». فَقَالُوا يُلْقَحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكْرَ فِي الْأُنْثَى فَيُلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا». فَأَخْبَرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ: «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تَوَاضَعُونَ بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

وعن رافع بن خديج قال: قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ يَقُولُونَ يُلْقَحُونَ النَّخْلَ فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُونَ». قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ. قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا». فَتَرَكُوهُ فَتَفَضَّتْ أَوْ فَتَقَصَّتْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ؛ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»^(٣).. وتصريح هاتين الروایتين بأن نهيه ﷺ قائم على الظن يظهر شذوذ الجزم الوارد في رواية

(١) سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر (٤ / ٣٥٧)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) صحيح مسلم (٧ / ٩٥) برقم ٢٣٦١.

(٣) صحيح مسلم (٧ / ٩٥)، برقم ٢٣٦٢.

حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا الصَّلَاحَ». قَالَ: فَخَرَجَ شَيْصًا. فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «مَا لِنَخْلِكُمْ؟». قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^(١).

فالمراد بوضوح ما يرجع إلى اكتشاف السنن وفق المنهج التجريبي لا أن الدنيا منفصلة عن الدين، فهو كلام عن الدنيا بالمعنى الخاص الذي طلب فيه السير في الأرض والاكتشاف، وقريب من هذا الحديث حديث أبي قتادة بحديث طويل في نومهم عن صلاة الفجر وفيه: «فقال بعضهم لبعض: فرطنا في صلاتنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون؟ إن كان شيء من أمر دنياكم فشأنكم به، وإن كان شيء من أمر دينكم فالإي»، قلنا: يا رسول الله، فرطنا في صلاتنا. فقال: «إنه لا تفريط في النوم وإنما التفريط في اليقظة، وإذا سها أحدكم عن صلاته فليصلها حين يذكرها»^(٢).

القانون الثاني: للإنسان حرية الاختيار لطاعة الرسول ﷺ، إن كان كافرًا، وأما إن كان مسلمًا فإن عدم طاعة الرسول يناقض الإيمان، فليذكر التبعات الأخروية الرهيبة إن اختار عدم طاعة الرسول ﷺ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠)، ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ﴾ يعني: انصرف-، ولم يستقم على الطاعة النبوية، فلا يصيبك الحزن منه، أو عليه؛ فلست عليهم بمسيطر، ولا إكراه في الدين؛ إذ لم ترسل حفيظًا عليهم، أي: فلست مسؤولًا عن توليهم، ولا مطالبًا بمحاسبتهم.

التولي يعني الانصراف والإدبار، ويطلق على النقض وعدم الاستقامة، وهذه الجملة تبصرنا بأن قانون طاعة الرسول ﷺ قانون أساسي في استراتيجية أخذ

(١) صحيح مسلم (٧ / ٩٥)، برقم ٢٣٦٣.

(٢) ابن خزيمة، (٢١٣ / ١) برقم ٤١٠.

الحذر فمن تولى عنه فلا يصيبك الحزن منه أو عليه؛ فلست عليهم بمسيطر، ولا إكراه في الدين، إذ لم ترسل حفيظاً عليهم، وهذه البصيرة محكمة، فلم تُنسخ بآيات الجهاد ولا غيرها، ومعناها متكرر في القرآن الكريم.

والآن لاحظ أن الله جل شأنه وصف نفسه بأنه (حفيظ) ولم يقل (رقيب) فما سبب ذلك؟

﴿حَفِظُ﴾ على وزن فعيل، بمعنى فاعل، أي: حافظ، وهو الحارس الأمين الحافظ، وإذا كان كذلك فهو سيمنعهم من الوقوع في الخطأ قهراً؛ إذ هو حارس عليهم ولكن الله منحهم حرية الإرادة، ومشئته الاختيار، ويترتب على ذلك أنك لست الذي تحفظهم أو تحفظ عليهم خواطرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وأفكارهم، ولست عليهم حفيظاً في إجبارهم على الإسلام، ﴿فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩) فمهمتك البلاغ وليس الإلزام بالدخول في الطاعة والإسلام، وقال تعالى ذكره ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (النساء: ٨٠) فما أرسلناك للناس جباراً ولا عليهم مسيطراً، فلست تجبر الناس على الإسلام، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذِكْرٌ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥)، وفي حال أسلم أحدهم، فلست حفيظاً عليهم، أي: في مشاعرهم وخواطرهم، وإنما أنت مذكر لهم، ﴿فَذِكْرٌ لَّكَ أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (الغاشية: ٢١، ٢٢) فأنت تذكرهم ولست عليهم حفيظاً ولكنك تراقب أعمالهم وتصرفاتهم الظاهرة العلنية ليتم التواصل بالحق والتواصي بالصبر، فالرقابة تؤدي إلى التذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

ونجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾

(المائدة: ٤٩) وأمثالها من الآيات بأن الواجب على الرسول البلاغ، ثم الحكم بين المؤمنين بمقتضى إيمانهم، أما مع العالمين، فيجب عليه البلاغ فقط، فالمراد عدم الإلزام بأصل الإيمان، بينما يجب الحكم بين المؤمنين وفق مقتضيات الإيمان.

أما حديث الدنيا فالمراد ما قاله النبي ﷺ على سبيل الظن مما يخضع للمنهج التجريبي، ولم يأت على سبيل الأمر الشرعي؛ إذ مرده إلى الخبرة والتجربة الإنسانية؛ ألا ترى أن النووي في شرحه على صحيح مسلم بوب لهذا الحديث، فقال: «باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي»^(١).

وأما ما ذكرناه من أن قوله تعالى ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (النساء: ٨٠) يجمع تخييراً وتهديداً رهيباً من التبعات الدنيوية سواء للمؤمنين أو للعالمين.. هذا لا يعني إلزام العالم بطاعة الرسول بل يكفي أن تنظر إلى بؤس العالم عندما لم يسمع كلام الرسالة في الربا والخمر.. وهذان مثالان فقط، وإلا فكل ما جاء في الرسالة الإلهية فيه مصلحة للإنسانية أدركت ذلك أو لم تدركه، «وأقصى ما يتطلب من الإدراك البشري أن يتحرى إدراك دلالة النص وانطباقه لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه!»^(٢) وأما المؤمنون فإنه لا يمكنهم تحصيل المجد الدنيوي دون طاعة الرسول مهما قلبوا وجوههم في اتباع أهواء أهل الكتاب.. وأما تبعات الآخرة فهي الهول العظيم الذي ينتظر المعرضين عن الحق.. فلا ينافي إلزام الناس بحكم الله؛ إذ المراد عدم الإلزام بأصل الإيمان، بينما يجب الحكم بين المؤمنين وفق مقتضيات الإيمان، وتبقى تربيته على المراقبة الذاتية، واستشعار معية الله في الأمور الخفية التي لا يطلع عليها الرسول ﷺ ولا غيره من البشر، وبذا فإن

(١) أصول السرخسي (٢/ ٢٧).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٢٣).

ولاية الأمر في الأمة المسلمة ينبغي أن يسيروا في اتجاهين: تطبيق الشرع في الواقع، وغرس التربية الذاتية في نفوس الناس فيما لا سبيل إلى السيطرة الظاهرية عليه كما يقول ابن خلدون: «فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها أجنبي، وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتي. ولهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهولهم، والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب»^(١).

القانون الثالث: يجب تقديم الاستعداد القولي للالتزام بطاعة القيادة النبوية، وَيُصَرِّفُنا بذلك قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ (النساء: ٨١) ويجب الحذر من المتآمرين الذين يعملون ضد كلام القيادة النبوية، فادعاء الطاعة والاتباع، ليس دليلاً على التنفيذ والاستقامة، وَيُصَرِّفُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَإِذَا بَرِزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾.

فبصرتنا بوجوب إظهار الطاعة باللسان، وفي الوقت ذاته كشفت بصورة عجيبة طبيعة النفسية الخوانة المتلاعبة من المتهربين من تبعات الواجب في حماية الديار والأوطان، وحراسة حقوق المستضعفين، ربما تعجب أناس، فسألوا: كيف يمكن لأمثالهم أن يتولوا القيادة والتوجيه؟ فيأتي الجواب بأنهم كثيراً ما يتباهون بأنهم أكثر الناس استقامة، وأعزمهم أمانة.. إنها دعاوى اللسان فقط، ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي: يقولون لك: طاعتنا لك ثابتة، وشأننا كله طاعة لك، أي: أَمْرُكَ مُطَاعٌ، فكلمة ﴿طَاعَةٌ﴾ مبتدأ لخبر محذوف فجعل المصدّر في مكان اسم المفعول للمبالغة، وأتى بكلمة ﴿طَاعَةٌ﴾ مرفوعة ليبين شدة مبالغتهم وجهودهم في زعم أن طاعتهم

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٦١).

لله ولرسوله ﷺ ثابتة لا تتغير ولا تتضاءل، بخلاف ما لو ذكرها منصوبة: طاعة لأنها تدل على وقوع الفعل. ولم يأت بها منصوبة لأنها لو كانت كذلك لكانت طاعة مرة واحدة، تتحقق مرة واحدة، أو تذهب وتعود من غير ثبات، فلما جاء بها مرفوعة دلت على الثبات، أي: طاعتنا ثابتة وراسخة، فتكشف هذه الآية أنه ينبغي تقديم الاستعداد للطاعة ممن ينتسب إلى الإسلام، وتكشف في الوقت ذاته حقيقة هذه الطاعة، فهي عبارة عن دعاوى باللسان يرمونها أمام الناس، وهي تكشف طبيعة هذه النفسية العجيبة الخوانة المتلاعبة بعقول الناس، وهذه البصيرة القرآنية تكشف بصورة عجيبة طبيعة هذه النفسية الخوانة المتلاعبة بعقول الناس؛ إذ يلجأ المتهربون من فريضة الدفاع عن المستضعفين إلى حيلة يلعبون بها على الناس ويتلاعبون بها بالشرع، فيزعمون التزامهم بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وعدم انحرافهم عنها في المجالات المختلفة، ثم هم يرمون بكل ذلك عرض الحائط سواء أكان ذلك في المجالات الاقتصادية أو السياسية أو الشخصية، وهؤلاء ليسوا من المنافقين وهذا هو الأمر العجيب فإن الكلام عن فئة من المؤمنين.

فيجب على الذين دخلوا في الإسلام أن يظهروا الطاعة والاستسلام، وهذا الذي ظهر من قوله تعالى ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ﴾ وينبها الله ضمن استراتيجية أخذ الحذر من الذين يزعمون الطاعة ثم يفعلون ما يناقضها، فيقول: ﴿فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا إلى البراز بالفتح وهو الفضاء من الأرض، حيث يطمنون أنه لا يسمعهم أحد من الصادقين أو من الرأي العام، فتشوه صورتهم أمامه، أو ربما سمع تأمرهم، وأفشى لخيانتهم، ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أعملت طائفة منهم فكرها في تغيير الذي تقول، وعبر عن جهدهم المنظم لتغيير كلام القيادة النبوية بقوله ﴿بَيَّتَ﴾ فكل ما تم فيه أعمال فكر يقال فيه: بيت، وبيت تدل على جمال

اللغة القرآنية، فهي تشير إلى الخلوة والاختلاء والبعد عن ضجيج الناس، ومن ذلك البيت حيث يختلي المرء بنفسه أو بأهله، ويأوي إلى أهله ليفعل ما لا يستطيعه بمحضر من الناس، وتشير هذه الكلمة ثانيًا إلى تفرغ الفكر ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (٦) ﴿إِنَّكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (المزمل: ٦، ٧)، فإذا كان في الليل فكره أقوم وأقوى وذلك لأن أنسب الأوقات لأعمال الفكر هو الليل، ففيه يتم تنظيم الأمور في الخير، أو التآمر على إيقاع السوء كما قال عبيدة بن همام:

أَتَوْنِي فَلَمْ أَرْضَ مَا بَيَّتُوا، وَكَأَنُّوا أَتَوْنِي بِشَيْءٍ نُكِرَ
لَأَنْكِحَ أَيَّمَهُمْ مُنْذِرًا، وَهَلْ يُنْكِحَ الْعَبْدَ حُرٌّ لِحُرٍّ؟^(١)
وَقَالَ الْآخَرُ:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ^(٢)
والبراز والتبیت الذي يدل على الخلوة بالليل يشير إلى التآمر.

القانون الرابع: يجب اللجوء إلى الله -جل في علاه- عند المعالجة السياسية للتعامل مع الأدعياء والمتناقلين عن الطاعة النبوية، فأخذ الحذر منهم لا يعني القدرة على الإحاطة بمؤامراتهم، كما يجب أن يتم الإعراض عنهم بعدم إسناد المناصب الحساسة لهم، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ففي هذا حث شديد للقيادات المجتمعية سواء أكانوا في أعلى المستويات أم كانوا من القائمين على المهمات التنفيذية، أم كانوا من القيادات الشعبية أن يلجأوا إلى الله ليوفقهم لحماية الأمن العام من الفئات المتلعبة التي تتآمر في الليالي المظلمة

(١) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد (٢٤/٣).

(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبي بكر الأنباري (ص ٤٥٢).

والزوايا المعتمدة، فأخذ الحذر منهم لا يعني القدرة على الإحاطة بمؤامراتهم، فمن الذي يحيط بمؤامراتهم؟ إنه الله عزَّ وجلَّ، وقوله ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ تتضمن طمأننة المؤمنين الذين يلجأون إلى رب العالمين، وتهديد المتآمرين على تغيير كلام القيادة النبوية، فالله يعلم ما يضمرون ويحيط بما عليه يجتمعون ويتآمرون، وهذه الجملة العجيبة تحتم على المؤمنين الحذر، كما تدلهم على ضرورة عدم الغفلة من الرجوع إلى الله، واللجوء إليه لإحباط مؤامرات المتآمرين.

ومع اللجوء إلى الله انظر الأمر بعدها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وهذا الأمر ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يعطي مجالاً واسعاً للتعامل مع الفئات المختلفة منهم، كفتة المنافقين مثلاً، فتعني عدم إتاحة الفرصة لهم لتسويق ترهاتهم، وعدم إتاحة الفرصة لهم ليكونوا في المناصب الحساسة، وخاصة المناصب التوجيهية، فإياك أن توليهم المناصب التعليمية، المناصب الثقيفية، المناصب الإعلامية، فمعنى أعرض عنهم هنا: هي حرمانهم من المناصب، وبعض هذه الفئات قد يكونون من ضعفاء المسلمين فلا بد من الإعراض عنهم بسترهم وعدم فضحهم؛ إذ ذلك طريقٌ لاستدرار توبتها ورجوعها إلى ربها، ومعنى ذلك ألا يلجأ إلى عقوبتهم أو تعزيزهم إلا عند ظهور إفسادهم العلني الواضح، وكذلك فإن كلمة ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تبصرنا في الوقت ذاته بعدم إتاحة الفرصة لهم لنشر ترهاتهم في الوسائل الإعلامية أو التعليمية أو الثقافية، ولا تقام عليهم الأحكام القضائية إلا عند وجود ما يقابل الخيانة العظمى البينة.

وَيُبَصِّرُنَا قوله تعالى ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ بضرورة الاتصال الدائم بالله خاصة في معالجة الأمور السياسية والإدارية؛ لأن من أساليب المنافقين الحذقة أن يحاولوا إظهار أنهم متعاطفون مع قضايانا الإنسانية، فيتساهل المسلمون في إقامة شعائرهم الدينية بغية تالفهم.

وهنا يمكنك أن تسجل أن استحواذ فكرة النسخ على بعض علمائنا -رحمهم الله- جعلهم يزعمون أن هذه الجملة المحكمة نسخت بالأمر بجهاد المنافقين، وفوق ذلك حاول الفخر الرازي -رحمه الله- الرد، فرد ردًا زاد من وهج قول القائلين بالنسخ فقال: «قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: كَانَ الْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ (التوبة: ٧٣، التحريم: ٩) وَهَذَا الْكَلَامُ فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالصَّفْحِ مُطْلَقٌ فَلَا يُفِيدُ إِلَّا الْمَرَّةَ الْوَاحِدَةَ، فَوُرُودُ الْأَمْرِ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْجِهَادِ لَا يَكُونُ نَاسِخًا لَهُ... وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ النسخ هنا بمعناه الأصولي غير وارد، وأما بمعناه العربي الذي فهمه الصحابة -رحمهم الله- فنعم، إذ آية جهاد المنافقين مكمله لآية الإعراض عنهم، بل موضحة لها.

القانون الخامس: تدبر القرآن المجيد من أهم أركان الأمن الداخلي والسلام الخارجي. فيجب تدبره على المستوى الفردي والمؤسسي؛ للوصول إلى إدراك إعجازه، ولاستخلاص كيفية التعامل مع قضايا العالم الصغيرة والكبيرة، وخاصة ما يتعلق بالسياسات الإصلاحية والأمنية التي تعين على تحقيق المفهوم الصحيح للسلام، ولننظر في البيان القرآني لمرجعية السنة النبوية، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

هنا الخطاب للجميع المؤمن والكافر، ولكن سياق الآية يدل على أنه للمؤمنين ليكون التدبر ضمن استراتيجية إحلال السلام ومرجعًا للاستراتيجيات الأمنية والعسكرية، والقرآن يدمج في خطابه عددًا من الأصناف، وهذا من أساليب القرآن التي ينبغي الانتباه لها، فمثلا الواو في قوله ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ واو الجماعة تدمج في ثناياها عددًا من الفئات كُلٌّ بحسب حاله، فالمسلم مطالب بأن يتدبر القرآن ليستخرج كنوزه، وغير المؤمن يتدبر القرآن ليتم الكشف المنطقي حول أي الفرق أهدي سبيلاً، وهل القرآن

حق أم لا، فلا يحكم غيائياً، والقرآن يتسم بشيء مميز فهو يحمل في ثناياه الدليل على صدقه، وهذه الآية تدل على وجوب التدبر على جميع المسلمين، وأن التدبر فرض عين وليس فرض كفاية، وفرق بين التدبر وتقرير العلم المراد، فتقرير العلم المراد يعود للمفسرين الذين قال الله عنهم ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، وقال عنهم ﴿لَعَلَّكُمْ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣).

والقرآن لابد أن يؤخذ جميعاً، فالذي مثلاً يريد أن يحاكمه فلا بد أن يأخذ جميع آياته، إذا أردت أن تقول هذا حق أو هذا باطل، فلا تقرأ هذه الآية وتترك تلك الآية، كما تبصرنا هذه الآية بأن من وسائل التعامل مع المتلاعبين بالطاعة النبوية عرض القرآن عليهم ليجدوا فيه الأدلة البرهانية على صحة الرسالة، وهذا نوعٌ من الخطاب الذي يعيدهم إلى العقل والفكر، فيرجع غير المعاندين منهم عن غيهم، والآية تحثهم على تدبر القرآن الكريم لاستخلاص كيفية التعامل مع قضايا العالم الصغيرة والكبيرة، وانظر للفظ الآية كيف يهيج التفكير عند المسلمين المسؤولين بإظهار المعجزة القرآنية، كما يثير التفكير عند تلك الطوائف المتخلخلة الشاكّة، فالفاء تَفْرِيعٌ عَلَى الْكَلَامِ على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ (النساء: ٨٠)، أي: أفلا يتدبر المسلمون القرآن فيزدادوا يقيناً بالله؟.. أفلا يتدبر الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة القرآن، فيتبعون ما يجب عليهم حسب ما تقتضيه المرحلة؟.. أفلا يتدبرون القرآن فيتبعون ما يجب عليهم عندما يكتب عليهم القيام بنصرة المستضعفين؟ أفلا يتدبرون الذين يزعمون أن الحسنه من عند الله وأن السيئه من النبي ﷺ، أو من الذين يأمرون بالقسط من الناس القرآن، ليعلموا أن كلاً من عند الله من حيث الإنشاء؟ أفلا يتدبر الناس القرآن ليعلموا أن الله هو مالك الخلق والتغيرات الكونية؟ أفلا يتدبرون القرآن ليعلموا أنهم لا بد أن يطيعوا النبي ﷺ ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)؟ أفلا يتدبرون القرآن ليعلموا أن تذبذبهم في الطاعة يؤدي إلى خسارتهم الدنيوية والأخروية،

فالنبي ﷺ لن يجبرهم على الاختيار الإيماني ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠)؟ أفلا يتدبر القائمون على الأمن القرآن ليبين لهم استراتيجيات الأمن القومي الذي به يحفظون أمن مجتمعاتهم؟ فالقرآن خطاب للجميع، والله سبحانه وتعالى يأمر ويحض على تدبر القرآن.

أفلا يتدبر القرآن هؤلاء الذين يقولون ﴿طَاعَةٌ﴾ بألسنتهم ثم يبيتون العصيان إما إصرارًا على نصره الفسق أو لتعمق الشك في قلوبهم في صدق رسالة النبي ﷺ؟ ويزجرهم الله عن هذا العناد، وذلك الشك بالاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ إذ ما بعد الاستفهام واقع، وفاعله ملوم، فهم لا يتدبرون القرآن، وتلك علامة تدل على ضعف عقولهم..

والتدبر مشتق من الدبر وهو الظهر، فتدبر الأمر، أي: نظر في عاقبته ومآلاته وما يقف خلفه من نتائج، ولذا يقولون: لا تَدَبَّرُوا أَعْجَازَ أُمُورٍ قَدْ وَلَّتْ صُدُورُهَا، وقول النبي ﷺ: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، أَيْ لَوْ عَرَفْتُ فِي صَدْرِ أَمْرِي مَا عَرَفْتُ مِنْ عَاقِبَتِهِ»، فقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ حثُّ على إعمال الفكر في معرفة المعاني التي تختبئ خلف كلمات القرآن دون تحريف أو تلاعب، ودلالة مفردات كلماته وجمله ومجموعه على أنه من عند الله ليزول شك الشاكين، ويزداد المؤمنون إيمانًا.. ومن أهم الدلائل القرآنية على صدق نبوة النبي مُحَمَّدٍ ﷺ أربعة أوجه:

أحدها: فَصَاحَتُهُ، فلا يمكن أن يصل إلى تلك الفصاحة الأسرة ما قاله امرؤ القيس إذا ركب، وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ، وَرُهَيْزٌ إِذَا رَغَبَ.

وثانيها: اسْتِمَالُهُ عَلَى الْإِخْبَارِ عَنِ الْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ وَالْحَاضِرَةِ وَالْمُسْتَقْبَلَةِ.

وثالثها: نظمه المدهش المتوازن الحاوي لعلوم الهداية التربوية والسلوكية والمعرفية حول التعريف بالله، وبالإنسان، وحقيقة الكون، ومصيره.

والرابع: سَلَامَتُهُ عَنِ الْإِخْتِلَافِ^(١)، فمن أعظم ما يستدل به على أنه من عند الله مجموعه لذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي لو كان من بشر لوجدوا فيه اختلافاً باضطراب المعاني الواردة فيه، واختلافاً بين الغيوب التي أخبر بها عن الماضي والحاضر والمستقبل وبين واقع تلك الغيوب، وعن خلجات النفوس ومخبات الضمائر واختلافاً لما يصف مع واقع قلوبهم وأحوالهم، وهو الذي يصف ما في قلوبهم وصف المطلع عليها، والتقدير امتنع أن يوجد فيه اختلاف من أصله فضلاً عن الاختلاف الكثير، فهو من عند الله، ويلخص الطبري ذلك فيقول: «أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم، يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لا تساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأيد بعضه بعضاً بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض»^(٢)، ولاحظ أن الاختلاف المنفي هنا مطلق فيقيد بالحقيقة العرفية أي اختلاف التناقض لا اختلاف التنوع «لَا يَدْخُلُ فِي هَذَا اخْتِلَافُ أَلْفَاظِ الْقِرَاءَاتِ وَالْأَفَاطِ الْأَمْثَالِ وَالذَّلَالَاتِ وَمَقَادِيرِ السُّورِ وَالْآيَاتِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ اخْتِلَافَ التَّنَاقُضِ وَالتَّفَاوُتِ^(٣)، فاختلاف التنوع منقبة يُتمدح بوجودها، وليست مثلبة.

ومن أعظم حقائق ذلك أنه الدستور الذي تحتاجه البشرية دائماً لينظم أحوالها.. ولا يمكن أن يختلف ما يصفه عن الواقع الذي تحتاجه، فلا تستطيع البشرية مهما بذلت أن تأتي في بَيَانِ أَصُولِ الْعَقَائِدِ، وَأَنْظِمَةِ الْحَيَاةِ، وَقَوَاعِدِ الشَّرَائِعِ، وَأَسَسِ الْأَخْلَاقِ، وَإِدَارَةِ الشُّعُوبِ، وَسِيَاسَةِ النَّاسِ، وَقَوَانِينِ الْجَمْعِ، وسنن العمران،

(١) وانظر: تفسير الرازي (١٠ / ١٥١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٦٧).

(٣) تفسير القرطبي (٥ / ٢٩٠).

والأمثال المحكمة الحاكمة، وفنون القول في الخلق والتكوين، وبناء الكون، وأنظمة الطبيعة في البحار والنباتات والجبال والحيوان والجماد «مَعَ اتَّفَاقٍ جَمِيعِ الْأُصُولِ، وَعَدَمِ الْإِخْتِلَافِ وَالتَّفَاوُتِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْوَغِ»^(١)، ويكفي أن تسأل الإدارات المتعاقبة المتناقضة في أعظم امبراطورية حاضرة حول كيفية حل مشكلة متطاولة هي المشكلة العنصرية مثلاً.. في حين لا تعرف بلاد الإسلام هذه المشكلة إلا عندما تزيج الإسلام من منصة الحكم.

وتدبر القرآن فرض غاب عن ساحة المسلمين، وعبادة ضاعت وتم التفریط فيها، فضاع مجدهم وذهب مع ذهابها، فقد استنبط محمد رشيد رضا ذلك، فقال: «وَفِيهِ أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ لَا خَاصٌّ بِفَرِيسَمَوْنَ الْمُجْتَهِدِينَ»^(٢).

وتدبر القرآن ينمو كلما أدمن المرء تلاوة آياته، والنظر فيها، نعم ليست الكثرة التي تأتي بهزيمة أي بسرعة قراءة غير مفهومة، ولكن الكثرة التي تأتي عن قراءة واعية، وقد تعجب من بعض الناس يخصصون لبرامجهم المفضلة ساعة أو ساعتين، فكم يعطي للقرآن في حياته.. فكم قست قلوب لبعدها عن كلام ربها.

ولكن التدبر ينبغي أن يخضع لسؤال المستنبطين وأهل العلم والذكر، فذاك أمر واجب خشية الوقوع في الجهل، أو مفاجأة سوء الفهم، وهذا يقتضي إنشاء المؤسسات العلمية المختصة بالدراسات القرآنية التي تشكل مراكز لمراجعة القرارات الاستراتيجية في المجتمعات، فسبب مجيء هذا الأمر في هذه الآية المباركة: حث هذا الصنف من المؤمنين على عدم تحويل القرآن إلى مجرد رسوم

(١) تفسير المنار (٥ / ٢٣٤).

(٢) تفسير المنار (٥ / ٢٤٠)، وذهب الرازي في تفسيره (١٠ / ١٥٢) إلى أن الآية دلت على وجوب النظر والاستدلال، وعلى القول بفساد التقليد.

تقرأ دون فكر أو تدبر أو أعمال للآيات في الواقع المعاش، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه تناقضات واختلافات عظيمة في المعاني الواردة فيه، وهذا ينتج ضرورة إنشاء المراكز والجامعات والمعاهد التي تنشر القرآن الكريم، وتستخلص كيفية معالجاته المختلفة للواقع البشري الذي تستجد فيه القضايا، ويقرر النبي ﷺ ذلك، فيقول: «مهلاً يا قوم. بهذا أهلك الأُمم من قبلكم: باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض: إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً. بل يصدق بعضه بعضاً. فما عرفت من فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»^(١)، وفي رواية عن عبد الله بن عمرو قَالَ هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا -قَالَ- فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرِفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»^(٢).

فيزجرهم الله عن الإعراض عن القرآن بالاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ إذ ما بعد الاستفهام واقع، وفاعله ملوم، فهم لا يتدبرون القرآن، وتلك علامة تدل على ضعف عقولهم، والتدبر مشتق من الدبر، وهو الظهر، فتدبر الأمر، أي: نظر في عاقبته ومآلاته، أي: أعملوا الفكر في معرفة المعاني التي تختبئ خلف كلمات القرآن، دون تحريف، أو تلاعب، ومن أعظم ما يستدل به على أنه من عند الله مجموعه؛ لذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

القانون السادس: يجب الحذر من نشر الشائعات في القضايا المركزية الكبرى مما يتعلق بمجالي الأمن أو الخوف، فذلك يساعد على خلخلة الأمن الداخلي، والسلام العالمي، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾.

(١) أحمد (٢ / ١٨١)، وقال الأرناؤوط: صحيح وهذا إسناد حس.

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٥٧)، برقم ٢٦٦٦.

ففي إطار استراتيجية صنع السلام تفعل الاستراتيجيات الأمنية اللازمة للحفاظ على حالة الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وما يدخل في إطار السياسات الأمنية الضرورية لأخذ الحذر منع سريان الشائعات المدمرة؛ إذ يذكر الله حال بعض الفئات التي تنشر الشائعات فتحدث الخلل والإرباك في المجتمع، ولا تجيد التصرف مع مسائل الأمن والخوف ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي وإذا جاءهم خبر أمرٍ من أمور الأمن أو الخوف أذاعوا به، فتستعجل هذه الفئات في نشر الأخبار دون الرجوع إلى المؤسسات أو الخبراء، فربما سارع المجرمون والجاهلون إلى نشر الشائعات المخلخلة للمجتمع، اعتماداً على خبرٍ مضى، أو على أمرٍ حدث، وتكون متعلقة بالقضايا السيادية، في مجالي الأمن والخوف، ويترتب عليها إما الاستقرار التام وإما الاضطراب، وحدوث الاختراقات في المجتمع، والاهتزازات في مجال الأمن، وعدم استقرار التنمية، بل ربما أن ينزلق المجتمع إلى نفقٍ مظلم مخيف، وربما انساق لهم بعض الصالحين دون الرجوع إلى المؤسسات أو الخبراء.

والضمير في قوله ﴿جَاءَهُمْ﴾ قد يعود إلى السابقين المتكلم عنهم الذين يحاولون اختراق استراتيجية الأمن المجتمعي والسلام العالمي وأخذ الحذر، فيدخل فيهم الذين قال الله عنهم ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لُّيُطِئَنَّ﴾ (النساء: ٧٢).

ويدخل فيهم من قال الله عنهم: ﴿الَّذِينَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء: ٧٧)، ويدخل فيهم من قال الله عنهم: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (النساء: ٨٠) ويدخل فيهم ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ (النساء: ٨١).

ويدخل فيهم كل من يعمل على زعزعة الأمن المجتمعي من خلال نشر

الشائعات، فهذه الآية تصنع أمناً حقيقياً قوياً بحماية المجتمع من انتشار الشائعات المزلزلة، ولاحظ الأسلوب الجميل للقرآن، فالله لم يقل وإذا جاء جهة بعينها بل قال ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾، لأن الثقافة المجتمعية يجب أن تكون حاضرة للتعاون ضد الآثار الضارة الناتجة عن انتشار الشائعات، كما يجب وضع النظم والقوانين التي تمنع العبث بأمن المجتمع عن طريق الدعايات والشائعات، وقد يكون هؤلاء الناشرون من المؤمنين الذين اعتراهم طيفٌ من الشيطان، وقد يكونون من المنافقين، وقد يكونون من مرضى القلوب وضعفة الإيمان ممن قلّت تجربته أو غابت عنه حنكته وذهب حزمه، والمطلوب من المجتمع أن يأخذ على أيديهم، ليبين لهم الطريقة الصحيحة في كيفية التعامل مع الأمور الكبرى، وهذه من فوائد الضمير، حتى لا يحصر في فئة معينة دون فئة، وقوله: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾، هذه كلمة معجزة حقاً، تبين لك الإعجاز القرآني في معالجة واقع الناس بصورة مدهشة، إذ حوت ثلاثة معانٍ في وقتٍ واحد:

أولاهما: أذاعوه أي نشره على أوسع نطاق كما قال أبو الأسود:

أَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى كَانَتْهُ بَعْلِيَاءَ نَارٍ أَوْقَدَتْ بِثَقُوبِ

وثانيها: سعوا به من تعدية الفعل بالباء إذ أكسبها ذلك معنى آخر: هو السعي به، فكأنهم احتملوه فوق ظهورهم ليسعوا به هنا وهناك، ولمس ابن عباس هذا المعنى فقال: أفشوه وسعوا به^(١)، فكأنه قال: أفشوه نشره، وسعوا به ليسبب الوهن والضعف في المجتمع، وينشر الخلل بين الناس، وهذا يُتصور من كل تلك الفئات إما ضعفاً وسوء فهم، وإما طلباً لتدمير الحياة المستقرة.

وهناك معنى ثالث لقوله: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾، أي هم أذاعوا بسببه فاكسبوا الشهرة لأنفسهم، لأنهم عندما يسعون بهذا الخبر يحدثون خلخلة داخل المجتمع، ويتسببون

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٦٩).

في الإرجاف، وبدلاً من أن يساعدوا في الاستقرار الأمني يجعلونه مشكوكاً فيه، ويشتهرون بسببه، وبعض هؤلاء الناشرين للإشاعات المغرضة يهدفون إلى التصدر؛ لأنهم مصابون بعقدة العظمة، ومحبة التصدر في المجامع، والظهور الإعلامي، وبعضهم يقومون بتغطية عوارهم في مسائل المواجهة الحقيقية، فيظهر منهم عدم الاتزان وضياح سلوك السبيل الصحيح في معالجة ما يرد على الصف المسلم من المسائل والقضايا والمستجدات، فما وجدوا من خبرٍ أذاعوا به مما يتوهمون أنه يبنى لهم مكانة، فلا يرجعون إلى المؤسسات المعنية، ولا الأجهزة الشورية المناسبة، ولا إلى الخبراء المختصين.

وكلمة ﴿أَمْرٌ﴾ في قوله ﴿أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ نكرة فيدخل فيها جميع الأمور، التي يصح أن نطلق عليها أمراً فهي قريبة من كلمة شيء، ولكنه قيد هذه الأمور بما يرتبط بمسائل الأمن والخوف، وليس ما يتعلق بالأمور الخاصة، واضرب لذلك مثلاً في العهد النبوي عن اتباع النبي ﷺ استراتيجية أخذ الحذر في مجال الأمن القومي للمجتمع في الوضع الداخلي والخارجي بما حدث من محاولة بعض الصالحين من أصحابه إفشاء ما يتعلق بالأسرار العليا حيث يحكي عليٌّ رضي الله عنه فيقول: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمُقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ قَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظِعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا» فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ. فَقَالَتْ: مَا مَعِيَ مِنْ كِتَابٍ. فَقُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ، أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا - جمع عقيصة وهي صفائر الشعر -، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنْاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ

يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عَنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ صَدَقَكُمْ» قَالَ: عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبَ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ - يعني لأنه ارتكب خيانة عظمى - فَقَالَ ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» (١).

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كانت إدارته من أعظم الإدارات نجاحًا في التاريخ، نقل إليه أن رجلاً في الحج يزعم بأنه لو مات عمر لبايعت فلاناً، أي لاخترت أن يكون الحاكم فلان، فأراد عمر أن يبين أن مسألة البيعة مسألة سيادية تتعلق بالأمة كلها، وتحويلها إلى لعب فردي سيؤدي إلى حروب طاحنة بين كل فئة تميل إلى صاحب لها، فأراد أن يخاطب منبهاً على خطأ التكلم في الأمر العام بالهوى الخاص، فقال: إِنِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَقَائِمُ الْعَشِيَّةِ فِي النَّاسِ فَمُحَذِّرُهُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْصِبُوهُمْ أَمْوَرَهُمْ. فنبهه عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن عوف إلى بعد خطير يتعلق باختلاف أفهام السامعين، فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رِعَاعَ النَّاسِ وَغَوَّاءَهُمْ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَغْلِبُونَ عَلَى قُرْبِكَ حِينَ تَقُومُ فِي النَّاسِ وَأَنَا أَخْشَى أَنْ تَقُومَ فَتَقُولَ مَقَالَةً يُطَيِّرُهَا عَنْكَ كُلُّ مُطَيِّرٍ، وَأَنْ لَا يَعُوهَا، وَأَنْ لَا يَضْعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا فَأَمْهَلْ حَتَّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ فَإِنَّهَا دَارُ الْهَجْرَةِ وَالسُّنَّةِ فَتَخْلُصَ بِأَهْلِ الْفِقْهِ وَأَشْرَافِ النَّاسِ فَتَقُولَ مَا قُلْتَ مُتَمَكِّنًا فَيَعِيَ أَهْلُ الْعِلْمِ مَقَالَاتِكَ وَيَضْعُونَهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا فَقَالَ عُمَرُ: أَمَا وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا قَوْمَ مِنْ بَدْلِكَ أَوَّلَ مَقَامٍ أَقُومُهُ بِالْمَدِينَةِ (٢).

فلا ينبغي للإنسان التحدث في شيء لا يتقنه مما يؤثر على المصلحة العامة.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٧٢) برقم ٣٠٠٧.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ٢٠٨) برقم ٦٨٣٠.

وهذه الجملة المباركة ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ تبصرنا بضرورة التعود على ضبط النفس في موضوع الكلام، وألا يخوض المرء في المسائل العامة وهو لا يعرف أبعادها، فلا ينبغي لأفراد المجتمع أن يطلقوا لأنفسهم العنان، فيتكلموا في كل أمر.

ويؤكد رسول الله ﷺ ذلك فيقول: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»^(١).

وعن عبد الله بن عامر قال: يا أبا مسعود ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في زعموا؟ قال سمعته: يقول: «بئس مطية الرجل»، وسمعته يقول: «لعن المؤمن يقتله»^(٢)، وَكَانَ ﷺ يَنْهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَمَنْعَ وَهَاتِ وَعُقُوقِ الْأَمْهَاتِ وَوَادِ الْبَنَاتِ^(٣).

ومن هنا لام بعض أهل العلم العلماء الذين رَووا بعض الأخبار الواهية، ذاكرين إسنادها دون بيان ضعفها، كالذي تجده في تاريخ الطبري رحمه الله وإن برئ من العهدة بسبب ذكره للسند، لكن الكتاب معرض لأن يقرأه المتخصص وغيره.

القانون السابع: أهم الحلول لمواجهة فوضى الإشاعات المخلخلة للسلام العام الرجوع إلى الميراث النبوي في التعامل مع القضايا الأمنية.

وذلك يعني خدمة السنة النبوية الخدمة المثلى سنداً وامتناً لاستخراج كنوزها وذخائرها، وتكوين فئة أولي الأمر المستنبطين، وَيُصَرِّفُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾؛ وهذا يقتضي تشكيل

(١) في مقدمة صحيح مسلم (١ / ٨)، وخرجه أبو داود (٢ / ٧١٦) عن أبي هريرة، وصححه الألباني.

(٢) الأدب المفرد بأحكام الألباني (١ / ٢٦٨)، وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ١٢٤).

لجان الخبراء في المجالات المختلفة، ليمدوا المستنبطين بما يعينهم على التكيف المناسب للحوادث النازلة، فيصير المستنبطون أهم مركز في مفهوم ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ ويمدون الأمة بالرأي الصحيح في القضايا الاستراتيجية، اعتماداً على فهم النص الشرعي، ودراسة للميراث النبوي، ووضعاً للوصف الدقيق للواقع:

فهذه الجملة تبصرنا بأهم الحلول لضبط الأمن الفكري في المجتمع، ولمواجهة فوضى الإشاعات التي يراد بها زلزلة المجتمع المسلم، بأن ترد المسائل العامة إلى الرسول وإلى أولي الأمر الذين يكون العلماء في مقدمتهم ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ ولماذا ذكر الرد إلى الرسول ﷺ دون أن يذكر اسم الله أو أن يذكر القرآن هنا؟

لأن الفهم الصافي والتطبيق العملي للقرآن لا يجده المرء إلا في الهدي النبوي، وبالتطبيق النبوي تضبط إيقاعات الفهم للقرآن المجيد، وهنا تدرك لماذا هذه الحرب الشعواء على السنة النبوية.

وقد يحتاج المستنبطون إلى لجان من الخبراء ليتمكنوا من تقديم الرأي المناسب في الحادثة؛ وبناء على ذلك يتم اتخاذ القرارات المناسبة، وبذا تؤدي الأمانة إلى أهلها، فتد كل قضايا الأمن أو الخوف إلى كيفية التعامل النبوي معها من خلال السنة والسيرة على صاحبها الصلاة والسلام.

وقد جعل الله تعالى ذكره طريقة التعامل مع قضايا الأمن والخوف خاصاً بأولي الأمر الذين يطلبون من لجان الخبراء المستنبطين أن يقدموا الرؤية الصحيحة للتعامل مع تلك القضايا، فيمدون أولي الأمر بالرأي المناسب في النازلة المعينة، وفي مقدمتهم العلماء القادرون على الاستنباط، ثم يقوم المتخصصون باستنباط الحلول المناسبة وتحويلها مع الخبراء إلى قرارات عملية، والآية تبصرنا إلى صفتين

عظيمتين يجب أن تشترطا في أولي الأمر هما: العقل الذي يحزم في الأمور، والرجوع إلى الدين في جميع المسائل وخاصة مسائل الأمن والخوف، ومن المؤسف أن الدول لا تعرض مسائل الأمن والخوف على المختصين فيها، فعن ابن جريج: «وإلى أولي الأمر منهم»، الفقه في الدين والعقل، وقال ابن زيد عنهم: الولاة الذين يكون في الحرب عليهم الذين يتفكرون فينظرون لما جاءهم من الخبر: أصدق، أم كذب؟ أباطل فيطلونه، أو حق فيحقونه؟^(١).

وهذه الآية لها علاقة بما سبق في قوله تعالى ذكره ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (النساء: ٨٢)، فلو ظهر لأحدهم معنى في الآية وهو ليس من أهل العلم، فلا ينشر هذا المعنى أو تلك المعلومة حتى يعيده إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، ومثال ذلك ما نسمعه هذه الأيام من أن القرآن يفسر بالآرامية أو السريانية، ويقول العايب الذي يروج هذه الفكرة التي يظنها عبقرية ويتعجب كيف لم تخطر على بال من قبله: معنى كلمة ﴿طه﴾ يا رجل باللغة الآرامية أو السريانية، وهذا الذي يقوله هذا العايب نجده قولاً مهجوراً معروفاً في التفسير لكنهم أهملوه لأنه يصادم الأصول، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، فكيف تجعله أنت بلسان أعجمي مبين؟.

والاستنباط ينبغي أن يكون صادراً من أهله في محله، وليس صادراً من أهله في غير محله، أو صادراً من غير أهله في محله، أو في غير محله.

وقوله تعالى جده: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يوجب العمل على تربية أجيال المستنبطين من العلماء والخبراء ليكونوا أهم غرفة في الأمة تمد أولي الأمر بالرأي الصحيح في القضايا الاستراتيجية، كما أن الآية تدل على عدم مقدرة كل العلماء على استنباط الحلول في كل نازلة، بل القادرون منهم فئة مخصصة.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٧٣).

فقوله: ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ تدل على أهمية هذه الفئة من الخبراء، وخطورة وظيفتها؛ إذ معناها كما يقول الطبري: يستخرجونه، فكل مستخرج شيئاً كان مستتراً عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب، فهو له «مستنبط»، فأصل الاستنباط: استخراج النبط، وهو الماء المخفي عن العين المدفون في الأرض الَّذِي يُنبِطُ من قَعْرِ الْبُئْرِ إِذَا حُفِرَتْ كما قال الشاعر:

قَرِيبٌ ثَرَاهُ، مَا يَنَالُ عَدُوَّهُ لَهُ نَبَطًا، أَبِي الْهَوَانِ قَطُوبٌ ^(١)
وعرفه النووي بأنه: استخراج ما خفي المراد به، من اللفظ، وقال الجرجاني (ت ٨١٦ هـ): استخراج المعاني من النصوص، بِفَرْطِ الذَّهْنِ، وقوة القريحة ^(٢).

كما تبصرنا هذه الآية بأن مجالات الأمن أو الخوف في الأمة تشمل ما يتعلق بأحوال القيادة النبوية؛ إذ سياق الآيات في الكلام عن طاعة الرسول ﷺ، وهو ما يؤكد أهمية السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ومما يدل على ذلك حديث عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ - قَالَ - دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْحِجَابِ فَقَالَ عُمَرُ فَقُلْتُ لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى

(١) انظر: تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٧١)، مقاييس اللغة (٥ / ٣٨١)، تهذيب اللغة (١٣ / ٢٤٩)، وفي تهذيب اللغة (١٣ / ٢٥٠) يقال: حَفَرَ فَأُتِلَجَ إِذَا بَلَغَ الطِّينَ، فَإِذَا بَلَغَ الْمَاءَ قِيلَ: أَنْبَطَ، فَإِذَا كَثُرَ الْمَاءُ قِيلَ: أَمَاهُ وَأُمْهَى، فَإِذَا بَلَغَ الرَّمْلَ قِيلَ: أَسْهَبَ، يُقَالُ فَلَانٌ لَا يُنَالُ نَبَطُهُ، إِذَا وُصِفَ بِالْعِزِّ وَالْمَنْعَةِ حَتَّى لَا يَجِدَ عَدُوَّهُ سَبِيلًا إِلَى أَنْ يَتَهَضَّمَهُ فِيمَا تَحْتَ يَدِهِ، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: إِذَا كَانَ يَعُدُّ وَلَا يُنْجِزُ: فَلَانٌ قَرِيبُ الثَّرَى، بَعِيدُ النَّبَطِ، وَقَالَ شَاكِرٌ فِي بَيَانِ الْبَيْتِ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى الطَّبْرِيِّ: «وقوله: «قريب الثرى»، يريدون كرمه وخيره. و«الثرى»: التراب الندي، كأنه خصيب الجنباب. وقوله: «ما ينال عدوه له نبطاً»، أي لا يرد ماءه عدو، من عزه ومنعته، / إذا حمى أرضاً رهب عدوه بأسه. «آبى الهوان» لا يقيم على ذل. و«قطوب»: عبوس عند الشر».

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٤ / ١٥٨، التعريفات ص ٢٢.

عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكَ أَنْ تُؤْذِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ عَلَيْكَ بَعِيتُكَ. قَالَ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَقُلْتُ لَهَا يَا حَفْصَةُ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكَ أَنْ تُؤْذِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يُحِبُّكَ. وَلَوْلَا أَنَا لَطَلَّقَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ فَقُلْتُ لَهَا أَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ هُوَ فِي خِزَانَتِهِ فِي الْمَشْرِبَةِ. فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَاعِدًا عَلَى أُسْكُفَةِ الْمَشْرِبَةِ مُدَلِّ رِجْلَيْهِ عَلَى نَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ وَهُوَ جِدْعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَيَنْحَدِرُ فَنَادَيْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ قُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ظَنَّ أَنَّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لِأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا. وَرَفَعْتُ صَوْتِي فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنْ ارْقَهُ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَذْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرِ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلُهَا قَرَطًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ - قَالَ - فَابْتَدَرْتُ عَيْنَايَ قَالَ «مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ».

قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرٌ وَكِسْرَى فِي الشَّامِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ.

فَقَالَ «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا». قُلْتُ بَلَى - قَالَ - وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ

مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتُهُ وَجِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ وَقَلَمًا تَكَلَّمْتُ وَأَحْمَدُ اللَّهِ بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ ﴿وَلِنْ تَظْهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَى سَائِرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلَّقْتَهُنَّ قَالَ «لَا». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى يَقُولُونَ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرُهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقَهُنَّ قَالَ «نَعَمْ إِنْ شِئْتَ». فَلَمْ أَزَلْ أَحَدْتُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْعَضْبُ عَنْ وَجْهِهِ وَحَتَّى كَشَرَ فَضْحَكَ وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ نَعْرًا ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلْتُ فَتَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالْجَذْعِ وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا يَمْسُهُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتُ فِي الْغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ. قَالَ «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ». فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَادَّيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ. وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ (١).

وَيُصِّرُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى جَدَهُ: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٨٣) بِأَنَّ الْإِشَاعَاتِ الْبَاطِلَةَ مِنْ أَهَمِّ أَدْوَاتِ الشَّيْطَانِ، الَّتِي يَبْثُهَا جَنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ؛ لِتَحْوِيلِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى أَتْبَاعِ أَذْلَاءِ لَهُ دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا، وَالِاسْتِنَاءَ يُصِّرُنَا بِخَطُورَةِ الْخُطَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي الْإِضْلَالِ؛ إِذْ يَعُودُ إِلَى الْإِتْبَاعِ وَإِلَى الْمَتَّبِعِينَ وَالْمَعْنَى: لَا تَبْتَغِمِ الشَّيْطَانَ فِي أُمُورِكُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهَا وَإِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ.

فالحياة معركة مع الشيطان مهما حاول أتباعه أن يبعدوا عنا هذه الحقيقة، وإذا أدركنا أننا في حالة عداوة مع عدو لا نراه لجأنا إلى فضل الله ورحمته لنستمد منهما الثبات، وامتلات نفوسنا بضرورة الاستقامة على المنهج القرآني للفوز في هذه المعركة، ومما يفتح لنا فضل الله ورحمته تطبيق البصائر القرآنية في استراتيجية أخذ الحذر، فهي الكفيلة بحماية الأمن الشخصي والقومي للمسلمين، وتأمل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٨٣)، فالفضل الزيادة على جوهر الشيء، فالله أنزل علينا القرآن، وزادنا فعصمنا بالتمسك به، والرحمة تدل على الإنعام. والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) يدل على خطورة الخطة الشيطانية التي يمارسها لإضلال العالم، وقد جاء هذا الاستثناء متأخراً، فبصر المفسرين بمعانٍ متعددة له لا يمكن أن تظهر إلا إذا وضع الاستثناء في ذلك الموضع؛ إذ يمكن أن يرجع إلى عددٍ من الكلمات قبله:

فالمعنى الأول: الاستثناء يرجع إلى قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي إِلَّا قَلِيلًا، فَأَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى الأفراد المؤمنين الراشدين الذين يعيشون في المجتمع من أن يتبعوا خطوات الشيطان فيذيعوا ما يتعلق بالأمن أو الخوف، وبين أن عقولهم أكبر من أن يتكلموا فيما لا يعلمون أو فيما لا يفهمون أو فيما قد يسبب المشاكل لهم أو لمجتمعهم.

والمعنى الثاني: الاستثناء عائدٌ إلى قوله: ﴿لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي إِلَّا قَلِيلًا.. والكلام واضحٌ وصحيحٌ ويبصر المسلمين بأنه ليس كل عالمٍ أو خبيرٍ مستنبط لا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٧٧)، وبين شاكر أن قوله «يدي» (بضم الياء وكسر الدال، والياء المشددة) أو (بفتح الياء وكسر الدال وتشديد الياء)، جمع «يد» الأول جمعها على وزن «فعلول»، مثل فلس وفلوس، والثاني جمعها على وزن «فعليل» مثل عبد وعبيد. كأنه قال: كثير أيدي النوال.

بد أن يستنبط في كل شيء بل قد يغفل في مسألة من المسائل ويستنبط في أخرى.. وهذا الفهم الرائع للآية يقتضي أن يحاول المسلمون إعمال الفكر الجماعي، وألا يقتصروا على الأفراد في الاستنباط مهما بلغ إنسان من سابقة العلم أو الرسوخ في البلاء الدعوي.

والمعنى الثالث: الاستثناء مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ إلا قليلاً، والفضل بعثة النبي ﷺ، والرحمة القرآن، فلفظ الفضل والرحمة عامان ويراد بهما هذان الأمران المخصوصان، والمعنى: ولولا بعثة النبي ﷺ وبصائر القرآن المجيد إلا قليلاً ممن منَّ الله عليهم بالعقل الصادق، والبقاء على الفطرة السليمة فثبتوا على الحنيفية الإبراهيمية قبل بعثة النبي ﷺ مثل زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة وبقايا من أهل الكتاب، وذكر الله تعالى ذلك في الحديث القدسي في قول النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبُهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(١)، فالفضل هنا هو التشريع العظيم الذي ينقذ المسلمين من الضلال، ويحمي جماعتهم من اتخاذ قرارات الوبال والخبال.

المعنى الرابع: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَا تَبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فالاستثناء يرجع إلى أقرب مذكور، وهو المفهوم من قوله ﴿لَا تَبَعْتُمْ﴾ فإما أن يراد به الاستثناء من الاتباع وإما أن يراد به الاستثناء من الاتباع أي من الأمور المتبعة، ويكون المعنى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان جميعاً إلا قليلاً منكم فإنهم لا يتبعونه لما وضع الله في قلوبهم من النور، ولمجاهدتهم أنفسهم، فلا ينشرون الشائعات

(١) صحيح مسلم (٨ / ١٥٨)، برقم ٢٨٦٥.

المتعلقة بمجالى الأمن والخوف، فهذا المعنى الرابع، وهو يُبَصِّرُنَا بقلة الذين لا يتبعون الشيطان، فلا يغتر المرء بكثرة من حوله ممن ينتسب إلى الإيمان.

والمعنى الخامس: أن يكون الاستثناء من الاتباع أي من الأمور المتَّبعة ويكون المعنى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ في أموركم كلها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من هذه الأمور تقاومون فيها الشيطان، وهذا المعنى يُبَصِّرُنَا بقدرة الشيطان على إغواء المؤمنين فضلاً عن غيرهم في كثيرٍ من الأمور الحيوية، فلا يغتر المرء بقدرته على مجاهدة الشيطان مثلاً في أداء الصلوات المفروضة فإنه ربما أغواه في إقامتها، ولا يغتر بمحافظته على الصيام والزكاة فإنه ربما أغواه فيما يتعلق بمجالى الأمن والخوف.

ولا يعني هذا أن الله يعطل الكيد الشيطاني؛ إذ ما زال الشيطان يُعْمَلُ أدواته البشرية في إضلالكم لكن الله يفضح لكم كيده، ويكشف لكم أدواته، ويقذف في قلوبكم من نور الإيمان.. وذلك ينبهكم إلى الكيد الشيطاني، فتأخذوا حذرکم من اتباعه. ثم عد ثانية إلى السياق الذي وردت فيه هذه الآيات المباركات وعمم الاستثناء ليدخل فيه جميعاً لتجد من المعاني المنصبة عليك:

ولولا فضل الله عليكم بحصول النصر، ورحمته بتقوية عزائمكم لتمكنوا من عدوكم في بعض دول الأيام لكنتم استجبتم للمبطئين الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيَبْطِئَنَّ﴾ (النساء: ٧٢)، ولكتم استجبتم للخائفين الذين ذكرهم في قوله: ﴿إِذَا فُيُتُّ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء: ٧٧)، ولكتم استجبتم للذين يبيتون غير الذي يقول النبي ﷺ، ولكتم من الذين يذيعون الأمر من الخوف أو الأمن مما يزلزل المسلمين.. لولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم اتبعتم الشيطان، وأطعتم أتباعه، وأنتم ترون كثرتهم وقلتكم، وتمكنهم وضعفكم، وتقلبهم في البلاد وخوفكم.. لكن الله مَنَّ عليكم بفضله ورحمته، فثبتكم على دينكم الذي علمتم أنه لا يجب أن تكون له الدولة

والصولة ليكون حقاً.. ولولا فضل الله عليكم ورحمته بالشيث لكم أحياناً وبظفركم عليكم أحياناً أخرى لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ممن استنارت قلوبهم ابتداء بمعرفة الحق من غير نظر إلى تمكن المؤمنين أو الكافرين^(١).

ولولا فضل الله بزيادة إمدادكم بالثبات، ورحمته بالإنعام عليكم بالاستقامة على الحق لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً كالراشدين الأربعة، فهنا فسرنا الفضل والرحمة بما هو الزيادة على أصل الإنعام بالهداية، وبذا نجمع بين هذه الآية التي فيها استثناء وبين قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ (النور: ٢١)، أي بفضل الله ورحمته في أصل الإيمان، وهنا ولولا فضل الله عليكم ورحمته بالزيادة على أصل الإيمان، فهنا نستثني لأن الزيادة على أصل الإيمان يمد الله به من يشاء، وأما أصل الإيمان فهو أعطاكموه، أي أنه بعث لكم النبي ﷺ وأعطاكم القرآن.

القانون الثامن: يجب الاستفادة من الاستراتيجية النبوية في صنع السلام، فمن

(١) ونحو هذا المعنى قرره أبو مسلم الأصفهاني، ونقله عن الرازي في تفسيره معجماً به (١٥٦ / ١٠)، وأنت ترى أنني ملت إلى الجمع بين المعاني، ونقل الطبري - رحمه الله - معنى استبعده هو أن الاستثناء ليس على ظاهره، فكل من لم يتبع الشيطان فإنما اجتنبه بفضل الله ورحمته، والاستثناء دليل على الملك والقوة والإحاطة، وأنه لولا فضل الله عليهم ورحمته لم ينج أحدٌ من الضلالة، واستشهدوا على ذلك بقول الطرمّاح بن حكيم، في مدح يزيد بن المهلب:

أَشْهُمُ كَثِيرُ يَدِي النَّوَالِ قَلِيلُ الْمَثَالِ وَالْقَادِحَةُ

قالوا: فظاهر هذا القول وصف الممدوح بأن فيه المثالب والمعائب، ومعلوم أن معناه أنه لا مثالب فيه ولا معائب. لأن من وصف رجلاً بأن فيه معائب، وإن وصف الذي فيه من المعائب بالقلّة، فإنما ذمّه ولم يمدحه. ولكن ذلك على ما وصفنا من نفى جميع المعائب عنه. قالوا: فكذلك قوله: «لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً»، إنما معناه: لاتبعتم جميعكم الشيطان وربط محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٥ / ٢٤٦) بين هذا المعنى وبين قوله تعالى: ﴿سَفَرْتُكَ فَلَا تَسْقِ﴾ * إِنْ آمَا شَاءَ اللَّهُ ﴿ (الأعلى: ٦، ٧) قال: «فَالِاسْتِثْنَاءُ دَلِيلُ الْإِحَاطَةِ، أَقُولُ: أَوْ كَمَا يَقُولُ الْأُصُولِيُّونَ: مَعْيَارُ الْعُمُومِ، أَيُّ: فَهُوَ لِتَأْكِيدِ مَا قَبْلَهُ. ولكن الطبري عقب على هذا الرأي بعد نقله بقول: «وغير جائز أن نحمل معاني كتاب الله على غير الأغلب المفهوم بالظاهر من الخطاب في كلام العرب»

مبادئها إيجاد حالة توازن الردع بالجمع بين التكليف العسكري لكل فردٍ قادرٍ، والتعبئة القتالية وإظهار الرغبة في السلام في الوقت ذاته. ويُصَرِّفُنا بذلك قوله: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِكَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (النساء: ٨٤)، فتخلف الآخرين لا يعني سقوط الواجب عن القادر حسب طاقته، وهنا تظهر استراتيجية الردع بصورة فعالة؛ إذ يشعُر العدو بالرعب عند علمه بأن كلَّ فردٍ موجودٍ سيظل يقاوم مهما اقتضت التضحيات، وبذا ينزل التوفيق الإلهي لكف بأس المعتدين، وانتزاع حقوق المستضعفين.

لا بد أن نشير إلى المناسبة والاتصال بين هذه الآيات وما قبلها؛ إذ الفاء في قوله ﴿فَقَتِّلْ﴾ تشير إلى ارتباط جاد، مع أن المرء ربما استبعد الارتباط بسبب فحوى الآية: بين الله جل جلاله فيما سبق ضرورة الحفاظ على الأمن من خلال استراتيجية أخذ الحذر من انتشار الدعايات الإعلامية المضللة، والشائعات السيئة في مجالي الأمن والخوف، وحذر من التلاعب بالقوانين والنظم، بالموافقة عليها ظاهراً ومخالفتها واقعاً، ونبه إلى العناصر التي تحرف كلام القيادة النبوية، ولإشغال المجتمع عن انتشار الدعاية المضللة الخارجية والداخلية، ولإبعاد الأفراد عن التربية الغالية والمنحرفة يبين الله ضرورة التربية على الأمرين معاً: الاستعداد العسكري، والتعبئة العامة، وإظهار الرغبة في السلام في الوقت ذاته؛ لأن إشاعة السلام مقصودٌ أصليٌّ من مقاصد الإسلام؛ ولعل هذا أوضح درجات الاتصال بين آية التعبئة القتالية: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النساء: ٨٤) وآية الشفاعة ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ (النساء: ٨٥)، وكذلك آية مقابلة التحية بمثلها ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ (النساء: ٨٦)، بل إنك من خلال هذا الفهم تدرك سبب ما قد تظنه إقحاماً لهاتين الآيتين في هذا الموضع، فلم

يُذكر أمثلاً في سورة الحجرات، أو في أواخر سورة الفرقان، والإقحام قد يقول به المرء مندهشاً؛ إذ ما قبلهما في التعبئة القتالية وما بعدهما في ظروف مماثلة وهو قوله تعالى جده: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٨٨)، وأما آية التوحيد والمحاسبة وهي قوله تعالى ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧) فلا يستغرب مجيئها عند ذكر أي جانبٍ من جوانب التشريع الإيمانية أو الشعائرية أو التجارية الاقتصادية أو التعاملية أو الاجتماعية أو السياسية أو الجنائية؛ إذ هي تحكم ذلك كله.

ويزيد الأمر وضوحاً التشوف الشديد للبحث عن السلام مع الأطراف الأخرى مما سيرد في القسم الآتي مباشرة حيث يقول الله جل مجده: ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقْنِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَأَجْعَلِ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠).

فقوله تعالى جده: ﴿فَقَنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفْ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ خطاب لك أيها القارئ، وأول قارئ يخاطب بهذا القيادة النبوية، وتطبيق ذلك من أعظم وسائل إنجاح استراتيجية أخذ الحذر؛ إذ إن ذلك يؤدي إلى إقامة حالة الردع للعدو المتربص داخلياً وخارجياً، فهو يشعر بأن القائد قد بلغ أقصى درجات الحذر والجدية، وأن كل فرد يقرأ القرآن يحافظ على أمن المجتمع ويشعر بأنه مخاطبٌ بذلك الواجب بغض النظر عن تهاطل الآخرين، وجمعت هذه البصيرة القرآنية بين التكليف الفردي مهما تهاطل الآخرون وبين التعبئة العامة،

والفاء توضح الارتباط التام بين هذه الآية وما قبلها، والتقدير:

قد أوجب الله عليكم أن تطبقوا استراتيجية أخذ الحذر ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ وذلك يقتضي التربية العسكرية الكاملة التي تعني تقسيم الجيوش

إلى مجموعات، وعند تحتم المواجهة قد يكون النفير على هيئة مجموعات، وقد يكون حشدًا لجميع الجيش، واستنفارًا لكل العناصر ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ (النساء: ٧١)،

وتطبيق استراتيجية أخذ الحذر يقتضي القدرة على المواجهة مهما كانت النتائج ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤)

واستراتيجية أخذ الحذر تقتضي الدفاع عن القضايا العادلة في كل مكان، وإنقاذ المستضعفين من أيدي المضطهدين ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥)

والفارق بين قتالكم وقاتل المجرمين أنكم تقاتلون في سبيل الله لإنقاذ الإنسانية بينما يقاتل المجرمون لزيادة الطغيان، وإشباع أنفسهم المريضة الأنانية، وإرضاء الشيطان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦)

والقتال ليس حياة المسلمين بل يجب أن يكف المسلمون أيديهم ويعلموا العالم بمحبتهم للسلام ﴿الَّذِينَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (النساء: ٧٧)، ولكنه يحرم التخلف عن القتال وقت تحتمه، وساعة وجوبه ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْفِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ (النساء: ٧٧)

فإذا طبقت هذه الاستراتيجية واتبعت تلك التكاليف فترقبوا النتيجة العاجلة أو الآجلة: إنها الردع والدفع والرفع، ويُبَصِّرُنَا الله بها بقوله: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَكْفِيَ بَاسَ

الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١﴾ فخير حماية المستضعفين ورد العدوان لا يسقط بأي حال ما دامت مقتضياته موجودة مهما قل الأنصار؛ إذ هو الأساس لاستجلاب نصر الله تعالى بكف أذى المعتدين، فليس على الرسول ﷺ ذنب إذا بلغ وحرص ثم لم يطعه أحد، وهذه الآية من أقوى الآيات في وجوب نصره المستضعفين، ولو لم يترتب على تلك النتائج خلافاً لما قرره الرازي رحمه الله من «أَنَّ الْجِهَادَ فِي حَقِّ غَيْرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ، فَمَا لَمْ يَغْلِبْ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُ يُفِيدُ لَمْ يَجِبْ، بِخِلَافِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ عَلَى ثِقَةٍ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ» ^(١) فهذا فهم غريب بعيد عن السياق، وحرر ابن عطية المسألة فقال: «هذا أمرٌ في ظاهر اللفظ للنبي ﷺ وحده، لكن لم نجد قط في خبر أن القتال فرض على النبي ﷺ دون الأمة مدة ما، المعنى - والله أعلم - أنه خطاب للنبي ﷺ اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه، أي أنت يا محمد وكل واحد من أمتك القول له فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يستشعر أن يجاهد ولو وحده» ^(٢).

فهل ذلك يعني أن الإنسان لو بقي وحيداً فيجب عليه أن يندفع وسط المعتدين، وقد يؤدي بنفسه إلى الهلكة؟

الإجابة على هذا تجبرنا على التفصيل وفق الأدلة المختلفة؛ فإذا أراد العدو أن يجتاح المؤمنين لا محالة، وهرب مجموعة من المؤمنين دون أن يتحيزوا إلى فئة، وإنما هو هروب يتبعه هروب، كل ما دخلوا مكاناً دخل العدو فيه، فهذا ليس تحيزاً إلى فئة، بل هو تولية للأدبار، ففي هذه الحالة يحرم الفرار من الزحف، وبقاء المرء وحيداً في المعركة من أعظم العبادات التي يباهى بها يوم القيامة كما بين النبي ﷺ ذلك في:

(١) تفسير الرازي (١٠ / ١٥٧)، وهو رأي نسبه القرطبي إلى الزجاج.

(٢) تفسير ابن عطية (٢ / ٨٦).

«ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يشنؤهم الله عز وجل - فذكر فيهم - الرجل يلقي العدو في الفئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه» وفي رواية الترمذي: «ورجل كان في سرية فلقي العدو فهزموا وأقبل بصدرة حتى يقتل أو يفتح له»^(١)، وهالك معذور خير من ناج فرور.

فهنا لا مجال للانسحاب ولو بقي المرء وحيداً؛ إذ لا يوجد مجال لتطبيق الأمرين المذكورين في جواز الانسحاب في قوله تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَنْ تَحَرَّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿الأنفال: ١٥، ١٦﴾.

وأبرز مثال على ذلك أدى إلى نتائج كارثية عندما هجم التتار على المسلمين، فكان المسلمون يهربون فيجتاح التتار، ويتقدمون حتى دمروا نصف العالم.. فليتكفر القوم فالحال كما قال الله جل جلاله: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُّوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٩) يهربون، فيجتاح العدو المدينة، فيهرب هؤلاء يزعمون أن الحكمة تقتضي الهرب، ثم يهربون فيجتاح العدو التي بعدها ثم يهربون، حتى ينتهي البلد بأسره.. ولابتعاد الناس عن المنهج القرآني، والتطبيق النبوي في فهم كيفية بسط أنوار السلام في أزمنة الحرب ترى العدو ينصر بالرعب مع أن هذا إنما كان من خصائص هذه الأمة.

وإنما يجوز الانسحاب عندما يكون الانسحاب حقاً انسحاباً تكتيكياً كما فعل خالد بن الوليد عندما انسحب في معركة مؤتة وخرج بخسائر غير متوقعة للجيش

(١) أحمد (٥ / ١٥١) برقم ٢١٣٧٨ وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف، سنن الترمذي (٤ / ٦٩٨) برقم ٢٥٦٨، ورواية الحاكم ذكرها الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦ / ٢٣) برقم ٣٤٧٨.

عند الطرفين، حتى قيل بأنه لم يقتل من المسلمين إلا ثمانية أو اثني عشر رجلاً من مجموع ثلاثة آلاف قابلوا عدداً ضخماً من العدو، فقبل مائة ألف مقاتل وقيل أكثر من ذلك، فالانسحاب التكتيكي يؤدي إلى الالتفاف على العدو بإيهام العدو بالانسحاب ثم إيقاعه في مصيدة مباشرة أو غير مباشرة، فإن كان الجيش باسطاً سيطرته على عشر مدن فانسحب من المدينة الأولى بزعم أنه انسحاب تكتيكي إلى المدينة الثانية، ثم جاء العدو إلى المدينة الثانية فتم الانسحاب إلى المدينة الثالثة وهكذا حتى فقد كل ما عنده.. فالانسحاب الأول لم يكن إلا فراراً من الزحف لا انسحاباً تكتيكياً، والبلاء بعد ذلك سيكون عظيماً، وهذا ما حصل عندما اجتاحت التتار بلاد سمرقند، ثم أفغانستان ثم خراسان، وهكذا حتى وصلوا إلى العراق، والناس الذين يقدرّون على القتال ينسحبون، والبقية يقعون تحت رحمة عدو متوحش يُعمل فيهم القتل والسبي، فهناك فرق بين الانسحاب التكتيكي الذي ذكره الله في سورة الأنفال، وبين الانسحاب التام الذي يعني الهزيمة الأسوأ، وهنا تأتي هذه الآية ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وفهم ذلك البراء بن عازب فعن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا! لأن الله عزَّ وجلَّ بعث رسوله ﷺ فقال: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إنما ذاك في النفقة^(١)، وقد فرض الله القتال على المؤمنين جميعاً بقوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ (النساء: ٧٤).

وقد بين النبي ﷺ أن الحرب ليست ضمن أهدافه، بل هدفه السلام، لكن هذا لا يعني عدم الاستعداد العسكري أمام العدوان المجرم، فقال لرسول قريش: «وَإِنْ قُرَيْشًا

(١) أحمد (٤ / ٢٨١).

قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ، وَأَصْرَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مِدَّةً، وَيُخْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرُ فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا؛ حَتَّى تَنْفِرَ دَسَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ»^(١) ومعنى (جموا) أي قووا، والسالفة صفحة العنق، ويحتمل أن يكون أراد أنه يقاتل حتى ينفرد وحده في مقاتلتهم.

والخطاب للنبي ﷺ ابتداء هنا لبيان أن الرسول ليس عليه إلا البلاغ، فليس بمسيطر على تصرفات أتباعه، وأن واجب القائد باعتباره قائداً لا يسقط إن لم يستجب له، وأنه يجب إظهار المؤمنين لأنفسهم بمظهر القوة الحقيقية وعدم التنازل عن المبادئ مهما ضعفت الاستجابة لهم في وسط المجتمع، ويظهر الاتصال بيناً بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠)؛ إذ الكلام عن طاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستمر، وأنها أساس في الأمن القومي للمسلمين، فإن لم يطعه أحد فيجب عليه أن يؤدي ما عليه، ولو لم يبق إلا وحده.

وتعال بنا للنظر الجمال البياني في كلمة ﴿حَرَضَ﴾، فهي مشتقة من حَرَضَ يَحْرِضُ أو حَرَضَ يَحْرِضُ إذا اهتم بشيء واندفع لتحقيقه بقوة بكل مشاعره، فينفع ويحتاج للوصول إلى ذلك، ومن ذلك ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف: ٨٥)، فقالوا في (الحرض) هو الذي أذابه الحزن والمشاعر، وأحرضه الحب أي أفسده، كما قال العرجي:

إني امرؤ نابني هم فأحرضني حتى بليت وحتى شفني السقم
فيكون التَّحْرِضُ على القتال: الحثُّ والإحماء عليه بشدةٍ وحرصٍ، وتزيين

(١) البخاري (٣ / ٢٥٣)، وفي مقدمة الفتح (١ / ٩٧): «جموا بالفتح وتشديد الميم، أي: استراحوا، ومنه قوله: معجزة للمريض بكسر الجيم وفتحها وفتح الميم، فإن ضممتها كسرت الجيم، أي: مريحة».

وتسهيل الخطب فيه، وكأنهم إذا خالفوه أحرصوا ففسدوا وأهلكوا^(١).

ومن التحضيض بيان الأجور المدهشة التي تنتظر المجاهد في سبيل الله حيث كان النبي ﷺ يحرص على الجهاد فيقول: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ قَالَ إِنْ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةٌ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أَرَاهُ فَوْقَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^(٢).

ومن التحضيض ما ورد عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ». فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ: أَعَدَّهَا عَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفَعَلَ ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣).

وكان النبي ﷺ يحرص، فيقوم بالتعبئة العامة محافظة على أمن المجتمع، وإبقاء لجانب القوة مشتتلاً في حياة الناس، ولكن الجهات الخاطئة تستخدم هذه النصوص للتغريب بشباب المسلمين، وللإفساد في الأرض، وكم تدخلت المؤسسات المخبرانية التي تستخدم الأساليب القذرة لإيقاع بعض الشباب في الغلو، ثم استخدام مثل ذلك ذريعة لتكوين (الإسلامفوبيا)، وقد وجب أن يحذر المسلمون

(١) مقاييس اللغة (٢ / ٤١).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٩) رقم ٢٧٩٠.

(٣) صحيح مسلم (٦ / ٣٧) رقم ١٨٨٤.

من الغلو كما يحذرون من الفسق والجفاء، وأن يحذروا من التلاعب بالنصوص، فبعضهم يأخذ مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) ليحل ما حرم الله ويبيحه، ويسوغ الفسق، وبعضهم يستخدمون هذه النصوص التي تحض المسلمين على الجهاد في سبيل الله، لاستخدامها في غير مواضعها، وحسبك أن تفهم النص القرآني وفق الذي حدده النص نفسه، وطبقه الرسول ﷺ، وليس حسب الأهواء.

وختم الله هذا القانون بتبصيرنا بالاعتماد على بأس الله وتنكيله بعد تمام الاستعداد، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

فالتحريض، والتعبئة العامة يؤديان إلى اختيار الأفراد الذين يستجيبون للقيام بمتطلبات الأمن العام طوعية لا جبراً، وبذا يبقى الصادقون قائمين بعبء الحماية دون خوفٍ من اختراق، وهنا تأتي النتيجة المتوقعة للقيام بالواجب ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وعسى من الله تدل على تحقق ما بعدها في الواقع، ولكنه تحقيقٌ مبنيٌّ على تعليق أي: لا بد من ضرورة الإعداد، وحتى لا تحجبك الأسباب المادية والبشرية عن المسبب يختم الله ذلك بقوله ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ ليبين ضرورة الاعتزاز بالله وانتظار مدده بعد بذل الأسباب، فالله أشد بأساً أي قوة من مكر عدوك، ومن قوة صديقك، وهو أشد تنكيلاً، أي: منعاً لإفساد المفسدين، ولكنه يختبركم لتكونوا أدوات هذا المنع، فقد قال: ﴿فَتِلْوُهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ (التوبة: ١٤)، و(التنكيل) من قولهم: نَكَلْتُ بِهِ تَنكِيلًا، ونَكَلًا فعلت به ما يَمْنَعُهُ مِنَ الْمُعَاوَدَةِ وَيَمْنَعُ غَيْرَهُ مِنْ إِيْتَانٍ مِثْلِ صَنِيعِهِ، كَأَنْ عَاقَبْتَهُ فِي جُرْمٍ أَجْرَمَهُ عُقُوبَةً تُنَكِّلُ غَيْرَهُ، فنكَل عَنِ الْأَمْرِ يَنْكُلُ عَنْهُ نُكُولًا: إِذَا جَبُنَ عَنْهُ وَامْتَنَعَ، و«نكلت

بفلان، فأنا أنكل به تنكيلاً»، إذا أوجعته عقوبة؛ لينكل غيره عن الشيء، أي: ليمتنع ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (النساء: ٨٤) يعني عقوبة تمنع الناظرين لها أو السامعين عنها من أن يعاودوا إلى ارتكاب جرائم مماثلة لجرائم من قبلهم.

وموضع هذا التذليل للآية عجيب وعظيم؛ لاحظ قوله تعالى ﴿فَقَنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ينبغي أن تجتهد فيما يجب عليك أثناء المعركة ولا تلتفت لمن يتخلف عنك ممن حولك ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإن كثيراً من أصحاب الموازنات الخاطئة يحسبون الحسابات المخيفة عندما ينظرون إلى واقعهم مقارنة ذلك بواقع غيرهم غير عابئين بمقتضى العقيدة الإيمانية من نصره الله وتوفيقه، وقوته، وتكون هذه الحسابات مدمرة لوجودهم الحقيقي، فيذكرهم الله بصيغة التفضيل بأنه أشد بأساً ممن يخافون، هل يعني هذا أن البشر لهم شدة؟ نعم لهم شدة لكنها لا شيء... ليست حقيقة أمام شدة الله عز وجل، وهو أشد تنكيلاً ممن يرتعدون من قواهم، مع أن صيغة التفضيل هنا لا حقيقة لها؛ إذ لا موازنة بين قوة الخالق، وقوة المخلوق.

لماذا هذه التعبئة العظيمة للقتال في سبيل الله؟

للحفاظ على الأرض لئلا يتم الإفساد فيها أو تسفك فيها الدماء، وللحفاظ على الجنس البشري ليتكاثر ويعمر الأرض، ولانتزاع حقوق المستضعفين من كبار مجرمي العالم، ومستكبريه، ولإحلال السلام، فأعظم سبل ترك القتال الاستعداد للقتال، وهو الذي يسمى توازن الردع، وفي أيامنا ترى توازن الردع مباحاً لجميع أهل الأرض إلا للمسلمين، وتسمع توازن الردع النووي، لماذا لا يكون هذا لجميع شعوب أهل الأرض؟ لماذا يكون لكيانات وأنظمة محددة وهي الأكثر جنوناً في العالم، وفق ما نراه في أيلولة الحضارة المعاصرة وواقعها.

وتعال إلى صفحات النور لترى التطبيق النبوي العملي لهذه الآية التي تنقلك لتعيش في رحاب رسول الله ﷺ:

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ أَحَدٍ وَبَلَّغُوا الرُّوحَاءَ، قَالُوا: لَا مُحَمَّدًا قَتَلْتُمُوهُ، وَلَا الْكَوَاعِبَ أَرَدْتُمْ، وَيَسَّ مَا صَنَعْتُمْ ارْجِعُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَبَّ النَّاسَ فَانْتَدَبُوا حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الْأَسَدِ وَبَثَّرَ أَبِي عِنَبَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ (آل عمران: ١٧٢) وَقَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَوْعِدُكَ مَوْسِمٌ بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا، فَأَمَّا الْجَبَانُ فَرَجَعُوا، وَأَمَّا الشُّجَاعُ فَأَخَذَ أَهْبَةَ الْقِتَالِ وَالتَّجَارَةَ، فَلَمْ يَجِدُوا بِهِ أَحَدًا وَتَسَوَّفُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قَالَتْ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ، وَأَبُو بَكْرٍ لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أَحَدٍ وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، قَالَ: مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا قَالَ كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَالزُّبَيْرُ^(٢).

ويحكي الواقدي كيف كانت القيادة النبوية في مقدمة الصفوف على الرغم من الجراحات الخطيرة التي أصابت النبي ﷺ وكيف حرض النبي ﷺ المؤمنين على القتال، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَمَعَهُ وَجُوهُ الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ، وَكَانُوا بَاتُوا فِي الْمَسْجِدِ عَلَى بَابِهِ - سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَأَوْسُ بْنُ خَوْلِيٍّ، وَقَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَعُبَيْدُ بْنُ أَوْسٍ فِي عِدَّةٍ مِنْهُمْ. فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الصُّبْحِ أَمَرَ بِلَالًا أَنْ يُنَادِيَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ

(١) السنن الكبرى للنسائي (١٠ / ٥٥) برقم ١١٠١٧.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ١٣٠) برقم ٤٠٧٧.

بِطَلَبِ عَدُوِّكُمْ، وَلَا يَخْرُجُ مَعَنَا إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْقِتَالَ بِالْأَمْسِ. قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَاجِعًا إِلَى دَارِهِ يَأْمُرُ قَوْمَهُ بِالْمَسِيرِ. قَالَ: فَلَمَّا نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ وَالْجِرَاحُ فِيهِمْ فَاشِيَةً قَالَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْ بَنِي سَلَمَةَ!

هذا التطبيق النبوي للأمر الإلهي ﴿فَقَنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿قلب الموازين فاستحالت الهزيمة في أحد فوراً عظيماً.﴾

القانون التاسع: يجب أخذ زمام المبادرة إلى نصرة أصحاب القضايا العادلة، ببذل الشفاعة لهم، وهي تعني القيام بكل ما يُستطاع؛ لإنجاح الأعمال بدعم القيادات الراشدة، وشفعها بالعاملين، أو الشفاعة لقضاء حاجة المحتاجين، إذ هي من الشفع الذي يعني جعل الفرد شفعا. وَيُصَرِّفُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كُفْلٌ مِنْهَا﴾ (النساء: ٨٥).

فالشفع يدل على اقتران شَيْئَيْنِ، ولذا يقال للزوجي من العدد: شفع، فيقال: كَانَ وَتَرًا فشفعته بآخر، فالشافع الذي انضم لغيره ليعضده ويساعده في تحقيق المطلوب كما قَالَ الْأَعَشَى:

وَاسْتَشْفَعْتُ مِنْ سَرَاةِ الْحَيِّ ذَا شَرَفٍ فَقَدْ عَصَاهَا أَبَوْهَا وَالَّذِي شَفَعَا^(١)

فحقيقة الشفاعة أن تنصر غيرك، وتشفع فرديته، والكلام هنا عن النصر في القتال، لكنه يشمل كل نصر حتى في القيام بالشفاعات لقضاء الحاجات، ويمكن أن تكون الشفاعة بالعكس بمساعدة المعادين، فقد حُكِيَ: إِنَّ فَلَانًا يَشْفَعُ (لي) بِالْعَدَاوَةِ، فَالشفاعة: الوَسَاطَةُ فِي إِصْصَالِ خَيْرٍ، أَوْ دَفْعِ شَرٍّ، سَوَاءٌ كَانَتْ بِطَلَبٍ مِنْ

(١) ديوان الاعشى (٣١ / ١).

الْمُتَنَفِّعِ أَمْ لَا^(١)، فإما أن تكون الشفاعة لتنمية المجتمع، إن كانت في مكانها، وإما أن تكون لتدمير الإنجازات، إذا كانت فاسدة، والشفاعة بذلك أن تصير غيرك شفعا بعد أن كان وترا فردا لا أنيس له مع احتياجه، فيشمل ذلك أن تنصره بنفسك، أو أن تشفع له أي تكون واسطة في إيصال خير له أو دفع شر عنه ليستطيع إنجاز أهدافه، سواءً كَانَتْ بِطَلَبٍ مِنَ الْمُتَنَفِّعِ أَمْ لَا، وسواء أكانت بحق أم بباطل.

والشفاعة تدل على القيام بكل ما يستطيع؛ لإنجاح الأعمال بدعم القيادات الراشدة، وشفعها بالعاملين، أو الشفاعة للمحتاجين لإيصالهم إلى المكان المناسب لهم، فهذه تدخل في التحريض، فالله -تعالى مجده- كما أمرك أن تستقيم بما قمت بالتحريض عليه ﴿فَقَنْلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ (النساء: ٨٤) يحض الله جل عزه المستمعين أن يقوم بعضهم ليؤيدك، فإن قام بعضهم لتأييدك فشفعك في عملك فيتحمس الآخرون لفعل الأمر ذاته، وهذا ما حصل عندما حرض النبي ﷺ على الصدقة، فلم يتقدم أحد حتى تغير وجه النبي ﷺ، فعزز الله نبيه بواحد من الأنصار شفع بتحركه حيث جاء بصرة من ذهب، فاثال الناس من كل حذب وصوب؛ لأجل التقديم والإعانة بالصدقات حتى تهلل وجه النبي ﷺ فعن جرير رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النَّمَارِ -يلبسون النمار: جمع نمرة وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب- أَوْ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرٍ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرٍ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَا لَا فَاذَنْ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، وَالْآيَةُ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر: ١٨). تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٤٣).

دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ (وهو الشيء المموه بالذهب)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

وذكر الشَّفَاعَةَ في هَذَا السِّيَاقِ؛ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ قد تؤثر إيجابًا وسلبًا في نجاح القيادة النبوية وكل قيادة في التعبئة العامة التي قال الله ﷻ عنها من قبل: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النساء: ٨٤)؛ فَإِنْ كَانَتِ الشَّفَاعَةُ حَسَنَةً أدَّتْ إِلَى النِّجَاحِ وَإِذَا كَانَتِ شَفَاعَةً سَيِّئَةً، فَقَدْ تَبَعَدَ النَّاسُ عَنْ وَاجِبَاتِهِمْ، وَتَزَيَّنَ السُّوءُ وَتَوَدَّى إِلَى الْفَشَلِ فِي الْإِدَارَاتِ إِذَا كَانَتِ شَفَاعَةً سَيِّئَةً، إِذْ قَدْ تَتِمَّ الشَّفَاعَةُ لِلْإِعَانَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ سِوَاءِ أَكَانَ ذَلِكَ فِي الْقِتَالِ كَمَا فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ، أَمْ فِي غَيْرِهِ، وَقَدْ تَوَثَّرَ بِالْعَكْسِ فَيُشْفَعُ الشَّافِعُ لِإِبْعَادِ النَّاسِ عَنْ وَاجِبَاتِهِمْ، وَتَزْيِينِ السُّوءِ وَالْفَشَلِ فِي الْإِدَارَاتِ.

فالفرق بين الشفاعتين:

أَنَّ الشَّفَاعَةَ الْحَسَنَةَ أَنْ يَشْفَعَ الشَّافِعُ لِيُصْنَعَ النِّجَاحُ فِي الْخَيْرِ، وَيُزِيلَ الضَّرَرُ عَنِ الْغَيْرِ كِإِزَالَةِ ضَرَرٍ أَوْ رَفْعِ مَظْلَمَةٍ أَوْ تَنْمِيَةِ مَصْلَحَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ، أَوْ الْقِيَامِ بِمَنْفَعَةٍ إِلَى مُسْتَحِقِّهَا لَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا ضَرَرٌ وَلَا ضِرَارٌ، أَوْ نَصْرَةِ الْجَدِيدِ بِالنَّصْرِ، وَمِنْ ذَلِكَ نَصْرَةُ الْقَائِدِ الَّذِي يَحْرِضُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يَجِدْ مُسْتَجِيبًا لَهُ، وَالشَّفَاعَةُ السَّيِّئَةُ الشَّفَعُ فِيمَا يُؤْدِي إِلَى تَكْرِيسِ الْفَشَلِ، وَإِيقَاعِ الضَّرَرِ عَلَى الْآخَرِينَ، كَأَنْ يَشْفَعَ فِي إِسْقَاطِ حَدٍّ، أَوْ هَضْمِ حَقٍّ، أَوْ

(١) أخرجه مسلم (٣ / ٨٧) برقم (٢٣٩٨).

إِعْطَاهُ لِعَيْرٍ مُسْتَحَقٍّ، أَوْ مُحَابَاةٍ فِي عَمَلٍ، بِمَا يَجْرُ إِلَى الْخَلَلِ وَالزَّلَلِ^(١)، ويحث الله على التشفيع للآخرين في الأمور الحسنة فيقول: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ فوعد الله بنصيب من الأجر مماثل لكل واحد شفع فيه، بل روى الطبري عن الحسن عليه السلام قال: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً﴾ كتب له أجرها ما جرت منفعتها^(٢).

والآية تصنع وعيك لتكون في أعلى درجة من الإيجابية، بأن تشفع غيرك شفاعة حسنة لتكون النتائج الإيجابية مبهرة، وذلك يتحقق بأن ينضم إلى هذا الذي لا يكلفه الله إلا نفسه، أو يدعو إلى انضمام الناس أثناء التحريض على الخير، فيشفعه بنفسه وبغيره كما فعل صاحباً موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبُّلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣) فعن أبي موسى عليه السلام قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ، أَوْ طَلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «اشْفَعُوا تُوجَرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ»^(٣).

وهذه الشفاعة الحسنة قد تسبب نتائج رائعة، فتؤدي إلى تقديم الشخصيات المؤهلة لأمكنيتها اللائقة في الصف المسلم بشفاعة حسنة من المقربين من أولي الأمر، مع أن الشافع قد لا يمتلك مؤهلات المشفوع له بقوته واقتداره؛ لكنه ينبغي أن يذكر أن وصول المشفوع له إلى ما وصل إليه إنما كان بسببه، فكل خير يجري على يديه يكون له نصيب منه، ومثل أجره.

وفي المقابل ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ فمن ينهزم أو يرتكب ما يزيد الأمر سوءاً، فيقوم بالتخذيل والتبطئة عن الصالحات، يكون قد شفع نفسه أو شفع غيره فانضموا لصفوف الخاذلين المخذلين؛ فيكون له كفل من هذه الشفاعة

(١) انظر: تفسير المنار (٥ / ٢٥١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٨٢).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ١٤٠) برقم (١٤٣٢).

السيئة، و«الكِفْلُ» هو النصيب والحظ من الجريمة والوزر والإثم، وأصل الكلمة تدل على تَصْمُنُ الشَّيْءَ لِلشَّيْءِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْكِفْلُ كِسَاءٌ يُدَارُ حَوْلَ سَنَامِ الْبَعِيرِ، وَيُقَالُ هُوَ كِسَاءٌ يُعْقَدُ طَرَفَاهُ عَلَى عَجْزِ الْبَعِيرِ لِيَرْكَبَهُ الرَّدِيفُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ يَدُورُ عَلَى السَّنَامِ أَوْ الْعَجْزِ، فَكَأَنَّهُ قَدْ ضُمَّنَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ الْكِفْلُ، وَهُوَ الضَّامِنُ، تَقُولُ: كَفَلَ بِهِ يَكْفُلُ كَفَالَةً. وَالْكَافِلُ: الَّذِي يَكْفُلُ إِنْسَانًا يَعْوَلُهُ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران: ٣٧)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِي﴾ (الحديد: ٢٨) ^(١)، فَالْكَفْلُ هُوَ الْحِظُّ الْمَضْمُونُ، وَالنَّصِيبُ الثَّابِتُ الْمَكْفُولُ الَّذِي يَكُونُ ذَخْرًا لِلْإِنْسَانِ يَكْفُلُهُ، فَبُئِسَ كَفَالَةُ السَّوْءِ يَدْخُرُهَا الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ «الشَّفَاعَةَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى سُقُوطِ الْحَقِّ وَقُوَّةِ الْبَاطِلِ تَكُونُ عَظِيمَةً الْعِقَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى» ^(٢)، كَمَا أَنَّ كَلِمَةَ «كَفَلٌ» تدل على أنه متكفلٌ بجرائرها - كما يقول سيد قطب رحمه الله: ^(٣) «فَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى الشَّفَاعَةِ فِي الْقِتَالِ أَوْ إِلَى الشَّفَاعَةِ فِي التَّخْذِيلِ وَتَبْيِيتِ غَيْرِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْأَمْرُ النَّبَوِيَّةُ، وَتَعْمُ كُلُّ شَافِعٍ بِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ» ^(٤).

ما سبب ذكر كلمة «نَصِيبٌ» للشَّفَاعَةَ الْحَسَنَةَ وكلمة «كَفَلٌ» للشَّفَاعَةَ السَّيِّئَةَ؟

النصيب القدر المحدد من نصب الشيء: أقامه ووضعه وضعا ناتئا كنصب الرُّمَحِ وَالْبِنَاءِ وَالْحَجَرِ، قَالَ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِي:

ظَلَّتْ أَقَاطِيعُ أَنْعَامٍ مُؤَبَّلَةً لَدَى صَلِيبٍ عَلَى الزُّورَاءِ مَنْصُوبٍ ^(٥)

فكلمة (نصب) تدل على إقامة شيء وإهداف في استواء، ولأن الشيء المنسوب

(١) مقاييس اللغة (٥ / ١٨٧).

(٢) تفسير الرازي (١٠ / ١٦٠).

(٣) في ظلال القرآن (٢ / ٧٢٥).

(٤) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٨١).

(٥) ديوان النابغة الذبياني (ص: ٩٢(٤).

يظل على حاله لا يتغير في إقامته يتخيل المرء معه لو كان الإنسان مكانه التعب والعناء، ولذا قالوا: النَّصْبُ وَالنَّصَبُ: التَّعَبُ: الْعَنَاءُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَزَالُ مُتَّصِبًا حَتَّى يَغِيَا، وقرئ: ﴿نُصِبَ وَعَذَابٌ﴾ (ص: ٤١)، والنَّصِيبُ: الْحِظُّ الْمَنْصُوبُ أَي: الْمُعَيَّنُ المحدد الذي صار في حكم المرصود لشخص فلا يمنع منه، ولا يحوزه غيره^(١)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ (النساء: ٥٣)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران: ٢٣)، وَهَذَا نَصِيبِي، أَي حَظِّي. وَهُوَ مِنْ هَذَا، كَأَنَّهُ الشَّيْءُ الَّذِي رُفِعَ لَكَ وَأَهْدَفَ. فاختيار التعبير بالنصيب هنا:

أولاً: يتناسب مع الأنصبة التي قسمها الله في الحقوق التي جعلها للرجال والنساء من الإرث وغيره بداية من قوله جل ذكره: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ (النساء: ٧).

ثانياً: يدل على أن الخير والأجور المترتبة على الشفاعة الحسنة ستكون كالشيء المنصوب الظاهر الذي يعود للشافع؛ إذ قد يترتب على شفاعته الأضعاف المضاعفة من الخير بسبب المشفوع له.

ثالثاً: يدل على أن الشفاعة الحسنة قد يقترن بها النصب أي: التعب والإعياء؛ لتحقيق أهدافها، فلا يحجزه النصب عن رؤية الفجر في النصيب الذي سيحصل له من الخير ورفعة المكانة عند الله جل في علاه.

وأما التعبير بكلمة ﴿كَفَلٌ﴾ في الشفاعة السيئة: فالكفل أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَضَمُّنِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وَالْكَفَالَةُ: الضَّمَانُ، تقول: تَكَفَّلْتُ بِكَذَا، وَكَفَّلْتُهُ فَلَانًا، وَالْكَفَلَ -محركة- الْعَجْزُ، وَمِنْ ذَلِكَ الْكِفْلُ: كِسَاءٌ يُدَارُ حَوْلَ سَنَامِ الْبَعِيرِ، وَيُقَالُ هُوَ كِسَاءٌ يُعْقَدُ طَرَفَاهُ عَلَى عَجْرِ الْبَعِيرِ لِيَرْكَبَهُ الرَّدِيفُ كَأَنَّهُ يَضْمَنُ لِلرَّاكِبِ الثَّبَاتَ، وللبعير

(١) انظر: تفسير المنار (٥ / ٢٤٩).

الإمكانية المريحة لحمل راحبه، ونتج من إطلاق الكفل على الكساء أو على عجز الدابة أن يقولوا لِلرَّجُلِ الْجَبَانِ كِفْلٌ، فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ فِي آخِرِ الْحَرْبِ إِنَّمَا هِمَّتْهُ الإِحْجَامُ فيكون في مؤخر الحرب بغية التأخر والفرار فَهَذَا إِنَّمَا شَبَّهَ بِالْكِفْلِ؛ لِأَنَّهُ مَحْمُولٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى مَشْيٍ وَلَا حَرَكََةٍ، شَبَّهُوهُ بِالْكِفْلِ^(١)، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَعْيَا فَنُطْنَاهُ مَنَاطَ الْجَرِّ ثُمَّ شَدَدْنَا فَوْقَهُ بِمَرٍّ^(٢)

وكأنه يحتاج إلى من يقوم به، ويهتم به كما يحتاج الكفل الذي على البعير إلى من يربطه، وقيمه ليعين الآخرين. وبذا يكون اختيار التعبير بالكفل في الشفاعة السيئة هنا في قوله ﷺ: ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾:

أولاً: يتناسب مع حجم الضمان الذي سيتحمله الشافع، فالفساد الذي أوقعته شفاعته بتقديم المشفوع له على غيره يتفاوت من شخص إلى آخر، فهناك الفساد الذي سيحدثه المشفوع له، وهناك الفساد الذي سيحدثه سيطرة المشفوع له على مكانٍ لا يستحقه بدلاً من الصلاح الذي كان سيحدثه من يستحق الشفاعة الحسنة.. الشافع ضامن في ذلك كله.

فالكفل هو النصيب المحدد من الوزر الذي سيكتسبه، وهو مكفول مضمون لا يظن أنه يفوته، ولذلك قالوا: إن الشفاعة السوء تبدأ من طلب الشيء لمن لا يستحق وتصل إلى إعانة الجماعة المخدولة المخذلة المبطئة التي تبيت غير ما جاء في التوجيهات النبوية، وتشمل أداء الأمانات إلى غير أهلها، وتولية المسؤوليات لمن لا يقوم بحقها، والشفاعة التي يبطل به حق، ويحق بها باطل من أعظم مدمرات المجتمع.

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص: ٧١٨).

(٢) انظر: لسان العرب ط دار المعارف (٦/ ٤١٧٦).

ثانيًا: يتناسب التعبير بالكِفل مع المعنى السِيء للكفل، فهو العجز أو الشيء الرديء، بسبب أن الكفل لمّا كان مركبا ينوب براكبه صار متعارفا في كلّ شدة، كالسيّساء، وهو العظم النّاتئ من ظهر الحمار، ويقال: لأحملنّك على الكفل، وعلى السيّساء، فيكون معنى الآية: من ينضمّ إلى غيره معينا له في فعلة حسنة يكون له منها نصيب، ومن ينضمّ إلى غيره معينا له في فعلة سيئة يناله منها شدة^(١).

ثالثًا: وقيل: الكِفل الكفيل، ونّبّه أنّ من تحرّى شرّا فله من فعله كفيل يسأله، كما قيل: من ظلم فقد أقام كفيلا بظلمه، تنبيهًا أنه لا يمكنه التّخلّص من عقوبته^(٢).

رابعًا: أما قوله ﷺ في سورة الحديد: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ (الحديد: ٢٨) أي: كفيلين من نعمته في الدنيا والآخرة، وهما المرغوب إلى الله تعالى فيهما بقوله: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (البقرة: ٢٠١) وقيل: لم يعن بقوله: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ أي: نعمتين اثنتين بل أراد النّعمة المتوالية المتكفّلة بكفايته، ويكون تثنيته على حدّما ذكرنا في قولهم: (لبيك وسعديك)^(٣).

ويرى الدكتور حسن جبل ﷺ أن المعنى المحوري يدور حول الادّعام على الشطر الخلفي من الشيء كالعجز للدابة والإنسان، ولحِظ في الكساء المذكور أنه يدعّم الراكب على مؤخر ظهر البعير، أي يثبته^(٤).

والظاهر عندي أنه لوحظ في التعبير عن الأجور في آية الحديد أن الله يحبو المؤمنين بكفيين من رحمته تثبتهم من الأمام والخلف أو عن أيماهم وبين أيديهم

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص: ٧١٨).

(٢) السابق (ص: ٧١٨).

(٣) السابق (ص: ٧١٧).

(٤) المعجم الاشتقاقي المؤصل، دمحمّد حسن جبل (٩٠٩/٤).

كما في نور الصراط يوم القيامة، والتعبير بالكفل هنا أقوى من التعبير بالنصيب، حيث يتصور المرء أنه أمر خارجي حيث تتضمن الشفاعة السيئة عون من لا يستحق لينال ما لا يحق، وذلك دعم له فكوفئ الشافع من جنس فعله؛ إذ يحمل وزره وأوزاراً متركمة بسبب فساد، وإيصاله فاسداً إلى مكان يفسد فيه بسبب شفاعته.

خامساً: وكلمة نصيب في سورة النساء بنيت على الفرحة، وتنبي عن عطاء، أما كلمة كفل فقد تدل على فرحة كما في سورة الحديد: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّفُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِيَكُمْ كَفَالَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ (الحديد: ٢٨)، أو على الحزن كما هنا، فكلمة ﴿كَفَلٌ﴾ تدل على ثقل شديد مضمون وعلى مسؤولية حقيقية، كما أن الكفل هو الكساء الذي يغطي سنام البعير، والكفيل يضمن غيره، فهو تنبيه إلى مدى مسؤوليته عن نتائج هذه الشفاعة السيئة التي بها بطاً عن الخير، أو أسهم في زيادة الشر والأضرار.

و «الحُكُومَةُ الَّتِي تَرْوُجُ فِيهَا الشَّفَاعَاتُ يَعْتَمِدُ التَّابِعُونَ لَهَا عَلَى الشَّفَاعَةِ فِي كُلِّ مَا يَطْلُبُونَ مِنْهَا لَا عَلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، فَتَضِيعُ فِيهَا الْحُقُوقُ، وَيَحُلُّ الظُّلْمُ مَحَلَّ الْعَدْلِ، وَيَسْرِى ذَلِكَ مِنَ الدَّوْلَةِ إِلَى الْأُمَّةِ فَيَكُونُ الْفَسَادُ عَامًّا» (١).

والآية تحذر من الفساد الكبير الذي يحل بالمؤسسات والمجموعات الإسلامية من جراء الشفاعات السيئة التي يتم بها تولية المناصب، وتوزيع الأدوار على غير المتأهلين، مما ينتج عنها البوار والخسار والدمار، وهنا يبتعد من الصف المسلم المستنبطون الحقيقيون عندما توجد الشفاعة السيئة؛ إذ يصل بها من لا يستحق إلى منصب أولي الأمر المستنبطين فيدمرون الصف المسلم؛ إذ لا يستطيع أولئك اتخاذ القرارات المناسبة في اللحظات المناسبة. وبذا فإن الشفاعة قد تسبب أحسن النتائج إذا كانت حسنة، وتسبب أسوأ النتائج إذا كانت سيئة.

(١) تفسير المنار (٥/ ٢٥١).

ولخطورة موضوع الشفاعة وإسهامها في صنع النجاحات أو تراكم الإخفاقات ختم الله بالتذكير بأخذ الحذر من رب البشر، الذي يحصي الأوقات والأعمال، فقال تعالى ذكره: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا﴾ (النساء: ٨٥).

فالمقيت القدير الذي يقوت الناس أي يمنحهم ما يقوتهم، ويقيم قواتهم ويمسكها لهم على قدر حاجتهم محصياً لها، من (قوت) التي تدلُّ على إمساكٍ، وَحِفْظٍ، وَقُدْرَةٍ عَلَى الشَّيْءِ، ومنه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ (فصلت: ١٠)، وَأَنَا أَقْوَتُهُ، أَي: أَعُوْلُهُ بِرِزْقٍ قَلِيلٍ، وَحَلَفَ الْعُقَيْلِيُّ يَوْمًا فَقَالَ: (لَا وَقَائِتِ نَفْسِي الْقَصِيرِ) وَمِنْهُ قَوْلُهُ: يَقْتَاتُ فَضْلَ سَنَامِهَا الرَّحْلُ أَي يَأْخُذُ الرَّحْلُ شَحْمَ سَنَامِ هَذِهِ النَّاقَةِ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ يُنْضِيهَا، فمعنى المقيت: الحَافِظُ الَّذِي يُعْطِي الشَّيْءَ قَدْرَ الْحَاجَةِ مِنَ الْحِفْظِ^(١)، وهذا يقتضي أن يكون شاهداً على كل شيء يحفظه بما يعطيه من قوت فيقوته به، ويقال ما له قوت ليلة وقيت ليلة، كما يقتضي أن يكون حسيباً على مقدار هذا القوت، ورجح الطبري رحمه الله أن يكون معنى «المقيت»، القدير، واعتضد بقول للزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ:
وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيْتًا^(٢)

أي: قادراً. والمختار عندي أن قول الإمام الطبري لا يتناول كل معاني الاسم، فالمقيت أيضاً الشاهد على كل شيء، يحفظه بما يعطيه في كل نفس يقتات فيه، ومن ذلك إحصاؤه لما يبيت، وما يظهر من تعضيد الناس في الخير، والدفاع عن حقوق المستضعفين، أو التعاون على الشر. وبناء على أوضחנו يكون معنى وكنت على مساءته مقيتاً أي حفيظاً شاهداً حسيباً أحسب أنفاسه لقوتي وبأسي كما يحسب

(١) تهذيب اللغة (٩ / ١٩٧).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٨٤).

المقيت حساب من يقوته، ومن ذلك قول السموأل بن عاديما فيما صحح روايته أبو سعيد السيرافي:

رُبَّ شَتْمٍ سَمِعْتُهُ وَتَصَامُمٍ تَغَيَّيْتُ تَرْكُتُهُ فَكُفَيْتُ
لَيْتَ شِعْرِي وَأَشْعُرَنَّ إِذَا مَا قَرَّبُوهَا مَنْشُورَةً وَدُعِيْتُ
أَلَيَّ الْفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إِذَا حُوِّسْتُ. رَبِّي عَلَى الْحِسَابِ مُقَيَّتٌ^(١)

أي: أنني سأوقف على الحساب فيحصى ربي علي كما تحصى حاجة المرء لما يقاته. وذكر القفال في مناسبة ختم الآية بهذا الاسم المبارك من أسماء الله عز وجل أنه تعالى قَادِرٌ عَلَى إِصْصَالِ النَّصِيبِ وَالْكَفْلِ مِنَ الْجَزَاءِ إِلَى الشَّافِعِ مِثْلَ مَا يُوصِلُهُ إِلَى الْمَشْفُوعِ فِيهِ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَلَا يَنْتَقِصُ بِسَبَبِ مَا يَصِلُ إِلَى الشَّافِعِ شَيْءٌ مِنْ جَزَاءِ الْمَشْفُوعِ، أَوْ هُوَ تَعَالَى حَافِظُ الْأَشْيَاءِ شَاهِدٌ عَلَيْهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ^(٢).

والذي يظهر - مع هذا المعنى - أنه تعالى أراد أن يبين أنه يحصى الأشياء بدقة متناهية كما يحصى القوت الذي يأتي على مقدار الحاجة، ومن ذلك إحصاؤه لما بُيِّت وما يظهر من تعصيد الناس في الخير والدفاع عن حقوق المستضعفين، أو من مساعدة الناس في الشر.

القانون العاشر: مبادلة التحية في التعامل مع الناس أجمعين في السلم والحرب، ويُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ (النساء: ٨٦).

التَّحِيَّةُ تَفْعَلَةٌ مِنْ حَيَّيْتُ، أي: ناديت ببقاء الحياة، فالأصلُ تَحْيِيَّةٌ مِثْلُ تَرْضِيَّةٍ

(١) ديوان السموأل (ص / ٦).

(٢) تفسير الرازي (١٠ / ١٦٠).

وَتَسْمِيَةٍ، فَأَدْعُمُوا الْيَاءَ فِي الْيَاءِ، وَقَالَ النَّابِغَةُ الدُّيَانِيُّ:

تَحْيِيَّتُهُمْ بِيَضِّ الْوَلَائِدِ بَيْنَهُمْ وَأَكْسِيَّةِ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ ^(١)
وَعَادَةَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ إِذَا لَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَالُوا: حَيَّاكَ اللَّهُ، وَاشْتَقَاقُهُ
مِنَ الْحَيَاةِ كَأَنَّهُ يَدْعُو لَهُ بِالْحَيَاةِ.. بِذَلِكَ، قَالَ عَنَتَرَةُ:

حَيَّيتُ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ^(٢)

وَقَالَ آخَرُ:

إِنَّا مُحَيُّوكِ يَا سَلْمَى فَحَيِّينَا ^(٣)

فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ خَصَّ اللَّهُ التَّحِيَةَ بِلَفْظٍ أَجْمَلٍ وَأَعْلَى وَأَرْقَى وَأَنْقَى وَأَبْقَى
وهو السَّلَامُ؛ لأنها تتضمن السلام مع وجود الحياة معها، وفي تقديم كلمة السلام
على المخاطب تقديم لاسم الله، وإشاعة للسلام؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ
يَلْقَوْنَهُ، سَلَامٌ﴾ (الْأَحْزَابِ: ٤٤)، ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكََةً
طَيِّبَةً﴾ (النُّور: ٦١)، ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾، وَمِنْهُ قَوْلُ الْمُصَلِّي:
التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، أَيِ: السَّلَامُ مِنَ الْآفَاتِ لِلَّهِ ^(٤)، فقولنا في الشَّهْدِ التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ أَيِ: تثبت
الحياة الكاملة لله التي لا ينغصها شيء ولا تعتربها الآفات، فتحية الإسلام: السلام
عليكم أجمل وأقوى من حياك الله، وَرَدُّ الْأَحْسَنِ أَنْ يَزِيدَ فَيَقُولُ: وعليكم السَّلَامُ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ، لِمَنْ قَالَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، ثم يزيد وبركاته لمن زاد في الابتداء كما قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْبَيْتِ الْكَرِيمِ ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنُهُ﴾، ويبين ذلك قول رَسُولِ اللَّهِ

(١) تفسير القرطبي (٥ / ٢٩٨).

(٢) المعلقات العشر (٩ / ١).

(٣) ديوان الحماسة (١ / ٢٥).

(٤) تفسير الرازي (١٠ / ١٦١).

﴿الْبَلَدِ﴾: «خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيَاكَ النَّفَرِ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحْيَتُكَ وَتَحْيَةُ ذُرِّيَّتِكَ - قَالَ - فَذَهَبَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ»^(١).

المناسبة والاتصال:

وتظهر المناسبة والاتصال بين آية التحية هذه مع جو السلم والقتال الذي قبلها والذي بعدها في الآيات في ثلاث جهات:

أما أولاها: فيدخل ضمن من تُرد عليه التحية المسلمون والمنافقون والمحاربون، فذكر الله المبطلين وأمر بالإعراض عنهم والحذر منهم، ولكنه بين هنا أن ذلك لا يعني عدم رد تحيتهم بأحسن منها أو ردها على الأقل لا يعني عدم التعامل معهم بالخلق الشرعي الحسن المتين المنضبط بالضوابط الشرعية، والتحية من أفضل وسائل زرع المحبة والمودة بين الناس، «وَمَعْنَى ﴿رُدُّوْهَا﴾ رُدُّوْا مِثْلَهَا، لِظُهُورِ تَعَذُّرِ رَدِّ ذَاتِ التَّحِيَّةِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ، وَلَكِنَّهُ أَخْتُ فَلَهَا نَصْفٌ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ (النساء: ١٧٦) فَعَادَ صَمِيرٌ ﴿وَهُوَ﴾ وَهَاءُ ﴿يَرِثُهَا﴾ إِلَى اللَّفْظَيْنِ لَا إِلَى الدَّائِنِ»^(٢).

بل إن التحية مقدمة رائعة لزرع فتيل الحروب المستعرة، فَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حِيْتُمْ بِنَحِيَّةٍ فَحِيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١)؛ إذ يلتقي المسلم مع الآخرين غيره من المسلمين، والمسالمين، والمنافقين، والمعتدين، فيدخل كل هؤلاء ضمن من تُرد عليه التحية، فاستراتيجية أخذ الحذر لا تعني عدم رد التحية على المعتدين فضلاً عن غيرهم، ولا تعني عدم التعامل معهم

(١) البخاري (٤/ ١٦٠) برقم (٣٣٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٤٧).

بالخلق الشرعي الحسن المتين، المنضبط بالضوابط الشرعية، وفي ذكرها تخفيف على المسلمين في لقاءهم المحاربين حال المفاوضات؛ إذ إن الآية بظاهرها تدل على جوازها حتى بين المسلمين والمحاربين خلافاً لأهل العلم الذين قالوا بضد ذلك، فرد السلام على أهل الذمة واجب كالرّد على المسلمين، وإليه ذهب ابن عباس والشعبي وقادة تمسكاً بعموم الآية وبالأمر بالرّد عليهم في صحيح السنة^(١). وقد قال إبراهيم في قوله لأبيه ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾، وأما حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ»^(٢)، فيظهر أن ذلك لحالة خاصة تقتضي ذلك، وإلا فالخلق الحسن من الأمور القطعية.. رأيت رجلاً غفر الله له بسقيا كلب، فكيف بالتعامل مع من قال الله فيهم: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٣).

وفي صحيح البخاري قال عمار: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ»، فالإسلام دين السلام. وهو لا يقاتل إلا لإقرار السلام في الأرض، بمعناه الواسع الشامل^(٤)، ويدل لذلك ما ورد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»^(٥)، ويتم الرد حتى لو كان المراد من التحية السوء والعبث والكيد كما روى البخاري عن عائشة، رضي الله عنها،

(١) تفسير القرطبي (٥ / ٣٠٤).

(٢) صحيح مسلم (٧ / ٥) رقم ٤٠٣٠.

(٣) وقول الطبري في تفسيره (٨ / ٥٨٨): «وذلك أن الصّاح من الآثار عن رسول الله ﷺ أنه واجب على كل مسلم ردّ تحية كل كافر بأحسن من تحيته» قول لا تظهر وجاهته، والله أعلم.

(٤) في ظلال القرآن (٢ / ٧٢٦).

(٥) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ١٠) رقم ٢٨.

زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا السَّأْمُ عَلَيْكُمْ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهَّمْتُهَا، فَقُلْتُ: «وَعَلَيْكُمْ السَّأْمُ وَاللَّعْنَةُ»، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ»^(١).

وأما ثانيها: فذكر القرطبي: «أَنَّهُ قَالَ: إِذَا خَرَجْتُمْ لِلْجِهَادِ كَمَا سَبَقَ بِهِ الْأَمْرُ فَحَيِّتُمْ فِي سَفَرِكُمْ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، فَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا، بَلْ رُدُّوا جَوَابَ السَّلَامِ، فَإِنَّ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ تَجْرِي عَلَيْهِمْ»^(٢).

وأما ثالثها: فهناك مناسبة جميلة تظهر في اتصال آية التحية بآية الشفاعة قبلها، فالشفيع يدخل على المشفوع عنده.. وكأن الله يحث المشفوع عنده أن يرد التحية؛ لتتم المؤانسة بين الطرفين، فتقضى الحاجة وتقبل الشفاعة، وفي إيجاب الرد زجر لمن يأتي الناس إليه بشفاعاتهم الحسنة أن يضيق بكثرة الشفاعات، أو يتعالى عن ذلك لمكانته أو سلطانه، والعجيب من حال الناس هذه الأيام أن يبسط الله لهم في الجاه والعز والسلطان وبدلاً من أن يتخذوها مطية لآخرتهم ليسبق الناس في منازل الآخرة العلية يجعلونها وسيلة للتبرم وكثرة الشكوى من كثرة تردد المحتاجين عليهم.

ولأهمية الرد على التحية في إشاعة السلام في العالم يختم الله جل مجده الآية بالرقابة على محاولات مراوغة القوانين السابقة، فيذكر الناس بأنه حسيب على كل شيء. ويُبَصِّرُنَا بهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٨٦)، فمرجع الحساب التفصيلي النفسي، والفكري إلى الله تعالى.

وهذا يذكر بالبعد الإيماني (العقدي) في موضوع حماية المستضعفين، وأخذ الحذر

(١) أخرجه البخاري (٤ / ٤٤) برقم (٦٠٢٤).

(٢) تفسير القرطبي (٥ / ٢٩٨).

في التعامل مع الوحشية الرهيبة التي تجتاح العالم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٨٦) فتطيعوه في السلم والحرب، والمنشط والمكره، وكما أمركم بالحذر من المخذلين ومحاربة المعتدين فقد أمركم بالسلام على العالمين، والحسب إما أن يكون من الحساب بمعنى المحاسب الذي يحسب كل شيء، فيحسبه، ولذا عدي بـ ﴿عَلَى﴾، وإما أن يكون من الحُسْب، أي: الكفاية فالحسب الكافي الذي يكفي أي: يُعْطِي كل شَيْءٍ من الْعِلْمِ وَالْحِفْظِ وَالْجَزَاءِ مِقْدَارَ مَا يُحْسِبُهُ أَي يَكْفِيهِ تَقُول: حَسْبُكَ هَذَا أَي اكَتَفِ بِهَذَا^(١)، وَأُكِّدَ وَصَفُ اللَّهِ بِحَسْبٍ بِمُؤَكِّدَيْنِ: حَرْفُ ﴿إِنَّ﴾ وَفِعْلُ ﴿كَانَ﴾ الدَّالُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ وَصْفٌ مُقَرَّرٌ أَزَلِي.

ثم ختم الله هذه الأقسام بالتذكير بأهم المفاهيم التي تشكل قنطرة تصل الأقسام السابقة بالأقسام اللاحقة فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧) فبين هنا الصفتين العظيمتين اللتين تبيينان هيئته على كل الأحداث الكونية، وتذكر بمعيته لها: الوجدانية في الألوهية، والصدق في الحديث.

فكونه مقيتاً حسيباً يعني بأنه الواحد، فكأنه قيل: من هو الله المقيت الحسب على كل شيء؟ فيجيبه الجواب: بأنه ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (النساء: ٨٧)، فليس الله إلهاً دنيوياً زائفاً، ولا هو تعالى جده مؤسسات تُمنح التبرعات؛ لأجل تملك قراراتهم، بل هو الواحد الذي لا يمكن أن يكون معه شريك، وقد ضرب لكم أجلاً مسمى للحساب في يوم لا ريب فيه، أي: لا تهمة حقيقية يمكن أن تنفي وقوعه، ولا شك يمكن أن يتطرق لتحقيقه.. متى هذا اليوم؟

إنه يوم القيامة، وَسُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ قِيَامَةً؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ لِلْحِسَابِ

(١) تهذيب اللغة (٤/ ١٩٢).

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين: ٦)، وحتى يقطع المقارنة بينه وبين غيره من المخلوقين ذكر بعظمة حديثه جل في علاه فقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧)، أفلا تعدون أنفسكم للقائه؟

والصدق معناه مطابقة الخبر للواقع.. فلا يمكن أن يحدث الله بحديث إلا كان مطابقاً للواقع سواء أكان خبراً عن ماضٍ أم كان خبراً عن حاضرٍ أم كان خبراً عن مستقبل.. مهما حالت بالنسبة إلينا حجب الأزمنة أو سترته عنه حجب الأمكنة، فإن الله خالق الزمان والمكان والحال لا بد أن يكون حديثه مطابقاً لما يحدثه أو يأذن بحدوثه. ولا يمكن أن يتصور تطرق الكذب إليه - جل في علاه - وذلك أن الكاذب إنما يكذب ليجتلب بكذبه إلى نفسه نفعاً، أو يدفع به عنها ضرراً. والله تعالى ذكره خالق الضر والنفع، فغير جائز أن يكون منه كذب؛ لأنه لا يدعوه إلى اجتلاب نفع إلى نفسه أو دفع ضرر عنها^(١).

خاتمة في ذكر الأحكام البديع لآيات القرآن المجيد في هذا الموضع:

أليست قصة رائعة أن تدرك هذا الاتصال المحكم لموضوعي الشفاعة والتحية بالجو العام المحيط بهما في السورة؟

فهنا تدرك بإعجاب الصلة الوثيقة لذكر الشفاعة والتحية في سياق الكلام عن مبدأ السلام الأمن الداخلي والسلام العالمي، فتأمل المسألة معي:

لقد ذكر الله قبل هاتين القضيتين كلاماً عن أخذ الحذر وإنقاذ المستضعفين وكف اليد، وضرورة القتال عندما يُكْتَبُ، أي: عندما يجب القيام به، ثم أنبأك عن أهمية طاعة القيادة النبوية، وحال المتلاعبين الذين يظهرون الطاعة للقيادة النبوية

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٥٩٣).

وهم يتآمرون ضد أقوال النبي ﷺ، وأخبرك كيف تتعامل مع الشائعات في مجالي الأمن والخوف، وحرص النبي ﷺ على القتال عندما يجب ولو كان منفرداً.. هنا جاءت مسألة الشفاعة، وجاءت قضية التحية..

دعنا ننظر ما بعد ذلك: لقد جاء الكلام عن كيفية التعامل مع العالم بناء على كف الأيدي وإلقاء السلم وهجرة المسلمين لديار المحاربين الوثنيين في مكة، ثم يذكر الله بعد ذلك حرمة الدماء، وحرمة قتل الآخرين ما داموا ألقوا السلام أو السلم أو الإسلام. ومن خلال هذا السياق يتضح أن الشفاعة جاءت في موضعها البديع لتتكلم أولاً عمن يجعل النبي ﷺ شفيعاً بتكثير أنصاره بدلاً من أن يكون واحداً فقط، وهكذا من قام بالحق بعده، فهذا المقصد الأساسي لإيراد الشفاعة في ذلك الموضع، وبعد ذلك يمكن التوسع في إيراد قضايا الشفاعة الأخرى؛ وكذلك ما يتعلق بالتحية فإنها وردت في سياق عسكري أمني، وفي أثناء الكلام عن وجود حالتي الأمن أو الخوف، وضمن محور عام يرتبط بتوازن الردع وإحلال السلام، فذكرها إنما هو لكيفية التعامل مع مَنْ يحيي المسلمين من الآخرين، فهذا المقصد الأصلي من إيرادها بدلالة السياق، ثم يدخل بعد ذلك قضايا التحية التي يذكرها علماً أننا في كتبهم لكن دون إغفال للسياق الأصلي الذي وردت فيه التحية في هذه السورة.

وعند الشعور بالوصول إلى هذا المعنى يجد المرء المدى الضخم لظهور الكتاب المجيد مفصلاً حسب الأحكام الحق، ولا يملك إلا أن يردد قوله تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَهْكَمَتْ أَيْنُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).



القِسْمُ الثَّامِنُ

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام
العالمي: إلقاء السلم، وكف الأيدي، وعدم التعاون مع
المعتدين (النساء: ٨٨-٩١)

آيات هذا القسم:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا
مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا
تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ
حَصْرَتِ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْنَلُوكُمْ قَوْمُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ
اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْنَلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠﴾ سَتَجِدُونَ
ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ
وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا
لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۝ (النساء: ٨٨-٩١).

المناسبة والاتصال:

ها هي الرعاية الإلهية المستمرة؛ لتمد أوليائها من التصرفات الراشدة مدًا..
أمدتهم بفهم حقيقة الحياة، وكيفية الوجود الإنساني، وكيفية التكاثر الإنساني..
أمدتهم بمنظومة الحقوق المدنية التي تبين الامتيازات كما تبين التبعات والواجبات؛
لأجل القيام بالقسط، وأمدتهم بالاستراتيجيات اللازمة لحماية الوجود الإنساني،

وإنقاذ المستضعفين في الأرض، فعَدَّد الله في الأقسام السابقة عددًا من الأصناف التي تشكل خطرًا على المجتمع، وبين كيف تحاول هذه الأصناف جهلاً أو عمدًا تدمير حالة السلام العام، واختراق الحالة الأمنية لإضعاف سياسة (أخذ الحذر)، والتلاعب بالحقوق الإنسانية، ومن هؤلاء الأصناف:

الصنف الأول: الذين يزعمون الإسلام لكنهم يأبون التحاكم إلى شريعته، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّلْعُوتِ...﴾ (النساء: ٦٠، ٦١).

الصنف الثاني: الخاذلون المخذلون عن أداء الواجب في حماية المجتمع، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لُيَبِّطَنَّ﴾ (النساء: ٧٢).

الصنف الثالث: المتحمسون المندفعون المتهورون الذين يزعمون أنهم أصحاب المبادئ العظيمة التي لو اقتضى الأمر فسيكونون شهداء في سبيلها، ثم يخشون الناس عند ساعة الصفر، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء: ٧٧).

الصنف الرابع: الذين يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء: ٧٧).

الصنف الخامس: الذين يسندون وقوع المصائب إلى الذين يأمرهم بالقسط من الناس، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ (النساء: ٧٨).

الصنف السادس: المتآمرون لمنع تطبيق التوجيهات النبوية، قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ (النساء: ٨١).

الصف السابع: الذين ينشرون الشائعات حول القضايا الكبرى لتضييع أمن المجتمع، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ (النساء: ٨٣).

ثم سيذكر الله الصف المنافق المحض الذي لا عمل له سوى الحرص على هزيمة المجتمع المسلم، وتدميره، وسيذكره الله تعالى جده في هذا القسم ثم يفصل ما يتعلق به ابتداء من الآيات: (١٣٨).

وكل هؤلاء الأصناف يؤدون الأمانات إلى غير أهلها، ولا يحكمون بالعدل، ويحاربون قيام الإدارة الراشدة؛ فيؤدي ذلك إلى إزهاق أرواح الأبرياء، وسفك الدماء، ونشر الفساد في الأرض، وتضييع الحقوق، وتحل المآسي، وتعم الظلمة في العالم، ويسيطر الظلمة على صناعة القرار البشري.

وبعد أن ذكر الله في الأقسام السابقة هؤلاء الأصناف السبعة يفصل الله في هذا القسم أصناف العالم حولنا حسب تطبيق استراتيجية الأمن المجتمعي، والسلام العالمي الشامل، وتشعر بالانبهار الشديد وأنت تقرأ هذه الآيات؛ لشدة التفصيل والتدقيق في الجمع بين حقوق المجتمع في الأمن والحماية، والدفاع، وبين إدارة المعركة السياسية والحربية والثقافية مع المعتدين، وذلك ليظهر العمق العظيم لتوغل الإسلام في كل مناحي الحياة، ومنها العلاقات الدولية، والعلاقات المتداخلة بين الدولية والمحلية، ويظهر بذلك عظمة الإسلام في حماية مجتمعاته، وبيان حكمه على من يقترب جريمة الخيانة العظمى، ومتى تصان دماء المشتتين بين الانتماء الديني والانتماءات الأخرى بدقة متناهية، ووضع الله القوانين اللازمة فيما يتعلق بالمنافقين الذين يقتربون جريمة الخيانة العظمى، ومعها بين حرص الإسلام على

كف اليد وإلقاء السلم في العالم، وظهر من أهداف وضع هذه القوانين والنظم:
 أولاً: تنقية الصف من الطابور الخامس الذي ترجع إليه معظم الخيانات
 والتدخلات الأمنية والثقافية إليه.

ثانياً: تثبيت الوعي بجمع الإسلام بين القوة الحازمة إزاء المعتدين والخونة،
 وبين الإشاعة لثقافة السلام وكف اليد، وبذا أبعد الحيرة والتردد، وأوجد التعامل
 الحازم الواضح مع من يقول كلمة الإسلام بلسانه، ويصر على مظاهرة المعتدين
 ضد المسلمين.

فيؤكد الله تعالى ذكره الهدف من السياسة الأمنية الضرورية (أخذ الحذر)، وأن
 المراد منها إيقاع السلم في العالم، ويجعل الله مدار العلاقات على كف الأيدي،
 ورفع راية السلم، ووضع الله التصنيفات للواقع العالمي حسب ميل الناس إلى
 السلم، وحسب ميلهم إلى حراسة المجتمع، ولذلك عرف النبي ﷺ المسلم فقال:
 «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(١)، وفي رواية: «من سلم الناس
 من لسانه ويده»، وعرف ﷺ المؤمن بالعلامة الظاهر له فقال: «والمؤمن من أمنه
 الناس على دمائهم وأموالهم»^(٢)، فيطول بك العجب عندما ترى حال كثير من
 الذين يجعلون من أكبر علامات الإسلام عندهم أن يؤذوا المسلمين في أعراضهم
 وأجسادهم وأموالهم وأراضيهم وذرياتهم، وكنت ترى فيما سبق الإيذاء الفردي من
 مسلم لمسلم آخر أو لغير المسلم ضمن الأفعال الفردية الشاذة، فأصبحت ترى اليوم
 نظماً بأكملها جعلت أهم أساس يبين وجودها في الواقع إيذاء غيرهم بل ارتكاب

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٩) برقم ١٠، والرواية الأخرى لأحمد برقم ٧٠٨٦،
 وصححها الأرناؤوط على شرط الشيخين.

(٢) سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر (٥ / ١٧) برقم ٢٦٢٧، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني.

أعظم الجرائم المروعة في حق الأبرياء من الأطفال والنساء والرجال، فجاء هذا القسم الكامل ليتكلم عن ضرورة تصنيف الناس بحسب ميلهم إلى السلم، وحسب إقبالهم على حراسة أمن المجتمع وأمن الآخرين.

والآن تعال بنا لنضع هذا التساؤل الضروري الملح: ما القاسم المشترك بينهم وبين النساء؟ لماذا ذُكرُوا في سورة النساء؟

ستجد في الواقع القائم الآن بما لا تخطئه العين الجواب واضحًا: إنهم جميعًا يظهرون حماية حقوق النساء، ويزعمون أنهم أنصارهن إنهم الذين يتخذون القضية النسوية شماعه؛ لإشاعة الشهوات، ونشر تجارة الرقيق الأبيض، قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧)، وانظر أنت إلى أي مدى انتشرت القنوات التي تحبب الفاحشة في البشرية وبدعم من أموال من يزعم أنه ينتسب إلى الإسلام والقرآن.. إنهم المخدوعون أو المخادعون فيما يتعلق بالنساء يظهرون مناصرتهم؛ لنيل حقوقهن، وهم لا يزيدون على أن يسهموا في إذلالهن، والتلاعب بحقوقهن، وتحويلهن إلى سبايا للشيطان يمتهن المتاجرة بكل ما يؤدي إلى إهانتهم وإبعادهن عن كرامتهن الحقيقية التي تسهم في سعادة البشرية سواء أكن بنات أم زوجات أم أمهات أم أخوات.

ولإنارة وعيك، وشحذ ذهنك، ولتقليل الخطوات التي تحتاجها؛ لتدرك الواقع العالمي الذي يحيط بك صنف الله الناس حسب إقائهم للسلم، وكف أيديهم إلى أصناف لتسلك التعامل الصحيح المستقيم معهم، ولتكون معرفتهم زادًا يعزز الجهود الأمنية والعسكرية الحارسة للمجتمع.

وهذه الأصناف هي الأصناف الآتية:

الصنف الأول: المنافقون :

الذين يعيشون في المجتمع النبوي المدني لكنهم يظهرون النفاق العملي، فيعشون بالأمن العام، ويحيكون المؤامرات على العالم، ويخذلون الأبرياء في مواطن الحاجة، ويُصِرُّنا الله بهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ (النساء: ٨٨)، أي: يجب أن تكونوا فئة واحدة في التعامل معهم، فلماذا انقسمتم إلى فئتين في الحكم عليهم وقد أركسهم الله بما كسبوا؟ فظهر إجرامهم، فلا ينبغي أن تختلفوا في تعريبتهم، وفضحهم، وإنما ذكر النفاق العملي؛ لأنه يقصد جعل الأعمال هي المقياس للحكم والمحافظة على استراتيجية أخذ الحذر، فلا يؤاخذ الناس على اعتقاداتهم الباطنة وآرائهم الخفية.

وبداية القصة ظهرت عندما انتصر المسلمون انتصاراً مدهشاً يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في بدر، فما كان من مجموعة من كبار الوثنيين وأتباعهم من أهل المدينة إلا أن أظهروا الإسلام، حيث قال زعيمهم ابنُ أبي ابن سلولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبْدَةُ الْأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا^(١)، وحدث الأمر ذاته من مجموعة انتهازية في مكة خافت على نفسها أن يعلو المسلمون، فأرسلوا يوهمون المسلمين بدخولهم في الإسلام؛ لكنهم اعتذروا عن بقائهم في مكة، ولعله حدث ما يشبه ذلك حول العاصمتين العظيمتين: مكة والمدينة.

والاتصال المدهش بين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ وقوله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ يكشف لك عن خلل أمني كبير في تطبيق استراتيجية (أخذ الحذر) حيث يخترق الطابور الخامس أمن المجتمع، ويعمل على تقسيمكم في التعامل معه إلى متطرفين ومعتدلين، والأصل أن تكونوا فئة واحدة في مسائل الأمن والخوف.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ٥٠) برقم ٤٥٦٦.

فالفاء للتفريع عما سبق في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧)، ومن صدق حديثه الذي لا ينبغي أن تنسوه: أن الله أركس المنافقين فكيف تختلفون في الحكم عليهم؟ وكيف توالونهم؟

وهنا لا بد أن يلح عليك سؤال كبير:

الله هو الحق، وكلامه حق وبالحق نزل، فلم يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾؟
الجواب واضحٌ ومدهش، تراه عياناً في الواقع القائم، فأولياء الشيطان يحشدون المؤامرات المتعددة لخداع أهل الحق بأن يُظهروا أنفسهم بمظهر لطيفٍ رضيٍّ، وأنهم يقبلون التفاهم والحوار والتفاوض.. فينخدع قسم من أهل الحق بهم، وبدلاً من أن يكون أهل الحق على قلب رجل واحدٍ في استيعاب بعضهم بعضاً ينقسمون إلى تياراتٍ معتدلة ومتشدة، ثم يكون بأس كل فريقٍ منهم ضد الآخر، ويغفلون عن المفسدين في الأرض، فتدبل عندهم استراتيجية (أخذ الحذر) عندما انقسموا إلى فئتين وفرقتين في التعامل مع المنافقين، وهنا يزلزل الله غفلتهم بهذا الأسلوب المدهش الفريد: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾.

وكان الله يقول: لقد حدثكم ربكم الأصدق حديثاً عن المنافقين الذين يصدون عن السنة النبوية صدوداً، وحدثكم عن وجودهم مبطنين في الصف المسلم، ويعملون على إيجاد المبطنين، وحدثكم أنهم يحاولون كسر استراتيجية أخذ الحذر، ويغذون تراخي المسلمين في الانقياد لأوامر الله، وحدثكم عن خذلانهم لقضايا المستضعفين العادلة، وحدثكم عن قول بعضهم ومعهم بعض المتأثرين بهم: ربنا لم كتبت علينا القتال، وحدثكم عن أنهم يقولون طاعة نظرياً ثم يبيتون غير التوجيهات النبوية.. حدثكم عنهم، ثم أنتم تنقسمون إلى فئتين في شأنهم! فما لكم أيها المسلمون تنقسمون فيهم إلى فئتين مختلفتين: فئة ربما لقبت نفسها بالمعتدلة فقامت تبرر

لهؤلاء المنافقين، وفئة ربما وُسِّمت بالمتشددة قامت تُعمل استراتيجية (أخذ الحذر) مع أن أمارات النفاق العملية ظهرت على هؤلاء؟ مالكم بدلاً من أن تتفقوا تحولتم إلى فريقين متناحرين؟ هنا يحثهم على تسمية الأشياء باسمها، والآيات التي في هذه الصفحة والتي قبلها لا بد أن نأخذها بتوازن شديد، وتطبيق مناسب وهي تفصل تفصيلاً دقيقاً موضوع استراتيجية أخذ الحذر، حتى لا يتم الغلو في استراتيجية أخذ الحذر، فيترتب عليه القمع والتشدد والعنف والتكفير المتسرع، وحتى لا يحصل في الوقت ذاته التراخي والتميع الذي يذهب استراتيجية أخذ الحذر.. هنا ترى الآيات تفصل ذلك تفصيلاً دقيقاً عظيماً ورائعاً.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ (النساء: ٨٨)، فالفاء في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ تدل على شدة الاتصال بما قبلها، فمن سبق الكلام عنهم قومٌ من المؤمنين، أو من الذين في قلوبهم مرض، أو من المنافقين، خانتهم أعمالهم عن إثبات صدق الانتماء للمسلمين، وهو هنا يذكر أقواماً من الصنف ذاته، لكنهم يمالئون العدو في الحرب، فهم أشد وضوحاً من الفئات السابقة في نفاقهم، وإجرامهم، فهم يظهرون الولاء الراشد للصالحين نظرياً، ويميلون عملياً نحو الولاء الجاهلي للمعتدين.

وكلمة ﴿فِتْنَةٍ﴾ حال من الكاف في «لکم»، والكوفيون يقولون: هي لكان مضمرة، والتقدير: فما لكم في المنافقين كنتم فتنين، وَالْفِتْنَةُ: الطَّائِفَةُ، وَزَنْهَا فَلَّةٌ، مُسْتَقَّةٌ مِنَ الْفَيْءِ، وَهُوَ الرُّجُوعُ؛ لِأَنَّهُمْ يَفِيءُ، أَي: يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي إِدَارَةِ شُؤُونِهِمْ، وَوَحْدَةُ أَهْدَافِهِمْ، وَوَحْدَةُ سُلُوكِهِمْ فِي مَسَائِلِ الْخَوْفِ وَالْأَمْنِ، وَالِاسْتِفْهَامِ لِلتَّعْجِيبِ، وَاللُّومِ، وَالْإِنْكَارِ التَّوْبِيخِيِّ، أَي: مَا شَأْنُكُمْ، انقسمتم في المنافقين إلى فتنين: فئة حذرة متوجسة منهم، وفئة مترددة في الحذر منهم، مع ظهور أدلة نفاقهم

العملي، إن لم يكن نفاقهم الاعتقادي، فاللوم منصب على فئة المتساهلين في الحكم على المنافقين حتى قسموا صفكم إلى فئتين، وليس اللوم على الفئة التي اتبعت الصراط القويم في الحكم على المنافقين.

وَيُصِّرُنَا سبب نزول الآية بأبرز صفة عملية تظهر نفاقهم، وهو خذلان قضايا الأمة الواحدة أمام العدو الخارجي، وارتكاب جرم الخيانة العظمى بالانسحاب عند الرحف، فَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَحَدٍ، رَجَعَ نَاسٌ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ تَقُولُ نَقَاتِلُهُمْ، وَفِرْقَةٌ تَقُولُ: لَا نَقَاتِلُهُمْ، فَتَزَلَتْ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾، وَقَالَ: إِنَّهَا طَيِّبَةٌ، تَنْفِي الذُّنُوبَ - وفي لفظ له: الرجال - كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْفِضَّةِ ^(١).

كما يُصِّرُنَا سبب نزول آخر بصفة أخرى للمنافقين وهي الطعن في القيادة الراشدة للنبي ﷺ، أو في أزواجه الطاهرات، حيث ورد أن الآية أيضًا نزلت في شأن المتكلمين في السيدة عائشة رضي الله عنها. فَقَدْ خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ عِنْدَمَا بَلَغَهُ الْكَلَامُ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها فَقَالَ: مَنْ لِي مِمَّنْ يُؤْذِينِي، وَيَجْمَعُ فِي بَيْتِهِ مَنْ يُؤْذِينِي؟ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ قَتَلْنَاهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِيَّائِنَا مِنَ الْخَزَرَجِ، أَمَرْتَنَا فَأَطَعْنَاكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: مَا بِكَ - يَا ابْنَ مُعَاذٍ - طَاعَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ تَكَلَّمْتَ مَا هُوَ مِنْكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَقَالَ: إِنَّكَ - يَا ابْنَ عُبَادَةَ - مُنَافِقٌ، وَتَحِبُّ الْمُنَافِقِينَ، فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، فَقَالَ: اسْكُتُوا - أَيُّهَا النَّاسُ -، فَإِنَّ فِيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَأْمُرُنَا، فَتَنَقُّدُ أَمْرَهُ، فَانْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ ^(٢).

(١) البخاري (١٢٢ / ٥) رقم ٤٠٥٠.

(٢) سنن سعيد بن منصور (التفسير) ٢٢٧ - (٤ / ١٣١٣).

والذي يظهر لي أن هذه الآيات واردة في التعامل مع من هم خارج المدينة النبوية، أو فروا منها نفاقاً، وبيان أحوالهم، وليست واردة في المنافقين الذين يعيشون في المدينة إلا على سبيل التبع، وذلك واضحٌ عندما تقرأ الآية الثانية من هذا القسم؛ إذ يقول الله جل جلاله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَحَّضُوا مِنْهُمْ وَلَئِنْ لَا نَضْرِبَهُمْ﴾ (النساء: ٨٩)، فإن منافقي المدينة كانوا فيها، فلم يؤمروا بالهجرة المادية بل بالهجرة المعنوية، وكذلك لم يحكم عليهم بالقتل، وإنما يطبق هذا الحكم على من ارتكب منهم الخيانة الكبرى.

ولكن ذلك لا يعني أن الآية لا تبصرنا بكيفية التعامل مع المنافقين في المجتمع المدني إذا ظهر منهم النفاق العملي، وبذلك ترى الآيتين دمجاً للكلام عن أصناف من المنافقين داخل المدينة وخارجها.

فربما بادرتني فقلت: ألم يرتكب ابنُ أبيي ومن معه الخيانة الكبرى عندما انصرفوا من أحد؟ أقول لك: لعلَّ علةً منعت النبي ﷺ من تطبيق حكم الخيانة الكبرى عليه، فمن ذلك: قرب عهد الناس بالجاهلية، وقد رأيت كيف غلَّت نفوس بعض الخزرج حمية له في حادثة الإفك.. فلعلك توافقني أن الآيات في الأصل فيمن هم خارج حمى الأرض المسلمة، والآيات تكيف العلاقات معهم، أو من فروا من المدينة، وبذا يتضح لك وجه قوله ﷺ: «إِنَّهَا طَيْبَةٌ، تَنْفِي الذُّنُوبَ» -وفي لفظ له: الرجال- كما تَنْفِي النَّارَ حَبَثَ الْفِضَّةِ»، ويكون ربط الصحابي بين نزول هذه الآية ووقعة أحد إما لأن بعض أحكام الآية تنطبق عليها، وليس جميع أحكام الآية كما علمت، فيطبق عليها: الإنكار على المسلمين أن ينقسموا إلى فئتين في المنافقين مع ظهور النفاق العملي في قضية من القضايا، لكن لا ينطبق الحكم الذي في الآية الثانية إلا في حال جريمة الخيانة العظمى، أو إعلان الحرب خارج الأرض الآمنة كما تفصله الآيات الثلاث التي بعد هذه الآية.

إن الآية تحمل تحذيراً عظيماً من أن يتحول المجتمع إلى فرقتين متناحرتين متنازعتين بدلاً من أن يعذر بعضهم بعضاً، وبدلاً من ذلك يجب أن يحكموا المستنبطين في مسائل الأمن أو الخوف لتتضح الأمور.

وإذا كانت الفئة المتساهلة (يسمونها أحياناً المعتدلة) هي التي انصب عليها اللوم، فلماذا جاءت صيغة العتاب شاملة كل المخاطبين؟

لعل ذلك لعدم محاولة الفئة المصيبة اتباع أسلوب أمثل في التعامل مع الفئة المتساهلة للخروج برؤية موحدة، فجاء العتاب عامّاً مع أن سياق الآية يبين أن المخطئ منهم هو من تساهل في الحكم على المنافقين؛ لكن ذلك لا ينفي التبعة على الفئة الأخرى في محاولة استدراك الوضع العام قبل أن يدمر هذا الانقسام النسيج الموحد الذي يميز المؤمنين.

وتبصرك الآية بخطورة انقسام الناس في المسائل الواضحة إلى فئتين (معتدلة، ومتشددة) يعارض بعضها بعضاً، وهذا اللوم الشديد يوقظ فيك ضرورة العمل على إقامة الكليات التي توجد فئة المستنبطين الذين يمكنهم تنزيل النصوص على فقه الواقع، وتقديم التوصيات اللازمة في القضية النازلة في مجال الأمن والخوف:

ولذا يقول الطاهر بن عاشور: «هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُجْتَهِدَ إِذَا اسْتَدَّ إِلَى دَلِيلٍ ضَعِيفٍ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهِ الْعَالَمُ لَا يَكُونُ بَعِيدًا عَنِ الْمَلَامِ - فِي الدُّنْيَا - عَلَى أَنْ أَخْطَأَ فِيمَا لَا يَخْطِئُ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي مِثْلِهِ»^(١).

ويبصرك قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ بأن ردة المنافقين إلى حالهم المجرم قبل أن يعلنوا الإسلام، عقوبة عادلة من الله لهم بسبب جرائمهم التي يصرون عليها؛ إذ الإركاس رد إلى نجاسات سلوكية خبيثة، فجمع الله في هذه البصيرة المدهشة

(١) التحرير والتنوير (٥ / ١٥٠).

بين قدرته المطلقة ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ﴾ وبين عدله الكامل ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾:

ف«الإركاس» الرُدُّ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فَأَرْكَسُوا فِي حَمِيمِ النَّارِ، إِنَّهُمْ كَانُوا عُصَاةً وَقَالُوا الْإِفْكَ وَالزُّورَا
وَالرَّكْسُ: رُدُّ الشَّيْءِ مِنْ آخِرِهِ إِلَى أَوَّلِهِ، فَالرَّكْسُ وَالنَّكْسُ، وَالْمَرْكُوسُ
وَالْمَنْكُوسُ وَاحِدٌ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلرَّوْثِ الرَّكْسُ؛ لِأَنَّهُ رُدَّ إِلَى حَالِهِ خَسِيسَةٍ، وَهِيَ حَالَةُ
التَّجَاسَةِ، وَيُسَمَّى رَجِيعًا لِهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا^(١)، فقوله: (أركسهم) أي: أرجعهم إلى
نجاسات الإثم والعدوان ومفرزات الوثنية والشرك.

فسبب هذه العقوبة الإلهية: الإركاس جرائم المنافقين السابقة، وكسبهم السيء
«حَتَّى فَسَدَتْ فِطْرَتُهُمْ، وَأَحَاطَتْ بِهِمْ خَطِيئَتُهُمْ فَأَوْغَلُوا فِي الضَّلَالِ وَبَعُدُوا عَنِ
الْحَقِّ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِمْ وَلَا يَجُولُ فِي أَذْهَانِهِمْ إِلَّا الثَّبَاتُ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ
وَمُقَاوَمَةٌ مَا عَدَاهُ مِنَ الْخَيْرِ، مُقَاوَمَةٌ ظَاهِرَةٌ عِنْدَ الْقُدْرَةِ، وَخَفِيَّةٌ عِنْدَ الْعَجْزِ، هَذَا هُوَ أَثَرُ
كَسْبِهِمْ لِلْسَّيِّئَاتِ فِي نُفُوسِهِمْ»^(٢).

وأُسند الله الإركاس إليه لسببين: أن ذلك يعود إلى سنته العادلة، وأن ذلك جزاء
وفاق لجرائمهم التي يصرون على البقاء عليها، أي: عاقبهم عقوبة عادلة، بأن أرجعهم
إلى ما كانوا عليه من رذالة الشرك؛ بسبب جرائمهم العملية التي كسبوها في حياتهم،
والتعبير عن جرائمهم بأنهم كسبوها، يدل على ظنهم أنهم يحققون المنجزات في
الوقت الذي يقتربون فيه الجرائم الموبقات؛ فالكسبُ: طلب الرزق، من كسب الذي
يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ، وَطَلَبٍ، وَإِصَابَةٍ^(٣).

(١) تفسير الرازي (١٠ / ١٦٩).

(٢) تفسير المنار (٥ / ٢٦٣).

(٣) العين (٥ / ٣١٥)، مقاييس اللغة (٥ / ١٧٩).

وينكر الله على المؤمنين تضييعهم الأوقات، والطاقات في توسل هداية هذا الصنف، وعدم تطوير مودة المؤمنين الآخرين، فيقول: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٨٨)، والاستفهام إنكاري توبيخي، يدل على جملة محذوفة، والتقدير: قد أركسهم الله بما كسبوا، فأضلهم.. أتريدون أن تهدوا من أضل الله؟

يعني: فلا تحاولوا معاندة سنة إلهية حتمية هي إضلال المجرمين، واشتغلوا بما يمكن أن ينفعكم من المصالحة مع المؤمنين.

والاستفهام الانكاري التوبيخي يدل على جملة محذوفة، والتقدير: قد أركسهم الله بما كسبوا فأضلهم: أتريدون أن تهدوا من أضل الله.

فهنا يبين الله الأمر بصورة أوضح للذين يضيعون أوقاتهم في محاولة استمالة المنافقين، وتضييع مودة بقية المؤمنين الذين اختلفوا معهم في كيفية معالجة الموقف.. فالآية في حقيقتها ليست تثريباً على المنافقين بقدر ما هي لوم للمؤمنين؛ لأنهم انقسموا، وتجد هذا في الواقع المعاصر، فبعض المسلمين يحرصون على استجلاب المحاربين للدين، يقولون نحن نريد أن نصنع وحدة مجتمعية، نتفق معهم في الأهداف فلدينا أهداف كبيرة، وفي هذه الأثناء يخاصمون إخوانهم الصالحين، فالآية تتكلم عن أمرين ظاهرين: انقسام المؤمنين وتفرقهم، ومحاولة تضييع أوقاتهم في استمالة من لا يظهر منه أنه يمكن أن يتوب أو يرتدع.

ولقد وجد في عهد النبي ﷺ منافقون، أتريد أن تكون أقوى من النبي ﷺ في تجميع الناس؟ تراهم لم يقبلوا من النبي ﷺ أفقبلون منك؟ فهنا يبين في صورة واضحة أنه لا ينبغي أن تضيعوا أوقاتكم وتضييعوا وحدتكم، انظر ماذا يقول الله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾.

والمراد أنكم ينبغي أن تركزوا في البصائر القرآنية لا في الأوهام التي تظنونها ستحقق لكم شيئاً، ثم لا يحدث شيء.. فهو لاء المنافقون قد أضلهم الله بسبب رداءة أفعالهم، فهم لا يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ إِلَّا نَظَرَ الْأَعْدَاءِ الْمُبْطِلِينَ، وَيَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ الدَّوَائِرَ^(١). والبصيرة واضحة في أن الرحمة الواسعة في الرؤية الإسلامية، والتعامل الحسن الصادق مع العالم لا يعني أن يكون المسلمون مجموعة من المغفلين الذين يخدعهم المنافقون في كل وقت، فلا ينبغي أن يطغى التعامل السياسي اللين القائم على التجميع على استحضار البعد الإيماني المتين، فإن المنافقين الذين يُطْهَرُونَ عملياً الولاء للمعتدين، ويُصْرُونَ على تدمير مصالح الناس، وزلزلة أمنهم قد زاغوا فأزاغ الله قلوبهم فكيف يأتي من يريد هداية من أضله الله، ويصر على ذلك، بل يضحى بالصف المسلم في سبيل ذلك.

وكلمة ﴿سَبِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ هو الطريق البين الواضح، وهذه الكلمة نكرة تفيد العموم، فتبين أمرين معاً:

- لن تجد له سبيلاً لهدايته بعد أن أضله الله لشدة لؤمه، وسوء عناده، فقد أغلقت جميع منافذ حواسه فلن تجد له سبيلاً ليسير عليه.. السبيل منعدم فكيف يمشي أو يسير ليصل.. دلالة على العمى الكلي.

- ولن تجد له سبيلاً لتتفق معه أو تشاركه المصير؛ لأنه لا يجد فرصة إلا خانك أو خدعك.

وأهم صفة كاشفة لهم وهي تمثل أخطر أهداف المنافقين: المحبة العارمة لإيقاع الناس في الكفر، ولذا يحرصون على إشاعة المعاصي والفسق المالية والجسدية بكل

(١) تفسير المنار (٥/ ٢٦٢).

الوسائل، ويُصِرُّنا بها قوله تعالى ذكره: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾

لاحظ التعبير عن هذا الهدف الخطير بقوله: ﴿وَدُّوا﴾ ففرق بين أن يكون عند المرء رغبة في أن تكفر وبين أن يود منك أن تكفر، فالمودة هي خالص المحبة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦)، اللهم اجعل لنا وداً يا أرحم الراحمين.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ أي: ود هؤلاء المنافقون لو يكفر المؤمنون المستقيمون، فليست مشكلتهم فقط في الكفر فقط؛ إذن لهان الأمر كما قال تعالى ذكره: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، لكن المشكلة أنهم يحرصون على أن يدخلوا المؤمنين في الكفر.

فالود إرادة مقترنة بمحبة، وحرص، وهذه الكلمة تدل على أنهم يضعون برامج عملية لتحويل الناس إلى الكفر عبر القنوات الفضائية، ووسائل الإعلام والتثقيف والتربية، وعبر المرتزقة الذين يحشدونهم، والجيش العسكرية التي يتحالفون معها، وعبر إحداث الرعب والإصرار على القهر والإكراه ومنع حرية الإنسان في أن يعبد ربه، وتراهم يمارسون ذلك عبر منع كل وسائل الإيمان في المجتمعات.

هؤلاء المنافقون يودون أن يوقعوا العالم في الكفر، وهم في هذا يلتقون مع الكافرين المحاربين الذين يعملون على الهدف ذاته، وقال الله تعالى عنهم: ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (الممتحنة: ٢).. من الطبيعي أن ترى بينهم التحالفات المختلفة، والمؤسسات المشتركة لنشر الكفر في الأرض.

فأهم أهداف المنافقين التي يعلمون عليها المحبة المتلهفة على تحويل المؤمنين إلى الكفر، وليس مجرد حرص المنافقين على أن تكون لهم السيادة على المؤمنين،

بل هم يودون أن يدخلوا المسلمين في الكفر، وذلك يتم من خلال خلخلة الصف المسلم عقدياً وسياسياً لتحويلهم إلى الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾، فليست مشكلتهم في كفرهم ونفاقهم بل في حرصهم على وضع البرامج، وإنشاء المؤسسات؛ لإرجاع المسلمين إلى الكفر، وهذا الهدف ليس هدفاً للعناد فقط، بل هو نابع من محبةٍ قلبية عارمة تجتاح نفوسهم، فيبدلون في ذلك كل ما وسعهم؛ لتحقيق هذا الهدف، ويظهر لي أن التعبير بالود هنا أعلى من التعبير بالإرادة في قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ (النساء: ٨٨) فالود إرادة مقترنة بمحبة وحرص، وهذا يدل على شدة مكر المنافقين، ورغبتهم الجامحة في إدخال الكفر إلى مجتمع المؤمنين^(١).

ويُصِرُّنا الله بكيفية التعامل معهم فتحرم موالاتهم؛ أي: يمنع من نصرتهم، ومحبتهم، والتحالف معهم حتى يهجروا الإجرام القبيح الذي يقومون به فعلاً ومكاناً، ويُصِرُّنا بذلك قوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٨٩)، والهجرة في سبيل الله تعني القطيعة والمفارقة والترك، أي: هجروا ما نهى الله عنه من الكيد والتآمر والإيذاء ونشر العداوة والشحناء، وهجروا الفسق والفحشاء، فهذا المعنى الأصلي، ويلزم منه مفارقة ديار الظلم والإثم والعدوان لمن كان مقيماً فيها.

فالهجرة تدل على قَطِيعَةٍ وَقَطْعٍ^(٢)، والهجر والهجران بكسر الهاء مثل عرفان مفارقة الإنسان غيره إما بالبدن وإما باللسان وإما بالقلب، فقوله تعالى جده: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقَرْعَانَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠) أي: هجروه بالقلب واللسان والعمل أو بأحدها.

(١) خلافاً لما قرره الطاهر رحمته الله في التحرير والتنوير (٥ / ١٥١).

(٢) مقاييس اللغة (٦ / ٣٤).

فليحذر المسلمون من هذا الصنف، فلا يجوز أن يوالوهم إلا إذا هاجروا وأثبتوا حقيقة إسلامهم من خلال هجرتهم، ولا بد أن نحدد مفهوم الهجرة، فالهجرة لها معنيان مترابطان الأول أصلي والثاني لازم له:

أما المعنى الأول فهو كما عرفه النبي ﷺ هجر السوء والإيذاء، وترك ما نهى الله عنه من القبح والتآمر والفحشاء، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «المسلم من سلم الناس من لسانه، ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(١). وفي رواية «وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»^(٢).

وأما المعنى الثاني فلازم لهذا المعنى في موضعه، وهو أن يترك بجسده المكان الذي يحمله على فعل ما نهى الله عنه، فيهاجر من دار الظلم والبغي والاعتداء إلى دار العدل؛ إذا ألزم بالمشاركة في الاعتداء، أو أكره على ترك دينه.

إن استراتيجية أخذ الحذر توجب الانتباه إلى النفاق العملي، فالنفاق الاعتقادي لا سبيل إلى معرفته، ولكن عند النظر إلى الأفعال الخارجية يكون صاحبها ظاهراً إيماناً وكفراً، عدلاً وظلماً، سلاماً وإيذاء؛ لأن أعمالهم تدل عليهم كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥) ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِذَا﴾ (الأعراف: ٥٨)، وكما يقول المسيح عليه السلام حسب إنجيل متى ٧.

١٦ من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً

١٧ هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية

(١) البخاري (١١ / ١) برقم ١٠.

(٢) النسائي في «المجتبى» (١ / ٩٦٧) برقم ٥٠١٠.

١٨ لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية، ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة.

١٩ كل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تقطع وتلقى في النار.

٢٠ فإذا من ثمارهم تعرفونهم.

٢١ ليس كل من يقول لي: يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات.

الصنف الثاني: من ترك دار العدل المسلمة دون إذنٍ من القيادة النبوية، ولم يتحمل تبعات البقاء مع النبي ﷺ.

فعن عبد الرحمن بن عوف أن قومًا من العرب أتوا رسول الله ﷺ المدينة، فأسلموا، وأصابهم وباء المدينة حُمَاهَا، فأركسوا، فخرجوا من المدينة، فاستقبلهم نفر من أصحابه -يعني أصحاب النبي ﷺ-، فقالوا لهم: ما لكم رجعتُم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة، فاجتوينا المدينة، فقالوا: أما لكم في رسول الله أسوة؟ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا، هم مسلمون، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾^(١) الآية.

فهذا الحديث وإن كان ضعيفًا في إسناده إلا أنه يؤذن بصنفٍ من المنافقين لم يتحملوا تبعات الإسلام الذي أعلنوه، ولم يقوموا بالالتزام الذي تقتضيه الهجرة إلى النبي ﷺ، ولا مانع من نزول الآية ابتداء ثم تكرار نزولها على معنى التنبيه على دخول قضية أخرى في ألفاظها.

الصنف الثالث: الأقليات أو المجموعات (اللوبيات) الخائنة التي تعيش في بلاد العدل الأخرى لكنها تعمل على إيذاء المسلمين، والتآمر على المؤمنين.

(١) أحمد (١/ ١٩٢) برقم ١٦٨٩، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

وتولد أفكارًا لتحويل المؤمنين إلى الكفر، ويزعمون في الوقت ذاته أنهم من المسلمين، فهؤلاء حكمهم كما قال الله جل ذكره: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٨٩)، والمقصود بهجرتهم المعنى الشرعي الأصلي، وهو ترك سياسة الإيذاء واتباع المبادئ الإيمانية في العمل على رفعة قيمة الإيمان في المجتمعات، وأن يحبوا للآخرين من الخير ما يحبون لأنفسهم.

الصف الرابع: المجموعات التي تعيش في بلاد المحاربين المعتدين، فيكونون مجموعات ضغط لتدمير الأمن العام، والسلام العالمي، وتعمل على خلق المشاكل والأزمات في بلاد العدل.

فهذا الصف يدخل في قوله تعالى ذكره: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٨٩)، فلا بد أن يحققوا المعنيين في الهجرة، فيهاجروا من بلاد الظلم إلى بلاد العدل، ويهجروا سلوكهم المؤذي، والواقع التاريخي يخبرنا عن مثال لهم، وهم من عاشوا في مكة عندما كانت الوثنية القرشية تسيطر عليها، وكانوا يزعمون أنهم مع المسلمين، وأفعالهم تبدي غير ذلك.

فلو كانوا يشكلون مجموعات ضغط من أجل المصالح العامة للعالم ضمن قوانين العدل لكان ذلك حسنًا، لكنهم يستغلون أدواتهم وأموالهم وعلاقاتهم ليوالوا المعتدين المجرمين ويشاركوهم فعليًا في الإفساد في الأرض، وخاصة في تعمد إبادة المؤمنين وتدمير مؤسساتهم، واغتيال قياداتهم العلمية، ومنع مؤسساتهم القرآنية.

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: فلا حاجة بكم إلى التحالف معهم مهما توهمتم المصالح في ذلك، وفي هذا رد على الأوهام الحزبية التي تظن يومًا أن الصفوف العلمانية المليئة بالسعار الشهواني يمكن أن تصدق في حلفها أو تظهر نصرتها.

ومن أساليبهم الدنيئة أنهم يعينون المعتدين، ويحاولون اللعب بالرأي العام الراشد في الوقت ذاته.

كما روى الطبري^(١) عن ابن عباس أن قوماً كانوا بمكة، قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد عليه السلام، فليس علينا منهم بأس! وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخباء، فاقتلوهم، فإنهم يظهرون عليكم عدوكم! وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله، أو كما قالوا: أقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمن أجل أنهم لم يهاجروا، ويتركوا ديارهم، تستحل دماؤهم وأموالهم! فكانوا كذلك فئتين، والرسول ﷺ عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء، فنزلت هذه الآية.

وبذا يكون المراد بالهجرة بالنسبة لهذا الصنف المعنيين معاً، ولا يجوز اتخاذهم أولياء مهما نمقوا الكلام، وهذا يعني استبعاد اتخاذهم حلفاء حتى يهاجروا الإثم والعدوان، وحتى يهاجروا من دار الظلم إلى دار العدل. وليس المقصود بالهجرة أن يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام، هذا قرره أهل العلم سابقاً، لأنهم ما تصوروا يوماً أن تكون الدار التي تنتسب للإسلام دار ظلم، وعندما تراجع الآيات والأحاديث تجد المقصود بالهجرة الهجرة من دار الظلم إلى دار العدل.

فالهجرة في سبيل الله تعتمد على أساس وجود العدل لا على أساس وجود الإيمان، ففي دار العدل في المدينة وجد الإيمان، وبقي بعض اليهود إلى وفاة النبي ﷺ، ويدلك على ذلك الهجرة الأولى للمسلمين إلى الحبشة، فعن أم سلمة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ أنها قالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ،

(١) تفسير الطبري (٨ / ١١).

وَفُتِنُوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله في مَنَعَةٍ من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَارِضَ الْحَبْشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُّوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرْجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ»، فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا، ونزلنا بخير دار إلى خير جار، أماناً على ديننا، ولم نخش منه ظملاً...^(١). فهل كانت الحبشة دار إسلام أو كان أصحابها مسلمين؟ لم يكونوا كذلك، لكنها كانت دار عدل.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَقِيمُوا عَلَى مَعْنَى الْهَجْرَةِ فَيُصِِّرُنَا اللَّهُ بِحُكْمِهِمْ قَائِلًا: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَحِّذُوا مِنْهُمْ وَلَيْسَ وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ٨٩) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الهجرة بنوعها فأصروا على الإثم والعدوان، وكانوا جزءاً من المعسكر المعتدي المحارب فلا ترددوا في معاملتهم معاملة العدو المحارب، ولا يجوز لكم أن تتخذوا منهم ولياً، أي: صديقاً أو حليفاً مقرباً، ولا يجوز لكم أن تتخذوا منهم نصيراً لكم في قضاياكم؛ لأن أفعالهم قد أبدت خيانة وغدرًا فكيف تأمنونهم؟ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَحِّذُوا مِنْهُمْ وَلَيْسَ وَلَا نَصِيرًا﴾ نهى الله عن اتخاذ ولي منهم أو نصير، فأما الولي فالقريب نسباً أو محبة وصداقة، من ولي الشيء إذا جاء بعده، يقال فلان يليني، أي: جاء بعدي، والمحبة توجب النصرة، فكلمة أولياء تشمل المحبة والنصرة، والولي هو المحب النصير، وهنا جمع بين النهي عن اتخاذ أحدٍ منهم ولياً نصيراً، للرد على من يزعم أن العلاقات معهم علاقات مصالح متبادلة، ومناصرة في القضايا المشتركة ولا توجد محبة قلبية،

(١) «السلسلة الصحيحة» (١٢ / ٢٣) برقم ٣١٩٠، وقال: أخرجه البيهقي في «السنن» (٩/٩) رقم ١٧٧٣٤، وفي «الدلائل» (٢/ ٣٠١).

فاردف الله النهي عن اتخاذ واحدٍ منهم ولياً أن يتم اتخاذه نصيراً، فما أكثر من رأيته من حكام الأندلس والطوائف في القديم والحديث يزعم أنه لن يحب المنافقين، ولكنه قد يتخذ منهم نصيراً في قضايا مشتركة.. يتخذ بعض الشخصيات الداعمة وإن كانت لا تصلي.. وإن كانت تعمل بعض الفواحش، فيجري معهم الاتفاقات والمصالحات والتحالفات، تكون النتيجة الهزائم المحققة؛ إذ يخونونه أحوج ما يكون إليهم، فكيف ذهبت بلاد المسلمين في أطراف الأرض والآن في وسطها إلا بهذه الخيانات، فالله سبحانه وتعالى اختصر لنا الطريق بهذه القوانين المدهشة ﴿فِيَايَ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

ويدخل فيهم من كان صادقاً في إسلامه لكنه خرج مع المعتدين، فيعامل ظاهرياً معاملة لهم:

فقد كان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ مسلماً لكنه خرج مع القوات القرشية المعتدية في بدر، فأسره المسلمون، وحانت مفادة الأسرى، وأراد الأنصار التخفيف عنه في الفداء لكن النبي ﷺ أبى ليعلمنا كيفية التعامل مع مثل هذه الحالة، فعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله ائذن فلنترك لابن أختنا عباس فداءه فقال: لا تدعون منها درهماً^(١)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسرائهم... قال العباس: يا رسول الله إني كنت مسلماً فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللَّهُ يُجْزِيكَ فَأَفِدْ نَفْسَكَ وَابْنِي أَخَوَيْكَ تَوْفَلَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَقِيلَ بْنِ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرِو بْنِ جَحْدَمَ أَخُو بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرِ». فقال: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٨٤) برقم ٣٠٤٨.

فَقُلْتُ لَهَا إِنْ أُصِيبْتُ فَهَذَا الْمَالُ لِبَنِي الْفَضْلِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَقُتْمٍ». فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُهُ إِنَّ هَذَا لِشَيْءٍ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الْفَضْلِ فَاحْتَسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عَشْرِينَ أُوقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِيَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْعَلْ». فَقَدَى الْعَبَّاسُ نَفْسَهُ وَابْنُ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَتُهُ وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٠) ^(١).

وينبغي أن نتعرف على بعض مزايا الخطاب القرآني؛ إذ يأتي بالوصف مجملًا ثم يظهر أنه يريد صنفًا محددًا له أوصافه المعينة، وبذا يجمل ثم يذكر التفصيل، فيظن الإنسان أن الضمير يعود لما ذكر سابقًا، وهو ليس كذلك بل يعود لبعض ما ذكر سابقًا، فقولته تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ (النساء: ٨٨) هؤلاء المنافقون عمومًا من أقام في دار العدل ومن أقام في دار الظلم، وسيفصل أصنافهم بعد، ولكل صنفٍ حكمٌ مستقلٌّ يبين كيفية التعامل معه، ومدار التعامل معه على رفعه لراية السلم.

فهذا العباس عليه السلام، وهو عم النبي ﷺ وكان مسلمًا يعيش مع الوثنيين القرشيين، ولم يهاجر، إما لأنه كان عينا للمسلمين وإما لمصالح فردية، أما وهو لم يهاجر ففي هذه الحالة إذا لم يقاتل المسلمين فيجب الكف عنه، حاله حال النساء والصبيان الذين بقوا في ديار الظلم ولم يحاربوا المسلمين، وهو ما أشير إليه في الآية التي بعد هذا، ولكن العباس جاء مع الكفار في بدر، فما حدث للمسلمين هل كفوا عن قتاله؟ لم يكفوا عن قتاله بل قاتلوه وأسروه، لكن النبي ﷺ يعلم صدق إيمانه، فنهاهم أن يقتلوه، بيد أن حكمه من حيث الظاهر حكم الكفار الذين جاء معهم، ولذلك لم يطلق

(١) أخرجه البيهقي في «سننه الكبير» (٦ / ٣٢٢) برقم: (١٢٩٧٢) (كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في مفاداة الرجال منهم بالمال) (بهذا اللفظ).

سراحه إلا بفداء، ولما اعتذر أنه مسلم أبى النبي ﷺ أن يقبل ذلك، وإن علم النبي ﷺ بإسلامه، لكن الحكم الآن ينبغي أن يكون تشريعاً عاماً ليتم التعامل مع الحالات المماثلة فقال النبي ﷺ: «الله أعلم بإسلامك».

فقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ يدخل فيها جميع المنافقين، وقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يدخل فيها جميع المنافقين ولكن معنى الهجرة يختلف حسب أصنافهم وإقامتهم في دار العدل ودار الظلم، وقول الله جل مجده: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ٨٩) يشمل جميع المنافقين، لكن قوله جل جلاله قبل هذه الجملة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (النساء: ٨٩) يخص صنفاً من المنافقين وهم الذين أظهروا الخيانة العظمى ممن يقيم في دار العدل سواء أكانت داراً للمسلمين أم لغيرهم، ولكن أخذهم يختلف، فإن كانوا في دار العدل المسلمة حوكموا فإن ثبتت عليهم الخيانة العظمى نفذ الحكم المناسب لها، وإن كانوا في دار عدل غير مسلمة طُلب من دار العدل كفهم أو تسليمهم حسب جرائمهم، والتطبيق النبوي لهذه الآية يدل على أن هذا الحكم ليس عاماً في كل منافق، بل الحكم في هذه الآية مع ما قبلها على التوزيع بين صنفين من المنافقين:

الأول: المنافقون الذين يودون أن نكفر كما كفروا، فيعملون على إدخال برامج الإجرام في العالم، ويحالفون المعتدين، وتجار الحروب، وأصحاب العقائد المعتدية، وأمراء المخدرات، ويحشدون المليشيات المعتدية على العالم -مسلمهم وكافرهم-، فهؤلاء يعلن لهم أنهم سيعاملون معاملة الحربيين، وهؤلاء بصرنا الله بهم في قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

الثاني: منافقو المدينة النبوية ممن خذل المسلمين في قضاياهم، كالذين رجعوا عن أحد، لكنهم لم يظهر منهم مد يد العون إلى الأعداء الخارجيين في قتالهم للمسلمين، فهؤلاء ينبغي كف اليد عنهم، وعدم قتالهم، لكن لا ينبغي الاختلاف في تسمية من يفعل أفعالهم منافقين من الناحية العملية، لتبكيته وإظهار خيانتهم، وعدم توليتهم أي مناصب في المجتمع، فقد قال الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ، وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾، ولكن النبي ﷺ ما كان يسمي من رجع عن (أحد) منافقاً واحداً واحداً، وهؤلاء لا يُعاملون معاملة الحربيين المعتدين، وتبقى استراتيجية «أخذ الحذر» الأمنية قائمة معهم، فلا يتخذ منهم ولي ولا نصير، وينطبق عليهم الجزء الأخير من الآية، وهو قوله: ﴿وَلَا تَنَحَّضُوا مِنْهُمْ وَلَيْسَ وَلَا نَصِيرًا﴾، وهذا يعني ألا تُعقد التحالفات معهم؛ لأنه لا هدف لهم إلا الخيانة متى تمكنوا منها، وفي هذا رد على الأوهام الحزبية التي تظن يوماً أن الصفوف المليئة بالسعار الشهواني الحاقد، يمكن أن تصدق في حلفها، أو تظهر نصرتها.

وهذا الفهم لهذه الآيات يعصم من الزلل، ويتم تطبيق مثل ذلك في نحو هذا من الآيات مثل قوله جل ذكره: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣)، ولا يقال بأن هذا تحكم بل هذا يدل عليه الجمع بين الآيات جميعاً، والتطبيق النبوي لمثل هذه الآيات، فالرسول ﷺ عاش مع المنافقين ولم يقتلهم، بل عاش مع رأس المنافقين وهو عبد الله بن أبي بن سلول ولم يقتله.

والذي يظهر من سياق الآيات شمولها لكل ذلك إلا أنه يمكن أن نفهم من الآيات واقعاً تاريخياً واضحاً، فيظهر:

أن من المنافقين من كان في المدينة، فخذل المسلمين في قضاياهم ولم يظهر منهم مد يد العون إلى الأعداء الخارجيين في قتالهم للمسلمين فهؤلاء ينبغي كف اليد عنهم، وعدم قتالهم لكن لا ينبغي الاختلاف في تسميتهم منافقين من الناحية

العملية ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾.

ومن المنافقين من يعيشون في ديار المشركين، فيزعمون للمسلمين أنهم مع المسلمين، وبغض النظر عن زعمهم فلا ينبغي أن يتخذوا أولياء، ويكون لهم حكم من يعيشون معهم، فإن كفوا أيديهم يكف المسلمون عنهم أياديهم، ولكن يحاكمون وترصد تحركاتهم لئلا يصيروا دعماً مباشراً للمعتدين أو دعماً لوجستياً (مادياً)، والآية تنكر بشدة أن تميل مواقف المؤمنين من المنافقين لتصبح مائعة، ويميع معها مفهوم الأمن القومي.

وهنا يأتي السؤال: لماذا يتسامح الإسلام مع الكافر تسامحاً لا يوجد في التعامل مع المنافق والضال المبتدع بدعة مغلظة؟

والجواب واضح، فالكافر يصنع أفعاله، وهو يعلم الناس أنه كافر، وأن أفعاله لا تنتمي إلى الإسلام أما المنافق أو المبتدع بدعة مغلظة فيصر على أن ما يفعله هو الإسلام.. إنه يتعمد تحريف الكلم عن مواضعه، ويزعم أن تدميره للإسلام هو الإسلام، ف«الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفه جهاراً نهائراً في العقيدة.. ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال. لا يتسامح مع من يقولون: إنهم يوحّدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله. ثم يعترفون لغير الله بخاصية من خصائص الألوهية، كالحاكمية والتشريع»^(١).

الصنف الخامس: من ينتمي إلى المعاهدين، سواء أكانوا مسلمين أم كفاراً.

وَيُبَصِّرُنَا بِهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ (النساء: ٩٠)، فكلمة ﴿إِلَّا﴾ تدل على أنه يستثنى من إعلان العداوة الحربية، ويستثنى من عدم اتخاذ الولي والنصير من يصل إلى المعاهدين، ومعنى ﴿يَصِلُونَ﴾: يتصلون،

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٣٢).

وعداها ب ﴿إِلَى﴾؛ ليضمنها معنى: ينتسبون، أي: يتصلون بمن عاهدتموهم، أو ينتسبون لهم بالرحم أو الانتماء الوطني أو غيره:

هنا قد تعارض الفكرة بمجرد قراءة تلك للكلمات الأولى، وربما أعرضت ونأيت بجانبك، وقلت: وهل هذا يعقل؟ المعاهد لفظ يطلق في الحديث النبوي، وعند فقهاءنا في المشهور على غير المسلم بشروط، فكيف تجعل مسلماً معاهداً؟

فأقول لك: إنه القرآن المجيد وبصائره.. تسع الآفاق كلماته، تقرأه في العصور الخالية، والأجيال الحاضرة والباقية، فتجده يقدم لك الحلول، وينير بصائرهمها اسودت الدروب وأظلم الطريق.. والآن أخبرني: ألا ترى أن الواقع متخم بالمتغيرات المثيرة؟

لقد تخلت بعض الأنظمة التي تنتسب شعوبها إلى الإسلام عن بصائر الإسلام الأساسية في الواقع الإنساني، والعلاقات الدولية، وحصرته في العبادات الشعائرية، وبعض الأحوال الشخصية والاجتماعية، وبذا فإنك ترى إمكانية الحروب بين هذه الأنظمة وإعلان حالة العداوة والبغى دون سابق إنذار، وتجبر إليها في ذلك الشعوب رغماً عنها، والآيات التي نحاول تفيؤ ظلالها تمدنا بالبصائر الهادية، والآن عد بنا إلى هذا الصنف:

هذه الآية تفصل شيئاً عظيماً يقع في النفوس، فقد سبق في الآية السابقة أن أخبرنا الله عن المنافق الذي يجب أن يصنف ضمن العدو الحربي، فيصدق فيه قول الله تعالى ذكره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَسْخِطُوا مِنْهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مَتَابِعَهُمْ﴾ (النساء: ٨٩)، وحتى لا يغلو أحد في تطبيق تلك الآية، ولا يتخذها المتطرفون شعاراً لهم يتلاعبون بها، ويخدعون بها عقول الشباب، فيتسرعون في قتل الآخرين ويزعمون أنهم منافقون جاءت هذه الآية في موضعها المنطقي لتبصير العقول، ولتمد العالم بالرعاية الإلهية التي تُفصل أحداث العالم كما ينبغي أن تكون.. ما أكثر ما تسمع هذه الأيام عن المصائب الكبرى التي يتم إلصاقها بالإسلام

عمداً وجهلاً إما من الغلاة المسلمين الذين يقتلون إخوانهم بالتخرس واتباع الظن والأهواء الشيطانية، وإما من المتعصبين غير المسلمين الذين يتلاعبون بهذه القضية، فما الذي يعصم الدماء؟

هنا يبين ذلك الله سبحانه وتعالى أن مدار الحياة قائم على إلقاء السلم، فإلقاء السلم وعدم التعاون مع المحاربين، وكف الأيدي أساس العلاقات الداخلية والخارجية في الإسلام، فإن الكافر قد يعيش بين المسلمين، وكذلك المنافق، والذي في قلبه مرض، والعكس فقد يعيش المسلم معهم.. فما مدار الأمر في حماية الأمن؟ إنه إلقاء السلم، سواء أكان من منافق أم من كافر، أم من عاص، فقوله تعالى ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ (النساء: ٩٠) إلا هنا استثناء من قوله - عزَّ جاره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَحَّضُوا مِنْهُمْ وَلَا تَنْصِرُوا﴾ (النساء: ٨٩).

فمعنى ﴿يَصِلُونَ﴾ يتصلون وعداها ب﴿إِلَى﴾ ليضمنها معنى ينتسبون، أي: يتصلون بمن عاهدتموهم أو ينتسبون لهم بالرحم أو الانتماء الوطني أو القبلي أو غيره، فهؤلاء ينتمون إلى المعاهدين سواء أكانوا مسلمين أم لا، ففي عهد النبي ﷺ وقعت اتفاقية عهد بينه وبين كفار قريش، ودخل في اتفاقية قريش بنو بكر، فهم لم يوقعوا اتفاقية مع النبي ﷺ مباشرة، كما في نص الاتفاقية التي بين النبي ﷺ وكفار قريش، وأن من والاهم ولحق بهم فله حكمهم، أي: لهم الصلاحية ليضموا غيرهم إليهم، فهم عندما ينتمون إلى هؤلاء الذين بيننا وبينهم عهد فهم يصيرون في حكمهم، فيجب على قريش أن يمنعوهم من أن يعتدوا على المسلمين، فقريش هم الطرف الضامن لهؤلاء الذين لم يكن بيننا وبينهم اتفاقية مباشرة.

والمعنى - كما يقول الطبري -: «فإن تولى هؤلاء المنافقون الذين اختلفتم فيهم عن الإيمان بالله ورسوله، وأبوا الهجرة فلم يهاجروا في سبيل الله، فخذوهم

واقتلوهم حيث وجدتموهم، سوى من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم مودة وعهد وميثاق فدخلوا فيهم، وصاروا منهم، ورضوا بحكمهم، فإن لمن وصل إليهم فدخل فيهم من أهل الشرك راضياً بحكمهم في حقن دمائهم بدخوله فيهم..»^(١) أن تسالموه، وهو في ذمة الله، والله قد عصمه فلا سبيل لكم عليه.. وهذه الآية تؤكد المبدأ الذي جعلناه عنواناً للمحور، وهو أن الإسلام يؤسس معنى السلام الشامل، وأن القتال في الإسلام سببه الاعتداء المسلح من الآخرين بغض النظر عن دينهم، حتى لو كانوا مسلمين، وهنا يزين الرازي مجلس تدبرنا القرآن بهذه اللفتة الإيمانية الممتلئة رجاء وحسن ظن بالله، فيقول: «وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ بَشَارَةً عَظِيمَةً لِأَهْلِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا رَفَعَ السَّيْفَ عَمَّنِ التَّجَا إِلَى مَنِ التَّجَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَبِأَنَّ يَرْفَعَ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ عَمَّنِ التَّجَا إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ كَانَ أَوْلَى»^(٢).

الصنف السادس: قوم من الكفار يتمون إلى المحاربين نوع انتماء، لكنهم يكفون أيديهم عنكم.

وَيُصِرُّنَا بِهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْنَلُوكُمْ﴾ ﴿أَوْ﴾ للدلالة على صنف آخر أي: أو الذين، أسقط كلمة «الذين» لوضوحها في الكلام ﴿جَاءُوكُمْ﴾ ليعلنوا لكم أنهم يريدون السلام فقد حصرت أي: ضاقت صدورهم أن يقتلوكم، أو يقتلوا قومهم، فيجب كف اليد عنهم، ومسالمتهم.

فهم قوم من الكفار يتمون إلى المحاربين لكنهم يكفون أيديهم عنا.. وقرأ يعقوب: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ (النساء: ٩٠) نصباً، أي: حال كونهم ضيقة صدورهم.. ضاقت صدورهم أن يقتلونا، فهم يشعرون بطريقة أو بأخرى أن عندنا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ١٩).

(٢) تفسير الرازي (١٠ / ١٧١).

حقاً، أو هم لا يحبون القتال بل يحبون السلم، وأيضاً لا يريدون أن يتصلوا بنا ويكونوا معنا ويهاجروا إلينا، ويظهروا إسلامهم معنا فيقاتلوا قومهم، فهذا كافر وهو مع الكفار المحاربين لكنه يحب السلام، من هنا هذه الآية تعطينا أبعداً رائعة وعظيمة جداً في كيفية التعامل مع الجماعات التي ترفع راية السلام من غير المسلمين، فينبغي أن ننظر في التعامل الإيجابي معهم بما يؤدي إلى صالح الأمة وصالح السلام العالمي، وينص الرازي عليهم فيقول: «وهؤلاء المذكورون عند الجمهور هم من الكفار - إلى قوله - أو تاركاً للقتال فإنه لا يجوز قتلهم»^(١)، فأوجب الله قتال الكافر المحارب المعتدي إلا إذا كان رافعاً راية السلم، أي: كان معاهداً أي معاهدة دولية، أو معاهدة فردية وهذه فرصة عظيمة جداً تفتح آفاقاً عالية في كيفية عدم التعامل مع جميع الأصناف المختلفة، ولو كانوا ينتمون إلى مكان واحد.

ويبين هذا التشريع العام الواقع التاريخي الذي نزلت الآية لتعالجه، يحدثنا عنه سراقه بن مالك المدلجي رضي الله عنه، فيقول: فلما قدم - يعني النبي ﷺ - المدينة، وظهر على أهل بدر وأحد، وأسلم الناس ومن حولهم، قال سراقه: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى بني مدليج، قال: فأتيتُه، فقلتُ له: أنشدك النعمة، فقال القوم: مه، فقال رسول الله ﷺ: دعوهُ، فقال رسول الله ﷺ: ما تريد؟ فقلتُ: بلغني أنك تريد أن تبعث خالد بن الوليد إلى قومي فأنا أحب أن توادعهم فإن أسلم قومهم أسلموا معهم، وإن لم يسلموا لم تخش صدور قومهم عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد، فقال له: اذهب معه، فاصنع ما أَرَادَ.

فذهب إلى بني مدليج فأخذوا عليهم أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، فإن أسلمت قريش أسلموا معهم فأنزل الله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ حتى بلغ: ﴿إِلَّا

(١) تفسير الرازي (١٠ / ١٧٢).

الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُغَنِّلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ ﴿١﴾. قَالَ الْحَسَنُ: فَالَّذِينَ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ بَنُو مُدَلِّجٍ، فَمَنْ وَصَلَ إِلَى بَنِي مُدَلِّجٍ مِنْ غَيْرِهِمْ كَانَ فِي مِثْلِ عَهْدِهِمْ^(١).

إن مدار العلاقات في الإسلام قائمة على إلقاء السلم، فكيف يفترى الإعلام المبغض للإسلام على الله الكذب، فيزعم بأن الإسلام انتشر بالسيف؟ ألا ترى مقدار رسوخ «مبدأ السلم» في الإسلام؟ ألم يقل الله هنا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ (النساء: ٩٠)، كما قال في سورة براءة التي هي من أعظم مواضع الآيات التي عليها يعتمد الغلاة: ﴿فَمَا اسْتَقِمْوْا لَكُمْ فَاسْتَغِيْمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٧). وهنا ترى الآيات تتعاضد على أن تقرير مبدأ السلم في الإسلام يقترن في الوقت ذاته باستراتيجية «أخذ الحذر»، فكلاهما يبين التكوين الإسلامي لحضارة تحمي الحق والعدل في العالم.

الصنف السابع: قومٌ من المسلمين ينتمون إلى المحاربين.

وتبصرنا بهم الجملة ذاتها: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُغَنِّلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ﴾، جاؤوكم فأسلموا وتابعوكم، ولكن صدورهم ضاقت أن يقاتلوكم؛ لأنهم يخافون الله، أو يقاتلوا قومهم؛ لأن فيهم أقاربهم، أو لأنهم هاجروا وعاهدوا الكفار على عدم مقاتلتهم، فيجب عليهم الوفاء^(٢):

فالصنف السابق كانوا من الكفار ضاقت صدورهم أن يقاتلوا المسلمين، لا

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٤ / ٣٣٢).

(٢) الرازي في تفسيره (١٠ / ١٧٢) بنحوه.

لأنهم يخافون الله وإنما لأنهم يحبون السلم، ولا يميلون إلى العنف، أما هذا الصنف فهم جاءوا وأسلموا، فلا يريدون قتال المسلمين لأنهم أصبحوا منهم، ولا يريدون قتال قومهم، لسبب مقنع^(١) أو لأنهم عاهدوهم عند الهجرة على ذلك، فعند ذلك ينبغي أن يفوا بعهدهم. ومما يؤكد هذا المعنى حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي - حُسَيْلٌ - قَالَ فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ قَالُوا إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا فَقُلْنَا مَا نُرِيدُهُ مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ. فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نُقَاتِلَ مَعَهُ فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: «انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ»^(٢).

وبذا وجدت الآية وبصورة مدهشة تجمع لك ثلاثة أصناف في كلامٍ وجيزٍ معجزٍ. وبعد أن عرّف الأصناف الثلاثة السابقة (الخامس والسادس والسابع) بدقة يبصرك الله جل ذكره بحكمهم، فيقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقِنِلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَكِينًا﴾ (النساء: ٩٠) فيجب بسط السلام معهم، فمنع الله المسلمين أن يؤذوا أحداً منهم كفاراً كانوا أم مسلمين ما داموا التزموا بالاعتزال وعدم القتال وإلقاء السلم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ جُزْءًا مِنَ الْقُوَّةِ الْقَاهِرَةِ ضِدَّكُمْ لَفَعَلْ، فالتسليط التمكين من القهر، ومنه سمي السلطان، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَنًا﴾ (الإسراء: ٣٣)، وتسمى الحجة سلطاناً؛ لأنها تقهر الخصم^(٣)، فحقن دماءهم، ومنع من إيذاهم ولو بالكلمة لكونهم حققوا ثلاثة أمور:

(١) ينقل الرازي في تفسيره (١٠ / ١٧٢) بنحوه.

(٢) صحيح مسلم (٥ / ١٧٦) برقم ١٧١٧.

(٣) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص ٢٣٨).

الأمر الأول: اعتزلوكم، الأمر الثاني: لم يقاتلوكم، الأمر الثالث: ألقوا إليكم السلم، أي: الصلح^(١)، أي أعلنوه، ولم يظاهروا عليكم أحدًا فلم يتعرضوا لزعة الأمن العام والمجتمعي، وأظهروا الصلح مع المسلمين.

ما سبب ذكر عدم القتال وإلقاء السلم مع الاعتزال؟

الاعتزال قد يتم ولكنهم على الرغم من الاعتزال قد يشكلون دعمًا لوجستيًا للعدو من الخلف سواء أكان دعمًا سياسيًا أم اقتصاديًا، فأراد الله سبحانه وتعالى توثيق حالة السلم بصورة كلية فجمع الشروط الثلاثة معًا، وتجد في ذلك الغاية في الاحتياط لعدم التلاعب بالصلح والاتفاقيات، ولذلك نص على المقاتلة ﴿فَلَمْ يُقْنِلُوكُمْ﴾ ثم قال ﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾، وعند ذلك ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ و ﴿سَبِيلًا﴾ نكرة، أي: فما جعل لكم حجة في إيذائهم أدنى إيذاء حتى لو كان الإيذاء بالمعايرة فضلًا عن الشتم، والحملات الثقافية.

فمثل هؤلاء لا يتم الضغط عليهم.. لا يقال لهم: إما أن تكونوا معنا أو ضدنا، فالإسلام يشجع على السلم فإذا كانوا يريدون السلامة وإشاعة السلام، بأن يبقوا محايدين فيجب أن نعينهم.

إن هذا التصنيف الدقيق يعطينا بعدًا ثقافيًا عظيمًا جدًا في التعامل مع العالم وإيجاد نصراء حتى من غير المسلمين للقضايا العادلة. تخيل مقدار الخسار الذي يصيبنا عندما يغيب مثل هذا الفقه عن واقع الأمة.

الصنف الثامن: الباحثون عن مصالحهم الذاتية دون مبالاة بالتزام السلام، فهم يترددون بين إلقاء السلام لكم وبين معاونة المعتدين عليكم.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨ / ٢٤).

وَيُصِرُّنَا اللَّهُ بِهِمْ، فيقول: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾، فلم يبح الاعتداء عليهم على الرغم من خيانتهم، بل قيد الاعتداء عليهم بمشاركتهم المباشرة في الاعتداء المسلح، فقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوا فَعَلَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْبِلُواهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (النساء: ٩١):

لاحظ كلمة ﴿ءَاخِرِينَ﴾ هذا من التعبير القرآني البليغ؛ إذ تحتل أن يكون المقصودون بها من المسلمين، وتحتل أن يكونوا كفارًا، وهذا الذي درج عليه المفسرون، ف﴿ءَاخِرِينَ﴾ قد يراد بها المسلمون وقد يراد بها الكفار الصرحاء لأدلة متعددة مثل قوله تعالى ذكره: ﴿وَأَزَلْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ﴾ (الشعراء: ٦٤).

فما شأن هذا الصنف؟ يصف الله حالهم فيقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ فهم منتسبون إلى قوم معتدين، وهم يتلاعبون فيظهرون للمسلمين رغبتهم في السلام، وعندما يرجعون إلى قومهم يُظهرون لهم أنهم معهم، فهم يبحثون عن مصالحهم الذاتية دون مبالاة بالصدق في الالتزام والعهد، وفي الواقع التاريخي الذي نزلت فيه الآية قيل هُمْ قَوْمٌ مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ، كَانُوا إِذَا اتُّوا الْمَدِينَةَ أَسْلَمُوا وَعَاهَدُوا، وَغَرَضُهُمْ أَنْ يَأْمَنُوا الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ كَفَرُوا وَنَكَثُوا عَهْدَهُمْ^(١)، وبغض النظر عن إسلامهم فإن التركيز عن موضوع الأمن ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ فكلمة يأمنوا، أي: يظهرون الإسلام نفاقًا أو يظهرون المعاهدة كأنهم يقولون نريد أن يكون حالنا كحال الذين حصرت صدورهم، نريد أن نعاهدكم بالأماناتكم ولا تقتاتلونا.

فهم مثل الأصناف الثلاثة في الآية السابقة.. فبم يختلفون عنهم؟

(١) تفسير الرازي (ص ١٥٢٣).

يصف الله لك نقطة الاختلاف فيقول: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ .

ما الفتنة التي يردون إليها؟

الفتن هي الاختبار الذي يفصل الطيب عن الخبيث، فيعرض الذهب والفضة والحديد على النار حتى يزيل خبث كل واحدٍ، وبذا فإن الفتنة هي الواقعة الظاهرة من وقائع الحياة التي يترتب عليها الظهور الواضح لحقيقة الإنسان سواء أكانت هذه الواقعة رخاء أو شدة، راحة أو عذاباً، غنى أو فقراً..

فيظهرون للمسلمين الرغبة في السلام وكف اليد، ثم إذا جاءت وقائع الاختبار، فرجعوا إلى قومهم المعتدين فرأوا عندهم رهباً أو رأوا رغباً أركسوا أمام فتنة الواقع الذي يجدونه، أي: رجعوا إلى نجاساتهم من الخيانة والغدر فقالوا: نحن خدعنا المسلمين.. بل ذهبنا عيناً لكم عليهم فوجدنا من أسرارهم كذا وكذا.

حكمهم:

مدار التعامل معهم قائم على الالتزام الحقيقي بإلقاء السلم، فإن أبوه فحكمهم حكم المعتدين حيث يقول الله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوْكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوْا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفَقَّهُوهُمْ وَأُولَئِكَمُ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٩١)، وتأمل الموقف: على الرغم من الشعور بخيانة هذا الصنف وغلده إلا أن الله جعل الأصل في التعامل السلم، فهم مثل الأصناف الثلاثة في الآية السابقة، ولا يلجأ إلى قتالهم إلا بثلاثة شروط جاءت في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوْكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوْا أَيْدِيَهُمْ﴾ (النساء: ٩١):

١- ألا يعتزلوا، فالاعتزال يقتضي أن يأخذوا جانب الحياد، فإن أبوا وأصروا على الانحياز لجانب المعتدين، فقد تحقق الشرط الأول لقتالهم، والانحياز يتحقق بأن

ينضموا إلى المعسكر المعتدي أو بأن يوفرُوا لهم الدعم الخلفي (اللوجستي) أي: أن يدعموهم بالمعلومات وبالإمدادات الغذائية ونحو ذلك وهكذا.

٢- ألا يلقوا إليكم السلم، ولاحظ التعبير بإلقاء السلم، كأن السلم الذي هو السلام والصلح عبارة عن شيء محسوس بيدك، فحتى يتضح لك فعلاً أنك تريد السلام ألقه أي: ارمه من عندك أمام الآخرين حتى يتضح لي ذلك، فهذا تصويرٌ لضرورة أن يُظهروا السلم بصورةٍ لا تلاعب فيها.

٣- أن يكفوا أيديهم، وهذا تصويرٌ بليغٌ لإظهار أنفسهم بمظهر الحريص على عدم تأييد أحد الجانبين، فكف اليد يتحقق بمنعها من الحركة، وتقييدها من الفعل، وقد يتحقق بأن تمسك اليد الأولى باليد الأخرى لتكفها عن الحركة، فهذا التصوير ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ تصويرٌ رائع يقتضي أن تبذل الجهات المختصة جهوداً كبيرة للتأكد الاستخباراتي من التزام هذا الطرف بما يزعّمه من الاعتزال وإلقاء السلام وكف اليد.

وكل ذلك يعلم الأبعاد العسكرية في العلاقات الدولية ويفترض أن تكون هذه الآيات ضمن ما يتعلمه طلاب الكليات العسكرية لتكتسب منه خبرة مدهشة في محاولة إدارة الصراعات القائمة في العالم، وقد سبق لي أن قرأت كتاباً من الكتب يسمى (فن الحرب) ينسبونه لأحد الصينيين يسمى تسو، وهذا كتاب ألف فيما يزعمون قبل ألفي سنة، وهو كتاب متداول عند الشرقيين والغربيين ومشهور جداً، مهما وجدت فيه ستجد أن الاستراتيجيات الأمنية التي تؤدي إلى الانتصار وتحفظ السلام في القرآن الكريم أقوى وأقوم بالإضافة إلى امتلاكها ناصية الأخلاق العسكرية الحقيقية وليست المدعاة، بل إنك لتجد إدارة المعارك العسكرية في القرآن تأخذ مناحي مدهشة يتم فيها تحويل الخسارة أو الهزيمة إلى نصرٍ حقيقي.

فإن لم تتحقق هذه الشروط الثلاثة وهي الاعتزال وإلقاء السلم وكف اليد،

فهنا يأتي الحكم الصارم مع هؤلاء المتلاعبين ذلك ﴿فَخَذُوهُمْ وَأَقْلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ومعنى ثَقِفْتُمُوهُمْ أي: وجدتموهم قاصدين أو على حين غرة.

وهذه الآيات تزيدك تفصيلاً وبياناً لما ورد في قوله تعالى جده: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ (المُمْتَحَنَةِ: ٨) وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (البَقَرَةِ: ١٩٠).

وبذا يظهر أن المعيار الأساسي للعلاقات الدولية، والداخلية، ليس بإظهار كلمة الإسلام، وإنما بكف الأيدي عن الاعتداء، وإلقاء السلم، سواء أكان المجتمع يغلب عليه الإسلام أم الكفر، وتفصيل هذه الأقسام لبيان كيفية تطبيق السياسة الأمنية الرائعة التي هي سياسة: (أخذ الحذر).



القِسْمُ الثَّانِي

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام
العالمي: حفظ الدماء الإنسانية وحراستها من أهم دلائل
الإيمان، والتحذير من التفريط فيها تحت ذريعة تطبيق
السياسة الأمنية (النساء: ٩٢-٩٤)

آيات هذا القسم:

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ
فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا
عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقِيْلُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ
إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ
كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَقِيْلُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ (النساء: ٩٢-٩٤).

المناسبة والاتصال:

بين الله في القسم السابق أن أهم قيمة تبنى عليها العلاقات المحلية والدولية
هي كف اليد وإلقاء السلم، فلا يجوز الاعتداء على الآخرين باسم: أخذ الحذر، وفي

هذا القسم يأمر الله بحراسة الدماء الإنسانية، ويحذّر المسلم من أن يطلق يده في دماء غيره تحت أي ذريعة، ويبين الله خطورة الاعتداء على الآخرين، سواء أكانوا مسلمين أم أصحاب عهود وعقود، فالناس ينقسمون حسب ميلهم إلى السلم إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول: المحارب (ومثله الباغي)، وقد يكون مسلماً، وقد يكون غير مسلم.

الصنف الثاني: المعاهد، وربما كان كافراً، وربما كان منافقاً، وقذفت لنا نوازل العصر بأنه ربما كان مسلماً.

الصنف الثالث: المستأمن، وهو من طلب الأمان، وكان ينتمي إلى الحربيين لعمل أو رسالة أو تجارة أو غير ذلك.

الصنف الرابع: المسلم، ومثله: الذمّي (المقيم) ممن يعيش في مجتمع مسلم، ومثله: المسلم المقيم وفق عقد إقامة، أو مواطنة في مجتمع غير مسلم.

فبين الله أن استراتيجية أخذ الحذر لا تعني أن يعبث بدماء الآخرين بحجة الداعي الأمني بل يجب أن يكفل لبقية البشر الحقوق كاملة في صيانة دمائهم، وحراسة أعراضهم، والقيام على كراهتهم، فهذا القسم يقيم التوازن بين مقتضيات الحزم في سياسة أخذ الحذر وضرورة السهر على حراسة دماء البشر، فلا يأخذ المتحمسون الأمر على العنف والعسف والاندفاع الأهوج، ولا يأخذ المتميعون الأمر على الذل والمداهنة، وتضييع المصالح العليا للأمة باسم الرفق والسماحة.

وبين الله في هذا القسم من خلال عددٍ من البصائر القانونية، جاءت مرتبة على نحوٍ تقنيٍّ بديع، فكانت أولها يتعلق بحكم قتل الخطأ؛ إذ قد يقع، ووقوعه لا يعني

القيام بالثارات، ولا المسارعة لإبادة النفوس، ولا الاقتصاص ليطم إفقاد البشرية أكثر من نفسٍ، ثم وسَّط الله جل ذكره ضمن هذه البصائر القانونية بيان حكم قتل المؤمن عمداً، ثم ختم الله ذلك بيان حكم قتل الشبهة للمؤمن وللمؤمن، فهلم بنا إلى هذه القوانين المشعة بالنور الذي يُصلح أحوال هذا العالم:

القانون الأول: يحرم حرمة قطعية أن يقتل مؤمنٌ مؤمناً للدرجة التي لا يتصور فيها بقاء الإيمان إن فعل ذلك. ويُصَرَّنَا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ (النساء: ٩٢).

ويصور هذا القانون أن قتل المؤمن للمؤمن، لا يمكن وقوعه شرعاً، وذلك يعني أن المؤمن إن قتل مؤمناً، فقد سلب منه وصف الإيمان.

﴿وَمَا كَانَتْ﴾ أتى بصيغة الإخبار ولم يأت بصيغة الطلب، فهو نفي بمعنى النهي للتشديد والتفطيع والتهويل لهذه الجريمة، وهذا تشديدٌ عظيم، فلا يُتصور أن يقتل مؤمنٌ مؤمناً إلا خطأ، وكأنه لو فعل ذلك فليس بمؤمن فكأن الإيمان نزع منه، وهذا تهويلٌ شديدٌ لهذه الجريمة، وقد ذكر النبي ﷺ ذلك فقال: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(١).

والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا خَطَاً﴾ مُنْقَطِعٌ بِمَعْنَى لَكِنْ، كما في قوله تعالى ذكره: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾ (النساء: ٢٩) وكما في قوله -عزَّ جاره-: ﴿الَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ (النجم: ٥٣) ومثله قوله جل مجده: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (الواقعة: ٢٥، ٢٦).

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٤١) برقم ١٢١.

فكأن قتل المؤمن في غير حالة الخطأ يناقض الإيمان؛ إذ يستحيل شرعاً وجود مؤمن صادق الإيمان يقتل مؤمناً إلا خطأ.. انظر للحصر هنا ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ (النساء: ٩٢)، ويسمى هذا الحصر حصراً ادعائياً، وذلك لأنه ينبغي أن لا يحدث ذلك، ولكن الواقع المؤلم قد يخالفه، فيوجد مؤمن يقتل مؤمناً عمداً، كما في الآية التالية، وسبب هذا الحصر التهويل العظيم للتفكير في هذا الفعل، والتفطيع الشديد لهذه الجريمة.. ترى ماذا يقول المجرمون الكبار الذين يزعمون أنهم مسلمون ثم ييحبون دماء الموحدين؛ لأدنى تعارض مع مصالحهم الدنيوية أو وساوسهم الدينية؟

والجرائم التي يجوز بسببها قتل المؤمن ذكرها النبي ﷺ في قوله: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا يَأْخُذَ ثَلَاثٌ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيْبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ»^(١).

إن هذا القانون يأخذ بأيدينا إلى بصيرة جديدة: اجتماع المؤمن مع المؤمن أعظم النعم بعد نعمة الإيمان؛ إذ المؤمن يحافظ على دم أخيه أعظم المحافظة، فبذلك يسمى مؤمناً، واعتداء مؤمن على مؤمن يناقض حقيقة ذلك الإيمان.

وستقول: القانون ينص على حرمة الدماء الإنسانية؛ ولكن الآية ذكرت الدماء المؤمنة فقط، فكيف يستقيم الاستدلال؟

إنك لترى الآية ذكرت في البداية حرمة دماء المؤمنين، لكنها أدرجت في البصائر القانونية القادمة ما يتعلق بدماء المؤمنين معهم، وإنما ذكرت الآية هنا دماء المؤمنين لأنها سورة مدنية فصلت أحوال المؤمنين في القسم السابق، وقد آن الأوان لذكر المؤمنين في هذا القسم.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٦) برقم ٦٨٧٨.

القانون الثاني: حالات القتل الصادر من مؤمن: الحالة الأولى: يظهر فيها الحكم العام لقتل المؤمن مؤمناً خطأ، فيجب تقديم الكفارة وهي أمان. ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ (النساء: ٩٢).

فالخطأ معفو عن الإثم فيه، إلا أن الخطأ في القتل ليس كالخطأ في أي فعل حتى الخطأ الشرعي.. الخطأ في القتل لا بد له من كفارة؛ ليظهر لك مقصد الإسلام في الحرص على حياة البشرية، وذلك حتى لا تتشابك الخطوط وتتداخل الخيوط، فيأتي من يزعم أنه قتل فلاناً المؤمن خطأ ولم يتعمد، فقد شدد الله تعالى العقوبة على قتل الخطأ، ويتصور قتل الخطأ بأن يحاول المؤمن أن يقتل معتدياً حربياً حريصاً على قتل المؤمنين إن قدر على ذلك، فتقع الضربة على مؤمن بدلاً من ذلك، أو أن يرمي المؤمن صيداً أو هدفاً فيصيب مؤمناً دون أن يقصد قتله، فالقتل ثلاثة أنواع عند الشافعية:

العمد: وهو أن يَقْصِدَ قَتْلَهُ بِالسَّبَبِ الَّذِي يُعْلَمُ إِفْضَاؤُهُ إِلَى الْمَوْتِ سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ جَارِحاً أَمْ لَمْ يَكُنْ.

وَأَمَّا الْخَطَأُ فَضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَقْصِدَ رَمِيَّ الْمُعْتَدِي أَوْ الطَّائِرِ فَيَصِيبُ مُسْلِمًا. وَالثَّانِي: أَنْ يَطْنُ الْهَدَفَ الْمُرَادَ مُعْتَدِيًا حَرْبِيًّا بِأَنْ كَانَ عَلَيْهِ شِعَارُ الْمُعْتَدِينَ، وَالْأَوَّلُ خَطَأً فِي الْفِعْلِ، وَالثَّانِي خَطَأً فِي الْقَصْدِ.

وأما شبه العمد: فهو أن يضربه بسلاح لا يقتل عادة فيموت منه. قال الشافعي

ﷺ: هذا خطأ في القتل وإن كان عمداً في الضرب، وهذا كما قال ابن رسلان

فَعَمْدٌ مَحْضٌ وَهُوَ قَصْدُ الضَّارِبِ شَخْصًا بِمَا يَقْتُلُهُ فِي الْغَالِبِ
وَالْخَطَأُ الرَّمِيُّ لِشَاخِصٍ بِلَا قَصْدٍ أَصَابَ بِشَرًّا فَقَتَلَا
ومشبه العمد بأن يرمى إلى شخص بما في غالب لن يقتلا

وَلَمْ يَجِبْ قِصَاصٌ غَيْرُ الْعَمْدِ إِذْ يَحْصُلُ الْإِزْهَاقُ بِالتَّعْدِي (١)
 فكفارة القتل الخطأ بينت مقصد الإسلام في الحرص على حياة الناس حيث
 تكونت من أمرين: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾:
 فالأمر الأول: تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فمن أعظم أهداف الشريعة الإسلامية تنمية
 الحياة الإنسانية؛ ولذا حرصت على عتق الأرقاء، وفق تأهيل مناسب، وجعلت العتق
 كالإحياء للنفس؛ لذا كان جزءاً من الكفارة إمداد المجتمع بركة تعويضاً له عن فقدان
 حياة قتلت خطأ.

فالفاء في قوله ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ رابطة لجواب الشرط، وَ (تَحْرِير) خبر
 مرفوع لمبتدأ محذوف تقديره: فكفارته تحرير رقبة، أو مبتدأ مرفوع وخبره مرفوع
 تقديره: فعليه تحرير رقبة، كَقَوْلِهِ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف: ١٨).

ما سبب تحرير الرقبة؟ لأنه أعدم رقبة، فلا بد له أن يحرر رقبة بدل الرقبة التي
 ماتت وكان الرق بمثابة الموت، والعتق بمثابة الحياة، وكان الرق فاشياً في النظام
 الجاهلي، ومن أسبابه: الأسر في الحرب، والخطف، ومنها: بيع الوالدين لأبنائهم،
 ومنها: عدم القدرة على سداد القروض، فأبطلها الإسلام، ما عدا الأسر في الحرب؛
 لأن الرق وفق الضوابط الإسلامية أفضل من السجن؛ إذ يتم من خلاله التأهيل
 الحقيقي للعودة المكرمة للمجتمع، وعدم تحميل الدولة، أو المجتمع أعباء
 إضافية، فيصير الأسير جزءاً من الأسرة التي تعامله أحسن المعاملة؛ حتى يتأهل
 لافتداء نفسه؛ ولأن المقتول نفس مؤمنة لا يجرى من الرقاب إلا عتق نفس مؤمنة
 جزاءً وفاقاً، فعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرَعَىٰ غَنَمًا لِّي
 قَبْلَ أَحَدٍ وَالْجَوَانِيَّةُ، فَاطْلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ

(١) الزبد في الفقه الشافعي (ص ٢٨٧).

مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسِفُونَ لِكِنِّي صَكَّكْتُهَا صَكَّةً، فَاتَّيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا قَالَ: «اِئْتِنِي بِهَا». فَاتَّيْتُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتَقُهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»^(١)، وعن عبد الله بن عبد الله عن رجل من الأنصار أنه جاء بأمة سوداء وقال: يا رسول الله إن علي رقبة مؤمنة فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها فقال لها رسول الله ﷺ: «أشهدين أن لا إله إلا الله» قالت: نعم قال: «أشهدين إني رسول الله»، قالت: نعم قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم، قال: «اعتقها»^(٢).

وعمم الله العتق للمؤمن ولغير المؤمن في كفارات أخرى غير كفارة قتل المؤمن خطأ. والجراح العظيمة التي وجدت في المجتمع بقتل هذه النفس خطأ تتم مداواتها بإيجاد أسباب الحرية، وَقَدْ جُعِلَ هَذَا التَّخْرِيرُ بَدَلًا مِنْ تَعْطِيلِ حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ الْمَجْتَمَعِ فِي ذَاتِ الْقَتِيلِ؛ فَإِنَّ الْقَتِيلَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَيُرْجَى مِنْهُ وَمَنْ نَسَلِهِ أَنْ يَتِمَّ الْإِنْتِفَاعُ بِطَقَاتِهِمْ فِي عِمَارَةِ الْحَيَاةِ وَفَقِ الْمُرَادِ الْإِلَهِيِّ.

الأمر الثاني من الكفارة: ﴿وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ والدية تعكس الحرص على تطيب خواطر أهل القتل؛ ليبقى التلاحم في الأمة قائماً؛ ولتجبر مصيبة أهله فيه.

فالدية مَصْدَرٌ وَدَى الْقَتِيلِ يَدِيهِ وَدِيًّا وَدِيَّةٌ - كَعِدَةٍ وَزَنَةٍ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَزْنِ، وقوله تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أَصْلُهُ يَتَصَدَّقُوا فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الصَّادِ، أي إلا أن تطيب خواطرهم فيتصدقوا على أنفسهم بالتنازل عن الدية قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يُوسُف: ٨٨)، وبين ابن مسعود تفصيل الدية فقال:

(١) صحيح مسلم (٧٠ / ٢) برقم ٥٣٧.

(٢) أحمد (٣ / ٤٥١) وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابه.

قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكوراً وعشرين بنت لبون وعشرين جذعة وعشرين حقة^(١).

« وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ جَعَلُوا الدِّيَةَ عَلَى كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلَفَةٍ، فَكَانَتْ عَوَضًا عَنْ دَمِ الْقَتِيلِ فِي الْعَمْدِ وَفِي الْخَطَا، فَأَمَّا فِي الْعَمْدِ فَكَانُوا يَتَعَيَّرُونَ بِأَخْذِهَا. قَالَ الْحَمَاسِيُّ:

فَلَوْ أَنَّ حَيًّا يَقْبَلُ الْمَالَ فِدْيَةً لَسَقْنَا لَهُمْ سَيِّئًا مِنَ الْمَالِ مُفْعَمًا
وَلَكِنْ أَبَى قَوْمٌ أُصِيبَ أَخُوهُمْ رَضِيَ الْعَارِ فَاخْتَارُوا عَلَى اللَّبَنِ الدَّمَ^(٢)
وَإِذَا رَضِيَ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ بِدِيَةِ بِشْفَاعَةِ عُظَمَاءِ الْقَبِيلَةِ قَدَّرُوهَا بِمَا يَتَرَاضُونَ عَلَيْهِ.
قَالَ زُهَيْرٌ:

تُعَقَّى الْكُلُومُ بِالْمِئِينَ فَأَصْبَحَتْ يُنَجِّمُهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِمُجْرِمٍ^(٣)
ومما يدل على تشوف الشريعة إلى لملمة الجراح قوله تعالى: ﴿مُسْلِمَةٌ﴾؛ إذ تدل على ضرورة تحرك القاتل إلى ديار المقتول لتسليم الدية، وتطبيب خاطر، وإبقاء لحمة الاجتماع الإنساني والإيماني قائمة.

والسؤال هنا: لماذا يلزم العاقلة أن تعين القاتل على الدية مع أنهم لم يصدروا عنهم جناية؟ والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأنعام: ١٦٤) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وعن أبي رمثة التيمي قال: جئت مع أبي إلى النبي ﷺ فقال: ابنك هذا؟ قلت: نعم، قال: أتجبه؟ قلت: نعم، قال: أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه^(٤)، والأصل أن مال الإنسان محفوظ معصوم كما قال

(١) سنن الترمذي (٤ / ١٠) برقم ١٣٨٦.

(٢) ديوان الحماسة (١ / ٧٠).

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص ٣).

(٤) أحمد (٢ / ٢٢٦)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (النساء: ٢٩)، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ»^(١).

والجواب: العاقلة هي عشيرة الإنسان وأقرباؤه، وإيجاب الدية على العاقلة لخطورة موضوع الدماء، والأصل أن العاقلة تراقب أفرادها فتعقلهم، أي: تمنعهم من المنكرات وخاصة هذا الأمر الخطير، ومع أنه قتل خطأ إلا أن في إشراك العاقلة في تحمل التبعات إيقاظاً لها لئلا تغفل عن أبنائها، فيقع من بعضهم عن عمد، أو يقع خطأ؛ لكن عن تهور وتساهل، وفي هذا التضامن بيان بمدى العلاقة القوية بين الأقربين، فإن عجزوا عن توفير الدية تضامن معه بقية المجتمع، فيقوم بيت مالهم بأداء ما عليه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَقْتَلْتُ امْرَأَتَانِ مِنْ هَذِيلَ، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةُ عَبْدٍ أَوْ وَلِيدَةٍ، وَقَضَى بِدِيَةِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا، وَوَرَثَهَا وَلَدَهَا وَمَنْ مَعَهُمْ، فَقَالَ حَمَلُ بِنْتِ النَّابِغَةِ الْهُذَلِيِّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَعْرَمُ مَنْ لَا شَرِبَ، وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَ، فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ». مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ^(٢).. فهذا الرجل لم يشعر بمدى حرص الشريعة على حماية الجنس الإنساني، فقام ينشر كلامه المسجوع على طريقة الكهان ليعترض على الحكم الشرعي، فنبهه النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على خطأ قوله، بنسبته إلى من يأكلون أموال الناس بالباطل، وهم الكهان.. إن الجنين جزءٌ من الحياة الإنسانية المنتظرة التي يجب حمايتها ورعايتها، والجنانية عليه جنابة على الإنسانية.

القانون الثالث: الحالة الثانية: أن يقتل مؤمنٌ مؤمناً خطأ، وهذا القتل ينتمي إلى قوم معادين. وَيُبَصِّرُنَا بهذه الحالة قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٢٦) برقم ٦٧.

(٢) صحيح البخاري (٧ / ١٧٥) برقم ٥٧٥٨، صحيح مسلم (٥ / ١١٠) واللفظ له.

مُؤْمِنٌ فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴿ (النساء: ٩٢).

فربما يكون الخطأ بسبب ظن المؤمن القاتل خطأ أن هذا المقتول ما زال معادياً مثل قومه، ثم يستبين أنه مؤمن، وفي هذه الحالة يجب تحرير رقبة مؤمنة لتعويض النفس المؤمنة التي قُتلت، ولا يجوز أداء دية لقومه المحاربين؛ لأنها ستكون قوة لهم على مواصلة اعتدائهم؛ ولأن المقتول لا يسره ذلك لو كان حياً.

والتطبيق التاريخي وقت نزول الآية يحكيه مجاهد بن جبر رحمه الله أن عياشاً هاجر إلى النبي ﷺ مؤمناً، فجاءه أبو جهل وهو أخوه لأمه فقال: إن أملك تناشدك رحمها وحقها أن ترجع إليه - وهي أسماء ابنة مخزبة -، فأقبل معه، فربطه أبو جهل حتى قدم مكة. فلما رآه الكفار زادهم ذلك كفراً وافتتاناً، وقالوا: إن أبا جهل ليقدر من محمدٍ على ما يشاء ويأخذ أصحابه ^(١).

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاشٍ قَالَ: قَالَ لِي الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ فِي جَدِّكَ عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَفِي الْحَارِثِ بْنِ زَيْدٍ أَخِي بَنِي مَعِيصٍ كَانَ يُؤْذِيهِمْ بِمَكَّةَ وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ فَلَمَّا هَاجَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ أَسْلَمَ الْحَارِثُ وَلَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِهِ فَأَقْبَلَ مُهَاجِرًا حَتَّى إِذَا كَانَ بِظَاهِرَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ لَقِيَهُ عِيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَلَا يَظُنُّ إِلَّا أَنَّهُ عَلَى شِرْكِهِ فَعَلَاهُ بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ وَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴿ يَقُولُ: تَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَلَا يَرُدُّ الدِّيَةَ إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى قُرَيْشٍ ﴾ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴿ يَقُولُ: مِنْ أَهْلِ الدِّمَةِ ﴾ فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ٣٢).

أَهْلِيهِ ۖ ﴿١﴾، وظهرها أن العبرة بقوم القتل لا بمكان إقامته خلافاً لأبي حنيفة ومالك،
وَأَخْبَرَ عَنْ قَوْمٍ بَلَفَظَ عَدُوٌّ وَهُوَ مُفْرَدٌ، لِأَنَّ فَعُولًا بِمَعْنَى فَاعِلٍ يَكْثُرُ فِي كَلَامِهِمْ أَنْ يَكُونَ
مُفْرَدًا مُذَكَّرًا غَيْرَ مُطَابِقٍ لِمَوْصُوفِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٠١)
﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (الممتحنة: ١) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
شَيْطَانِيًّا أَلَيْنِ﴾ (الأنعام: ١١٢)، وامرأة عَدُوٌّ وَشَدَّ قَوْلُهُمْ عَدُوَّةٌ ۖ ﴿٢﴾.

القانون الرابع: الحالة الثالثة: أن يقع القتل الخطأ على معاهد مؤمن أو كافر
ينتمي لقوم معاهدين، سواء أكان عهد هدنة أم عهد دمة، فعند ذلك يجب الأمران معاً.
وَيُبَيِّنُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ
مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ۖ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (النساء: ٩٢).

ومن الحوادث التي تدخل ضمن هذه الحالة ما جاء عَنْ عَائِشَةَ ۓ، قَالَتْ: لَمَّا
كَانَ يَوْمَ أَحَدٍ هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ فَصَاحَ إِبْلِيسُ: أَيُّ عِبَادَ اللَّهِ أُخْرَاكُمْ فَرَجَعَتْ أَوْلَاهُمْ
فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأَخْرَاهُمْ فَنَظَرَ حُذَيْفَةُ ۓ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ الْيَمَانِ فَقَالَ: أَيُّ عِبَادَ اللَّهِ أَبِي
أَبِي قَوْ اللَّهِ مَا احْتَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ، قَالَ عُرْوَةُ: فَمَا زَالَتْ
فِي حُذَيْفَةَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ خَيْرٌ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ ۖ ﴿٣﴾، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدِيَهُ، فَتَصَدَّقَ بِهِ
حُذَيْفَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَرَادَهُ ذَلِكَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ۖ ﴿٤﴾.

وقد استنبطنا هذه الحالة تبعاً لبعض المفسرين المحققين لأن الله لم ينص
هنا على كون المقتول مؤمناً، فدماء المعاهدين مصونة كدماء المسلمين، وهذا

(١) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٨ / ١٣١) برقم (١٦٥٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٥ / ١٦١).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٥٢) برقم ٣٢٩٠.

(٤) المستدرک ٤٠٥ (٣ / ٢٠٢).

الاستنباط وجيةٌ جدًا عندما تلاحظ تكرار النص على وصف الإيمان بالنسبة للمقتول في الحالتين السابقتين، ولكن بعض المفسرين قالوا: الحالة الثالثة جاءت مطلقة، فلم تقيد بوصف الإيمان، حيث قال الله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، فأطلق لم يقل ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فنحمله على الحالة التي قبلها، التي قال الله فيها ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.. لعل هذا الكلام فيه وجاهة..

ألا ترى معي أن الوجاهة الأكبر تكمن في جعل المطلق مطلقاً، وإعماله ليتناول ما يدخله من الحالات، فلو أراد الله تقييد الحالة لثم ذلك كما فعل في الحالة السابقة، ثم إنك ترى أن الله قيد الرقبة المعلقة بالإيمان فقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ (النساء: ٩٢)، فلو أراد تقييد المقتول بالإيمان لفعل، فدل هذا على الحالتين: أن يكون المقتول مؤمناً وغير مؤمن، فعدم النص على إيمان المقتول هنا لتدخل الحالتان معاً، وهذا من الإيجاز المعتمد في توفير المعاني كما ترى، ورجح الطبري أنه المعاهد.

وقدم الدية؛ لأن ذلك مقتضى إرضاء المعاهدين لتثبيت حالة السلم معهم، ولم يرغب في العفو فيها بخلاف الحالة الأولى، « وَلَعَلَّ النُّكْتَةَ فِي ذَلِكَ الْإِشْعَارُ بِأَنَّ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي مُعَامَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ مُقَدَّمٌ عَلَى حُقُوقِ النَّاسِ، وَلِذَلِكَ اسْتَشْنَى هُنَالِكَ فِي أَمْرِ الدِّيَةِ فَقَالَ: إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ الْعَفْوَ وَالسَّمَاحَ، وَاللَّهُ يُرَغِّبُهُمْ فِيَمَا يَلِيقُ بِكَرَامَتِهِمْ وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَشِنْ هُنَا؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُعَاهِدِينَ الْمُشَاحَّةَ وَالتَّشْدِيدَ فِي حُقُوقِهِمْ، وَلَيَسُوا مُذْعِنِينَ لِهِدَايَةِ الْإِسْلَامِ فَيُرَغِّبُهُمْ كِتَابُهُ فِي الْفَضَائِلِ وَالْمَكَارِمِ وَتَمَّ نُكْتَةُ أُخْرَى وَهُوَ أَنَّ فِي سَمَاحِ الْمُعَاهِدِ لِلْمُؤْمِنِ بِالْدِّيَةِ مِنْهُ عَلَيْهِ، وَالْكِتَابُ الْعَزِيزُ الَّذِي وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعِزَّةِ لَا يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ هَذِهِ الْمِنَّةِ »^(١).

(١) تفسير المنار (٥/ ٢٧٢).

واختلف علماؤنا في مقدار دية غير المسلم، فروى الطبري عن الزهري يقول: دية الذمي دية المسلم. قال: وكان يتأول: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ (النساء: ٩٢)، ونحوه عن الشعبي وإبراهيم النخعي^(١)، وروى عن الزهري أن أبا بكر وعثمان رضوان الله عليهما، كانا يجعلان دية اليهودي والنصراني، إذا كانا معاهدين، كدية المسلم^(٢).

والظاهر عندي أن هذا هو الأصل إلا أن يطراً طارئاً يوجب العمل بغيره، فالنفس الإنسانية مصونة مكرمة، فقد قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ أَمِنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ ثُمَّ قَتَلَهُ، فَأَنَا مِنَ الْقَاتِلِ بَرِيءٌ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا»^(٣)، وقال ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»^(٤).

وجاءت آثارٌ تخالف ذلك في مقدار الدية، وحاول رشيد رضا التوفيق بينها فقال: «وَوَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ أَمْرَ الدِّيَةِ مَنُوطٌ بِالْعُرْفِ وَبِالتَّرَاضِي، وَالْأَقْرَبُ أَنَّ اخْتِلَافَ السَّلَفِ فِي الْعَمَلِ كَانَ لِأَجْلِ هَذَا»^(٥).

القانون الخامس: في حالة العجز عن إيجاد الرقبة، بين الله ذلك بقوله: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾.

والمقصود هنا - كما يقول الضحاك -: الصيام لمن لا يجد رقبة، وأما الدية فواجبة،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ٤١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ٥١).

(٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (١٣ / ٣٢٠) برقم ٥٩٨٢، وحسن إسناده الأرنؤوط، والألباني في الصحيحة برقم ٤٤٠.

(٤) صحيح مسلم (٨ / ٣٣) برقم ٢٦١٦.

(٥) تفسير المنار (٥ / ٢٧٤).

لا يبطلها شيء^(١)؛ لأن دية الخطأ على عاقلة القاتل، فإن عجزت العاقلة عن الدية، لزم ولي أمر المسلمين توفيرها من بيت المال، كما فعل النبي ﷺ بالقيام بأداء الديات من جهته لما عجز بعض المسلمين، فلا تسقط الدية البتة؛ لأن القصد منها تطيب الخواطر، فالدية وضعت فقط من أجل سل السخائم، فإذا لم تعط ربما بقيت هذه السخائم، ولذلك يمكن الاصطلاح على ما هو زيادة على الدية، ولا تسقط إلا أن يصدق أهل الدية، وإذا أراد المعاهدون التصديق بالدية يمنعون من ذلك، بل يقال لهم خذوا هذا وإذا أرادوا صلحاً على ما أهو أكثر من الدية يعطون، لئلا تكون لهم منة على المسلمين، ولئلا تكون ستاراً للشدة حنق أنفسهم على المسلمين من جهة أخرى.

القانون السادس: يجب الشعور بالثقة بأنظمة الشريعة، والتذكير بذلك، ويُبَصِّرُنَا بهذا قوله تعالى ذكره: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٩٢)، فهذه مادة حاکمة مُعَظِّمة.

إذ قد يقول قائل: لماذا هذا التشديد في العقوبة على قتل الخطأ على الرغم من العفو العام المجمل عن فعل الخطأ حيث قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥)؟ فيأتي الجواب شافياً لبيان أصل العقوبة وتفصيلاتها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٩٢)، فهذه الجملة تبين عظمة التشريعات القانونية، وأنها المناسبة لحفظ الحياة البشرية، فهي صادرة من كامل العلم والحكمة.

إن الله عليم بما تحتاجه البشرية، حكيم في وضع كل شيء مهما صغر في موضعه.. إنه التدبير الحكيم الذي يقولون عنه التصميم الذكي في الطبيعة، وفي تفصيل الشريعة المناسبة لهذه الطبيعة.. فكانت عقوبة قتل الخطأ من المستثنيات من

(١) تفسير الطبري (٩/ ٥٥).

هذه الآية وذلك تعظيمًا لحرمة الدماء، ولئلا تكثر دعاوى الشبهة والخطأ في موضوع القتل.. خاصة مع ما تراه من استباحة كثير ممن ينتسبون إلى الكتب الثلاثة وغيرهم للدماء، بل تقوم المخابرات العالمية بإنشاء منظمات قادرة تدفعها لارتكاب بعض الأفعال لتبرير تصرفاتها، وتسويغ بيعها للسلاح، تدمر بها البلدان، وتشوه بأدبياتها وعي الناس، وينضم إليها من لا يقيم للدماء حرمة جهلاً أو بغياً.

مضى على المسلمين حين من الدهر، والصحابة رضي الله عنهم لا يتصورون أن يأتي زمان يمكن لمؤمن أن يقتل مؤمناً، فعن أبي موسى حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَهَرَجًا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْهَرَجُ؟ قَالَ: الْقَتْلُ، فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَقْتُلُ الْآنَ فِي الْعَامِ الْوَاحِدِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ، وَابْنَ عَمِّهِ وَذَا قَرَابَتِهِ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَعَنَا عُقُولُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا، تُنَزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلَفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ لَا عُقُولَ لَهُمْ - وفي رواية -: «يحسب أكثرهم أنهم على شيء وليسوا على شيء»

ثُمَّ قَالَ الْأَشْعَرِيُّ: وَإِنَّمِ اللَّهُ، إِنِّي لَأُظَنُّهَا مُدْرِكَتِي وَإِيَّاكُمْ، وَإِنَّمِ اللَّهُ، -وعند أحمد: والذي نفسي بيده- مَا لِي وَلَكُمْ مِنْهَا مَخْرَجٌ، إِنْ أَدْرَكْتَنَا فِيمَا عَهْدَ إِلَيْنَا نَبِيًّا ﷺ، إِلَّا أَنْ نَخْرُجَ كَمَا دَخَلْنَا فِيهَا لَمْ نَصِبْ مِنْهَا دَمًا وَلَا مَالًا^(١)، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ «إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيْ قَوْمٌ أَنْتُمْ». قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاعَضُونَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي

(١) أحمد (٤ / ٣٩١) برقم ١٩٥١٠، وقال الأرنؤوط: مرفوعه صحيح وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد: وهو ابن جدعان وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

مَسَاكِينَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ^(١)، ويقصد بالمهاجرين إما المهاجرين وإما المستضعفين في كل زمان كما ترى في زماننا.

فبينت هذه التفصيلات حرمة الدماء البشرية والتشديد في صيانتها وحراستها سواء أكانت دماء المؤمنين أم دماء غيرهم من المعاهدين بخلاف من أهدروا دماءهم بالاعتداء على البشرية.

القانون السابع: الحالة الرابعة: قتل المؤمن عمداً أكبر الجرائم الإنسانية، ويخشى على القاتل من عدم قبول التوبة. وَيُصَرِّفْنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣).

آخر الله ذكر حالة القتل العمد لِتَهْوِيلِ أَمْرِهِ، وتفضيع شأنه، ويتعلق بالقتل العمد تشريعات دنيوية وأخروية، فذكر الدنيوية في سورة البقرة في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٧٨)، فالقصاص عقوبة رادعة تجعل الذي يريد القتل يخاف من العقوبة، فيمسك، فيحفظ حياته، وحياة الآخرين.

والقتل العمد يدخل فيه كل من ضرب إنساناً بشيء يغلب عليه أنه يتلفه، فلم يقلع عنه حتى أتلّف نفسه به مهما كانت أداة الضرب^(٢).

فإذا كان القتل الخطأ فيه تلك العقوبة القاسية مع أنه خطأ فكيف يكون القتل العمد؟ وَالْمُتَعَمِّدُ: أبلغ من العائد القاصد لِلْقَتْلِ، مُشْتَقٌّ مِنْ عَمَدَ إِلَى كَذَا إِذَا قَصَدَ الشَّيْءَ وَذَهَبَ إِلَيْهِ مَرِيدًا إِيَّاهُ، وهذا النوع من القتل هو الكبيرة التي لا تُرتكب مع إيمان، ولا تُكفّر عنها دية ولا عتق رقبة، وإنما فيها هذه العقوبات التي لم ترد في

(١) صحيح مسلم (٨ / ٢١٢) برقم ٢٩٦٢.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ٦٠).

أي معصية أخرى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.. وهذا لا يعني سقوط الدية في حقه بل كثير من الفقهاء كالشافعي رحمه الله يلزمونه بها، قالوا: تجب الدية، ولكنها لا تُسقطُ الإثم. إنها ليست قتل نفس بل هي قتل للنفس وللدين الذي دانت به هذه النفس.. إنها قتل للنظام الذي ارتضته هذه النفس وهو نظام الإسلام.. هذه الجريمة حربٌ صريحة للإيمان الذي استقر في النفس المقتولة.. إنها قتل للحياة التي أوجدها الله وبنائها وكرمها، فهي معارضةٌ صريحةٌ لله رب العالمين.

فالآية واضحة العموم، شديدة الوقع على كل من تسول له نفسه أن يقتل مؤمنًا، حيث ذكر الله تعالى أغلظ عقوبة أخروية ضده، وهي عقوبة مكونة من خمسة مظاهر ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)، وقوله: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ لا تدل على التأييد بل على اللبث الطويل، ولا تنفي التأييد بل تشير إليه، ثم ذكر الله الغضب على القاتل، واللعن له، وختم ذلك بقوله: ﴿وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ أي: عذاب اشتدت عظمته مقارنة بغيره من أنواع العذاب سواء أكان ذلك يوم القيامة أم كان في جهنم.. نعوذ بالله من العذاب والخزي.

لماذا ذكر الله العقوبة الأخروية دون الدنيوية هنا؟

العقوبة الدنيوية هي القصاص، ولكن هذه العقوبة قد لا تطبق إذا لم يتم التأكد من وجود العمدية في القتل أو لم يعرف القاتل لاختبائه بين الصفوف، فذكر الله العقوبة الأخروية، وقد وقع ما يشبه ذلك زمن النبي ﷺ فعن ابن عباسٍ قال: إِنَّ مَقِيسَ بْنَ صُبَابَةَ وَجَدَ أَخَاهُ هِشَامَ بْنَ صُبَابَةَ مَقْتُولًا فِي بَنِي النَّجَّارِ، وَكَانَ مُسْلِمًا، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَسُولًا مِنْ بَنِي فِهْرٍ، وَقَالَ لَهُ: «إِيتِ

بَنِي النَّجَّارِ فَأَقْرَنَهُمْ مِّنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا أَن تَدْفَعُوا إِلَيْهِ دِيَّتَهُ، هَشَامُ أَنْ تَدْفَعُوهُ إِلَى أَخِيهِ فَيَقْتَصَّ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا لَهُ قَاتِلًا أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ دِيَّتَهُ، فَأَبْلَغَهُمُ الْفَهْرِيُّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَطَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَا نَعْلَمُ لَهُ قَاتِلًا، وَلَكِنَّا نُؤَدِّي إِلَيْهِ دِيَّتَهُ قَالَ: فَأَعْطَوْهُ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، ثُمَّ انْصَرَفَا رَاجِعِينَ نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَبَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ قَرِيبٌ، فَاتَى الشَّيْطَانُ مَقِيسَ بْنِ صُبَابَةَ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ صَنَعْتَ؟ تَقْبَلُ دِيَّةَ أَخِيكَ فَيَكُونُ عَلَيْكَ سُبَّةٌ، أَقْتُلَ الَّذِي مَعَكَ فَيَكُونُ نَفْسٌ مَكَانَ نَفْسٍ، وَفَضْلٌ بِالْأَدِيَّةِ قَالَ: فَرَمَى إِلَى الْفَهْرِيِّ بِصَخْرَةٍ فَشَدَخَ رَأْسَهُ، ثُمَّ رَكِبَ بَعِيرًا مِنْهَا وَسَاقَ بِقَيْتِهَا رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ كَافِرًا

وَأَنشَدَ فِي شَأْنِ أَخِيهِ:

شَفَى النَّفْسَ مَنْ قَدَ بَاتَ بِالْقَاعِ مُسْنَدًا يُضَرِّجُ ثَوْبِيهِ دِمَاءَ الْأَخَادِعِ
وَكَانَتْ هُمُومُ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ قَتْلِهِ تُلِمُّ وَتُنْسِينِي وَطَاءَ الْمَصَاجِعِ
قَتَلْتُ بِهِ فَهْرًا وَحَمَلْتُ عَقْلَهُ سَرَاةَ بَنِي النَّجَّارِ أَرْبَابُ فَارِعِ
حَلَلْتُ بِهِ نَذْرِي وَأَذْرَكْتُ ثَارِي وَكُنْتُ إِلَى الْأَوْثَانِ أَوَّلَ رَاجِعٍ^(١)

وقد ذكرت العقوبة الدنيوية لقتل العمد في سورة البقرة لتناسب قصة البقرة، ومن أسباب ذكر العقوبة الأخروية هنا دون الدنيوية أن عقوبة القصاص قد لا تتحقق إذا زعم القاتل أنه فعل ذلك طلباً لحماية المجتمع، وذلك لأن الكلام في سياق الآيات جاء عن حماية الدماء البشرية من الاعتداء، ولأنه قد سبق تقرير سياسة أخذ الحذر التي تقتضي كشف الجواسيس والمجرمين الذين يعملون على تدمير المجتمع، فقد يسهل ذلك اقتراف جريمة القتل من قبل بعض الناس بزعم المقتضيات الأمنية، وربما يزعم القاتل أنه يريد حماية المجتمع من العملاء والخونة، فبين الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى شدة عقوبة القاتل في الآخرة، وإن نجا من تبعاتها في الدنيا.

(١) شعب الإيمان (١ / ٤٦٨)، وتمام الأبيات من المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (١٧ / ٤٥٥).

هل تقبل توبة القاتل؟

إنك لتندهش؛ إذ تجد سياق الآية يشير إلى مذهب ابن عباس في عدم صحة توبة القاتل عمداً، ورأى أن هذه الآية مدنية نزلت بعد آية الفرقان، فلا يعترض بها عليها، وإنه لمسدد فيما ذهب إليه: ألا فليسمع جنود المليشيات وجنود الجيوش الذي يقتلون المسلمين تحت الرايات العِمِيَّة..

ألا فليسمعوا لبيان ترجمان القرآن ابن عباس في منع التوبة من قاتل المؤمن عمداً.. فقد ذهب ابن عباس إلى عدم صحة التوبة من القاتل عمداً لما رآه من هذه العقوبة الشديدة الغليظة، ولما وجده من نظم هذه الآية ضمن هذه السورة المباركة.

فَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا؟ قَالَ: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، قَالَ: لَقَدْ أُنْزِلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ، مَا نَسَخَهَا شَيْءٌ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَا نَزَلَ وَحْيِي بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تَابَ وَأَمِنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، ثُمَّ اهْتَدَى؟ قَالَ: وَأَنْتَى لَهُ بِالتَّوْبَةِ، وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ثَكَلَتْهُ أُمُّهُ: رَجُلٌ قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا، يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِذًا قَاتِلَهُ بِيَمِينِهِ، أَوْ بِيَسَارِهِ، وَآخِذًا رَأْسَهُ بِيَمِينِهِ، أَوْ بِشِمَالِهِ، تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا فِي قُبُلِ الْعَرْشِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ سَلْ عَبْدَكَ فِيمَ قَتَلْتَنِي؟».

وفي رواية: قال ابن عباس: ثكلته أمه! وأنتى له التوبة والهدى؟ فوالذي نفسي بيده لقد أنزلت هذه الآية، فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ، وما نزل بعدها من برهان ^(١).

(١) مسند أحمد (١ / ٢٤٠) برقم ٢١٤٢، وصححه الأرناؤوط، والرواية الأخرى في تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ٦٣)، وعبد بن حميد برقم ٦٨٠.

وعن سعيد بن جبير قال: قال لي عبد الرحمن بن أبزى: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، فقال: لم ينسخها شيء. وقال في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٨). قال: نزلت في أهل الشرك، وقال ابن عباس: إذا دخل الرجل في الإسلام وعلم شرائعه وأمره، ثم قتل مؤمنًا متعمدًا، فلا توبة له. وأما التي في «الفرقان»، فإنها لما أنزلت قال المشركون من أهل مكة: فقد عدلنا بالله، وقتلنا النفس التي حرم الله بغير الحق، وأتيننا الفواحش، فما ينفعنا الإسلام! قال فنزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية^(١)، وعن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام، ثم قتل مؤمنًا متعمدًا، فجزاؤه جهنم، ولا توبة له، فذكرت ذلك لمجاهد فقال: إلا من ندم^(٢).

وغلظ العقوبة وشدتها في الآية تشهد لابن عباس رضي الله عنه فيما ذهب إليه، ويدل على ذلك قصد الإصرار على القتل العمد، وقد قال الله تعالى ﴿وَلَمْ يُصِرُّوْا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، ويشهد لابن عباس الأحاديث الواردة التي تشدد في قتل المؤمن، ولنأخذ منها هذا الحوار العجيب بين سادات التابعين في رواية أحاديث في جريمة قتل المؤمن:

فَعَنْ خَالِدِ بْنِ دِهْقَانَ قَالَ: كُنَّا فِي غَزْوَةِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ بِذُلْقِيَّةَ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ فَلَسْطِينَ - مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَخِيَارِهِمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ لَهُ يَقَالُ لَهُ هَانِيٌّ بْنُ كُلْثُومٍ بْنُ شَرِيكِ الْكِنَانِيِّ - فَسَلَّمَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زَكْرِيَّا وَكَانَ يَعْرِفُ لَهُ حَقَّهُ. قَالَ خَالِدٌ: فَحَدَّثَنَا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٦٣).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٦٢).

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَكْرِيَّا قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ تَقُولُ سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا». فَقَالَ هَانِئُ بْنُ كُثُومٍ: سَمِعْتُ مَحْمُودَ بْنَ الرَّبِيعِ يُحَدِّثُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ سَمِعَهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا فَاعْتَبَطَ بِقَتْلِهِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». قَالَ لَنَا خَالِدٌ ثُمَّ حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي زَكْرِيَّا عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنَقًا - يريد خفيف الظهر يعق في مشيه سير المخف - صَالِحًا مَا لَمْ يُصَبَّ دَمًا حَرَامًا فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَغَ» (معناه أعيان وانقطع)، وَحَدَّثَ هَانِئُ بْنُ كُثُومٍ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلَهُ سَوَاءً ^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» ^(٢)، وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يجيء الرجل آخذًا بيد الرجل فيقول: يا رب هذا قتلني. فيقول الله له: لم قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك. فيقول: فإنها لي. ويجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: إن هذا قتلني. فيقول الله له: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان. فيقول: إنها ليست لفلان. فيبوء بإثمه» ^(٣).

وذهب الجمهور إلى شمول التوبة للقاتل المتعمد، فأشار الرازي إلى أن هذه الآية مَخْصُوصَةٌ فِي مَوْضِعَيْنِ اتِّفَاقًا:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ يَكُونَ الْقَتْلُ الْعَمْدُ غَيْرَ عُدْوَانٍ كَمَا فِي الْقِصَاصِ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ فِيهِ

(١) أبو داود (٤ / ١٦٧) برقم ٤٢٧٢، وصححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي (٤ / ١٦).

(٣) سنن النسائي (٧ / ٨٤)، وصححه الألباني.

هَذَا الْوَعِيدُ الْبَتَّةَ. وَالثَّانِي: الْقَتْلُ الْعَمْدُ الْعُدْوَانُ إِذَا تَابَ عَنْهُ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ فِيهِ الْوَعِيدُ، فَأُضَافَ لَهُمَا ثَالِثًا، وَهُوَ إِذَا حَصَلَ الْعَفْوُ مِنَ اللَّهِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النِّسَاء: ٤٨) ^(١).

ولعل ابن عباس رضي الله عنه رأى وضوح الآية في منع قبول التوبة من مؤمن يعلم حرمة القتل عمداً، ويعرف الإسلام ثم يعمد إلى أخ له فيقتله، وقوله ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ يدل على ذلك فإن التَّعَمُّدَ أَبْلَغُ مِنَ الْعَمْدِ لِمَا فِي صِغَةِ التَّفْعُلِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى التَّرَبُّصِ أَوْ التَّرَوِّي فِي الشَّيْءِ، وانظر كيف أسهم ذكر الخُلْفِ في هذا المسألة في تهاون القاتل المتعمد والامر المتعمد في الدماء.. مع أنها الوصية العظمى التي أوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها المسلمين في حجة الوداع، وقبل موته صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» ^(٢).

ولو احترز الجمهور فعبروا عن هذا بقولهم فقالوا: قد تقبل توبته لكان أولى، فإن كثيراً من جنود الإجرام يقتلون آلاف غير مبالين.. فما هذا؟

«وَحَمَلَ جَمَاعَةٌ مُرَادَ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى قَصْدِ التَّهْوِيلِ وَالزَّجْرِ، لئَلَا يَجْتَرِءَ النَّاسُ عَلَى قَتْلِ النَّفْسِ عَمْدًا، وَيَرْجُونَ التَّوْبَةَ، وَيُعْصِدُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: «أَلَمْ يَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا تَوْبَةً» فَقَالَ: «لَا إِلَّا النَّارَ»، فَلَمَّا ذَهَبَ قَالَ لَهُ جُلَسَاؤُهُ «أَهَكَذَا كُنْتَ تَفْتِينَا فَقَدْ كُنْتَ تَقُولُ إِنَّ تَوْبَتَهُ مَقْبُولَةٌ» فَقَالَ: «إِنِّي لَا أَحْسِبُ السَّائِلَ رَجُلًا مُغْضَبًا يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا»، قُل: فَبَعَثُوا فِي أَثَرِهِ فَوَجَدُوهُ كَذَلِكَ. وَكَانَ ابْنُ شِهَابٍ إِذَا سَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ مَنْ يَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ كَانَ قَتَلَ نَفْسًا يَقُولُ لَهُ: «تَوْبَتُكَ مَقْبُولَةٌ» وَإِذَا سَأَلَهُ مَنْ لَمْ يَقْتُلْ، وَتَوَسَّسَ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يُحَاوِلُ قَتْلَ نَفْسٍ، قَالَ لَهُ: لَا تَوْبَةَ لِلْقَاتِلِ» ^(٣).

(١) تفسير الرازي (١٠ / ١٨٤).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٤١) برقم ٤٠٥٣.

(٣) التحرير والتنوير (٥ / ١٦٥). والأثر أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، (١٤ / ٢٤٩) برقم: (٢٨٣٢٦).

وإني لأرى هذا الموقف من ابن عباس من أعظم براهين فقهه، وتصدره في علم القرآن والسنة.. أفرأيت قوماً يزعمون جواز التوبة من القتل، ويخبرون بذلك من يجترئ عليه ويجترحه في حق البشر غير مبالٍ بعظمة ذي القوى والقُدَر.. أهذا من الفقه؟ بل الفقه أن يكون التهويل من جرائم سفك الدماء هو المقدم، وإنما يُجاب عن سؤال نادمٍ بالكِ وقع في ذلك الإجماع ثم أقبل بتوبة حسنة، وأنين يقطع قلبه، فينظر عند ذلك، وأما قبله فلا، وانظر لمجرمي الأرض ممن ينتسبون إلى المسلمين وغيرهم كيف سهل عليهم سفك الدماء، وملء أنحاء الأرض بالظلم والظلمات والاعتداء.

وفي حال العفو عن القاتل من قبل أهل المقتول: يترتب عليه ثلاثة حقوق:

أولاً: حق الله، وهي التوبة لمن يقول بها، وعند ابن عباس لا توبة له، ومعنى ذلك أنه يظل يندم ويندم ويبكي إلى آخر عمره، حتى يلقي الله على ذلك فعسى الله أن يعفو عنه.

ثانياً: حق أهل القاتل، وهو أن يقتل، فإذا عفو عنه قال تعالى ذكره: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (البقرة: ١٧٨)، والدية في القتل العمد واجبة عند الشافعية وغيرهم، وهو الذي يظهر فهو الصحيح.

ثالثاً: حق المجتمع؛ فينظر في حالة إذا كان فعله في قتله العمد ظاهراً في الاعتداء والاستخفاف بالدماء، ففي هذه الحالة لا يعفى عنه، فلو عفا أهل المقتول فهذا شأنهم؛ لكن حق المجتمع لا يسقط، فلا بد أن يعاقب، ويعاقب عقوبة رادعة زاجرة، يقدرها القاضي عند ذلك، ومن حق المجتمع أيضاً ألا يعفى عن القاتل في المرة الثانية؛ لأنه مستهين بالدماء.

وقد ذكر الله جل شأنه عقوبة قاتل المؤمن عمداً، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾ ولم يقل معاهداً كالحالات السابقة لأن الله ذكر عقوبة قاتل المعاهد في الآية السابقة، والنبى ﷺ حذر من قتل المعاهد أو إيذائه، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنْ رِيحَهَا تُوْجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» (١).

ولعل الله - جلّ مجده - ذكر عقوبة قاتل المؤمن عمداً بهذه الشدة أيضاً؛ لأنه جل شأنه علم أن المسلمين سيستمرثون قتل المؤمنين أكثر مما يستمرثون من قتل المعاهدين.. وانظر مصداق ذلك في قتل من ينتسب إلى الإسلام لبعضهم في أزمئتنا الكئيبة، والله المستعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

القانون الثامن: الحالة الخامسة: إشاعة السلام، وحفظ البشرية، يقتضي التهيب الشديد من القتل بالشبهة.

وَيُصِرُّنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى مجده-: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ٩٤).

المناسبة والاتصال:

جاء الكلام في القسم لإكمال التوازن في الحياة البشرية وعند الإدارة الراشدة، فقد جعل الله مدار العلاقات في الإسلام قائماً على استراتيجية إلقاء السلم، ومن خلال ذلك يمكن للبشرية أن تنال حقوقها، وتؤدي الأمانات إلى أهلها، ولتثبت

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٢٠) برقم ٣١٦٦.

السلام في العالم لا بد من اتباع سياسة (أخذ الحذر) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ٧١)، وذلك لمنع الوحوش الضارية، والذئاب البشرية العادية من استغلال القوى الصالحة، وأكل حقوق العالم، وهذه الاستراتيجية تقتضي الاستعداد العسكري لإحقاق العدل، وإنقاذ المستضعفين ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥).

ومنع الله من الجهاد في غير موضعه ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ (النساء: ٧٧)، وأوجب حفظ دماء المسالمين سواء أكانوا مسلمين أم لا ﴿فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُكُمْ سِیَّالًا﴾ (النساء: ٩٠)؛ وأهدر دماء المعتدين ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوا عَنْكُمُ يُغْلَبُوا إِلَيْكُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُكُمْ فَاذْكُورْهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقَفْتُمُوهُمْ﴾ (النساء: ٩١)، وبين حكم القتل الخطأ، والقتل العمد، وهنا يبين حكم القتل بالشبهة؛ إذ وجه التوجيه الشديد، والملام الأكيد لمن يجعل كلمة: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مبرراً لاستباحة دماء المؤمنين والمؤمنين بشبهة حربية أو غيرها، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ٩٤).

البصيرة الأولى:

يُبَصِّرُنَا النداء في قوله تعالى ذكره: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمسؤولية المؤمنين عن تكوين وحدة متكاملة بينهم، والتواصي الإيجابي الصالح بين أفرادهم، وإظهار الحق والخير والنور الذي عندهم على المستوى العالمي، وليبين أن مسؤوليتهم عن

الدماء أعظم إن كانوا مؤمنين حقاً ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والضرب في الأرض يؤدي إلى إعمارها بمراد الله من الحق والعدل؛ ومجاهدة قوى الشر؛ إذ الضرب معناه إيقاع شيء على شيء.

ومن ذلك ضرب الأقدام للأرض خروجاً فيها في سبيل الله لرفع كلمته في مواجهة القوى المستكبرة، فتظهر من خلال ذلك رحمة الله بعباده، ويُعان المستضعفون على الحياة الكريمة، ومن الضرب في سبيل الله استخراج خيرات الأرض من خلال السفر أو الإثارة للأرض ابتغاء الاستقلال الاقتصادي الفردي والجماعي، فعن كعب بن عجرة، قال: مرَّ على النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فرأى أصحابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ، فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صَغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعَفِّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»^(١).

وكذلك إذا ضرب في الأرض يبتغي العلم النافع الديني أو الدنيوي، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل أوحى إلى أنه من سلك مسلكاً في طلب العلم سهلت له طريق الجنة» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وروى ابن ماجه -وصححه الألباني- عن زر بن حبیش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: أنبط العلم. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنتها رضا بما يصنع»، ومثله إذا خرج يلتبس جمع الصدقات لإيصالها

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٣ / ٤٩١) برقم ١٥٦١٩، وقال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٤ /

٥٩٦): رواه الطبراني في الثلاثة ورجال الكبير رجال الصحيح

إلى مستحقيها؛ فعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العامل على الصدقة بالحق كالغازي في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته»^(١).

البصيرة الثانية:

يُصَرِّفُنا قوله جل ذكره: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّسُوا﴾، بضرورة اتباع أساليب الوصول إلى صحة المعلومات؛ وأهمها: التبين، والتثبت، وليس القرارات المستعجلة التي قد يترتب عليها إيذاء البشرية، وتشويه حقيقة الإسلام؛ ولذا أمر الله بأمرين:

الأول: ﴿فَتَيَّسُوا﴾، وهي قراءة الجمهور، وَالتَّيَّنُّ: شِدَّةُ طَلَبِ الْبَيَانِ، أَيِ: التَّأْمُّلِ الْقَوِيِّ، والبحث، والتحري، والتقصي، حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ صِيَغَةُ التَّفَعُّلِ.

الثاني: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف، والذي يظهر أن التثبت مرحلة لاحقة، فالتثبت شدة طلب البيان، واستقصاء الحقائق، فالبیان يثمر التثبت فهو خِلَافُ الإِقْدَامِ والعجلة حتى يثبت الأمر ويظهر ويستقر، فهذا الفرق بينهما، ولعل التبين حركة عقلية تمنع من التسرع في إطلاق الأحكام، والتثبت حركة جسدية تمنع من انزلاق الأطراف نحو شيء فيه شبهة، وكلاهما يثمر التكامل في السيطرة على الحركة العقلية والجسدية من التهور في إطلاق الأحكام أو تنفيذها، فبينهما تكامل في ضرورة التأني والتفحص والبحث عن المعلومات، وهذا يعني عدم تنفيذ الحكم بادئ الرأي.. انظر إلى هذا المشهد المهيّب، وقارنه بما يفعله مستحلو الدماء من فرق الموت المجرمة في هذه الأيام.

وقد تتساءل: من ذا الذي يجب عليه أن يتبين وأن يتثبت؟ هل يلزم ذلك الضارب في سبيل الله أم محكمة خاصة؟

(١) سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر (٣ / ٣٧) برقم ٦٤٥، قال أبو عيسى: حديث رافع بن خديج حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

عندما تتأمل في الآية فإنك تجد قول ربك جل ذكره: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ والخطاب للضاربين في سبيل الله لكن الضارب في سبيل الله قد لا يتمكن من معرفة الحقيقة، وعند ذلك لا بد من أن تكلف جهة أعلى بأن تتحرى للوصول إلى حقيقة الأمر حتى تظهر حقيقة الأمر.

والتبين واجب، وترك الثبت حرام، ولذا فمن حق الجنود عصيان القائد في هذا الموضوع الخطير، ويروي ابن عمر رضي الله عنهما حادثة عصى فيها كلام قائده خالد بن الوليد، بل حرص بقية الجيش على التمرد على كلام القائد لإيقانه بفقدان شرط التبين، فقال: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأَنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِّنَّا أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ، أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ رَجُلٍ مِّنَّا أَسِيرَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِّنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ.

فرفض عبد الله بن عمر تنفيذ الأمر العسكري، واحتكما إلى من هو أعلى وهو النبي ﷺ، وخضع خالد لهذا التمرد لخطورة الحكم الذي أصدره، فقال ابن عمر مكملًا بقية الواقعة: حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ» مَرَّتَيْنِ ^(١).

قال ابن حجر: «وزاد الباقر في روايته: ثم دعا رسول الله ﷺ عليًا فقال اخرج إلى هؤلاء القوم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك فخرج حتى جاءهم ومعه مال فلم يبق لهم أحد الا وداه» ^(٢).

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٢٠) برقم ٣١٦٦.

(٢) فتح الباري - ابن حجر (٨ / ٥٨).

ما المقصود من قوله ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾؟ هو لم يقل: فانظروا هل هم مسلمون أم لا؟ بل أتى بصيغة أقوى من ذلك فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، وكذلك ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وهذا يقتضي شدة التحري والاستقصاء، وقد لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة رجل واحد إلا أن يفرض عليه الموقف العام ذلك بأن لم يستطع أن يرجع إلى من هو أعلى منه لبعد المسافة الزمنية أو المكانية، وسترتب على ذلك مفاسد أخرى في الواقع العسكري.

وتأمل في الآية مرة أخرى: لماذا قال الله عز وجل: ﴿ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟

ضربتم لا تعني القتال، وإنما تعني السفر لأنها مأخوذة من ضرب الأقدام بالأرض، إذ لم تكن وسائل المواصلات متيسرة كما في زماننا، فيستخدم المرء رجله أو أرجل دوابه، كالخيل والإبل وهي تضرب بأقدامها الأرض كما قال قائلهم:

يا ناق سيري عنقاً فسيحاً إلى سليمان فنستريحاً^(١)

أي: أنهم كانوا يسIRON طويلاً حتى يستطيعوا أن يقطعوا المسافة في أقل مدة ممكنة، والضرب يطلق على الخروج للتجارة، ويطلق على السفر للسياسة أو لحاجة من الحاجات، ولا يقصد به الجهاد بالضرورة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنَا مَخْصُوهً فَنَابَ عَلَيْهِمْ فَأَفْرَوْا مَا يَنْسَرُ مِنَ الْفُرْءَانِ عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠)، فجعل الضرب في الأرض للتجارة، فما سبب ذكر الضرب مطلقاً في قوله ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟ لتدخل فيه الحالات المختلفة، ولأن الضرب في الأرض مظنة للانفراد، فربما قابل الواحد منهم من يظن أنهم ينتمون إلى المعتدين المحاربين، ويحسب أنهم يشكلون خطراً أمنياً، فماذا يصنع؟

(١) لأبي النجم العجلي يمدح سليمان بن عبد الملك. وهو أحد الشواهد الشعرية المعروفة، انظر: سيبويه / ١ / ٤٢١، وشرح المفصل / ٧ / ٢٦، والشذور / ٣٠٥.

الآية توجب عليه التبين وعدم الأخذ بالشبهة إلا أن يكون هناك خطرٌ داهمٌ محققٌ، فلا يعامل معاملة الحربي المعتدي إلا في الحالات القصوى، وإلا فالأصل التبين والتثبت.

فانظر إلى عظمة الإسلام في حرمة الدماء، وحماية أمن المجتمع، وإبعاد الإنسان عن استبداده وجبروته الذاتي، فقد يكون ما يفعله نابعاً من أهواء ذاتية أو أحقاد شخصية، أو نوازع مريضة في نفسه، ثم يتستر بأنه فعل ذلك في سبيل الله، فما أكثر الأهوال التي تسمعها في استباحة دماء الإنسانية اليوم.

البصيرة الثالثة:

(إلقاء السلم) مصطلح قرآني مبتكر يدل على مقاصد الشريعة في إشاعة السلام في الأرض، وتعريف الناس بجمال الإسلام، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ويتضمن هذا المصطلح حرمة الإيذاء اللفظي، فضلاً عن الجسدي لمن ألقى السلام سواء أكان مسلماً أم مسالماً أم مستسلماً .

(إلقاء السلم) مصطلح مدهشٌ أخذ من المصطلحات القرآنية، وهو يعني: رمي السلم إلى الطرف الآخر.. فتأمل هذه الصورة التي تسلب التفكير في تحقيق أهدافها: كأن السلم شيءٌ ماديٌّ محسوسٌ يحتفظ به هذا الإنسان حتى إذا قابل المسلم بادر فقذفه إليه ليبين له محبته للسلام ورغبته في كف الأذى، وطلبه إقامة الصلح.. فما السلم؟

إما أن يراد به علامة الإسلام ليدل صاحبها على أنه مسلم، وإما أن يراد به علامة السلام، وطلب الاستسلام حتى لو بقي على دينه. وعندها يحرم على المقاتل المسلم أن يمسه بأذى.

نعم! يحرم أن يكون الجهاد أو استراتيجية أخذ الحذر مبررًا ليطش المجاهدون دون تبيين أو تأنُّ. يحرم أن تكون ستارًا ليفعلوا ما يشاؤون دون محاسبة، بل ينبغي أن يعلموا أن رفع درجاتهم وعلو منزلتهم لا يغني عنهم فتيلًا أمام المحاسبة على أخطائهم، ويجب أن نلاحظ أن الكلام في الآية جرى فيمن أشكل أمره، والتبس شأنه، أي: التبس علينا فلا نعرف هل هو مسلم حقًا أم ليس مسلمًا، أو هو مسالم أو غير مسالم، فعند ذلك يغلب جانب الأمان والعفو والسلام، وتتضمن الآية التهديد الشديد لمن يستعجل فيتهم أحدًا من الناس بعدم الإسلام، أو بعدم إلقاء السلم.

وفي هذه الجملة عدة قراءات توضح مشاهد متعددة، يمنع فيها إيذاء من ألقى السلام:

المشهد الأول: توضحه قراءة نافع، وابن عامر، وحَمْزَة، وابن جمار، وخَلَف، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء: ٩٤)، والسلم معناه: الصلح، وهو ضدُّ الحرب، أو يكون المعنى: الإسلام، أي: ألقى إليكم علامة تدل على إسلامه، وهذا التعبير القرآني المبتكر (أَلْقَى السَّلَامَ) يصور لنا أن السلم كأنه كان في يده، فرماه المحارب أمام العالم لما احتاج إلى إلقائه أظهره بَيْنَكُمْ -مسلمًا كان أم كافرًا-، وذلك يعني أنه مهما تأخر في إظهار الميل إلى الصلح ثم أظهره، فلا تنفروا عنه، ولا بد عند ذاك من التبيين، والتثبت.. انظر لشدة تشوف الإسلام لحقن دماء الناس.

وقوله ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ تدل على أنه وصل إلى السلم عن طريق ادعاء الإسلام، فقال: أنا مسلم، فعند ذلك لا تقولوا له لست مؤمنًا، احترسوا أن تفعلوا ذلك؛ إذ إنكم تجعلون هذا الرفض منكم وسيلة لتهدروا حقه في الأمان.

المشهد الثاني: توضحه قراءة ابن وَرْدَانَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء: ٩٤) بِفَتْحِ الْمِيمِ

الثَّانِيَّةُ بِصِيغَةِ اسْمِ الْمَفْعُولِ، أَي: لَا تَقُولُوا لَهُ -سواء أكان مسلماً أم كافراً-: لن تحصل على الأمان منا بل ستقتل أو تؤسر.. ينهاهم الله عن إيذائه، ويأمرهم بتأمينه حتى يتبينوا ويتثبتوا من حقيقة أمره، وهو في هذه الحالة إما أن يكون ألقى السلم راغباً في الدخول في الإسلام، وإما أن يكون كافراً باقياً على كفره لكنه أراد إبرام اتفاق صلح وسلام.

المشهد الثالث: توضحه قراءة البَيِّئَةِ ﴿السَّلَامُ﴾ بالألف و﴿مُؤْمِنًا﴾ بكسر الميم، وَهُوَ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ مَعْنَى السَّلَامِ ضِدَّ الْحَرْبِ، وَمَعْنَى تَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ بِأَن يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أو يقول: إني مسلم.

والذي يلقي السلم إما أن يكون رجلاً دخل الإسلام، وطلب الصلح والسلام، وإما أن يكون عدواً كافراً مال إلى الصلح رغباً أو رهباً، وكل من الصورتين لا بد فيها من التبين والتثبت، أي: لا بد من البحث عن حالته، وهل يريد الصلح حقاً أم يريد الخداع، والخيانة، وهذا يقتضي تأمينه ريثما يتم التأكد من حقيقة حاله.. لكنه بمجرد ذلك القول وجب عليكم أن تمنحوه الأمان.

ومثل ذلك: أن تصدر أدنى عبارة من الضارب في سبيل الله تدل على التأمين، فيجب عليه أن يلتزمها، ويفي بحقتها، فعن أبي وائل قال: جاءنا كتاب عمر ونحن نحاصر قصر فارس فقال: إذا حاصرتم قصرًا، فلا تقولوا انزل على حكم الله فإنكم لا تدرون ما حكم الله ولكن أنزلوهم على حكمكم ثم اقضوا فيهم، وإذا لقي الرجل الرجل فقال: لا تخف، فقد أمنه، وإذا قال: مَتَرَسٌ فقد أَمَّنَّه. إن الله يعلم الألسنة كلَّها، و«مترس» كلمة فارسية معناها لا تخف، وهي بفتح الميم وتشديد المثناة واسكان الراء بعدها مهملة، وقد تخفف التاء، وقيل: بإسكان المثناة وفتح الراء، ووقع في الموطأ: مطرس بالطاء بدل المثناة، وروى بن أبي شيبه ويعقوب بن سفيان في تاريخه

من طرق بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حاصرنا تستر فنزل الهرمزان على حكم عمر فلما قدم به عليه استعجم فقال له عمر: تكلم لا بأس عليك وكان ذلك تأمينا من عمر، ورويناه مطولا في سنن سعيد بن منصور عن أنس قال: بعث معي أبو موسى بالهرمزان إلى عمر، فجعل عمر يكلمه، فلا يتكلم فقال له: تكلم قال: أكلام حي أم كلام ميت؟ قال: تكلم لا بأس فذكر القصة قال: فأراد قتله. فقلت: لا سبيل إلى ذلك قد قلت له تكلم لا بأس. فقال: من يشهد لك؟ فشهد لي الزبير بمثل ذلك، فتركه فأسلم وفرض له في العطاء ^(١).

ويوضح شدة الأمر بتأمين من يلقي السلام ما جاء عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلا فقال: لا إله إلا الله. فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته». قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح. قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا». فمأزال يكررها على حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ. قال فقال سعد: وأنا والله لا أقتل مسلما حتى يقتله ذو البطين. يعني أسامة. قال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فقال سعد قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة وأنت وأصحابك تريدون أن تقتلوا حتى تكون فتنة ^(٢).

ويدخل في إلقاء السلام أن يبين الرجل الذي لحق بالمعتدين أنه ليس منهم، وإنما عرض له عارض جعله يلحق بهم، فعند ذلك يتم التثبت منه، وقد وقع ضمن موقعة بني جذيمة من الأخطاء أن قتل بعض الصحابة رجلا من هذا الصنف فعاتبهم النبي ﷺ على ذلك، وفي رواية النسائي: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشا أو سرية قال لهم: «إِذَا رَأَيْتُمْ مَسْجِدًا أَوْ سَمِعْتُمْ مَوْذِنًا فَلَا تَقْتُلُوا أَحَدًا»، فكان الصحابة

(١) فتح الباري - ابن حجر (٦ / ٢٧٤).

(٢) صحيح مسلم (١ / ٦٧) برقم ٩٦.

فهموا الإطلاق من هذا، وهو مُقَيَّدُ بهذه الآية - فَبَعَثْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَأَمَرْنَا بِذَلِكَ فَخَرَجْنَا نَسِيرُ فِي أَرْضِ تِهَامَةٍ، فَأَدْرَكْنَا رَجُلًا يَسُوقُ ظِعَائِنَ فَعَرَضْنَا عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَقُلْنَا: أَمْسِلْمْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: وَمَا الْإِسْلَامُ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ فَإِذَا هُوَ لَا يَعْرِفُهُ قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ فَمَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ؟ قُلْنَا: نَقْتُلُكَ فقال الفتى: إني لست منهم أني عشقت امرأة منهم فدعوني أنظر إليها نظرة قال: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَظِرِي حَتَّى أَدْرِكَ الظَّعَائِنَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، وَنَحْنُ مُدْرِكُوكَ فَخَرَجَ فَاتَى امْرَأَةً وَهِيَ فِي هَوْدَجِهَا فَقَالَ: أَسْلِمِي حُبِيشُ قَبْلَ انْقِطَاعِ الْعَيْشِ أَسْلِمِي عَشْرًا وَثَمَانِيًا تَتَرَى وَتَسْعَا وَتُتْرَا.

قال ابن حجر: وذكر ابن إسحاق من حديث ابن أبي حذرر الأسلمي قال: كنت في خيل خالد، فقال لي فتى من بني جذيمة قد جمعت يداها في عنقه برُمة: يا فتى هل أنت آخذ بهذه الرُمة - أي: الحبل - فقائدي إلى هؤلاء النسوة، فقلت: نعم فقدته بها. وفي رواية: فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي لَسْتُ مِنْهُمْ، عَشِقْتُ امْرَأَةً فَلَحِقْتُهَا فَدَعُونِي أَنْظُرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ اصْنَعُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ، فَإِذَا امْرَأَةٌ طَوِيلَةٌ أَدْمَاءُ فَقَالَ لَهَا: اسْلِمِي حُبِيشُ قَبْلَ انْقِطَاعِ الْعَيْشِ، فَقَالَتْ: اسْلِمِي عَشْرًا أَوْ تِسْعًا تَتَرَى، ثُمَّ قَالَ:

أَرَأَيْتُمْ لَوْ تَبِعْتُكُمْ فَلَحِقْتُكُمْ بِحِلْيَةٍ أَوْ أَدْرَكْتُكُمْ بِالْخَوَانِقِ
أَلَمْ يَكْ أَهْلًا أَنْ يُنَوَّلَ عَاشِقٌ تَكَلَّفَ إِدْلَاجَ السُّرَى وَالْوَدَائِقِ
فَلَا ذَنْبَ لِي قَدْ قُلْتُ: إِذْ أَهْلُنَا مَعًا أَثِيبِي بِوَصْلِ قَبْلِ إِحْدَى الصَّفَائِقِ
أَثِيبِي بِوَصْلِ قَبْلِ أَنْ يَشْحَطَ النَّوَى وَيَنَأَى لِأَمْرِ بِالْحَبِيبِ الْمُفَارِقِ
قَالَتْ: نَعَمْ، فَذَيْتُكَ، ثُمَّ أَنَا فَقَالَ: شَأْنُكُمْ فَقَدَّمْنَاهُ فَضَرَبْنَا عَنْقَهُ، فَتَرَلَّتِ الْأُخْرَى عَلَيْهِ مِنْ هَوْدَجِهَا فَحَنَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى مَاتَتْ.

قال: فَقَدَّمُوهُ فَضَرَبُوا عَنْقَهُ، فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ فَشَهِقَتْ شَهَقَةً، أَوْ شَهَقَتَيْنِ، ثُمَّ مَاتَتْ فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

﴿أَمَّا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

فها هو النبي ﷺ يعاتبهم على عدم الثبت والبيان في التعامل مع حالة مثل هذه الحالة، ويخطئ فعلهم، وكل ذلك تشوف لدرء القتل بالشبهة.. فماذا يصنع مجرمو الأرض الذين يقتلون الإنسان وقد ألقى السلام أو السلم وهم يزعمون أنهم فعلوا ذلك في سبيل الله، قال تعالى ملكه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف: ٥).

انظر عظمة السمو الإسلامي في التعامل مع العالم.. إن الله يأمر بحقن دماء المسلمين والمسلمين.. إما بأن يدخل الناس في الإسلام، وإما بأن يميلوا نحو السلام.. إن الله يُحَذِّرُ المسلمين من تجاوز هذا القانون الصارم.

البصيرة الرابعة:

قال تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ (النساء: ٩٤)، قانون كاشف فاضح لحقيقة تسرع المتسرعين في إراقة الدماء باسم الجهاد في سبيل الله، وأن ذلك ليس في سبيل الله، بل في سبيل المصالح الدنيوية الخاصة.

العرض الشيء العارض الذي يعرض ثم يزول ويفنى ويذهب هباء، ومن ذلك ما جاء عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْآخِرَةُ وَعْدٌ صَادِقٌ يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ عَادِلٌ يُحِقُّ فِيهَا الْحَقَّ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ»^(٢).

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٠ / ٦٢) برقم ١١٨٦٩، السنن الكبرى للنسائي (٨ / ١٢٢) برقم ٨٧٨٧، وأشار ابن حجر في فتح الباري (٨ / ٥٨) إلى صحته، وحسنه الهيثمي، ووافقه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٥٩٤.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٣ / ٢١٦).

إنه قانون كاشف لحقيقة تسرع المتسرعين في إراقة الدماء باسم الجهاد في سبيل الله، وقانون كاشف لحقيقة تسرع المتسرعين في إراقة الدماء باسم حماية الأمن، وأن ذلك ليس في سبيل الله بل في سبيل المصالح الدنيوية الخاصة.. وهي جملة فاضحة تزعزع من مكانة المجاهد عندما يتهور، ويعامل الناس باستعلاء أو سرعة مد يد في سفك الدماء، وبذا يبين الله ضرورة عدم تقديم المكاسب المادية المحتاج إليها على اليقين بفضل الله ورحمته إذا أدى ذلك إلى اتهام الناس بغير دليل.. فمن يخبر الشباب المغرر بهم الذين تتلاعب بهم الأيدي القذرة في العالم، ومن يخبر جماعات الخراب الذين يدمرون بلاد المسلمين وهم يرفعون رايات ينسبون إليها الدين أو إلى آل البيت الطاهرين، أو إلى الصحابة والسلف الراشدين؟

ولتقر عينك عندما تقابل قول الله تعالى ذكره: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بقوله ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ فذكر كلمة ﴿عَرَضٌ﴾ مفردة وقابلها بالجمع فلم يقل (مغنم) بل مغانم ثم زاد ووصفها بأنها كثيرة، دلالة على التنوع والكمال، وكلمة ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ﴾ زادتكم تشويقاً وتهيجاً لتطلبوا مقابل هذا العرض؛ فإذا فاتكم العرض الدنيوي فستجدون ذلك في الآخرة عند الله، فعند الله إما خبأه لكم في الدنيا من خلال ما ستجدون في الفتوحات التي يعلمها في الغيب، وإما عند الله في الآخرة؛ لأنكم اتبعتم كلامه، والفتوحات الدنيوية لا نطلقها على فتح الأرض ولكن ما يحصل للإنسان من التوفيق والتسديد والخير الكثير والسعة في الرزق.

البصيرة الخامسة:

يجب بث الأمن في نفوس الآخرين ومعاملتهم بما تحبون أن تعاملوا به لو كنتم مكانهم، وتعرضتم لموقفهم، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ (النساء : ٩٤) أي: كنتم خائفين تحبون من

عدوكم أن يؤمنوكم إذا كانت لهم يد أعلى منكم؛ فلم لا تؤمنونهم هم عندما يكونوا خائفين فيلقون لكم السلم أو السلام؟ وكنتم كفارًا فقبلت منكم كلمة الإسلام عندما ألقيتموها، فلم لا تقبلونها منهم؟

وهذه جملة توبيخ كاشفة لخبايا النفوس، ولواقع الحياة تجمع صورًا شتى:

فالصورة الأولى: التي تدخل فيها: تأمين الخائف الطالب للصالح، أي: كنتم خائفين تحبون من الكفار أن يؤمنوكم إذ كانت لهم يد أعلى منكم؛ فلم لا تؤمنونهم هم عندما يكونون خائفين فيلقون لكم السلم أو السلام؟ فاضرب لهم مثلاً بما نقله ابن حجر عن قصة تأمين المطعم بن عدي للنبي ﷺ حين رجوعه من الطائف^(١)، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه آمنه بعض كبار أهل الحجاز وهو ابن الدغنة. فالمعنى: كذلك كنتم أيضاً تحبون أن يؤمنكم الكفار حين كنتم خائفين، فلماذا لا تؤمنونهم هم عندما يكونوا خائفين، فيلقون لكم السلم أو السلام طالبين الصالح، وهذا توبيخ شديد جداً كأنه يقول لهم: إذا قبض عليكم الكفار ألا تحبون أن يعاملوكم معاملة حسنة؟

والصورة الثانية: التي تدخل في قوله تعالى ذكره: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ صورة الذي يلقي كلمة الإسلام، أي: كنتم كفارًا فدخلتم الإسلام بكلمة فصدقكم النبي ﷺ ومن معه، أفتحبون لو كنتم مكان هذا الذي ألقى السلم أو ألقى السلام أن ترد كلمتكم؟ فلتأتوا إلى الناس الذي كنتم تحبون أن يؤتى إليكم..

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: منَّ عليكم بالأمن بعد الخوف، أو من الله عليكم بالإسلام بعد الكفر، وهنا تراه جل شأنه كرر كلمة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وفيها القراءة الأخرى

(١) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجواهر النقي (٣ / ٢١٦) وذكر ابن حجر: قال: «قال ابن إسحاق القصة في ذلك مبسطة وكذلك أوردها الفاكهي بإسناد حسن مرسل» فتح الباري لابن حجر (٧ / ٣٢٤).

﴿فَتَشْتَوِا﴾، فإما أنه أعادها -عزَّ جازؤه- لزيادة التأكيد والتحضيض، وهذا يرد قليلاً في القرآن بأن تكرر الكلمة في آية واحدة ويراد بها نفس المعنى، وإما أنه أعادها لخطورة المقام لسهولة أن تصادر حقوق الآخرين في تبين حالهم والتثبت من وضعهم.. لماذا يُصادَر منهم هذا الحق؟ للذرائع الأمنية المختلفة، ولتطبيق استراتيجية أخذ الحذر الرادعة، فنبهنا الله إلى حرمة ذلك ووجوب التبين والتثبت، وإذا كان هذا في الأمور الأمنية الخطيرة، فما بالك بالأمور الحيوية كأن يتكلم الإنسان مع أخيه في المجتمعات العامة عن أخيه الغائب فيقول: فيه كذا وكذا غيبة، فلا يجوز أن يقام على الغيبة حكم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، وكذلك إذا كان الإنسان مع رجل يعتقد عدواً، ويمكن أن يكون له معنى تأسيسى ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَكُلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ أو ﴿فَتَشْتَوِا﴾ أي: فتبينوا وأنتم في الأرض التي التقيتم فيها، أي: تمهلوا إلى أن تصلوا إلى مكانٍ تستطيعون من خلاله جمع جميع المعلومات، فيكون هنا له حال وهناك له حال.

ويبين ابن عباس رضي الله عنه قصة وقعت تزيد المعنى وضوحاً وجلاءً فيقول: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً، فِيهَا الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ فَلَمَّا أَتَوْا الْقَوْمَ، وَجَدُوهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا، وَبَقِيَ رَجُلٌ، لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، لَمْ يَبْرَحْ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَأَهْوَى إِلَيْهِ الْمُقَدَّادُ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: أَقْتَلْتَ رَجُلًا يَشْهَدُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟! وَاللَّهِ، لَا ذِكْرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ رَجُلًا شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَتَلَهُ الْمُقَدَّادُ؟ فَقَالَ: ادْعُ لِي الْمُقَدَّادَ، يَا مُقَدَّادُ، أَقْتَلْتَ رَجُلًا يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَكَيْفَ بَكَ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ غَدًا؟ فَانْزَلَ اللَّهُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾، أَوِ السَّلَامَ، شَكَ أَبُو سَعِيدٍ، يَعْنِي جَعْفَرَ بْنَ سَلَمَةَ، ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرْضَ الْحَيَوَةِ

الْذُنُيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴿١﴾، وفي البخاري قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمَقْدَادِ: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ فَقَتَلْتَهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ» ﴿٢﴾.

انظر لعظمة هذه التربية الإسلامية، ومن مقاصد الآية: بث الأمن والاستقرار ضمن المجتمع المسلم، وضمن المجتمع العام لتتم التنمية، ويزداد الازدهار، ولذا عومل المنافقون معاملة المسلمين ما لم يعتدوا والاعتداء قد يحصل من مسلم عاصٍ غير منافق.

البصيرة السادسة:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ٩٤)، تبصرنا برقابة الله على القلوب، فهو أعلم بأهدافكم، وأغراضكم من الأفعال التي تقومون بها، والآية تتضمن النهي الشديد عن المسارعة إلى التكفير، أو عدم إعطاء الأمان حتى لو كان حقاً إلا بعد التبين، والتثبت.



(١) مسند البزار (١١ / ٣١٧) برقم ٥١٢٨ .

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٣) برقم ٦٨٦٥ .

القسم السابع

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام
العالمي: تعظيم مكانة المجاهدين القائمين على حراسة
الجانب الأمني، والحفاظ على حقوق المستضعفين
(النساء: ٩٥-٩٦)

آيات هذا القسم:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ
اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
(النساء: ٩٥-٩٦).

المناسبة والاتصال:

سبق في القسمين السابقين ذكر بعض مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي،
والسلام العالمي، وفيهما ظهر حرص الشريعة على حفظ الدماء الإنسانية وحراستها،
وجعل ذلك من أهم دلائل الإيمان، كما برز لك في القسم التحذير من التفريط فيها
تحت ذريعة التطبيق للسياسة الأمنية (أخذ الحذر)، وهنا يظهر الإحكام في النظم
القرآني في أجمل صورته، حيث يبني الاتزان في الشخصية المسلمة لئلا تذوب في
اليسار أو في اليمين.. في الغلو في جانب التشدد، أو في الغلو في جانب التجاوز..
فبعد أن أمر الله باتباع استراتيجية: أخذ الحذر، وحذر من العناصر المنافقة المندسة
أو العناصر السمّاعة لهم، ذكر بأن أهم مقياس في العلاقات الدولية هو كف اليد

وإلقاء السلم، وبعد أن حث على الإعداد العسكري لحماية المجتمع واستنقاذ المستضعفين حذر من التساهل في قتل الأبرياء تحت ستارٍ أمني، وحذر في الوقت ذاته من الوقوع في القتل الخطأ، وغلظ كفارته، ثم شدد تشديدًا بالغًا في القتل العمد، على نحوٍ لا يوجد مثله في أي ذنب آخر، ورهب من قتل المسلم، أو المسالم، بناء على الشبهة أو الظنون، أو طلبًا للمغانم.. وربما وقع في ذهن الإنسان عند ذلك أن ترك الجهاد خير من المضي فيه؛ لئلا يقع المرء في قتل الشبهة أو قتل الخطأ فضلًا عن قتل العمد، وإذا سلك الإنسان هذا التفكير تعطلت الإنسانية من وجود حماة لها تصد وحوش الذئاب البشرية العادية عن حفظها، وضمان أمنها، هنا تعيد لك آيات هذا القسم التوازن لتبين فضيلة المجاهدين في سبيل الله لا في سبيل أهوائهم ولا في سبيل نزواتهم ومغامراتهم، فرغب الله في الجهاد ترغيبًا عظيمًا لم تنله عبادة مماثلة، وذلك ليبين أن التشديد عليهم، وتحذيرهم بوضع الضوابط الصارمة عليهم في حفظ الدماء، لا يعني نزول درجتهم، ولا مكانتهم، ولا التشكيك في شريف عملهم، ولا جعلهم عرضة للهمز واللمز، بل إن حقيقة منزلتهم تقتضي أن يحققوا الاستقامة الصارمة على تلك الضوابط الأخلاقية حتى يستحقوا أن يكونوا مجاهدين، فالمجاهدون يحمون الحياة، ويجمعون الأمم حول كف اليد وإلقاء السلم، وليس العكس، فالإشادة بهم هنا بلغت أقصى مدى لبيان رفعة درجاتهم، ونرى هنا التوازن في الحديث بين السابق واللاحق.

وقد وضع الله ليبين مكانة المجاهدين عددًا من القوانين:

القانون الأول: يجب على أصحاب الطموح العالي من القادرين أن يكونوا في حالة تأهب دائمة، وهذا يعني أن يكونوا في حالة بذل للجهد المالي والجسدي والنفسي استعدادًا لتقديم ذلك عند الاقتضاء.

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ (النساء : ٩٥)، فقابل بين المجاهدين، والقاعدين، والمعنى: لا يستوي القاعدون المتخلفون المتقاعسون والمجاهدون المتأهبون القائمون.

لاحظ هنا التعبير القرآني المدهش: قابل بين القاعدين والمجاهدين.. فهل هما ضدان؟ إنَّ ضِدَّ القاعدين القائمون، وضِدَّ المجاهدين الخاضعون، أو المتخلفون، أو المستسلمون، أو المتقاعسون، أو المتكاسلون، فلماذا قابل بين القاعدين والمجاهدين؟

إنه الاحتباك الرائع في الأسلوب القرآني الذي يولد المعاني المتعددة، فكأنه قال: لا يستوي القاعدون المستسلمون المتقاعسون المتكاسلون والمجاهدون القائمون المتأهبون المستعدون المتحركون.

وتبصر ك الآية بأن الجهاد يكون ممن يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل الحماية الأمنية الحقيقية، فهم يبذلون الأموال والأنفس بصورة جزئية ليحافظوا على الأموال والأنفس في الصورة الكلية.. إنه بذل لشيء من المال، ونقص لقلعة من الأنفس في سبيل الحفاظ على الحياة العادلة في هذا العالم الذي ملأه الفاسقون بالفساد، وملأه المجرمون بالحزن.. وكما ترى هذا الأسلوب المثير، فكما يذكر أدوات الجهاد وهي المال والنفس يعني أن يكون القاعدون بخلاء بالمال والنفس، فما الذي يترتب على هذا البخل بالمال والنفس؟

إنه الاجتياح القريب لكل مالٍ خباؤه، والإهانة البالغة لكل نفسٍ ضنوا بها حتى يود المهانون أن الموت أقرب إليهم من كل شيء.

القانون الثاني: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تبصر كبحقيقة الجهاد وسيلة وغاية.

فسبيله جل جلاله لا يعني احتياج الله لشيء، بل يعني حفظ المصالح البشرية الحقيقية، والعمل على تحرير الإنسانية من الظلم والجهل حتى تعرف ربها وتتمكن من أن تختار طريقها دون قهرٍ أو إكراه.

ما وجه عظمة هذا المصطلح المبتكر ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟

السبيل الطريق الواضح البين، وهذا المركب الإضافي ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل ثلاث تفصيلات نحوية؛ إذ الإضافة إما أن تكون مفسرة باللام ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وإما أن تكون مفسرة بفي ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وإما أن تكون مفسرة بمن ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كما قال ابن مالك: نوناً تلي الإعراب أو تنوينا مما تضيف حذف كطور سينا والثاني اجرر وانو من أو في إذا لم يصلح إلا ذاك واللام خذا لما سوى ذينك واخصص أولاً أو أعطه التعريف بالذي تلا^(١) فها أنت ترى أن هذا المصطلح العظيم صالحٌ للمعاني الثلاثة.

فتقدير اللام يحدد الهدف الأعلى للجهاد: في سبيل لله، أي: في سبيلٍ تريدون به وجه الله، وليس الجاه الشخصي، والاستعلاء على بقية أهل الأرض، وليس الجهاد؛ لأجل المغانم الكثيرة التي تبتغيها النفس الأمارّة بالسوء، فهناك من يبتغي المال، وهناك من يبتغي الجاه، وهناك من يبتغي السيطرة والاستيلاء على خيرات الآخرين، وهناك من يبتغي استعباد الشعوب.

وتقدير ﴿فِي﴾ يحدد الهدف الأعلى كاللام، ويحدد الوسيلة أيضًا، فلا تكون وسيلة الجهاد في سبيل في الله وسيلة في غير سبيل الله، فالغاية لا تبرر الوسيلة هنا،

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ٤٢).

بل الذي يكون في سبيلٍ لله ينبغي أن يكون في سبيلٍ في الله.

وتقدير (من) يدل على ضرورة أن يكون هذا الجهاد أو ذلك الفعل قد اكتسب شرعيته من الله (في سبيلٍ من الله) فكأنه مبدؤه من الله.. ماذا يعني ذلك؟ يعني ألا تجعل الشرعية منبعثة من ذاتك، ولا ممن يحرضك بغير علم ولا هدى ولا كتابٍ منيرٍ.

فما معنى في سبيل الله أيضًا؟ أي: هل الله يحتاج لنا لنقاتل في سبيله؟

إن إضافة هذه المعاني لله لها جوهرٌ يبينها، وحصنٌ محيطٌ بها يمنعها من المعاني الزائفة، وقلب هذا المصطلح في الشريعة لتجد عجبًا يطول ذكره غير أنا نشير إلى لمحةٍ من ملامحه: فالله يضيف اسمه الشريف إلى كثيرٍ من الكلمات ليظهر أن الله يريد تحقيق المصالح للبشرية، ويحيطها بالسياج المشروع حتى لا يغر أحدًا في دينه ما كان يفترى، وليحث على سلوكٍ مقتضى تلك الإضافة.

فمثلاً: قرض الله: قال الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٥).. إن الله الغني عن العالمين لا يحتاج إلى قرضٍ مخلوقٍ لا يكاد يساوي ذرة في مخلوقاته؛ ولكن الله جعل قرضك غير ضائع بهذا التركيب: أقرض الله، أي: أقرض البشرية تجد ذلك عند الله كما قال بين الله ذلك تفصيلاً في قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ (المزمل: ٢٠). ومثل هذا كثيرٌ في الشريعة، فعندما يقول الله جل جلاله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ (الأنفال: ٤١) وليس المراد أن الله محتاجٌ لشيءٍ من الغنيمة؟ إنما المراد فأن للمصالح البشرية المختلفة، ولكنه أحاطها بسياج الهدف والوسيلة، فلا تخرج عن ما يحدده وسيلة وهدفًا.

وفصل النبي ﷺ ذلك فيقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَّا عَلِمْتَ

أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعْمَتَكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تَسْقِهِ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟»^(١).

وبذا نفهم معنى قوله جل في علاه: ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ (النساء : ٩٥)، فليست كلمة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تعني إلا في سبيل إقامة الحياة البشرية العادلة، وحماية الأرض من الفساد بالسير على النظام الذي شرعه خالق هذه الحياة، ولا يتحقق ذلك على الوجه الحقيقي إلا بالتعرف إلى الله والقرب منه جل في علاه.. لا يتحقق ذلك إلا بجعل كلمته هي العليا.. هذا معنى الجهاد: بذل الجهد لتكون كلمة الله هي العليا.. ستقول: ولماذا لا بد أن نجعل كلمته هي العليا؟

حتى نختصر عليك مسافات التفكير.. والمسافات الهائلة لبذل الجهود في البحث عن صناعة العدل في الحياة.. فإنك إذا جعلت كلمته هي العليا منعت أن تكون كلمتك هي العليا، ومنعت أن تكون كلمة صديقك هي العليا، ومنعت أن تكون كلمة عدوك هي العليا.. أن تجعل كلمة الله هي العليا يعني أن تثبت العدل في الحياة البشرية حيث لا يعلو أحدٌ على أحد، ولا يفضل أحدٌ أحداً إلا بالعمل الصالح، والإعمار للحياة بما يرفع الإنسان يوم يُرجع إلى ربه ويلقاه..

فبين الله جل ذكره المجاهدين الحقيقيين، وهم من جاهد في سبيل الله، لا في سبيل شهواته ورغباته، ولا في سبيل تحقيق طموحاته، بل في سبيل العدل، والخير، والإحسان، وإغاثة المستضعفين في الأرض خالصاً لوجه الله.

(١) صحيح مسلم (٨ / ١٣) برقم ٦٧٢١.

والجهاد في سبيل الله يعني أن يكون في سبيل العدل والخير والإحسان وإغاثة المستضعفين في الأرض خالصاً لوجه الله.

ألا خاب الملحدون الذين يؤلهون أنفسهم، ويريدون إفساد الأرض بجعل كلمة كل واحدٍ منهم هي العليا، وهنا تعلم الأسرار الفكرية وراء تقرير النبي ﷺ معنى الجهاد في سبيله حيث جاء رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

لقد عدد الرجل الأهداف المختلفة التي يسعى لها الأفراد والعصابات المسلحة والدول المعتدية عندما يقاتلون الآخرين، فهم يريدون من قتالهم الاستيلاء على خيرات الآخرين، والسيطرة على ثرواتهم (للمغنى)، وربما أرادوا إظهار السمعة والبطولة والتفوق الذاتي (للمذكر)، وربما أرادوا إظهار القوة الشخصية والتفوق النوعي، وفرض شخصيتهم المستكبرة المتعالية التي لها حق الحصانة في الأفعال المجرمة في العالم (ليرى مكانه).. إنهم في كل ذلك يريدون كلمتهم هي العليا في الأرض، وكلهم سيفسد في الأرض وفق هذه الأهداف الضيقة ثم يختلف مقدار إفسادهم ويتفاوت.. فمن في سبيل الله؟ إنه من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وبذا تسير البشرية على النظام العادل الذي شرعه لها خالقها، فلا ينبغي أحدٌ على أحد، ولا يتعالى جنس على جنس.. هنا يتم المحافظة على الحياة البشرية.

أين هذا من فهم الملحدين ومليشياتهم للطبيعة الوجودية للبشرية؟ أين هذه العظمة من الفهم الأعوج الذي يرسيه من يزعم الجهاد ثم يقتل الأبرياء؟ أين هذه العظمة من فهم أصحاب (نظام الفيتو) وقد جعلوا أنفسهم أبناء الله وأحباءه يستطيّلون بأسلحتهم على أهل الأرض؟

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٢٤) برقم ٢٨١٠.

وهذه البصيرة تعني أن تبذل الجهود المالية في إيجاد المجموعات الضاغطة، والمؤسسات الإعلامية والثقافية المختلفة التي تثبت معاني الاستقامة في الحياة، وعدم بغيتها عوجًا، وأن يبذل المال في سبيل التعاون على البر والتقوى وفي سبيل كسر جهود التعاون على الإثم والعدوان.

القانون الثالث: يجب إظهار مراعاة الشريعة للأحوال الإنسانية، والقدرة على الأفعال، فلا يدخل في المقارنة السابقة أولو الضرر. ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ (النساء: ٩٥).

وفي قوله ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ قراءتان:

الأولى: برفع ﴿غَيْرُ﴾ على أن تكون صفة لقوله: ﴿الْقَاعِدُونَ﴾، والمعنى لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ الْمُغَايِرُونَ لِأُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ، ومثل ذلك قوله: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ﴾ (النور: ٣١) فيجوز أن تكون غير صفة لمعرفة مثل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾ (الفاتحة: ٧)، فكلمة ﴿غَيْرُ﴾ يوصف بها ويُستثنى، فإن وصفت بها أتبعته إعراب ما قبلها، وإن استثنيت بها أعربت بالاعراب الذي يجب للاسم الواقع بعد إلا، وذلك أن أصل ﴿غَيْرُ﴾ صفة والاستثناء عارض.

الثانية: بَنَصْبِ ﴿غَيْرِ﴾ فِيهَا وَجْهَانِ: الاستثناء مِنَ الْقَاعِدِينَ، وَالْمَعْنَى لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ إِلَّا أُولِي الضَّرَرِ، وَأَنْ تَكُونَ نَصْبًا عَلَى الْحَالِ، وَالْمَعْنَى لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ فِي حَالِ صِحَّتِهِمْ، وَالْمُجَاهِدُونَ، كَمَا تَقُولُ: جَاءَنِي زَيْدٌ غَيْرَ مَرِيضٍ، أَيْ جَاءَنِي زَيْدٌ صَحِيحًا، وَهَذَا قَوْلُ الزَّجَّاجِ وَالْفَرَّاءِ وَكَقَوْلِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحْلِ الصَّيْدِ﴾ (المائدة: ١).

والضَّرَرُ «مَصْدَرُ ضَرَرَ - بِكَسْرِ الرَّاءِ - مِثْلَ مَرَضَ، عَلَى وَزْنِ فَعَلَ وَهَذِهِ الزَّنَةُ

تَجِيءُ فِي الْعَاهَاتِ وَنَحْوَهَا، مِثْلَ عَمِيٍّ وَعَرَجٍ وَحَصِرٍ، وَمَصْدَرُهَا مَفْتُوحُ الْعَيْنِ مِثْلَ الْعَرَجِ، وَلِأَجْلِ خِفَّتِهِ - بَفَتْحِ الْعَيْنِ - امْتَنَعَ إِذْغَامُ الْمِثْلَيْنِ فِيهِ، فَقِيلَ: ضَرَّرَ بِالْفَتْحِ، وَبِخِلَافِ الضَّرِّ الَّذِي هُوَ مَصْدَرٌ ضَرَّهُ فَهُوَ وَاجِبُ الْإِذْغَامِ إِذْ لَا مُوجِبَ لِلْفَتْحِ^(١)، والضرر النقصان الذي يصيب الجسد سواءً كَانَ بِالْعَاهَةِ كَالْعَمَى وَالْعَرَجِ وَالْمَرَضِ، أَمْ بِضَنَى فِي الْجِسْمِ، وَعِي فِي الْحَرَكَةِ، أَمْ بِسَبَبِ عَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْقِتَالِ لضعف استعداد، وخفاء جهة، وقلة مال بأن لا يقدرُوا عَلَى الْجِهَادِ بِأَمْوَالِهِمْ، وَقَدْ يَكُونُ الضَّرَرُ وَاقِعًا مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ بِأَنْ يَكُونُوا مَصْدَرًا لِلضَّرَرِ فِي حَرَكَةِ الْمُقَاتِلِينَ، وَقَدْ فَصَّلَ اللَّهُ أُولَى الضَّرَرِ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى، فَمِنْهَا قَوْلُهُ جَلْ مَجْدُهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفُقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِمْهُمْ وَلَا أَجِدْ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ تُوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا لَا يَأْخُذُوا مَا يَنْفُقُونَ﴾ (التوبة: ٩١، ٩٢)، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ﴾ (الفتح: ١٧).

فأصحاب الضرر لا يدخلون في المقارنة بين القاعدين والمجاهدين، فأصحاب الضرر استحقوا الأجر عندما أصيبوا بالضرر فصبروا عليه، وفي المقابل كلف الأصحاء الأقوياء غير أولي الضرر بالجهد، فصبروا وجاهدوا فاستحقوا أجرًا مقابلًا، ثم إن الله يفضل على عباده بما شاء عندما يُقبلون عليه بنية حسنة صادقة إن هم وقع لهم ما وقع للطرف الآخر ليقوموا بما أمرهم الله.

وحتى تستبين مراعاة الشريعة للأحوال البشرية في مجال المسابقة إلى الخيرات تروي لنا كتب السنة الصحيحة كيف نزل هذا الاستثناء لأولي الضرر، فعَنِ الْبَرَاءِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

(١) التحرير والتنوير (٥ / ١٧١).

قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ادْعُوا فَلَانَا فَجَاءَهُ وَمَعَهُ الدَّوَاةُ وَاللُّوْحُ، أَوْ الْكَتِفُ فَقَالَ: اكْتُبْ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهنا يستبين للعالم أن التشريعات القرآنية يراد بها حفظ المصالح الحقيقية للبشرية حيث ارتبط نزول هذه الآية بمراعاة الأحوال البشرية المختلفة؛ إذ يذكر زيد بن ثابت أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَلَى عَلَيْهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قَالَ: فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَهُوَ يُمْلِئُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ، (فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا ضَرِيرٌ) وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ، وَفَخِذَهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلْتُ عَلَيَّ، حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرْضَ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّي عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾^(١)، (قَالَ زَيْدٌ: فَأَنْزَلَهَا اللَّهُ وَحْدَهَا فَالْحَقَّتْهَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُلْحَقِهَا عِنْدَ صَدْعٍ فِي كَتِفٍ)^(٢).

فَظَنَّ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ أَنَّ التَّعْرِیْضَ بِالْقَاعِدِينَ يَشْمَلُهُ وَأَمْثَالُهُ، فَإِنَّهُ مِنَ الْقَاعِدِينَ، وَلِأَجْلِ هَذَا الظَّنَّ عَدَلَ عَنْ حِرَاسَةِ الْمَقَامِ إِلَى صِرَاحَةِ الْكَلَامِ، وَهُمَا حَالَانِ مُتَسَاوِيَانِ فِي عُرْفِ الْبُلَغَاءِ، هُمَا حَالُ مُرَاعَاةِ خِطَابِ الذَّكِيِّ وَخِطَابِ الْغَبِيِّ، فَلِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ زِيَادَةُ الْإِسْتِثْنَاءِ مُفِيدَةً مُقْتَضَى حَالٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ، وَلَكِنَّهَا مُعَوِّضَةٌ بِنَظِيرِهِ؛ لِأَنَّ السَّامِعِينَ أَصْنَافٌ كَثِيرَةٌ^(٣).

فلم تضع حقوق أولي الضرر في الحصول على أجر الجهاد إن صدقوا النية؛ ومن النصح لله ولرسوله أن ينووا صادقين الاشتراك في الجهاد بالمال والنفس إن استطاعوا وأن يحرضوا غيرهم على الجهاد، فعند ذلك ينالون أجر المجاهدين، وهذا

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٣٠) برقم ٢٨٣٢ .

(٢) أبو داود (٢ / ٣١٩) رقم ٢٥٠٩ .

(٣) التحرير والتنوير (٥ / ١٧٠) .

يدل على تعميم الوعي والتعبئة على جميع الأمة حتى على غير القادرين لتبقى الأمة محفوظة في أمنها، وبين النبي ﷺ ذلك، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاِدِيًّا إِلَّا كَأَنُوكُمْ مَعَكُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ» ^(١)، وهذا كما قيل:

يَا رَاحِلِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ سِرْتُمْ جُسُومًا وَسَرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحًا
إِنَّا أَقْمْنَا عَلَى عُذْرٍ وَعَنْ قَدَرٍ وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ فَقَدْ رَاحَا
القانون الرابع: يجب الاستفادة من طاقات أفراد الأمة جميعاً، حتى القاعدين.

وَيُصِرُّنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾، فكون المجاهدين يفضلونهم لا يعني أن نبذ أولي الضرر جانباً ليكونوا فريسة سهلة لوساوس الشيطان، بل يدخلون في الوعد بالحسنى، فليبدلوا وسعهم:

فالقاعدون لهم دورهم في بيان الرسالة الإلهية للإنسانية، والسير إلى الله تعالى، وأداء ما يستطيعون في الاستخلاف في الأرض، وأولوا الضرر لهم دورهم في ذلك أيضاً، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾، فكلمة ﴿كَلَّا﴾ للفتات الثلاث وليس لفتتين، فهذه الكلمة تستوعب الجميع.

وتلمس من هذا الاستثناء لأولي الضرر ضرورة السير على المنهج القرآني في تصوير دقة التوصيف الخبري وإقامة العدل في الواقع الإنساني، وهذا القانون نستنبطه من مجمل الأسلوب القرآني، وترى هنا استثناء أولي الضرر ثم بعد قليل سيستثني المستضعفين.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ١٠) رقم ٤٤٢٣ .

ولقد استوقف الأسلوب القرآني هنا الطاهر بن عاشور فقال: «فلم يأتِ بعمومات شأنها التخصيص غير مخصوصة، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة، كما كان يفعلُه العرب لِقلةِ اكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة، مثاله قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ (النساء: ٩٥) وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ (القصاص: ٥٠) فبين أن الهوى قد يكون محمُودًا إذا كان هوى المرء عن هدى»^(١).

القانون الخامس: تتنوع مجالات الجهاد، فجعلها شاملة للمال والنفس، فقدم ما يمكن من خلاله أن يشترك فيه الأكثر، وهو المال، وآخر ذكر النفس؛ لأن من يبذلها هم الأقل، ويُبصرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

والمجاهدون على ثلاث مراتب: مجاهد بماله، ومجاهد بنفسه، ومجاهد بهما معًا، فالمجاهدون أيضا لا يستون في ذلك.

ولكن لماذا قدم الله النفس على المال في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ (التوبة: ١١١)، وهنا قال: ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ فقدم ذكر المال على النفس؟

والجواب: أن ذلك جرى حسب مقتضيات السياق، فقدم هناك النفس؛ لأنَّ النَّفْسَ أَشْرَفُ مِنَ الْمَالِ، فَالْمُشْتَرَى وَهُوَ اللَّهُ قَدَّمَ ذِكْرَ النَّفْسِ تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ الرَّغْبَةَ فِيهَا أَشَدُّ، ولأن موضع التوبة جاء في سياق الالتحام والمواجهة، وأما هنا فالكلام عن الباذل وهو العبد، فقدم ما يمكن من خلاله أن يشترك فيه الأكثر وهو المال، وآخر ذكر النفس؛ لأن من يبذلها هم الأقل، وأراد الله أن يبين تنوع مجالات الجهاد.

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٠).

وقدم الله المال على النفس ليبصر ك بعدة معانٍ، منها: أن المال إذا كفى في الحماية والنصرة والدفاع فهو يفدي النفس، فلا تقدم النفس قبل استنفاد المال في وسائل نصرته القضايا العادلة، وهي ذاتها القضايا التي تكون في سبيل الله، وللتبصير بأهمية المال في صناعة القرار وتغيير المواقف، واستمرار الأعمال المختلفة لحماية الحق والحقائق من قوى التزييف الطاغوتية.

ومن معاني التقديم للمال أن المال يمكن أن يبذله الأكثر الأعم من أبناء المجتمع فيدخل فيهم النساء والأطفال بينما النفس قد لا يستطيع بذلها إلا العدد الأقل ممن يبذلون المال حيث لا يكلف بذلك إلا الرجال البالغون الأكفاء ممن تمتع بالقدرة العسكرية اللائقة. تأمل الجمال التعبيري التبصيري القرآني المدهش.

القانون السادس: الدرجة التي فضل بها المجاهدون ليست درجة واحدة، بل هي درجات عظيمة جداً، إذ فصلها بقوله: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٩٥-٩٦)، وهي تدل على مكانة الجهاد في حماية الأمن العام، وإنقاذ الإنسانية.

فجمع دَرَجَاتٍ لإِفَادَةِ تَعْظِيمِ الدَّرَجَةِ، فالجمع يفيد الكثرة، أَلَا تَرَى أَنَّ عِلْقَمَةَ لَمَّا أَنشَدَ الْحَارِثُ بْنُ جَبَلَةَ مَلِكَ غَسَّانَ قَوْلَهُ يَسْتَشْفِعُ لِأَخِيهِ شَأْسِ بْنِ عَبْدِةَ: وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحَقَّ لِشَأْسٍ مِّنْ نَّدَاكَ ذَنْوُبٌ^(١) قَالَ لَهُ الْمَلِكُ «وَأَذْنِبَةٌ»^(٢).

وهذه الدرجات تتكاثر حسب النية والأثر والفعل، وينبغي أن يكون الحادي

(١) التحرير والتنوير (٥ / ١٧٢).

(٢) ديوان أسامة بن منقذ (١ / ٣٥٩).

فيها الجهاد في سبيل الله، أي: في سبيل نشر العدل والحق والخير، وإغاثة المستضعفين على الوجه الذي يريده الله ابتغاء وجهه الكريم، وقد ذكر الله ستة أفعال قد يبذل فيها المجاهدون جهدهم، وكل منها تزيدهم درجة أو درجات، فقد روى الطبري عن ابن وهب قال: سألت ابن زيد عن قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾، فقال: «الدرجات» هي السبع التي ذكرها في «سورة براءة»: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَرْبِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٢٠، ١٢١).

قال: هذه السبع الدرجات. قال: وكان أول شيء، فكانت درجة الجهاد مُجملة، فكان الذي جاهد بماله له اسمٌ في هذه، فلما جاءت هذه الدرجات بالتفصيل أخرج منها، فلم يكن له منها إلا النفقة، فقرأ: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾، وقال: ليس هذا لصاحب النفقة. ثم قرأ: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً﴾، قال: وهذه نفقة القاعد^(١).

ولعلك تجد أن لما قاله ابن زيد ﷺ زيادةً تفصيل، فإن المنفق هنا قد يراد به المجاهد بنفسه ذاته؛ إذ قد تغشى المجاهدين أزمنة لا يجدون نفقة نظامية إلا ما ينفقون على أنفسهم من عندهم كما كان في العهد النبوي، فتكون هذه المرتبة لتفضيل المجاهد بنفسه على زملائه ممن لم يكن منهم ذلك، وأما المجاهد بماله فقط فتختلف أحواله فقد يأتي وقت يكون أعظم أجراً في ظروف خاصة، وهكذا،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ٩٧).

فابن زيد وهو من كبار المفسرين أراد أن يبين أن تفاوت الأجر الأخروي قائم على تفاوت البذل الدنيوي.

وبيّن النبي ﷺ سعة هذه الدرجات في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ». فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

وعن شرحبيل بن السمط قال لكعب بن مرة: يا كعب حدثنا عن رسول الله ﷺ واحذر. قال سمعته يقول: «من شاب شية في الإسلام في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة» قال له: حدثنا عن النبي ﷺ واحذر. قال: سمعته يقول: «ارموا. من بلغ العدو بسهم رفعه الله به درجة» قال ابن النحام: يا رسول الله وما الدرجة؟ قال: «أما إنها ليست بعتبة أمك ولكن ما بين الدرجتين مائة عام»^(٢). وهنا لا بد أن تتساءل لماذا قال الله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ (النساء: ٩٥) فأفرد الدرجة، ثم جمعها في قوله ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾ (النساء: ٩٦)؟

لعله يظهر لك سببان:

السبب الأول: تعظيم الدرجات، والسبب الثاني: بيان التفاوت بين أصحاب هذه الدرجات وقد ذكر أهل العلم عدة أجوبة: فقليل لأنَّ الْمُجَاهِدَ أَفْضَلُ مِنَ الْقَاعِدِ الَّذِي يَكُونُ مِنَ الْأَضْرَاءِ بِدَرَجَةٍ، وَمِنَ الْقَاعِدِ الَّذِي يَكُونُ مِنَ الْأَصِحَّاءِ بِدَرَجَاتٍ، والظاهر أن الدرجة التي يفضل بها على القاعد الضرير ليست درجة جزائية بل درجة

(١) صحيح مسلم (٦ / ٣٧) رقم ٤٩٨٧.

(٢) سنن النسائي - بأحكام الألباني (٦ / ٢٧) برقم ٣١٥٥.

العمل؛ إذ يصحبه شعورٌ مفعمٌ بلذته، وإلا فالأصل تساويه مع القاعد الضرير من حيث الأجر ما دام الضرير صادق النية في القيام بهذا العمل الصالح لولا ما به من ضرر، وقيل: فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ الْغَنِيمَةُ، وَفِي الْآخِرَةِ بِدَرَجَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي الْجَنَّةِ بِالْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ. وقيل المُجاهد المذكور أولاً هو المجاهد بِالمَالِ وَالنَّفْسِ فَقَطْ، والثاني المجاهد بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْقَلْبِ وَهُوَ أَشْرَفُ أَنْوَاعِ الْمُجَاهَدَةِ^(١).

والذي يظهر أن المراد بالدَّرَجَةِ أولاً لَيْسَ الدَّرَجَةُ الْوَاحِدَةُ بِالْعَدَدِ، بَلْ بِالْجِنْسِ، وَالْوَاحِدُ بِالْجِنْسِ يَدْخُلُ تَحْتَهُ الْكَثِيرُ بِالنَّوعِ، وَذَلِكَ هُوَ الْأَجْرُ الْعَظِيمُ، فبدأ بها مفردة ثم جمعها لزيادة التشويق والإثارة وبيان منزلة المجاهدين، وهذا التشويق، وأسلوب النزول كان لمعالجة طبيعة النفس المسلمة التي تنتمي إلى الطبيعة البشرية؛ إذ مهما بلغت من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائماً في حاجة إلى تربية دائمة لحمايتها من أعراض السوء والفتور التي لا بد أن تطرأ عليها مثل الضعف والحرص والأنانية والبخل والشح والتقصير في مواجهة التكاليف التي يكون لها تبعات ثقيلة مثل الجهاد.

«فَعَامَّةُ النَّاسِ إِذَا أَسْلَمُوا بَعْدَ كُفْرٍ أَوْ وُلِدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّرَمُّوا شَرَائِعَهُ وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُمْ مُسْلِمُونَ وَمَعَهُمْ إِيْمَانٌ مُجْمَلٌ وَلَكِنْ دُخُولَ حَقِيقَةِ الْإِيْمَانِ إِلَى قُلُوبِهِمْ إِنَّمَا يَحْصُلُ شَيْئاً فَشَيْئاً إِنْ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَصِلُونَ لَا إِلَى الْيَقِينِ وَلَا إِلَى الْجِهَادِ وَلَوْ شُكُّوا لَشَكُّوا وَلَوْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ لَمَا جَاهَدُوا وَلَيْسُوا كُفَّاراً وَلَا مُنَافِقِينَ بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَتِهِ وَيَقِينِهِ مَا يَذَرُّ الرَّيْبَ وَلَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الْحُبِّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مَا يَقْدُمُونَهُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَهَؤُلَاءِ إِنْ عَوْفُوا مِنَ الْمِحْنَةِ وَمَاتُوا دَخَلُوا الْجَنَّةَ. وَإِنْ أُبْتُلُوا بِمَنْ يُوْرِدُ عَلَيْهِمْ شُبُهَاتٍ

(١) وانظر: تفسير البضاوي (٢/ ٩٢)، وهو عند الرازي من قبله حذو بالحرف بالحرف.

تُوجِبُ رَبِّهِمْ فَإِنْ لَمْ يُنْعَمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُزِيلُ الرَّيْبَ وَالْأَصَارُوا مُرْتَابِينَ وَانْتَقَلُوا إِلَى نَوْعٍ مِنَ النِّفَاقِ^(١).

والآية تدل على قيمة الجهاد ومكانته مع النظر إلى طبيعة البشر وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين.. إن «الجهاد» ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة. إنما هو ضرورة مصاحبة لبناء هذه الأمة وحمايتها^(٢)! بل ولإنقاذ الإنسانية من عبث القوى المستكبرة.

إن الجهاد أعظم وسائل الأمة لحمايتها من الأخطار المجرمة التي تتحرق القوى المفسدة شوقاً لإيقاع القوى الصالحة فيها، ولذا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»^(٣) والآيات توضح أن الجهاد «فطرة» وليست حالة طارئة بل هو ضرورة مصاحبة لإنشاء هذه الأمة... ومن ثم لا بد من الجهاد.. لا بد منه في كل صورة.. ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير. ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح. ولا بد من لقاء الباطل المترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة.. وإلا كان الأمر انتحاراً. أو كان هزلاً لا يليق بالمؤمنين! ولا بد من بذل الأموال والأنفس^(٤).

ما سبب زيادة المغفرة والرحمة مع أن الدرجات تشملها؟

قد يحتاج المجاهد إلى المغفرة؛ لأنه قد يرتكب بعض الأخطاء في أثناء عمله مع صدق نيته مع أنه ليس بمعصوم، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يخفف عنه وأن

(١) مجموع الفتاوى (٧ / ٢٧١).

(٢) في ظلال القرآن (٢ / ٧٤١).

(٣) صحيح مسلم (٦ / ٤٩) رقم ٣٥٣٣.

(٤) في ظلال القرآن (٢ / ٧٤٢).

يبين الأخطاء التي ارتكبتها لا عن عمد، أما إذا كان ارتكبتها عمداً فهذه مشكلة عظيمة، ولكن الأخطاء التي طرأت على غير عمد فإن الله يغفرها له، ولذلك قال ومغفرة، وهذا رأيناه في الكلام عن المجاهدين في سورة آل عمران في قوله تعالى ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٦١) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٢﴾ (آل عمران: ١٤٦، ١٤٧)، فهم يشعرون بأن هناك تقصيراً يصحب أعمالهم، وذنباً يقتربونها قبل العمل وأثناءه وبعده، وبعض هذه الذنوب قد لا تغفر كالدين مثلاً، فالدين لا يعقل أن يحدث خطأ إنما يكون عمداً، ولذلك لا يغفر كما بين النبي ﷺ في أحاديثه، الدين يتعلق بحقوق الناس.. والمجاهد يزعم أنه قام من أجل حقوق الناس، فإما أن يستعفي من صاحب الحق، وإما أن يرد له حقه.. لا يعقل أن يذهب مجاهداً لحماية حقوق الناس وهو يأكل حقوقهم، فالجهاد ضرورة مصاحبة لبناء المجتمع وحمايته، وهو «فطرة»، وليست حالة طارئة... ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح.. وإلا كان الأمر انتحاراً»^(١).

وإذا كانت المغفرة تكفير عن السيئات، فإن الرحمة إسباغ بالخيرات بمعنى أن يعطيهم هذه الدرجات ويزيدهم فوق ذلك من لدنه رحمة، نسأل الله من فضله ورحمته.



(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٢).

القِسْمُ الثَّانِي

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام
العالمي: تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلى
أرضٍ تحفظ فيها الكرامة الإنسانية وفق النظام الإلهي
(النساء: ٩٧-١٠٠)

آيات هذا القسم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا
الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ
عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ
مُرَافًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ (النساء: ٩٧-١٠٠).

المناسبة والاتصال:

لما تقدم في القسم السابع أن من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي،
والسلام العالمي: تعظيم مكانة المجاهدين القائمين على حراسة الجانب الأمني،
والحفاظ على حقوق المستضعفين أراد جل جلاله أن يبين مكانة المهاجرين الذي
يتركون ديارهم وأموالهم لينتقلوا من أرض الظلم والخوف والحرب إلى أرض
العدل والأمن والسلام ليحقق بذلك هدفين:

الأول: التزيل من أرض الظلم التي لا يجد فيها كرامته، فلا يصبح رهينة بيد

القوى الظالمة، أو ورقة للمساومة مع قوى الخير، فيعين المجاهدين على تحقيق أهدافهم في حماية أمن المستضعفين ونشر العدل في الأرض بدلاً من أن يكون ورقة للمساومة، فمن أسباب وجوب الهجرة، فراراً من أن يستخدم المعتدون المستضعفين وسائل للاعتداء، أو دروعاً لتوهين العدل، فبالهجرة يتم تقوية أمة العدل، فلا يكون المقيمون في أرض الظلم عرضة للابتزاز، وسبباً في تغيير أديانهم.

الثاني: أن يجد أرضاً تكون أقرب لأن يعيش أقرب إلى المراد الإلهي في الحياة، بدلاً من أن يضطر لتغيير دينه، أو إخفائه. (فإن لم توجد أرض العدل الحقيقي فيبحث المرء عن الأرض التي يوجد فيها القانون، وتكون مفاستها أقل من غيرها، ويمكنه أن يجد السعة فيها على أن يعبد الله بحرية، وهنا لا بد من الموازنة بين الأراضي المختلفة في إيجابياتها وسلبياتها، والمصالح التي تتحقق فيها، والمفاسد التي تخف أو تنعدم فيها).

وحتى يفصل الله ما يتعلق بهذا الموضوع فقد ذكر الله القوانين الآتية:

القانون الأول: تجب الهجرة من دار الظلم والحرب والاضطهاد إلى دار العدل وأودار السلام أو دار القانون التي يجد الإنسان فيها الحرية الحقيقية لإقامة حياته وفق المراد الإلهي. وَيُصِرُّنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

فإذا بلغ الظلم حداً لا يستطيع المرء معه إقامة دينه وجب عليه الهجرة من أرض الظلم إلى أرض العدل وإن كانت كافرة، فتأمل ذلك في الآية؛ إذ يقول الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ من الذي توفاهم؟ الملائكة هي التي توفت هؤلاء الظالمين لأنفسهم، وذكر الله جل مجده مثل ذلك في سورة الأنعام فقال: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ

رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿ (الأنعام: ٦١)، وفي مشهدٍ ثانٍ بين تعالى ذكره أن المتوفي ملك الموت ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة: ١١)، ولكنك تجد البيان القرآني يخبرك في مشهدٍ ثالثٍ أن الله هو المتوفي جلَّ جلاله؛ إذ يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر: ٤٢)، وتتآزر المشاهد الثلاثة على تجلية الحقيقة.

فالله جل في علاه يأمر بقبض أرواح العباد عندما يستوفون آجالهم، فهو يعطي الأمر والإذن لملك الموت، ويوجد القدرة في الملائكة لتنفيذ أوامره، فيقوم ملك الموت بقبض الروح، إما لأن له أعواناً كثيراً من الملائكة، وإما لأنه أوتي قوة عظيمة يصل بها إلى الأعداد الكثيرة في وقت واحد، وتباشر الملائكة ذلك إما لأنهم مساعدون لملك الموت، أو يكون لهم دور معين، فيصح نسبة قبض الأرواح إلى الله أو إلى ملك الموت أو إلى الملائكة الرسل، وتعال بنا للتأمل في الفعل ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾، فقد وردت فيه قراءتان توضحان مشهدين:

- قراءة الجمهور ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ على أنه فعلٌ ماضٍ لم يُقرنَ بِعَلَامَةٍ تَأْنِيثٍ فَاعِلُ الْفِعْلِ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ جَمْعٌ تَكْسِيرٌ، وَتَأْنِيثُهُ تَأْنِيثٌ لَفْظِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ فَيَجُوزُ لِحَاقِ تَاءِ التَّأْنِيثِ لِفِعْلِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِعْلاً مُضَارِعاً لِلِاسْتِقْبَالِ، وَالتَّقْدِيرُ: إِنَّ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ، فَأَسْقَطِ التَّاءَ فِي أَوَّلِهِ.

- وقراءة البزي عن ابن كثير بتشديد التاء وصلاً فيكون أصلها: تتوفاهم على أنه فعلٌ مضارعٌ، والحديث فيه عن المستقبل، وأنت ترى أن المشهدين تصورهما القراءتان، تعال بنا الآن لتدبر هذا التعبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾.

فقوله ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ معناه: تتوفاهم الملائكة، أي: تقبض أرواحهم مستوفية آجالها، وكلمة ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ تدل على أن الله مد في أعمارهم واستوفوا آجالهم، فكان بإمكانهم

أن يهاجروا في أي لحظة، ولكنهم أبوا ذلك، وفضلوا البقاء، فالملائكة تقول لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؟

فلماذا قال: ﴿تَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾ ولم يقل إن الذين يموتون؟

ليان أنهم استوفوا عمرهم كاملاً، فلم يموتوا في وقتٍ يمكن أن يُعذروا فيه، ولعل الآية تصور سوء موقفهم، وشناعة حالهم عند حدوث الوفاة ليعلموا أنهم سيعانون وقتاً عصيباً في العالم الآخروي القادم عندما تقبض أرواحهم الملائكة، وتساؤلهم عن أسباب عدم إقامتهم لدينهم، وحينها سيواجهون مصاعب لا تساويها الراحة التي أرادوها بالتخلي عن الهجرة.

وقوله: ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في محلِّ النَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَالْمَعْنَى تَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ فِي حَالِ ظُلْمِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، فالإضافة لاسم الفاعل لفظية على نية الانفصال كَأَنَّهُ قِيلَ ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ، ومثل ذلك ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ (المائدة: ٩٥) ﴿ثَانِي عِطْفِهِ﴾ (الحج: ٩)، ففيمَ ظلموا أنفسهم؟

بشتى أنواع الظلم، وعدم الهجرة عند وجوبها ظلماً للنفس، وفشل في اختبار الحياة، إذ كان بإمكانهم أن يهاجروا لينعموا بالعيش وفق مراد ربهم في أرض العدل فأبوا إلا البقاء حيث لا يمكنهم فعل ذلك.

فتقول لهم الملائكة: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾؟ أي ماذا كنتم تعملون، لقد ارتكبتم أفعال الكفر والمعصية، لماذا فعلتم ذلك؟ فكلمة ﴿فِيمَ﴾ تشمل ماذا فعلتم ولماذا وأين وما السبب، فردوا وقالوا ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾

وتعال بنا لتأمل الحوار بين الملائكة وهؤلاء مجدداً لنحاول معرفة الظلم المقصود: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧).

فالظلم الذي اقترفوه في حق أنفسهم إما ظلم الكفر وإما ظلم المعصية الكبيرة، والوعيد صالح للأمرين، ولكنهم يتفاوتون في كميته وكيفيته، فإن الاصطلاح القرآني لكلمة الظلم يجعلنا أمام معانٍ متعددة:

فالظُّلْمُ في الاصطلاح القرآني قد يأتي بمعنى الكفر المخرج من الملة، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لُقْمَانَ: ١٣)، وقد يأتي بمعنى كفر النعمة ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤)؛ إذ يحتمل الأمرين هنا، وَقَدْ يَأْتِي بِمَعْنَى الْمَعْصِيَةِ الصَّغِيرَةِ أَوِ الْكَبِيرَةِ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ (فَاطِرٍ: ٣٢)، ولذا قال الراغب: «الظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز»^(١).

فظلمهم لأنفسهم إما وقوعهم في الكفر، وإما وقوعهم في كبائر الذنوب دون الكفر كتضييع أولادهم الذين انغمسوا في ثقافة ذلك المجتمع الظالم مع قدرة الآباء على الهجرة.

فسؤال الملائكة: فيم كنتم؟ يحتمل أن يكون معناه: لماذا لم تقيموا ما أمركم خالقكم بإقامته؟ لماذا لم تسلموا؟ ولماذا إذا كنتم مسلمين لم تطبقوا الدين؟ لماذا لم تصلوا ولم تصوموا ولم تتصدقوا ولم تتخلقوا بالخلق الحسن؟ ولماذا ارتكبتم المحرمات وفعلتم أفعال المفسدين؟

فيأتي جوابهم واعتذارهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضَعِّفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عَدْنَا غَيْرَنَا ضَعْفَاءَ وَكُنَّا كَذَلِكَ، فأكرهونا على أعمال الكفر، ولكن الله يعلم أنه كان بإمكانهم التضحية بحلاوة البقاء في أوطانهم والهجرة في الأرض، فضحوا بدينهم مقابل التمتع بديناهم، لذا ترد عليهم الملائكة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾، ولكن هؤلاء الظالمين ادعوا

(١) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٣١٥).

أنهم كانوا مستضعفين في الأرض، والاستضعاف الذي ادعوه هنا غير الاستضعاف الذي ذكر سابقاً في هذه السورة في قوله تعالى ذكره: ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥)، وغير الاستضعاف المذكور الذي سيأتي في الآية اللاحقة في قوله تعالى شأنه: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٨).

والمُسْتَضَعَفُ: من عدّه غيره ضعيفاً فلا يبالي بما يصنع به قتلاً أو تعذيباً، مع التضيق عليه حتى لا يتمكن من الهجرة إلى مكانٍ آخر، ولذا فقد يضطر المستضعف إلى موافقة المستكبرين فيما يريدونه منه، ولكن الاستضعاف هنا دعوى مجردة لشدة تعلقهم ببلاد الظلم، وحبهم لما نشأوا عليه أو اعتادوه، ففرطوا في الهجرة مع قدرتهم عليها، والنتيجة ضياعهم وربما ضياع أبنائهم، إضافة إلى ما يسببونه من إحراج لقوى العدل التي يربكها التعامل مع قوى الظلم التي يعيشون تحت سلطتها وفي مناطق جغرافيتها، بسبب عدم تزيلهم.

فقولهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضَعْفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ترد عليهم الملائكة فيه بقوة، فتقول لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧) وهذا يبين لنا أن التلاعب الظاهري لا يمكن أن ينجي أمام علام الغيوب. فأنكشفت الأعذار المختلفة الكاذبة التي يتعللون بها.. نعم كانوا لا يستطيعون إقامة الدين، ولكن الأمر لم يكن مغلقاً عليهم، فكانوا يستطيعون الهجرة في الأرض ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

وبهذا التصوير البديع المخيف للحوار بين الملائكة وبين الظالمين لأنفسهم ترى أن «القرآن يعالج نفوساً بشرية، ويهدف إلى استجاشة عناصر الخير والمروءة

والعزة فيها، وإلى مطاردة عوامل الضعف والشح والحرص والثقله^(١).

القانون الثاني: تجب فيها الهجرة: الهجرة للفقه في الدين، إن كان لا يتيسر الحصول على الحد الأدنى من العلم الشرعي في مكانه. وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

إذ يدخل ضمن سؤال الملائكة: فيم كنتم؟ ماذا صنعتكم بأنفسكم ولتتعلموا ما يريد الله منكم.. فقاموا يتعللون فقالوا: كنا مستضعفين في الأرض.. فلم تتيسر لنا سبل معرفة دين الله، ولكنهم يعلمون أنه كان بإمكانهم البحث عن العلم الصحيح، فترد عليهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

فهم يستطيعون إقامة دينهم في أرض الكفر لأنها أرض عدل من حيث الحقوق البينية مع البشر أو أقرب إلى العدل، ولكنهم لا يعرفون تفاصيل دينهم على الحقيقة، فاستمروا يعبدون الله على ضلالة، ولا يبذلون الجهد لمعرفة، فوجبت عليهم الهجرة لطلب العلم أو استنفار مجموعة ليحققوا لهم ذلك لكنهم أبوا، وقد قال الله موجبا ذلك: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢)، كما قال ابن رسلان رحمه الله:

من لم يكن يعلم ذا فليسأل من لم يجد معلما فليرحل

وهذا الحكم ينتفي عندما يتمكن المرء من الحصول على العلم اللازم مطمئنا إلى صحته وهو في مكانه عبر التمثلا.

القانون الثالث: الأصل في الانتماء أن يكون إلى أرض العدل والسعة، وليس إلى

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٤).

أرض تحكمها الصلات النسبية، والقومية، والترابية. وبيصرنا بذلك قوله جلّ مجده: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧).

فالأرض المشار إليها هنا هي الأرض المشار إليها في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (الرحمن: ١٠) إنها الأرض التي وضعها الله جل في علاه للأنام.. جعلها لكم حيث تتمكنون من أن تقوموا بتبعات الاستخلاف بأن تحوزوا خيراتها، وتتحركوا في جنباتها ونواحيها وفق الميزان الذي أمركم الله به.. وفق أمره الذي أنزله عليكم، فإن ضيق عليكم لإقامة أمره في ناحية من هذه الأرض فقد جعلها لكم واسعة فامشوا في مناكبها، وهاجروا إلى نواح أخرى منها عسى أن تجدوا المراغم الكثير والسعة.

فهؤلاء الذين أضاعوا دينهم أصرّوا على الانتماء إلى الأرض التي عاشوا فيها على الرغم من أن أنظمتها لم تسمح لهم أن يعيشوا بمستوى من الكرامة الإنسانية والحرية الشخصية يُسمح لهم فيها بممارسة حياتهم الخاصة التي يطبقون بموجبها شعائر دينهم.. لماذا لم يهاجروا؟

إما لتقديسهم لتلك الأرض التي عاشوا فيها، وإما لمحبتهم لبعض المصالح التي يجدونها فيها، ويظهر من سياق الآية أن الهجرة كانت اختيارًا متاحًا لهم لكنهم أبوه، وآثروا البقاء المهين لدينهم على الهجرة، فاعتذروا عن ذلك بقولهم: ﴿مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ (النساء: ٩٧)، فردت عليهم الملائكة بحزم وعلم بأنهم يغالطون: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧)، فلماذا لم تهاجروا إلى ناحية أخرى منها، وقد جعلها الله واسعة، فهاجروا فيها، وحينها تبون لأنفسكم مجدًا لستم بباليغ في المكان الذي تم التضيق عليكم فيه.. لكنكم أبيتُم إلا تقديسًا للأرض، والأرض لا تقُدس أحدًا..

لقد جذب هذا الفهم المستقيم الصحابة عليهم السلام فتركوا مكة والمدينة مع أنهم لم يجدوا فيها تضييقاً لكنهم شعروا أن الإنسانية بحاجة إليهم في نواح أخرى من الأرض الواسعة، فهاجروا فيها.. كما حداهم ذلك إلى الهجرة إلى الحبشة من مكة التي وجدوا فيها تضييقاً، ورد عن يحيى بن سعيد أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان الفارسي أن هلم إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: إن الأرض لا تقدس أحداً!! وإنما يقدر الإنسان عمله، وقد بلغني أنك جعلت طبيباً تدأوي، فإن كنت تبرئ فنعم لك، وإن كنت متطيّباً فاحذر أن تقتل إنساناً، فتدخل النار. فكان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا عنه نظر إليهما وقال: ارجعا إلي أعيدا علي قصتكما متطبب والله ^(١).

ويبين عكرمة أن هذا الصنف من المستضعفين إنما يدعي الاستضعاف ادعاء، فيقول: نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبي العاص بن مُنَبِّه بن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف، قال: لما خرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب وعير قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه، وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم نخلة، خرجوا معهم شباب كارهين، كانوا قد أسلموا واجتمعوا ببدر على غير موعد، فقتلوا ببدر كفاراً، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين سميناهم ^(٢).

وما دامت المدافعة بين الحق والباطل، والعدل والظلم قائمة فإن الحاجة إلى الهجرة لا تنقطع، فقد قال عبد الله بن السعدي رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل»، فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو

(١) الموطأ - رواية يحيى الليثي (٢ / ٧٦٩).

(٢) الطبري (٩ / ١٠٥).

بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل»^(١).

وأنت تلاحظ أن الملائكة لم تقيد مكان الهجرة بكثرة المسلمين بل قيده بوجود السعة أي: في الدنيا والدين والأمن من الفتنة، وقد حكم الله على هؤلاء الذين ضيعوا دينهم وآثروا ملذات البقاء على الهجرة التي وجبت عليهم بقوله ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُم جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، واسم الإشارة الدال على البعد هنا ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ دال على البعد المعنوي والحقيقي ذمًا لا مدحًا أي: أولئك البعداء من اجتهدهم لأنفسهم ﴿مَأْوَهُم جَهَنَّمَ﴾، «وَيَكُونُ خَبْرٌ (إِنَّ) قَوْلُهُ: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُم جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ عَلَى أَنْ يَكُونَ دُخُولُ الْفَاءِ فِي الْخَبْرِ لِكَوْنِ اسْمٍ إِنَّ مَوْصُولًا فَإِنَّهُ يُعَامَلُ مُعَامَلَةَ أَسْمَاءِ الشُّرُوطِ كَثِيرًا، وَالْإِتْيَانُ بِالْفَاءِ هُنَا أَوْلَى لِطُولِ الْفَصْلِ بَيْنَ اسْمٍ (إِنَّ) وَخَبَرِهَا بِالمُقَاوَلَةِ، بِحَيْثُ صَارَ الْخَبْرُ كَالنَّيْجَةِ لِتِلْكَ الْمُقَاوَلَةِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا اسْمُ الْإِشَارَةِ»^(٢).

﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُم جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: فقبحًا لذلك المكان، فذلك في قبحه وسوئه أعظم من الأرض التي كانوا يريدون فيها نوعًا من النعمة والرغد، وأبوا أن يهاجروا فوقعوا في الكفر والظلم والفسوق والعصيان.

القانون الرابع: الهجرة واجبة عندما يصل ظلم المجتمع حولك إلى الحد الذي تضطر معه إلى أن تظلم نفسك. وَيُبَصِّرُنَا بِذلك التعبير المدهش: ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ كيف تظلم نفسك؟

(١) أحمد (١ / ١٩٢)، وحسنه الأرناؤوط.

(٢) التحرير والتنوير (٥ / ١٧٥).

يضيق عليك الخناق تمامًا فتظلم نفسك في المأكل وفي المشرب وفي المسكن..
ويضيق عليك الخناق فتظلم نفسك بالمعصية، والإثم، وربما بفعل الكبيرة، وربما
بالشرك، وكل ذلك يسمى ظلمًا شرعًا:

فهذه الآية المجيدة ترسم لك خطوات في التفكير الاستراتيجي تبنيها البصائر
القرآنية، ومن أهمها:

أولاً: الهدف من الوجود الإنساني:

الإيمان بالله، فباسمه تبدأ الحياة، والحياة التي انبثقت من العدم لا بد أن تحمده،
وتستعين بربوبيته وتربيته لعمارة العالمين وفق مراده فهو الله رب العالمين الرحمن
الرحيم مالك يوم الدين، وهذه العمارة وفق مراد الله هي حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولا
يمكن أن تتم إلا عبر إعانة الله ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولأن طبيعة الإنسان النقص
الدائم فقد احتاج إلى أن يهديه الله إلى القرارات الصائبة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾
وهذه القرارات الصائبة التي لجأ المرء فيها إلى الله عز ذكره واضحة معروفة
حتى لا تربكك الفتن ولا تتلاعب بك نزوات شياطين الإنس والجن الذين يوحى
بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا.. إن هذا القرارات الصغيرة والكبيرة التي
تسير على الصراط المستقيم يجب أن تكون وفق صراط الذين أنعم الله عليهم من
النبين والصديقين والشهداء والصالحين لا وفق صراط المغضوب عليهم من القتلة
والمجرمين والفجار، ولا وفق صراط الجهالة الضالين.

ثانيًا: هذا يقتضي وجود الأرض، والأصل أنها في أرض القوم الذين تمت النشأة
فيهم، لكن إذا تم التضييق فيها لدرجة أن يظلم الإنسان نفسه، فيجب عند ذلك البحث
عن ناحية أخرى من الأرض الواسعة.

ثالثًا: لا يشترط في الأرض الواسعة أن تكون مسلمة بل أن يجد المرء فيها قدرة على ألا يظلم نفسه، ثم يعمل على إصلاحها ما استطاع إما وفق النموذج الحبشي (نسبة إلى هجرة الصحابة إلى الحبشة)، وإما وفق النموذج اليوسفي (نسبة إلى يوسف عليه السلام)، وإما وفق النموذج المدني (نسبة إلى الهجرة النبوية) وما بعدها من مدن الشام والعراق وبقية البلدان.

القانون الخامس: لا تجب الهجرة على من لم يستطعها حقيقة لا ادعاء، وبصرنا الله بذلك في قوله: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ (النساء: ٩٨، ٩٩).

فذكر الله صنفين: المستضعفين ادعاء، والمستضعفين حقيقة، ومن علامات المستضعفين ادعاء عدم إلقاء السلم ومساعدة المعتدين، ومن علامة المستضعفين إلقاء السلم على سبيل الحقيقة لا الادعاء، ومن علاماتهم عدم مساعدة المعتدين، فيجدون لأجل ذلك اضطهادًا هائلًا، فيدخل فيهم كل مستضعف من الشيخ الكبير والعجوز والجواري الصغار والغلمان، والرجال الحيارى الذين لم يستطيعوا الهروب من بطش المجرمين، لكنهم لم يعينوهم في إجرامهم.

وقد جاء في سبب النزول ما يوضح الصنفين فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: كَانُوا قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ فَخَرَجُوا مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي قِتَالٍ، فَقَتَلُوا مَعَهُمْ فَتَرَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ ﴿٩٨﴾ (النساء: ٩٨-٩٩) فَعَذَرَ اللَّهُ أَهْلَ الْعُذْرِ مِنْهُمْ، وَأَهْلَكَ مَنْ لَا عُذْرَ لَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ ^(١).

ويبين أبو هريرة رضي الله عنه بعضًا من هؤلاء المستضعفين الذين كانوا تحت وطأة

(١) المعجم الكبير للطبراني (٩ / ٤٦٩).

الاضطهاد الوثني القرشي؛ إذ يحكي أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان حينَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ يَقُولُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ يَدْعُو لِرِجَالٍ فَيَسْمِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَيَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رِبِيعَةَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ وَأَهْلُ الْمَشْرِقِ يَوْمَئِذٍ مِنْ مُضَرٍّ مُخَالِفُونَ لَهُ (١).

وبذا يتضح لنا أن المستضعف هو الذي منع من حريته في الحركة والسفر من بلده وربما في بلده، ولو مُنِحَ جزءاً من حريته في الهجرة لسافر أو خرج، وقد ذكر الله تعالى شأنه هؤلاء في آيةٍ سابقةٍ من سورة النساء عندما قال الله جل ذكره: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥) كأنهم يقولون: لو استطعنا أن نخرج لخرجنا.. لو مُنِحنا أدنى درجات الحرية لهاجرنا.. فقد وصل بهم الاستضعاف وشدة التعذيب والاضطهاد والحصار إلى عدم قدرتهم على الهجرة أو السفر.. وانظر الواقع المعاصر حيث يمنع المرء من السفر بمجرد حجب الأوراق أو إحاطة الحدود بالأسوار والأسلاك الشائكة والحراسات التي لا تملك أدنى معايير الإنسانية أمام المستضعفين والمضطهدين.

وتلاحظ في الآية تفصيلاً للمستضعفين، فقد ذكر الله أنواع المستضعفين؛ إذ يمكن أن يكونوا من الرجال والنساء والأطفال.. لا بد أن نفكر في ذلك، فكلمة مستضعفين تكفي.. فلماذا هذا التفصيل مع أن القرآن مبناه على الإيجاز، فما سبب هذا الإطناب؟

هنا فصل وأطنب جل جلاله من أجل ألا يقع الإنسان في حيرة، ويقول أنا لست مستضعفاً.. أنا رجل.. فكيف أكون مستضعفاً؟ فقد يصل القهر حدًا يعجز معه الرجال،

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٢٠٣) رقم ٨٠٤.

ويعجز معه النساء والولدان.. وستقول: فضعف النساء والولدان ظاهر.. أقول لك: الآية تصور بعمق شديد المقدار المذهل من الاستضعاف الذي يتعرض له هؤلاء المظلومون.. إن الرجال كما وصفت لك لم ينفعهم ذكاؤهم ولا قدرتهم العلمية ولا العملية.. لكن الأعراف الجاهلية الأولى درجت على عدم التعرض للنساء والأطفال في الغالب، وأراد الله أن يبين أن الاضطهاد للمستضعفين ربما وصل في الجاهلية الأولى والأخرى حدًا لا يجد معه حتى النساء والولدان أدنى حقوقهم الإنسانية.. ويتعرضون لظلمٍ بشع.. وانظر كيف تهدر أدنى الحقوق الإنسانية للأطفال والنساء من قبل الأنظمة المتوحشة في هذه الأيام، والله المستعان، حتى يصل الأمر أن تؤخذ الأم العجوز للضغط على ابنها اللاجئ في دولة أخرى، وتسام العجوز سوء العذاب.. وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

وقد شدد الله في ضرورة الهجرة في هذه الحال المؤلمة حيث ترى أن الله ذكر الولدان.. فلم ذكر الولدان مع أنهم غير مكلفين؟

وفي الجواب على ذلك يمكن أن نحتمل أنه ذكرهم إما لبيان العذر لأبائهم الذين قد يتمكنون من الهجرة لكنهم لم يستطيعوا بسبب أطفالهم، وإما لأن المراد التشريب على الولدان، أي: الفتيان الذين يستطيعون الهجرة فأثروا البقاء مع آبائهم، وفوتوا الفرصة حينما واتت، وهم - وإن لم يكلفوا - لكنهم في مرحلة عقلية تفهم التبعات الحاضرة والمستقبلية بناء على ذلك القرار.

وعد بنا إلى الوصف العجيب في الآية حيث يقول تعالى شأنه: قال تعالى ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٨) هنا تجد الله وصف أمرين:

الأمر الأول: أنهم لا يستطيعون حيلة، والأمر الثاني: أنهم لا يهتدون سبيلًا،

وكلا الأمرين تفسيراً واضح للاستضعاف، وبيان لأهم متعلقات الاستضعاف، فتقدير الآية: إلا المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة، فالعلامة الأولى من علامات الاستضعاف: أنهم لا يستطيعون حيلة، أي: أنهم لا يجدون وسيلة يتمكنون بها من الهجرة، إما لأنهم في السجن، وإما لأنهم لا يجدون الوثائق الخاصة من أجل الانتقال إلى المكان الذي قد يجدون فيه عيشاً أكرم، وإما لا يستطيعون أن يجدوا طريقة لأجل إقناع من يمكن أن يقتنع من هذه الجهات المسؤولة في البلد المهاجر منه أو في البلد المهاجر إليه، فلا يستطيعون حيلة، أي: إيجاد طريقة تخفف عنهم شيئاً من استضعافهم، كي يعبدوا ربهم كما أمرهم أن يعبدوه، والاحتياال يراد به البحث عن وسيلة لعلاج أزمة ناشبة، ولذا قالوا: الحاجة تفتق الحيلة، وهؤلاء غلقت عليهم أبواب الحيل لحل أزمتهم أو التخفيف منها، والله المستعان.

والعلامة الثانية من علامات الاستضعاف: أنهم لا يهتدون سبيلاً، أي: لا يجدون طريقاً يهتدون إليه للهجرة ليتم تفريج كربهم، وقد يكون الفرق بين العلامتين أن الأولى تتعلق باحتيالههم لأنفسهم، والثانية تتعلق بهداية نازلة يتمكنون خلالها من إيجاد طريقة للهجرة من الأرض الظالم أهلها، فالنبي ﷺ عندما هاجر أخذ هادياً خريئاً خبيراً من المشركين من أجل أن يدلّه على الطريق، فهنا وجد الهادي للسبيل، فإذا لم يجد الإنسان الهادي للطريق وقد يعلم الإنسان أنه قد يموت في طريقه أو قد يهلك بما يكون حاله أسوأ مما هو عليه قبل أن يهاجر، فمن هذه حاله يكون مستضعفاً، ويعذر بعدم الهجرة. وقد قال الله عن هؤلاء المستضعفين حقيقة لا إدعاء ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: ٩٩).

لماذا قال عسى؟ ولم يقل فأولئك عفا الله عنهم مع أنه وضح أنهم مستضعفون؟

السبب يذكره المفسرون رحمهم الله فيقولون: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة، أي: أن

الله سيعفو عنهم، وهكذا يقولون أن عسى من الله متحققة، فإن تأملت في هذا القول وجدته نوعاً من سلب اللفظ لما يدل عليه، وعسى معلومٌ أن المقصود بها الترجي والإطماع، فتبقى على معناها لتدل على الإطماع في العفو، وليس على تحقق العفو.

ولكن السؤال باق: فما سبب الإطماع دون تحقيق العفو؟

الجواب: حتى لا يأتي أحدٌ فيقول: أنا مازلت مستضعفاً، فإذا علم أنه قد يستطيع حيلة ولكنه لم يبذل جميع جهده من أجل إيجاد حيلة أو سبيل للهجرة، ففي هذه الحالة ينبغي أن يحذر؛ إذ إن ربه تعالى ذكره قال: ﴿عَسَىٰ﴾ ولم يقل: عفا الله عنهم، وذلك ليحثه حثاً عظيماً على أن يبذل كل جهده من أجل البحث عن سبيل للهجرة؛ فإذا كان الذي لا يستطيع حيلة عسى أن يُعفى عنه دون ذكرٍ لتحقيق ذلك على سبيل الجزم، فكيف الذي يستطيع أن يهاجر ولا يجتهد في تحقيق ذلك.

والإنسان يأمل من كرم الله تعالى ما هو أوسع من كرم العباد، ولكنه ينبغي أيضاً أن يراقب نفسه هل: حقاً يستطيع الهجرة ولكنه حاول أن يتلاعب في هذا الموضوع.. إذن: فقد لا يدخل في ساحة العفو.

ولكن هذه الجملة تثير سؤالاً آخر: إذا كانوا عاجزين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فلم قال: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ ولم يقل فأولئك سيكتب الله أجراً لهم، بل ذكر العفو عنهم، والعفو إنما يتصور مع وجود ذنب؟ لحثهم على بذل كل جهد يمكنهم بذله ليهاجروا، ولاختلاف مقدار المشقة من شخص إلى آخر منهم، فذكر العفو تخويفاً لمن قدر منهم حيناً من الدهر على الهجرة ثم قصر، «وَلَا سِيِّمًا فِي الْهِجْرَةِ عَنِ الْوَطَنِ فَإِنَّهَا شَاقَّةٌ عَلَى النَّفْسِ، وَبِسَبَبِ شِدَّةِ النَّفْرِ قَدْ يَظُنُّ الْإِنْسَانُ كَوْنَهُ عَاجِزًا مَعَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، فَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَى الْعَفْوِ شَدِيدَةً فِي هَذَا

المَقَام»^(١)، وهو السبب ذاته الذي من أجله ذكرت كلمة ﴿عَسَى﴾ ولم يقل: فأولئك عفا الله عنهم، فأطمعهم بالعفو، ولم يجزم به لأن عسى تعني أَنَّ الله تعالى يُعِدُّهُمْ وَيَهَيِّئُهُمْ لِعَفْوِهِ، فعفوه عزيز المنال، وليبين أن: «تَرَكَ الْهَجْرَةَ أَمْرٌ مُضَيِّقٌ لَا تَوْسِعَةَ فِيهِ، حَتَّى أَنْ الْمُضْطَرَّ الْبَيِّنَ الْإِضْطِرَارِ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَقُولَ: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنِّي، فَكَيْفَ الْحَالُ فِي غَيْرِهِ»^(٢) كما قال الرازي رحمه الله، وذلك لئتم الاجتهاد في البحث عن طريق للهجرة ولو باستعمال دَقَائِقِ الْحِيلِ، وَالبَحْثِ عَنْ مَصَائِقِ السُّبُلِ، حَتَّى لَا يُخْدَعَ مُحِبٌّ وَطَنِهِ بِنَفْسِهِ وَيَعُدُّ مَا لَيْسَ بِمَانِعٍ مَانِعًا^(٣).

ويبين لنا عبد الرحمن بن زيد تفصيلاً يتعلق بهذين الصنفين من المستضعفين عندما سأله ابن وهب عن هذه الآيات فقال: لما بعث النبي ﷺ وظهر، وَبَعَّ الْإِيمَانَ، نَبَعَ التَّفَاقُ مَعَهُ، فَأَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجَالٌ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْلَا أَنَا نَخَافُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ يُعَذِّبُونَنَا، وَيَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ، لَأَسْلَمْنَا، وَلَكِنَّا نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْكَ رَسُولَ اللَّهِ. فَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لَهُ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، قَامَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالُوا: لَا يَتَخَلَّفُ عَنَا أَحَدٌ إِلَّا هَدَمْنَا دَارَهُ وَاسْتَبَحْنَا مَالَهُ! فَخَرَجَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ الْقَوْلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَعَهُمْ، فَقَتَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ وَأُسِرَتْ طَائِفَةٌ. قَالَ: فَأَمَّا الَّذِينَ قَتَلُوا، فَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِبِينَ أَنفُسُهُمْ فَآلَوْا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾، وَتَرَكُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَضْعِفُونَكُمْ ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. قَالَ: ثُمَّ عَذَرَ اللَّهُ أَهْلَ الصَّدَقِ فَقَالَ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، يَتَوَجَّهُونَ لَهُ، لَوْ خَرَجُوا لَهَلَكُوا ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ﴾، إِقَامَتُهُمْ بَيْنَ ظَهْرِي الْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ

(١) تفسير الرازي (١١ / ١٩٧).

(٢) تفسير الرازي (١١ / ١٩٧).

(٣) وانظر: تفسير المنار (٥ / ٢٩٢).

أسروا: يا رسول الله، إنك تعلم أنا كنا نأتيك فنشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، وأن هؤلاء القوم خرجنا معهم خوفاً! فقال الله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، كما حصل مع العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، صنيعكم الذي صنعتم بخروجكم مع المشركين على النبي ﷺ ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ خرجوا مع المشركين ﴿فَأَمَّا مَنِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال: ٧٠، ٧١) ^(١).

القانون السادس: الهجرة الصادقة إلى دار العدل والسلم، تورث الكرامة، وتحقق التفوق للمهاجر إن اتبع السنن الكونية والشرعية، ولن يضيعه الله جل جلاله، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء: ١٠٠).

فالهجرة في سبيل الله تحقق له: المراغم الكثير. أي: موضع للمراغمة يتوجع أعداؤه من وصوله إليه، ويرغم أنوفهم بسبب ما يحصل له من التمكين فيه، وتحقق له الهجرة السعة في الحركة والعيش، فلا ينبغي الغلو في التعلق بالأرض التي ولد فيها تعلق العابد بمعبوده، فوطنه حيث يجد كرامته.

هذه الآية تصلح العوج الكبير في أفهامنا وحياتنا، وكما ترى فإن فهمها يكمن في شعورنا بصلتها بالآيات السابقة، فالهجرة تدل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يتعلق بالأرض التي ولد فيها تعلق العابد بمعبوده، بل وطنه حيث وجد كرامته، فإن كانت هجرته فراراً بكرامته لأجل أن يجد مكاناً يجد فيه حريته في أن يعبد الله فيه، فبشراه بما سيجد من المراغم الكثير والسعة في الدنيا والدين.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١٠٨).

وكما ترى فإن الشرط أن تكون هجرته هذه في سبيل الله ناجياً بنفسه طالباً أرضاً يجد فيها راحته وكرامته، حيث يعبد الله حق عبادته، والهجرة التي تكون إلى الله ورسوله كل هجرة لغرض ديني كحفظ دينه، أو حماية لحرماته، أو طلب علم، أو حج، أو تكون فراراً إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة أو زهداً في الدنيا، أو ابتغاء رزق طيب.

ولشدة حب الناس لأوطانهم أراد الله أن يبين لهم أن الوطن الحقيقي هو الذي يجد الإنسان فيه كرامته وحرية في عبادته لربه، وهذا بخلاف الغلاة الذين يجعلون التراب مقدماً على عبادة الله عز وجل.

قال أحمد محرم رحمه الله عن بلده:

فإن يسألوا ما حب مصر فإنه	دمي وفؤادي والجوانح والصدر
أخاف وأرجو، وهي جهد مخافتي	ومرمى رجائي، لا خفاء ولا نكر
هي العيش والموت المبعّض والغنى	لأبنائها والفقر والأمن والذعر
هي القدر الجاري هي السخط والرضى	هي الدين والدنيا هي الناس والدهر
بذلك آمناء، فيا من يلومنا	لنا في الهوى إيماننا ولك الكفر !!

وقال أحمد شوقي رحمه الله:

ويا وطني لقيتك بعد يأس	كأنني قد لقيت بك الشبابا
وكل مسافر سيئوب يوماً	إذا رُزق السلامة والإيابا
ولو أني دُعيت لكنت ديني	عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهي	إذا فُهِت الشهادة والمتابا !!

فإن هاجر في سبيل فسيجد أمرين فقد هما في بلده الأول هما: المراغم الكثير والسعة، فأما المراغم فهو المضطرب في البلاد والمذهب، أي: يجد في الهجرة مهرباً يلجأ إليه، ومذهباً يستقر فيه، وموضعاً للمراغمة يتوجع أعداؤه من وصوله

إليه، ويرغم أنوفهم بسبب ما يحصل له من التمكن فيه والرفق وحسن الحال فيه من راغم فلان قومه مراغمًا ومُراغمة، ومنه قول النابغة الجعدي:

كَطَوْدٍ يَلَاذُ بِأَرْكَانِهِ عَزِيزِ الْمُرَاغِمِ وَالْمَهْرَبِ^(١)

فبداية المراغم أن يتحول من أرض إلى أرض كما ورد عن ابن عباس قال: المراغم، التحول من الأرض إلى الأرض^(٢)، ووصفه بالكثير أي: لا ينبغي له أن يضيق على نفسه فيحسب أنه لا يمكن أن يحقق مآربه إلا في بلده الأم، ولذا وصف المراغم بالكثير.. أي: سيجد بدائل كثيرة، فلا يظن أن الدنيا ستزول إن هو خرج من بلده، وبعد ذلك سيجد من السعة في أرضه الجديدة في حركته ورزقه.. سيجد سعة في الدين والدنيا.. سيجد وضعًا حيويًا جديدًا عظيمًا يراغم به أعداءه وحاسديه، ولذا يُقال: رَاغَمْتُ الرَّجُلَ إِذَا فَعَلْتَ مَا يَكْرَهُهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الرَّغَامِ -بفتح الراء- وَهُوَ التُّرَابُ، وَالرَّغْمُ وَالرَّغْمُ وَالرُّغْمُ وَالْمَرْغَمَةُ الْمَذَلَّةُ وَالْهَوَانُ وَالْكَرَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُهُ لَصَقَ بِالرَّغَامِ، أَي: بِالتُّرَابِ وَذَلَّ وَوَصَلَ إِلَيْهِ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَنْفَ عُضْوٌ فِي غَايَةِ الْعِزَّةِ وَالتُّرَابُ فِي غَايَةِ الذَّلَّةِ، فَجَعَلُوا قَوْلَهُمْ: رَغِمَ أَنْفُهُ كِنَايَةً عَنِ الذَّلَّةِ، أَوْ هُوَ مِنْ رَاغِمٍ غَيْرِهِ إِذَا غَلَبَهُ وَقَهَرَهُ بِأَنْ أَبْقَاهُ عَلَى الرِّغَامِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ يَجِدْ فِي أَرْضِ ذَلِكَ الْبَلَدِ مِنَ الْخَيْرِ وَالنِّعْمَةِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِيُرْغَمَ فِيهِ أَنْوْفٌ مَنْ أَرْغَمَهُ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْخُرُوجِ، فَيَغْلِبُهُمْ بِاسْتِقْلَالِهِ عَنْهُمْ، وَاعْتَرَاظَهُ كَمَا أَرْغَمُوهُ بِإِكْرَاهِهِ عَلَى الْكُفْرِ.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ وَعَلَةَ الذُّهْلِيُّ:

لَا تَأْمَنَنَّ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُمْ بِالشِّتْمِ وَالرَّغِمِ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١١٢).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١١٩).

إِنْ يَأْبُرُوا نَحْلًا لِّغَيْرِهِمْ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي
أَيُّ أَنْ يَكُونُوا عَوْنًا لِلْعَدُوِّ عَلَى قَوْمِهِمْ.

كَأَنَّهُ قِيلَ: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كُنْتَ إِنَّمَا تَكْرَهُ الْهَجْرَةَ عَنْ وَطْنِكَ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَقَعَ فِي الْمَشَقَّةِ وَالْمِحْنَةِ فِي السَّفَرِ، فَلَا تَخَفْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِيكَ مِنَ النِّعَمِ الْجَلِيلَةِ وَالْمَرَاتِبِ الْعَظِيمَةِ فِي مُهَاجَرَتِكَ مَا يَصِيرُ سَبَبًا لِرَغْمِ أُنُوفِ أَعْدَائِكَ، وَيَكُونُ سَبَبًا لِسَعَةِ عَيْشِكَ^(١)، وَإِنَّمَا قَدَّمَ فِي الْآيَةِ ذِكْرَ رَغْمِ الْأَعْدَاءِ عَلَى ذِكْرِ سَعَةِ الْعَيْشِ لِأَنَّ لَذَّةَ الرُّوحِ وَسَعَادَةَ النَّفْسِ بِاعْتِرَازِهِ أَمَامَ أَعْدَائِهِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِهِ مِنْ كُلِّ سَعَةِ مَادِيَّةٍ، فَإِنْ أَعْدَاءُهُ وَحَاسِدِيهِ فِي بَلَدِهِ الْأَوَّلِ قَدْ ضَيَّقُوا عَلَيْهِ، وَعَرَضُوا لَهُ لِلْمَهَانَةِ وَالْعَذَابِ، وَمَنْعُوهُ إِقَامَةَ دِينِهِ، وَإِظْهَارَ الْكِرَامَةِ بِحَرِيَّتِهِ، فَيَصِيبُ هَذَا الْمُهَاجِرَ الْحَزِينَ الْخَائِفَ مِنَ الْعِزَّةِ مَا تَبْتَهَجُ بِهِ نَفْسُهُ، وَيَنْسِيهِ شِدَّةُ ظُلْمِهِمْ عَلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ اعْتِرَازُ الْمُؤْمِنِينَ وَفَرَحُهُمْ بِالنِّعَمِ الَّذِي آلَا إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ مِمَّا صَوَّرَهُ لَنَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى جَدَهُ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين: ٣٤) فالذين أُجْرِمُوا كَانُوا يَضْحَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا.. سَتَسْقُطُ أُنُوفُهُمْ فِي الرِّغَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ إِذْ سَيَضْحَكُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ.

القانون السابع: المهاجر في سبيل الله لا يخلو من أحد مستقبلين:

المستقبل الأول: أن يبقى على قيد الحياة، فيجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة، وذكر الله ذلك في قوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء: ١٠٠) أي: ومن تَمَّتْ هَجْرَتُهُ.

المستقبل الثاني: أن يموت في الطريق، فلا تتم هجرته، وعندها فليطمئن إذ ستقر عينه بالأجر الأخروي إن فات المطلب الدنيوي، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى

(١) تفسير الرازي (١١ / ١٩٨)، والتحرير والتنوير (٥ / ١٨٠).

اللَّهُ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿النساء: ١٠٠﴾.

ذكر الله خروج المرء ﴿مِنْ بَيْتِهِ﴾.. لماذا الإطباب وذكر البيت هنا؟ إنه يريدك أن تشعر بالآلام وهو يترك بيته.. ذكر البيت هنا مقصود، لأن الإنسان يتقطع قلبه عندما يترك ملكاً بذل كل ماله لشرائه أو تشييده، أو ربما ألفه وسكنت نفسه إليه، وتقلب بين ربواته، وفلواته، ولغباره أحب إليه من خضر البساتين، ونور الرياحين.. فيتركه، وهو يعلم بأنه إذا هاجر أو وصل إلى مكان هجرته فإن أعداءه قد يصادرون داره أو يهدمونها.. حاله كما قال المتنبي غفر الله له:

أَقْلَّ اشْتِياقًا أَيَّهَا الْقَلْبُ رُبَّمَا رَأَيْتَكَ تُصْنِي الْوُدَّ مِنْ لَيْسَ صَافِيَا
خُلِقْتُ الْوَفَا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَى لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِيًا
لقد تحمل هذا المهاجر تلك الآلام، فخرج وربما مات بعد ميل أو ميلين من خروجه.. فيشره ربه فيقول: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (النساء: ١٠٠). ولم يقل عسى أن يقع أجره على الله، بل أوجب له الأجر.

وقيد الله الهجرة هنا بأنها في سبيل الله لتجديد النية، ولتحديد الهدف من الهجرة، فهي ليست مجرد سياحة ولا تغيير جو، بل إن المهاجر يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، وذكر الله هنا اسم الرسول ﷺ لأنه ﷺ شكل عاصمة للعدل في المدينة النبوية، فذكر اسم الرسول ﷺ زيادة في الإثارة للهجرة، فكأنه يقول إذا كان الرسول ﷺ قد ترك بلده فلماذا لا تفعل أنت؟ فهذا نوعٌ من الحث والتحريض، وكذلك فإن خروج المرء من بلد الظلم إلى بلد أقرب إلى العدل كأنه خروج إلى النبي ﷺ، ولذا قال ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ»^(١).

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ أي: كان شأنه الثابت الأزلي المغفرة

لهؤلاء المهاجرين مما وقع من تأخرهم في هجرتهم، أو تقصير عرض فيها أو قبلها، وكان شأنه الثابت الأزلي ﴿رَحِيمًا﴾ بهم بأن يغدق عليهم الخيرات كما كفر عنهم السيئات، ويوضح النبي ﷺ عظم أجر من عزم على طاعة فمات في طريقه إليها فيقول: «من خرج حاجًا فمات كتب الله له أجر الحاج إلى يوم القيامة ومن خرج معتمرًا فمات كتب الله له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ومن خرج غازيًا في سبيل الله فمات كتب الله له أجر الغازي إلى يوم القيامة»^(١).

ويذكر لنا قتادة بن دعامة بعض من عمل بهذه الآية زمن النبي ﷺ فقال: لما أنزل الله هؤلاء الآيات، ورجل من المؤمنين يقال له: «ضمرة» بمكة، قال: (والله إن لي من المال ما يُبلِّغني المدينة وأبعدَ منها، وإنِّي لأهتدي! أخرجوني)، وهو مريض حينئذ، فلما جاوز الحرم قبضه الله فمات، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ﴾^(٢)، الآية.

ومن القصص التي ذكر أنها وقعت مما يتعلق بهذه الآية ما رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير قال: بلغ أکثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ، فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه، وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأت من يبلغه عني، ويبلغني عنه، فانتدب رجلان، فأتيا النبي ﷺ فقالوا: نحن رسل أکثم بن صيفي، وهو يسألك من أنت؟ وما جئت به؟ قال النبي ﷺ: «أما من أنا، فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله»، قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، قالوا: اردد

(١) مسند أبي يعلى محقق (١١ / ٢٣٨).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١١٥).

علينا هذا القول، فردده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم، فقال: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب، واسطًا في مضر، وقد رمى إلينا بكلمات قد حفظناها، فلما سمعهن أكثم قال: أي قوم، أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مكارهها، فكونوا في هذا الأمر رؤساء، ولا تكونوا فيه أذنبًا، وكونوا فيه أولًا، ولا تكونوا فيه آخرًا، فلم يلبث أن حضرته الوفاة^(١).

والآية تدل على تثبيت المصالح الأخروية وضرورة استحضارها عند حساب المصالح والمفاسد.

وهذه الجملة ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ﴾ تلفت نظرنا إلى مسألة فقهية تتعلق بالنقطة التي يصبح فيها المسافر مسافرًا.. هل ذلك بمغادرة البنيان أم بمجرد الخروج من البيت، ولعلك تجد في الآية إشعارًا بأن الإنسان بمجرد مغادرته لبيته يكون مسافرًا إذا نوى السفر، ولو لم يغادر البنيان، وهذا الرأي يمكن أن يقال به، وينصر في الظروف الحالية لأن الأمر اختلف في موضوع مغادرة البنيان عما كان عليه سابقًا، فالبنيان كان محدودًا ومحصورًا، أما البنيان الآن فقد اتسع تمامًا؛ إذ قد يكون بين بيت المسافر وبين انتهاء البنيان مائة ميل.



(١) معرفة الصحابة (٣ / ٢٨٥).

القسم الثامن

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام
العالمي: الصلاة من أهم الدعائم الأمنية وهي أهم مقومات
البث الإنساني، والعبودية الصادقة، والجمع بينها وبين
سياسة أخذ الحذر (النساء: ١٠١-١٠٤)

آيات هذا القسم:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا أَعْدَاؤُكُمْ مُبِينًا ۝١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝١٠٢﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ (النساء: ١٠١-١٠٤).

المناسبة الاتصال:

بعد أن بين الله في القسم الثامن أن من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلى أرض تحفظ فيها الكرامة

الإنسانية وفق النظام الإلهي ربما اعترى بعضهم سؤال حول سقوط الصلاة عنهم، وهم في حالة الهجرة التي تتضمن الخوف والكرب الشديد، ومثل ذلك الكلام عن حالة المواجهة العسكرية مع العدو المتربص، فهل تسقط الصلاة أم تثبت بكامل صفتها في ظل هذه الحالات الطارئة؟ جاء هذا القسم تبياناً لواجب المحافظة على الصلاة مهما كانت تغيرات الحياة، فالصلاة لا تسقط مهما كانت الحالات الطارئة كما في حالة استراتيجية أخذ الحذر، وحالة الهجرة، ولكنها تخفف لتناسب إقامتها مع الحالة العارضة التي يمر بها الإنسان.. الصلاة روح الإنسان.. ويجد المصلون المقبلون على ربهم اللذة الفائقة في مناجاتهم الخاشعة، والله تعالى ذكره يعلمنا هنا الجمع بين الحالات الحيوية الطارئة وبين الصلاة، فلا يُلغى أحدهما الآخر.

فانظر لجمال التكامل والتناسق بين الأحكام الشرعية، وانظر لروعة التنظيم في قوانين الشريعة، فتبصرنا هذه الآيات بمجموعة ذات بريقٍ خاصٍ من البصائر القانونية، فلتنفياً ظلالها، ولندخل محرابها:

القانون الأول: يجب القيام بالواجبات الأمنية، والعسكرية، ليتم التعامل المناسب مع الوحوش البشرية التي تحاول الاعتداء على الأمنين في صلاتهم، فيتحقق الأمن، ويُزال الخوف من الفتنة التي يسببها العدو المبين.

ولذا يجوز قصر الصلاة بشرطين: الشرط الأول: أن يكون ذلك حال الضرب في الأرض، أي: في السفر، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ (النساء: ١٠١).

فَالضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ عِبَارَةٌ عَنِ السَّفَرِ فِيهَا؛ لَأَن السَّفَرِ يَسْتَلْزِمُ الْحَرَكَةَ الْمُتَابِعَةَ بِالْقَدَمَيْنِ وَمَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ لِقَطْعِ الْمَسَافَةِ، فَيُضْرَبُ الْأَرْضُ بِرَجْلَيْهِ أَوْ بِقَوَائِمِ رَاكِحَتَيْهِ، وَعَجَلَاتُ مَوَاصِلَاتِهِ، وَأَدَوَاتُ رَحَلَتِهِ، وَالضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ هُنَا يَدُلُّ عَلَى السَّفَرِ

حسب العرف المصاحب لنزول الآيات، كَمَا يُقَالُ: طَرَقَ الْأَرْضَ إِذَا مَرَّ بِهَا، كَأَنَّهُ ضَرَبَهَا بِالْمِطْرَقَةِ، وَقَالَ هَاهُنَا: ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ، وَلَمْ يُقَلَّ ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ (٩٤) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الْوَارِدَةِ فِي حُكْمِ إِلْقَاءِ السَّلْمِ فِي الْحَرْبِ؛ ليشمل جميع حالات الضرب في الأرض، لِأَنَّ هَذِهِ أَعَمُّ، فَهِيَ رُخْصَةٌ لِكُلِّ مُسَافِرٍ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ سَفَرُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَنْ كَانَ لِلتَّجَارَةِ أَوْ لِمُجَرَّدِ السَّيَاحَةِ (١)

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، مِنْ الْجَنَاحِ بِالْكَسْرِ بِمَعْنَى: الْجَانِبِ، واشتقاقه - فيما ذكروا - مِنْ جَنَحَتِ السَّفِينَةُ إِذَا مَالَتْ إِلَى أَحَدِ جَانِبَيْهَا أَوْ بَلَغَتْ أَرْضًا رَقِيقَةً تَغْرُزُ فِيهَا وَيُمْتَنِعُ جَرِيهَا، وَهَذَا الْمَعْنَى يُنَاسِبُ الْجُنَاحَ أَيْضًا وَمَنْ فَسَرَ الْجُنَاحَ بِالتَّضْيِيقِ أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِمْ جُنِحَ الْبَعِيرُ بِصِغَةِ الْمَجْهُولِ إِذَا انْكَسَرَتْ جَوَانِحُهُ - أَضْلَاعُهُ - لِثِقَلِ حِمْلِهِ، وَتَفْسِيرُهُ بِالْإِثْمِ مَاخُذٌ مِنْ هَذَا أَيْضًا وَهُوَ مَجَازٌ، فالمراد ليس عليكم إثمٌ في ميلٍ عن الصراط المستقيم أن تقصروا من الصلاة.

وأما قوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ فهو من الْقَصْرِ - بِالْفَتْحِ - واشتقاقه مِنْ الْقِصْرِ - كَعَنْبٍ - ضِدُّ الطُّولِ، وَقَصَّرْتُ الشَّيْءَ جَعَلْتُهُ قَصِيرًا.

فَالْقَصْرُ مِنَ الصَّلَاةِ هُوَ تَرْكُ شَيْءٍ مِنْهَا تَكُونُ بِهِ قَصِيرَةً، وَيَصْدُقُ ذَلِكَ بِتَرْكِ بَعْضِ رَكَعَاتِهَا، وَبِتَرْكِ بَعْضِ أَرْكَانِهَا كَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْجُلُوسِ لِلتَّشَهُدِ، فهو قصر للكيفية وقصر للأركان.

ونفي الجناح يدل على أنه يجوز لهم أن يقصروا إن أرادوا، وأن يتموا إن أرادوا حسب البيان النبوي، وحسب عمل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقد قال بعض العلماء بوجوب قصر الصلاة، ولكن هذا الفهم لا تساعد عليه الآية، وإنما أخذوا ذلك من أدلة أخرى، ولكنهم يقولون: الآية لا تساعد على قولنا، ولكننا قد وجدنا

(١) تفسير المنار (٥ / ٢٩٧).

شيئاً يدل على الإيجاب ويستخدم فيه التعبير بنفي الجناح.. أين هذا؟

إنه في قوله -تعالى مجده-: ﴿فَمَنْ حَاجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨) مع أن الطواف بين الصفا والمروة من الأركان.. إلا أنك ترى أن التعبير بنفي الجناح واضح في عدم مساعدته على تقرير الوجوب، بل يفهم ذلك من أدلة خارجية.

وقصر الصلاة لأجل الضرب في الأرض يُظهر لك مراعاة الشريعة للمصالح البشرية.. فإذا طرأت المشقة على الحياة البشرية المعتادة تجد تعديلاً للنظام العبادي المعتاد لأجل تحقيق المصلحة البشرية، ولكن ليس ذلك وفق الأهواء والرغبات بل تجد في الشريعة الإجابات.. فالتعديل وفق ما أراده الله منها؛ إذ لا تستطيع البشرية أن تحيط علماً بما تحتاجه، كما قال عزَّ جاره: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

ولكن الله برحمته يساوي في الأجر بين قصر الصلاة وإتمامها حال العذر، فإذا قصر من الصلاة لأجل الضرب في الأرض وكان هذا العذر واضحاً، فإن الله يكتب له الصلاة كاملة.. تخيل هذه الرحمة الغامرة فهو سبحانه قد فرض عليه نظاماً ينظم حياته، ثم عدل في هذا النظام بما يتوافق مع حالاته المختلفة إذا سافر أو مرض، وأجره في ذلك لا ينقص، أعطاه في ذلك الأدوات من أجل أن يقوم بتطبيق هذا النظام، إذ السفر يسبب انشغالاً جسدياً، ونفسياً، ويشغل المرء مؤقتاً، وكان من المزايا التشريعية العظيمة أن يخفف الله بسببه عن المسافر التكاليف الذاتية التي تقيم حياته، ويبارك له في النزر اليسير الذي يقدمه منها في السفر فكأنه أداها كاملة، ولذا قال النبي ﷺ: «إِذَا مَرَّ رَجُلٌ بِالْعَبْدِ، أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا» (١).

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٧٠) رقم ٢٩٩٦.

القانون الثاني: الشرط الثاني لقصر الصلاة: وأن يكون هناك خوف من فتنة عدو متربص. وَيُبَصِّرُنَا بِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

فارتبط القصر بسياسة أخذ الحذر؛ لأن مقتضيات هذه السياسة تلزم الأمة بأن تجعل عيونها الساهرة حافظة لأمنها لا غافلة، حارسة لمجدها لا نائمة، ولذا خفف الله عن الأمة من التكاليف الذاتية، والمراد بفتنة الذين كفروا أن يهاجموهم فجأة وقت انشغالهم بالصلاة سواء أكانوا قياماً أم ركوعاً أم سجوداً فإن الأصل في المسلم أن يقبل على صلاته إقبال الظامئ المحب، فيخشع فيها، ويحاول مد الصلة الروحية من خلالها، ويشعر بطيران قلبه وهو يرتشف رحيقها.. ولكن ذلك قد يسكره عن رؤية العدو الفاتن المجرم.

وكلمة ﴿خِفْتُمْ﴾ تدل على المعنيين اللذين قررناهما في قوله جل جلاله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ (النساء: ٣٥)؛ إذ ورد هذا الاستعمال ضمن المبتكرات القرآنية، فيكون المعنى: إن ظننتم أي توقعتم أن يفتنكم الذين كفروا، أو إن علمتم، يدل على جواز القصر بمجرد الظن لا أن ينتظر إلى أن تقع الفتنة، ومن باب أولى أن يقصر عند وقوع الفتنة، وبذا نحمل ما ورد من قراءة تفسيرية لأبي بن كعب في هذه الآية، فعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه، عن أبي بن كعب، أنه كان يقرأ: ﴿أَنْ نَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولا يقرأ: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾^(١).

ويراد بفتنة الذين كفروا أن يوقعوكم في الفتنة التي تعني الامتحان المؤلم إما هجوماً مباشراً أو اكتساحاً جزئياً أو كلياً، والهجوم ليس المقصود به الهجوم من خلال المعركة، بل قد يقع هذا الهجوم أثناء الحراسة الأمنية في مواقع التماس، وقد يكون في المواقع الخلفية، وقد يتعلق بنظم المعلومات مثلاً، وقد يكون الهجوم على

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١٢٧).

مراكز الثغور المخبرانية، وليس الهجوم فقط من خلال المعركة الخارجية، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إن خفتُم أن يحدثوا لكم الفتنة، والفتنة قد تكون فتنة إعلامية وبلبلية، وقد تكون الفتنة أن يتخذوا عملاء من أجل إحداث الاضطراب والقلق، والزلازل الاجتماعية.

وقوله ﴿خِفْتُمْ﴾ لا يتعلق بفتنة الذين كفروا لنا في الأمور الأمنية والعسكرية بل يتعلق بفتنتهم لنا عن إقام الصلاة، فالفتنة ما يحدث بلبلة وزعزعة سواء أكانت في الداخل أم في الثغور، سواء أكانت للجيش المباشر أم للأمة..

وهذا لا يعني أنه يجوز للمرء أن يقصر بمجرد الخوف، بل الآية تشير إلى أنه ينبغي ألا تكون الصلاة عائقاً له عن القيام بمسؤولياته الأمنية في حراسة الثغور والمقدرات التي تقوم عليها الأمة، وفي الوقت ذاته فلا ينبغي أن تكون مسؤولياته الأمنية عائقاً عن القيام بالصلاة التي تعني الصلة بكل الكون الفسيح بل ينبغي أن يجمع بين الأمرين.

وبناء على المعنيين اللذين ذكرناهما لكلمة الخوف نلمح اختلاف درجاته: فمنه اليسير ومنه الشديد، وبينهما درجات، وقد يكون مقدار الخوف محدوداً، وقد يشتد فيكون الخوف عظيماً، فيلتزم الجنود بالتعليمات الأمنية التي تصدر لهم من قياداتهم الموثوق بها، وهنا تختلف كفايات القصر، فانظر لهذه المراعاة الحثيثة للمصالح البشرية.

فاليسير منه يقصر المرء فيه الصلاة كما بيته هذه الآيات من سورة النساء، والشديد منه يترك فيه إتمام ركوعها وسجودها، ويؤديها كيف أمكن أداؤها، مستقبل القبلة فيها ومستدبرها، وراكباً وماشياً، وذلك في حال السلة والمسايفة والتحام الحرب وتزاحف الصفوف، وهي الحالة التي قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ

فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴿ (البقرة: ٢٣٩)، فيصلي المكتوبة راكبًا، إيماءً بالركوع والسجود،
 فَأَيَّةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴿ (البقرة: ٢٣٩)، ذكرت كيفية الصلاة
 في شدة الخوف باكتفاء الرجال المشاة والركبان بالإيماء عن الركوع والسجود، وهذه
 الآيات ذكرت الصلاة فيما دون ذلك من درجات الخوف بالقصر من عدد ركعات
 بأن تصلي طائفة مع الإمام ركعة واحدة، فإذا أتممتها جاءت طائفة أخرى - وهي التي
 كانت تحرُس الأولى، فصلت معه الركعة الثانية.

وهذا الموضوع من أبرز الأمثلة على شمول النظم القرآني لمعانٍ متعددة ربما
 اختلف العلماء في دخولها، والآية واضحة الاحتمال لها.

ومما جاء مما يتعلق بذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول
 الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع فأصيبت امرأة من المشركين فلما انصرف رسول الله
ﷺ قافلاً وجاء زوجها وكان غائباً فحلف أن لا ينتهي حتى يهريق دمًا في أصحاب
 محمد ﷺ فخرج يتبع أثر النبي ﷺ فنزل النبي ﷺ منزلاً فقال من رجل يكلؤنا
 ليلتنا هذه فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقالا نحن يا رسول الله
 قال فكونوا بفم الشعب قال وكانوا نزلوا إلى شعب من الوادي فلما خرج الرجلان
 إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري أي: الليل أحب إليك أن أكفيكه أوله أو
 آخره قال أكفني أوله فاضطجع المهاجري فنام وقام الأنصاري يصلي وأتى الرجل
 فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ريبة القوم فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه فوضعه
 وثبت قائماً ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه فنزعه فوضعه وثبت قائماً ثم عاد له بثالث
 فوضعه فيه فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد - وَلَمْ يَقْطَعْ صَلَاتِهِ لِتَحَامِلِهِ وَشَعُورِهِ
 بضرورة الوصول إلى الكمال في مجاهدة مشاق النفوس، ولا شغاله بحلاوتها عن
 مرارة الجرح - ثم أهب صاحبه فقال اجلس فقد أوتيت فوثب فلما رآهما الرجل
 عرف أن قد نذروا به فهرب فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال سبحة

الله ألا أهببني قال كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها فلما تابع الرمي ركعت فأريتك وأيم الله لولا أن أضيع ثغرا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها^(١).

القانون الثالث: إذا اجتمع الخوف والسفر يجوز قصر أركان الصلاة وعددها، وإذا كان السفر فقط، جاز قصر العدد وحده.

هذا القانون يجيب على السؤال الذي يترتب على القانونين السابقين، وهو: إذا لم يتحقق الشرطان معاً، وتحقق أحدهما فقط، فهل يجوز القصر؟

أي: إذا لم يتحقق الضرب في الأرض، ووجد الخوف، أو وجد الخوف ولم يتحقق الضرب في الأرض، فهل يجوز بموجب أحد الشرطين القصر للصلاة؟

يجيب ابن القيم على ذلك، فيبين أنه إذا اجتمع الشرطان، كَانَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ أَنْ أَبَاحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَصْرَ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ وَعَدَدِهَا إِذَا اجْتَمَعَ الْخَوْفُ وَالسَّفَرُ، وَيَجُوزُ قَصْرُ الْعَدَدِ وَحْدَهُ إِذَا كَانَ سَفَرٌ لَا خَوْفَ مَعَهُ^(٢)، ولذا مال ابن عباس ومجموعة من أهل العلم إلى أن السنن الرواتب لا تسقط، فكَلِمَةُ ﴿إِنْ﴾ وَكَلِمَةُ ﴿إِذَا﴾ يُفِيدَانِ حُصُولَ الْمَشْرُوطِ عِنْدَمَا يَحْصُلُ الشَّرْطُ، وَلَا يُفِيدَانِ عَدَمَ الْمَشْرُوطِ عِنْدَ عَدَمِ الشَّرْطِ، أي: عند عدم أحدهما... وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَتَقُولُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ يَقْتَضِي حُصُولَ الرِّخْصَةِ عِنْدَ حُصُولِ الْخَوْفِ، وَلَا يَقْتَضِي عَدَمَ حُصُولِهَا عِنْدَ عَدَمِ الْخَوْفِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَتِ الْآيَةُ سَاكِتَةً عَنْ حَالِ الْأَمْنِ بِالنَّفْيِ وَبِالِاثْبَاتِ^(٣)، وقد أثبت النبي ﷺ القصر في السفر بقوله وفعله.

(١) أحمد (٣ / ٣٤٣)، برقم ١٤٧٤٥، وأبو داود ١ / ٧٧ برقم ١٩٨، وحسنه الألباني والأرنؤوط.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١ / ٥١٠).

(٣) تفسير الرازي (١١ / ٢٠٣).

وأنت الآثار المتواترة على إثبات هذا المعنى، فثبت القصر فيه بالسنة، فعن يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْنِيَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (النساء: ١٠١) فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ. فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ. فَقَالَ: «صَدَقَهُ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَأَقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»^(١)، وعن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قَصْرَ صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر؟ فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به^(٢)، ويبين ابن عباس أن التفصيل النبوي عمدة حجة فيقول: سرنا مع النبي ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف شيئاً فصلّى ركعتين^(٣)، وعن عائشة زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ^(٤)، وسأل الأوزاعي الزهري عن صلاة رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة إلى المدينة قال أخبرني عروة عن عائشة قالت: فرض الله عز وجل الصلاة على رسوله ﷺ أول ما فرضها ركعتين ركعتين ثم أتمت في الحضر أربعاً وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى^(٥)، وقال عمر: صلاة الجمعة ركعتان وصلاة الفطر ركعتان وصلاة الأضحى ركعتان وصلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ^(٦).

واختلف أهل العلم في معنى «تمام غير قصر»، فبعضهم قال: معنى تمام بمعنى أنه يعطى أجر التمام، أي: تامة الأجر، وإن كان ظاهرها أنها مقصورة من حيث العدد،

(١) صحيح مسلم (٢ / ١٤٣) ٦٨٦ .

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١٢٩) .

(٣) أحمد (١ / ٣٥٤)، وقال الأرنؤوط: صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين .

(٤) صحيح مسلم (٢ / ١٤٢) رقم ٦٨٥ .

(٥) سنن النسائي (١ / ٢٢٥)، وصححه الألباني .

(٦) سنن النسائي (٣ / ١١١)، وصححه الألباني .

وبعضهم قال: تمام أن هذه هيئتها في السفر وهذه هيئتها في الحضر، فهي تامة في السفر لأن تلك الهيئة هي الهيئة المطلوبة فيها لا أنها ناقصة عندما تؤدي .

ونلاحظ أن النظم الشرعية المتعلقة بالأموال الدنيوية المحضة معللة، وهي ترجع إلى تحقيق المصالح البشرية الشاملة للدنيا والآخرة، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (النساء: ١٠١).

فربط القصر في الصلاة بالضرب في الأرض وبسياسة (أخذ الحذر) من العدو الذي سبب ضيق الأرض على سعتها، وصادر حق العيش في أمن، فجعل للصلاة ثلاثة أحوال تتناسب مع الواقع البشري والمصلحة الإنسانية، ويلخصها ابن عباس فيقول: «فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا (فهذه الحالة الأولى) وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ (فهذه الحالة الثانية) وَفِي الْخَوْفِ رَكْعَةً (فهذه الحالة الثالثة)»^(١).

فصارت الصلاة مقصورة بالنسبة لها في الحضر، إلا أنها تامة في ذاتها أجزاً وحقيقة، وإذا كان الله قد أباح قصرها أركاناً وهيئة في الخوف والسفر، فإنه قد أباح قصرها في السفر ولو لم يكن خوف ليجمع المسافرين بين المصلحتين الدينية والدنيوية في تحركاته.

ولذا ذهب ابن عباس إلى إثبات التنفل الراتب فيها في السفر أيضاً، فقال: فرض رسول الله ﷺ صلاة الحضر والسفر فكما تصلي في الحضر قبلها وبعدها فصل في السفر قبلها وبعدها قال وكيع مرة: وصلها في السفر^(٢)، وبذا كان النبي ﷺ يقصر ما دام مسافراً، فعن أنس رضي الله عنه: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَكَانَ يُصَلِّي

(١) صحيح مسلم (٢ / ١٤٣) رقم ٦٨٧ .

(٢) أحمد (١ / ٢٣٢)، وحسن الأرنؤوط إسناده.

رَكَعَتَيْنِ رَكَعَتَيْنِ حَتَّى رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ قُلْتُ أَقَمْتُمْ بِمَكَّةَ شَيْئًا قَالَ أَقَمْنَا بِهَا عَشْرًا^(١)، وعن جابر بن عبد الله قال: أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة^(٢).

واستشهد أبو العالية بجواز القصر في السفر فقط بالقرآن والتفصيل النبوي، فعن قتادة، عن أبي العالية قال: سافرت إلى مكة، فكنت أصلي ركعتين، فلقيني قراء من أهل هذه الناحية، فقالوا: كيف تصلي؟ قلت ركعتين. قالوا: أسنة أو قرآن؟ قلت: كل، سنة وقرآن، (فقد) صلى رسول الله ﷺ ركعتين. قالوا: إنه كان في حرب! قلت: قال الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (سورة الفتح: ٢٧)، وقال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾^(٣).

ولعل محل الشاهد أن قوله ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ يدل على أمرين معًا: جواز القصر عند الاطمئنان مع وجود السفر، ووجوب الإتمام عند الاطمئنان مع الإقامة، ويدل على ذلك التفصيل النبوي.

والسياق القرآني يظهر لنا معاني ثرية عند النظر إلى نظم هذه الآية وما بعدها؛ إذ يحتمل أن يكون التقييد بخوف الفتنة من الكافرين متصلًا بالآية التالية، وقد روى الطبري ما يدل على ذلك، فأسند عن علي قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، ثم انقطع الوحي. فلما كان بعد ذلك بحول، غزا النبي ﷺ فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ٥٣) رقم ١٠٨١ .

(٢) أحمد (٣ / ٢٩٥) وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١٢٥).

من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إنَّ لهم أخرى مثلها في إثرها! فأنزل الله تبارك وتعالى بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، فنزلت صلاة الخوف^(١).

ثم عقب الطبري على ذلك فقال: «وهذا تأويل للآية حسن، لو لم يكن في الكلام «إذا»، و«إذا» تؤذن بانقطاع ما بعدها عن معنى ما قبلها. ولو لم يكن في الكلام «إذا»، كان معنى الكلام: إن خفتهم، أيها المؤمنون، أن يفتنكم الذين كفروا في صلاتكم، وكنت فيهم، يا محمد، فأقمت لهم الصلاة، «فلتقم طائفة منهم معك» الآية^(٢). ولكن الأمر يظل محتملاً.

وهذا التنوع يفرض سؤالاً: هل يكون القصر في السفر رخصة أم عزيمة؟ مسألة محل نظر، وقد ذهب أبو حنيفة وغيره رحمهم الله إلى أن القصر في السفر عزيمة غير رخصة لا يجوز غيره مستدلين بتلك الآثار، وهي محتملة، ويدل على أنها محتملة أن بعض من رواها أتم في السفر وقد ورد عن بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يتمون في السفر، فعن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أيُّ أصحاب رسول الله ﷺ كان يتم الصلاة في السفر؟ قال: عائشة وسعد بن أبي وقاص^(٣)، وثبت الإتمام عن عثمان رضي الله عنه، ونعم الفقيه كان.

القانون الرابع: الأصل في العدو الذي يسبب القلق والفتنة والخوف، ألا يكون مسلماً، فالمؤمن من أمنه الناس.

وهذا سبب جعل الفتنة هنا مختصة بالكافر الذي يغطي الحقائق في قوله: ﴿إِنْ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٢٦).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٢٦).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٢٦).

خَفِئُمْ أَنْ يَفْنِيَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿النساء: ١٠١﴾، إلا أن العلة ليست الكفر بل العلة خوف المرء من أن يفتنه الذين كفروا، وقد يوجد هذا الخوف ممن ينتسب إلى الإسلام.

لأن المعتدي الذي ينتسب إلى الإسلام يعمل عمل الكافر فيغطي الحقائق، فالعلة هي الخوف، وتقييد الخوف بأن يكون الخوف من الكفار لا مفهوم له، بل هو تقييد واقعي؛ لأنه لم يوجد في عهد النبي ﷺ من يخيف المسلمين ممن ينتسب إلى الإسلام كما حدث في آخر زمن عثمان رضي الله عنه إلى يومنا هذا؛ فإن الله جعل من أعظم المبادئ البدئية، ألا يؤدي المؤمن مخلوقاً حتى لو كان نملة فكيف يتصور إنسان أن يؤدي من ينتسب إلى الإسلام مؤمناً فضلاً عن أن يفتنه، ولكن الخوف قد يكون من حيوان أو كارثة طبيعية، وقد يكون من قوم ينتسبون إلى الإسلام، فما أكثر ذلك اليوم، والله المستعان.

انظر كيف يؤكد الله عداوة الراسخين في الكفر للمؤمنين، فيقول: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.. هذا ربنا جل جلاله ينير بصيرتنا بضرورة عدم الشك في هذه العداوة، فالمعنى كما يقول الطبري: «قد أبانوا لكم عداوتهم بمناصبتهم لكم الحرب على إيمانكم بالله وبرسوله، وترككم عبادة ما يعبدون من الأوثان والأصنام، ومخالفتكم ما هم عليه من الضلالة»^(١)، فانظر المؤكدات الضخمة التي تبين هذه العداوة في الآية:

فالمؤكد الأول: أن الله أظهر في موضع الإضمار فقال: ﴿إِنْ خَفِئُمْ أَنْ يَفْنِيَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٠١) فلم يقل: إنهم كانوا بل أظهر من جديد فقال: إن الكافرين، وترى المؤكد الثاني في بداية الجملة: وهو حرف النصب

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١٢٤).

﴿إِنَّ﴾، وترى المؤكد الثالث في التعبير عن ذلك باسم الفاعل (الكافر) إشارة إلى أن المراد من رسخ في الكفر وصار عريقاً فيه لا من تلبس به في ساعة من الساعات، فقال: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الراسخين منهم في الكفر، وأما المؤكد الرابع فهو قوله جل في علاه: ﴿كَانُوا﴾ الذي يدل في مثل هذا الاستعمال على الرسوخ والثبات لا على المضي، واستخدم الماضي لبيان عراقة عداء الكافرين المعاندين المعتدين. ﴿كَانُوا﴾ والكينونة هنا تدل على الطبيعة والحقيقة، أي: كانوا كذلك جبلة وطبعاً، ولعله أشار إلى أنهم مغلوبون بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ دون عليكم، ثم انظر المؤكد الخامس في قوله: ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وكلمة (عدو) اللفظ يستوي فيه الواحد والجمع، فأكد به بوصفه بالإبانة ﴿مُبِينًا﴾ أي: ظاهر العداوة، يعدون عليكم لقصد الأذى مهما وجدوا لذلك سبيلاً، فربما وجدوا الفرصة في ذلك عند طول الصلاة فلذلك قصرتها^(١).

فهذا الصنف من الكافرين «كَانَ شَأْنُهُمْ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ مُظْهِرُونَ لِلْعَدَاوَةِ بِالْقِتَالِ وَالْعُدْوَانِ، فَهُمْ لَا يُضَيِّعُونَ فُرْصَةً اشْتِغَالِكُمْ بِمُنَاجَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَرِاقِبُونَ اللَّهَ، وَلَا يَخْشَوْنَهُ فَيَكُمُ فَيَمْتَنِعُوا عَنِ الْإِيقَاعِ بِكُمْ إِذَا وَجَدُوكُمْ غَافِلِينَ عَنْهُمْ»^(٢).. تأمل كيف أشبههم بعض من ينتسب إلى الإسلام، فيهاجمون المسلمين في مساجدهم آمن ما يكونون، أي: في صلاتهم، وما الله بغافل عما يعملون.

وهذه المؤكدات تبصرك بالقرينة الحالية الواقعية التي تشير إلى صنفٍ محددٍ من الكافرين عندهم هذه العداوة المبينة: إنهم الكافرون المعاندون المعتدون، وهم المتعصبون الذين يتسلمون سنام القيادة الإدارية لغيرهم غالباً؛ فيحرصون على إخفاء طمعهم وإجرامهم وحرصهم على الظهور بإعلان الحرب المسعورة على المؤمنين الطاهرين أما سائر الكافرين فقد يكونون محايدين غير مباليين بعداوة ولا صداقة.

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٧٩ / ٥).

(٢) تفسير المنار (٢٩٨ / ٥).

وتبين لنا إحدى الروايات المتعلقة بهذه الصلاة بأن الله جمع المصالح الأمنية والعبادية والاقتصادية في تشريع صلاة الخوف، فعن علي عليه السلام قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول، غزا النبي ﷺ فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها، فأنزل الله تعالى ذكره بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، فنزلت صلاة الخوف ^(١).

وهنا يظهر لنا سؤالان يضيئان لنا التفكير في هذه البصيرة العظيمة ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٠١).

فأما السؤال الأول: فلماذا أكد الله عداوة الكافرين هذا التأكيد الشديد؟

لعلك تجد الجواب عندما تفكر في الواقع حولك، فقد شرع الإسلام التسامح مع الكفار على أوسع نطاق، وحذر المسلمين من استباحة دماء المؤمنين والمؤمنين.. فربما غفل المؤمنون بسبب هذا الحس الخلقي العالي عن عداوة الكافرين المعاندين، ولذا أكد الله للمؤمنين أن هذا الصنف من الكفار عدو حقيقي ينبغي أن تدور السياسة الأمنية حول كيفية رد عدوانه، والحذر من عنفوانه.. الله.. كم في الآية من عجب.. فإنك ترى المسلمين قد جعلوا عداوتهم فيما بينهم ونسوا العدو المبين أمامهم، وهذا قانون لا يخلف: من غفل عن عدوه المبين صار عدوه أخاه بل ربما عادى نفسه.

(١) تهذيب الآثار (١ / ٢٤١).

وأما السؤال الثاني: فمعلوم أن الكافر لا يقاتل لكفره بل لعدوانه، فلماذا ذكر الله فتنة الكافرين، وعدواتهم مع أنه يوجد منهم من لا يعتدي، ولِمَ لَمْ يذكر عدوان بعض من ينتسب إلى المسلمين مع أن عدواتهم قد تكون أشد بيانا وظهورا من عداوة بعض الكافرين؟

والجواب يظهر واضحا عندما تتدبر هذه السورة؛ فإن الله جعل من أعظم المبادئ البدهية ألا يقتل مؤمن مؤمنا، وألا يعتدي مسلم على مسلم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ (النساء: ٩٢)، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩)، فكأن محاربة المسلم للمسلم تناقض أصل الإيمان، ولذا تقوم المبادئ القرآنية على افتراض أن العدو المبين المعتدي لا يكون إلا كافرا، ولا يعني هذا أن كل كافر لا بد أن يكون معتديا كما هو معلوم من الاستعمال القرآني، ولذا سمي النبي ﷺ القاتل كافرا إما باعتبار الاستحلال أو باعتبار المال، فقال ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفْرًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(١).

القانون الخامس: يجب على القيادة الراشدة الرعاية المباشرة للجمع بين تطبيق استراتيجية صنع السلام، وبين السياسة الأمنية والعسكرية، وبين إقامة الصلاة في الوقت ذاته. ويُبَصِّرُنَا بذلك الخطاب الموجه للقيادة النبوية في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ (النساء: ١٠٢).

فالإفادة الكبرى التي أفدناها من قوله ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ ضرورة الإشراف التنفيذي المباشر على الأعمال التي تبني الأمة وتحميها من قبل قيادتها، فالأمر متعلق بهذه القيادة، وليس خاصا بالنبي ﷺ.. هنا تعلم عمق الفهم عند ابن كثير وغيره

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٤١) برقم ١٢١.

عندما ردوا على من قرر أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لتوجه الخطاب إلى النبي ﷺ هنا، قال ابن كثير: «فهذا استدلال ضعيف، ويرد عليه مثل قول مانعي الزكاة، الذين احتجوا بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣) قالوا: فَحَنُ لَا نَدْفَعُ زَكَاتَنَا بَعْدَهُ ﷺ إِلَى أَحَدٍ، بَلْ نُخْرِجُهَا نَحْنُ بِأَيْدِينَا عَلَى مَنْ نَرَاهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِمُ الصَّحَابَةُ وَأَبَوْا عَلَيْهِمْ هَذَا الْاِسْتِدْلَالَ، وَأَجْبَرُوهُمْ عَلَى آدَاءِ الزَّكَاةِ، وَقَاتَلُوا مَنْ مَنَعَهَا مِنْهُمْ»^(١)، وقد رد الرازي من ناحية أصولية على من تمسك بلفظ «إِذَا» لإقامة صلاة الخوف، وبين أن مقتضاه هو الثبوت عند الثبوت، أمّا العدم عند العدم فغير مسلم^(٢).

وما أظن أصحاب هذا الفهم إلا في غفلة عن الخطاب القرآني الذي جاء ليعم وقائع الحياة؛ فإن الآية واضحة في حث القيادات المسلمة على الالتحام بالشعوب والجيوش ليكونوا على قلب رجل واحد، وخاصة في المسائل الأمنية التي تمثل الصلاة روح الصدق فيها.. وبيانه العذب المشرق يبين البقاعي رحمه الله جمال ذكر النبي ﷺ هنا، وأنه لا يعني عدم أداء صلاة الخوف حال غيبته فيقول: «ولما أتم سبحانه وتعالى بيان القصر في الكمية مقرونًا بالخوف لما ذكر، وكان حضور النبي ﷺ مظنة الأمن بالتأييد بالملائكة ووعد العصمة من الناس، وما شهر به من الشجاعة ونصر به من الرعب وغير ذلك من الأمور القاضية بأن له العاقبة؛ بين سبحانه وتعالى حال الصلاة في الكيفية عند الخوف، وأن صلاة الخوف تفعل عند الأُنس بحضرته كما تفعل عند الاستيحاش بغيبته ﷺ، فجوازها لقوم ليس هو ﷺ فيهم مفهوم موافقة»^(٣).

وإذا كان هذا مطلوبًا من القيادات المسلمة فإن ذلك يعني أن تكون على قدر

(١) تفسير ابن كثير - ت سلامة (٢/ ٤٠٠).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٠٥).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨٠).

من المسؤولية والعلم اللائق بمعرفة الدين الذي شرع مثل هذه النظم، ومن العجيب الذي يجب أن يشكر لأهله أن تجد بعض القيادات الكافرة ترعى صلاة المسلمين، وتحضر أعيادهم، بينما تجد بعض القيادات التي تنتسب إلى الإسلام، يتسبون في إخافة المسلمين وإرهابهم.

القانون السادس: يجب القيام بالواجبات الأمنية أثناء الصلوات، ويُصَرَّنَا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَلَنَقُومَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٢)، فالخطاب في الآية يبين أن المعيار الأول لإثبات القدرة على الحفاظ على أمن الأوطان، وحماية الشعوب، وتطبيق الاستراتيجية الأمنية يجب أن يظهر في المحافظة على الصلاة، فكيف يكون حكم مجرم يغدر بالمصلين آمن ما يكونون؟ وفي المقابل فإن أداء الصلاة لا يعني الغفلة عن القيام بالمتطلبات الأمنية.

فلا تنافي بين إقامة الصلاة واستراتيجية أخذ الحذر من الناحية العسكرية والأمنية، فالصلاة جزء من هذه الاستراتيجية بل هي أهم جزء فيها، وعند الحاجة الأمنية للحركة أثناء الصلاة مثل ساعات الخوف فلا بد أن يصحب القيام للصلاة الاهتمام بالسلاح، والضمير في قوله تعالى ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ يظهر أنه للمصلين، فالطائفة الأخرى أولى بأن تأخذ السلاح إذ إن أفرادها يتولون الدور الأكبر في الحراسة.

وقوله تعالى ذكره: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ يشير إلى أنه يجب إبراز أداء الصلوات بشكل علني، حتى يكون من الأنظمة المشاهدة، فيقوم بها الجنود أمام العالم، فالحاكم أو الرئيس يقيم الصلاة، وليس المقصود بأن يقول قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، ليس المقصود بأن يأتي بألفاظ الإقامة بل بأن يتأكد من إقامتها في المجتمع حوله، لأن النبي ﷺ ما كان يقيم الصلاة بأن يتولى دور المؤذن الذي

يقيم وإنما كان يقيم الصلاة بأنه يتأكد من إقامتها في أوساطهم، حتى أنه هدد الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة، فقد قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُمَرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبُ ثُمَّ أُمَرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا ثُمَّ أُمَرَ رَجُلًا فَيُؤَمُّ النَّاسَ ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رَجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ يُبَوِّتُهُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرَقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ»^(١).

فلتأخذ هذه الكلمات القرآنية المباركة أنفاسك؛ إذ إن الله يذكر حالة طارئة جداً وهي حالة اشتداد الخوف عند مواجهة عسكرية أو أمنية محتملة، ومع الخوف الشديد من أن تجتاح القوات المعادية القوات المسلمة كان يمكن أن يشرع الله أن يصلى كل على حده، أو يؤخر الأداء لكن الله سبحانه وتعالى أمر بإقام الصلاة بل أمر بإظهارها لدرجة أن يظهر للعدو من الذي يصلى ومن الذي يحرس، كما هو واضح في هذه الآيات، لماذا الله ذكر ذلك؟

إن ذلك كله يبين أن موضوع إقام الصلاة على المستوى العلني أهم المهمات في حياة الأمة، ولذلك تتعجب من بعض الناس إذا رأى أناساً يجهرون بأداء صلاتهم في الحدائق أو الكليات، ربما يستحيي أن يظهر هذا أمام العالم.. فمن أعظم القيم التي تدل على تعظيمنا للصلاة أن تبرز وتظهر، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى هذه الكيفية التي فيها نوع من التعقيد، كله من أجل أن يظهر أن المسلمين يصلون جماعات.. حيث يعلمون العالم المجد الذي تحققه الإنسانية عندما تتصل برب الأرض والسموات.

القانون السابع: يجب التعود على مبدأ الصف الواحد والعمل الجماعي المنسق

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ١٦٥) برقم ٦٤٤، وفي فتح الباري لابن حجر (١ / ١٢٥): «المرمأة بكسر الميم وبفتحها أيضا ما بين ظلفي الشاة من اللحم فعلى هذا الميم أصلية وقيل هو السهم الذي يرمى به فالميم زائدة وهي مكسورة قولاً واحداً وقيل هو سهم يلعب به في كوم تراب فمن رمى به فثبت على الكوم غلب وقيل المرماتان السهمان اللذان يرمى بهما الرجل فيحوز سبق».

بين جميع مكونات الجيش، وتوزيع الأدوار لتطبيق الاستراتيجية الأمنية والعسكرية حتى أثناء الصلاة. وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٢) فكل فرد له دوره، وكلهم ينبغي أن يهتم بالآخر، ولذا رأيت التطبيق النبوي ينوع صفات صلاة الخوف؛ تطبيقاً للسياسة الأمنية والعسكرية؛ ليؤخذ المناسب منها لكل حال.

فمبدأ العمل الجماعي في الأمة المسلمة هو السمة التي ينبغي أن تقام عليها الصلاة المفروضة، وتدار عليها الأهداف الأمنية والعسكرية، وبموجبه يتم توزيع الأدوار بين أطراف المسلمين، ويحرم أن يتحول مبدأ توزيع الأدوار إلى توحشٍ فرديٍّ يعبر عن الأنانية المفرطة، بل كلُّ منهم يؤدي دوره البطولي المعلوم، وقد لاحظ هذا المبدأ الطاهر بن عاشور في تأمله لهذه الآية فقال: «وَلِأَنَّ مَقْصِدَ شَرْعِ الْجَمَاعَةِ هُوَ اجْتِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَوْطِنِ الْوَاحِدِ، فَيُؤْخَذُ بِهَذَا الْمَقْصِدِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ»^(١).

وترى تكرار الأمر بأخذ الحذر؛ لبناء الحس الأمني في العقول حيث تتم المدافعة عن الحق، والعدل، والخير، وتُعزِّز العقلية العارفة بتحركات العدو، ولأن الحذر يضعف مع مرور الزمن، فيكون في بداية الأمر قويًا، ثم ينسل شيئًا فشيئًا، ويرخي الإنسان دفاعاته.

وتحوي هذه الآية على إيجازها عددًا من صفات صلاة الخوف في درجته اليسيرة، أو المتوسطة، أو الشديدة، أما الأشد فقد ذكرها الله في سورة البقرة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ (البقرة: ٢٣٩).

(١) التحرير والتنوير (٥ / ١٨٥).

وأوصل بعضهم هذه الصفات إلى سبع عشرة صفة، وهذا يدل على أهمية تفعيل استراتيجية أخذ الحذر، وجعل ابن القيم رحمه الله أصولها ستة، والجامع بينها: أن تؤدي الأركان بسرعة، كَأَسْرَعَ الْإِسْرَاعِ، إذ لا يوجد مطلوب (الاطمئنان) في الأركان كما يوجد في حال الأمن، وأن تتغير الكيفية من حيث عدد الركعات حسب شدة الخوف والحذر، وأن يتغير التقسيم للجيش حسب مكان العدو، فقد يكون الجيش طائفتين.. ثلاثاً.. أربعاً.. عشراً حسب مكان العدو. والمراد بالسجود الصلاة من إطلاق اسم الجزء على الكل، فكأنه قال: فإذا صلوا، أي: أتموا صلاتهم^(١).

وهل تكون صلاة النبي ﷺ، أو القائد، واحدة أم يصلي بكل طائفة صلاة؟ يظهر من اللفظ القرآني أن صلاة النبي ﷺ واحدة لَأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَلْيَصَلُّوا مَعَكَ﴾، فَجَعَلَهُمْ تَابِعِينَ لِصَلَاتِهِ، وَذَلِكَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّ صَلَاتَهُ وَاحِدَةً، وَلَوْ كَانَ يُصَلِّي بِكُلِّ طَائِفَةٍ صَلَاةٌ مُسْتَقِلَّةٌ لَقَالَ تَعَالَى: (فَلْيَصَلِّ بِهِمْ)^(٢)، هذا ما قاله بعض المفسرين، ويظهر لي أن اللفظ لا يساعد على القطع بالمعنى الذي ذكره، ويظل الأمر محتملاً، وذلك حسب درجة الخوف وأخذ الحذر، ولذا ذهب الحَسَنُ البَصْرِيُّ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ بِكُلِّ طَائِفَةٍ، فَيَكُونُ صَلَّى بِإِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَبِالطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ صَلَاةً نَافِلَةً لَهُ، فَرِيضَةً لِلْمُؤْمِنِينَ.

فيدخل ضمن ما يوافق الآية مثلاً ما جاء عن ثعلبة بن زهدم قال كنا مع سعيد بن العاصي بطبرستان فقال: أيكم صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف فقال حذيفة أنا فقام حذيفة فصاف الناس خلفه صفين صفاً خلفه و صفاً موازي العدو فصلى بالذي خلفه ركعة ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء وجاء أولئك فصلى بهم ركعة ولم

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥ / ٣٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٥ / ١٨٦).

يقضوا^(١)، ويحدثنا أبو عياش الزرقى عن أحد الصفات التطبيقية لهذه الصلاة فيقول: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقال المشركون: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾، فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ، فأخذوا السلاح، فصففنا خلفه صفين، ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون، فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعاً ثم رفع فرفعوا جميعاً. ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم فلما جلس جلس الآخرون فسجدوا فسلم عليهم ثم انصرف قال فصلاها رسول الله ﷺ مرتين مرة بعسفان ومرة بأرض بنى سليم^(٢)، كما يحدثنا جابر بن عبد الله عن صفة أخرى فيقول: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِذَاتِ الرَّقَاقِ فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَسَيْفُ النَّبِيِّ ﷺ مُعَلَّقٌ بِالشَّجَرَةِ فَاخْتَرَطَهُ فَقَالَ تَخَافُنِي قَالَ: لَا قَالَ فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي قَالَ اللَّهُ فَتَهَدَّدَهُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّى بِطَائِفَةٍ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ تَأَخَّرُوا وَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الْأُخْرَى رَكَعَتَيْنِ، وَكَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعٌ وَلِلْقَوْمِ رَكَعَتَيْنِ^(٣)، وفي رواية: قاتل

(١) سنن النسائي - بأحكام الألباني (٣ / ١٦٨)، وصححه.

(٢) أحمد (٤ / ٥٩)، قال وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير أن صحابيه لم يخرج له سوى أبي داود والنسائي.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ١٤٧) رقم ٤١٣٦.

رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل فرأوا من المسلمين غرة فجاءه رجل منهم يقال له عوف بن الحارث أو غوث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال من يمنعك مني؟ قال: «الله» قال: فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال له: «من يمنعك مني؟» قال: كن خيرًا مني وفي لفظ: كن كخير آخذ، قال: «تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: لا ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك قال: فخلى سبيله فجاء إلى أصحابه فقال: جئكم من عند خير الناس فلما كان عند الظهر أو العصر شك أبو عوانة أمر النبي ﷺ بصلاة الخوف قال: فكان الناس طائفتين طائفة بإزاء العدو وطائفة يصلون مع رسول الله ﷺ فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين ثم انصرفوا فكانوا مكان أولئك وجاء أولئك فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعتين فكان للقوم ركعتان ركعتان ولسر رسول الله ﷺ أربع ركعات^(١).

واختلاف الصفات لتحقيق الهدفين الأثنين معًا: المحافظة على الجماعية في الصلاة، واختيار النوع المناسب منها ليتم تطبيق استراتيجية أخذ الحذر، فَإِنَّ الْعَدُوَّ تَارَةً يَكُونُ تَجَاهَ الْقِبْلَةِ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي غَيْرِ صَوْبِهَا، والجمع بين الأمرين ضروري وكل منهما يعدان ضرورة أمنية، وترجح الإجراءات الأمنية المحضة على أركان الصلاة كلما ازداد الخوف حتى يصل الأمر إلى صلاة شدة الخوف، وهي الصلاة رجالاً وركباناً بالإيماء، ثم إلى تأخيرها حال عدم القدرة عليها^(٢)، ولذا قال البخاري: باب الصَّلَاةِ عِنْدَ مُنَاهَضَةِ الْحُصُونِ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ.

(١) صحيح ابن حبان - بتحقيق الأرناؤوط (٧ / ١٣٨).

(٢) وهذا التفصيل هو الذي ينبغي المصير إليه خلافاً لمن زعم أنها نسخت بتأخير الصلاة في الخندق مما حكي عن المُنْزِي، وَأَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ صَلَاةَ الْخَوْفِ مَسْخُوخَةٌ بِتَأْخِيرِهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، الصَّلَاةَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وقد استغرب ذلك ابن كثير.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ إِنْ كَانَ تَهَيَّاءَ الْفَتْحُ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ صَلُّوا إِيْمَاءً كُلُّ امْرِئٍ لِنَفْسِهِ فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْإِيْمَاءِ أَخْرُوا الصَّلَاةَ حَتَّى يَنْكَشِفَ الْقِتَالُ، أَوْ يَأْمَنُوا فَيُصَلُّوا رَكَعَتَيْنِ فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا صَلُّوا رَكَعَةً وَسَجَدَتَيْنِ لَا يُجْزِئُهُمُ التَّكْبِيرُ وَيُؤْخَرُوهَا حَتَّى يَأْمَنُوا، وَبِهِ قَالَ مَكْحُولٌ.

وَقَالَ أَنَسُ حَضَرْتُ عِنْدَ مُنَاهِضَةِ حِصْنٍ تُسْتَرُ عِنْدَ إِضَاءَةِ الْفَجْرِ وَاشْتَدَّ اشْتِعَالُ الْقِتَالِ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ فَلَمْ نُصَلِّ إِلَّا بَعْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ فَصَلَّيْنَاهَا وَنَحْنُ مَعَ أَبِي مُوسَى فَفُتِحَ لَنَا، وَقَالَ أَنَسُ وَمَا يَسُرُّنِي بِتِلْكَ الصَّلَاةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا - كَأَنَّهُ يَقُولُ: وعلى الرغم من ذلك اضطررنا لتأخيرها نظراً للداعي الأمني والعسكري - وبعض أهل العلم يقولون ما حدث في الخندق منسوخ من تأخير الصلاة، والظاهر عدم النسخ بل كل بحسب حاله، بما تقتضيه استراتيجية الأمنية والعسكرية، ثم روى البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: جَاءَ عُمَرُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَلَّيْتُ الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغِيبَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا بَعْدُ قَالَ فَتَزَلَّ إِلَى بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَابَتِ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّي الْمَغْرِبَ بَعْدَهَا^(١).

ومن الصفات ما جاء عن سماك الحنفي، قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر، فقال: «ركعتان تمام غير قصر، إنما القصر صلاة المخافة» فقلت: وما صلاة المخافة؟ قال: «يصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلي بهم ركعة، فتكون للإمام ركعتين، ولكل طائفة ركعة ركعة»^(٢).

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ١٨) رقم ٥٩٦.

(٢) تهذيب الآثار للطبري (١ / ٣٦١).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ: أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ يُصَلِّي بِطَائِفَةٍ مَعَهُ، فَيَسْجُدُونَ سَجْدَةً وَاحِدَةً، وَتَكُونُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ الَّذِينَ سَجَدُوا السَّجْدَةَ مَعَ أَمِيرِهِمْ، ثُمَّ يَكُونُونَ مَكَانَ الَّذِينَ لَمْ يُصَلُّوا، وَيَتَقَدَّمُ الَّذِينَ لَمْ يُصَلُّوا، فَيُصَلُّوا مَعَ أَمِيرِهِمْ سَجْدَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ يَنْصَرِفُ أَمِيرُهُمْ وَقَدْ صَلَّى صَلَاتَهُ، وَيُصَلِّي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ بِصَلَاتِهِ سَجْدَةً لِنَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ، فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا^(١). قَالَ: يَعْنِي بِالسَّجْدَةِ الرَّكْعَةَ.

ويحكي ابن عمر، رضي الله عنهما، هيئة صلاة النبي ﷺ فيقول: غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ نَجْدِ فَوَازَيْنَا الْعَدُوَّ فَصَافَفْنَا لَهُمْ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي لَنَا فَقَامَتْ طَائِفَةٌ مَعَهُ تُصَلِّي وَأَقْبَلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَدُوِّ وَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفُوا مَكَانَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَمْ تُصَلِّ فَجَاؤُوا فَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ رَكْعَةً وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ فَقَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَرَكَعَ لِنَفْسِهِ رَكْعَةً وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ^(٢).

وعن عروة بن الزبير حدثه أن عائشة حدثته بهذه القصة قالت: كبر رسول الله ﷺ وكبرت الطائفة الذين صفوا معه ثم ركع فركعوا ثم سجد فسجدوا ثم رفع فرفعوا ثم مكث رسول الله ﷺ جالسا ثم سجدوا هم لأنفسهم الثانية ثم قاموا فنكصوا على أعقابهم يمشون القهقري حتى قاموا من ورائهم وجاءت الطائفة الأخرى فقاموا فكبروا ثم ركعوا لأنفسهم ثم سجد رسول الله ﷺ فسجدوا معه ثم قام رسول الله ﷺ وسجدوا لأنفسهم الثانية ثم قامت الطائفتان جميعا فصلوا مع رسول الله ﷺ فركع فركعوا ثم سجد فسجدوا جميعا ثم عاد فسجد الثانية وسجدوا معه سريعا

(١) سنن ابن ماجه (٢ / ٣٠٨).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ١٧) رقم ٩٤٢.

كأسرع الإسراع جاهدا لا يألون سراعاً ثم سلم رسول الله ﷺ وسلموا فقام رسول الله ﷺ وقد شاركه الناس في الصلاة كلها^(١).

فهمنا من هذه الكيفيات المتنوعة أنها بحسب المقتضيات الأمنية، وهي تدل على أن الصلاة من أعظم الفرائض الظاهرة التي تساعد الإنسانية على اجتياز أعباء الحياة بالاتصال بالله جل في علاه، وأن وجود الطوارئ الأمنية والعسكرية لا يعني ترك صلاة الجماعة، والعكس ووجود الصلاة لا يعني ترك الطوارئ الأمنية والعسكرية.

القانون الثامن: يجب بناء الحس الأمني والعسكري على أحسن الوجوه وأشدّها تنبيهاً. ويُبَصِّرُنَا بذلك أن الله كرر ذكر الاهتمام بالسلّاح، وذلك يعني ضرورة إيجاد السلّاح بناء وتصنيعاً وشراء، ولتأمل كيف تكرر ذكر السلّاح هنا في صورٍ مختلفة.

فأمر بأخذ السلّاح للطائفة المصلية الأولى: ﴿فَلَنَقُصَّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾، ثم أمر بقيام الطائفة الأولى التي صلت ركعة بالحراسة ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾، ثم أمر بأخذ الحذر والسلّاح للطائفة المصلية الأخرى ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلِيَأْخُذُوا﴾ يمكن أن يكون ضميره للكل، أي: الطائفة المصلية وغير المصلية لثلاثيهم أن الأمر بذلك يختص بالمصلي، لأن غيره لا عائق له عن الأخذ متى شاء، أو ولتأخذ جميع الطوائف الحارسون والمصلون ﴿حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ في حال صلاتهم وحراستهم وإتيانهم إلى الصلاة وانصرافهم منها^(٢).

والمراد من ذلك كله تطبيق مقتضيات استراتيجية أخذ الحذر، وانظر كيف أكد على

(١) سنن أبي داود (١ / ٣٩٧)، وحسنه الألباني.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥ / ٣٨٢).

أخذ الحذر في هذه الآية حتى بعد أن أنجزت نصف المهمة فقال: ﴿وَلَتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٢).

ويبين لنا الزمخشري هنا معنى بديعاً يدل على التأكيد على استراتيجية أخذ الحذر؛ إذ تسمع الله يأمر بأخذ السلاح والحذر بفعل واحد: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وذلك ليصور لنا الحذر وكأنه مادة محسوسة، وآلة منقولة كالسلاح، فالحذر وهو التحرز والتيقظ بإقبال الفكر على ما يمنع كيد العدو كالألة المحسوسة آلة يستعملها الغازي، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ، وجُعِلَا مأخوذين^(١)، فأمر بأن تكون درجة الاستراتيجية الأمنية بنفس درجة الاستراتيجيات العسكرية.

ويبين الواحدي رحمه الله معلماً مختلفاً للخشوع في الصلاة في مثل هذه الحالة ليخدم الاستراتيجية الأمنية، فيقول: «وَفِيهِ رُخْصَةٌ لِلْخَائِفِ فِي الصَّلَاةِ بِأَنْ يَجْعَلَ بَعْضُ فِكْرِهِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ»^(٢)، فالخشوع هنا أن تؤدي الصلاة وتنظر إلى العدو، وتأتي بظواهر الصلاة.

وفي الاهتمام بذكر السلاح مع المصلي المشغول بصلاته إشارة واضحة إلى ضرورة الاهتمام بإيجاد السلاح شراء وتصنيعاً، ويصبح التصنيع العسكري واجباً مقدماً عندما يتم الشعور بأنه يمكن للعدو أن يتحكم بصناعة السلاح أو أن يحاصرها، كما أن الآية تشير إلى أن الجمع بين الصلاة والسلاح أهم صفات المعسكر المتيقظ. ولا يمكن للسلاح أن يؤخذ إلا إذا وجد.. فالآية تدل على وجوب التصنيع العسكري لردع وحوش البشر من جنونهم المسعور، وهمجيتهم التي حيرت

(١) تفسير الزمخشري (١ / ٥٦٠)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥ / ٣٨٢).

(٢) تفسير الرازي (١١ / ٢٠٦).

الحيوانات الضارية في شدة فساده وإفسادها.

وتكثيفاً للحس الأمني في عقول المسلمين وقلوبهم ترى في الآية أمراً لافتاً؛ إذ تجد الله ذكر أخذ السلاح بالنسبة للطائفة الأولى ﴿فَلَنَقُصَّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾، وتراه أمر بأخذ الحذر والسلاح بالنسبة للطائفة الثانية فقال ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وكل ذلك لبناء الحس الأمني في العقول المدافعة عن الحق والعدل والخير، ولتعزيز العقلية العارفة بتحركات العدو؛ فإن العدو ربما لم يتأكد في المرة الأولى أن المسلمين دخلوا في الصلاة، فإذا رآهم سجدوا أيقن بذلك، فإن تحركت الطائفة المصلية الأولى إلى الحراسة بعد السجود وتقدمت الأخرى تحرق العدو غيظاً خوفاً من أن ينتهي المسلمون من صلاتهم قبل أن يباغتهم، فأكد الله أخذ الحذر والسلاح ليظهر للعدو أن القوات الأمنية لم ترخ استراتيجيتها الأمنية والعسكرية، ولئلا يظن المسلمون أن العدو قد ترك أمر مباغتهم لما لم يهجم عليهم في المرة الأولى عندما سجدت الطائفة الأولى، ولذا زاد في التحذير فقال: ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَالدِّينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء: ١٠٢)، ولأن الحذر يضعف مع مرور الزمن، فيكون في بداية الأمر قوياً ثم ينسل شيئاً فشيئاً، ويرخي الإنسان دفاعاته.. ولذا أراد الله أن يكون الحذر في أعلى درجاته.

القانون التاسع: تحرم الغفلة عن العتاد العسكري والثروات السيادية سواء أكان ذلك في زمن الأمن أم في زمن الخوف، ويُبَصِّرُنَا بهذا القانون قول الله جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء: ١٠٢).

فنبهنا الله إلى الخطط الدائبة التي يديرها العدو للسيطرة على أسلحة المؤمنين وثرواتهم المالية فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾، ولذا تجب حراسة القوة العسكرية (السلاح) والاقتصادية (المتاع) فحراستها وعدم الغفلة عنها من أهم أسباب تحقيق النصر ضد المعتدين، ومن الغفلة الكبيرة أن يُسلم من ينتسب إلى المؤسسات السيادية العسكرية والتعليمية والاقتصادية لدروات خاصة في غير بلدانهم دون إشرافٍ مباشرٍ يصونهم من الوقوع في العمالة أو العماية.

ويصور الله لنا في قوله ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ تكاتف الأعداء واستغلالهم لأدنى الفرص عند غفلة المسلمين عن أسلحتهم وثرواتهم، «وأشار إلى العلو والغلبة بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وأشار إلى سرعة الأخذ بقوله: ﴿مَيْلَةً﴾ وأكدته بقوله: ﴿وَاحِدَةً﴾»^(١).

القانون العاشر: لم يخفف الله على المسلمين في استراتيجية أخذ الحذر إلا عند وجود العذر القاهر الخارجي أو الجسدي في الحالات الفردية فقط، والتخفيف فقط لحمل العتاد العسكري، وليس لمقتضيات الاستراتيجية الأمنية المصاحبة، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ١٠٢).

وانظر لهذا القانون؛ إذ يدل بلفظه على الوجوب المؤكد لأخذ الحذر وحمل السلاح، ومعنى ذلك أنه يجب اصطحاب منظومة الحذر الأمني للحفاظ على حياة المسلمين حضراً وسفراً.

فالتخفيف في وضع السلاح لا يكون إلا عند الضرورة، ولكن التخفيف في وضع القوة العسكرية لا يعني الغفلة الأمنية ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥ / ٣٨٣).

أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴿النساء: ١٠٢﴾، وذكر الأذى نكرة ﴿أَذَى﴾ ليبين شموله لليسير والكثير، وذكره هنا للتخفيف من أعباء المؤمنين في الحماية، ولحفظ السلاح من إفساد المطر له، أو لحفظه من أن يقلل المطر من فعاليته، والمرض تدخل فيه الجراح، فقد روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ عبد الرحمن بن عوف كان جريحاً^(١).

وكما ترى فعلى الرغم من تخفيفه في حمل السلاح عند وجود العذر الخارجي، أو الجسدي، إلا أنه لم يخفف في درجة التحذير، والتأهب الأمني، وتطبيق استراتيجية: أخذ الحذر، فقال: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ١٠٢).

فخفف الله على المسلمين عند وجود العذر القاهر الخارجي، أو الجسدي أن يضعوا السلاح، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، يدل بلفظه على الوجوب المؤكد في أخذ الحذر، وحمل السلاح، ومعنى ذلك: أنه يجب اصطحاب منظومة الحذر الأمني الدائم؛ للحفاظ على الحياة البشرية.

وفي حال شدة الخوف والمهام التي لا تقبل التأخير يومئذ إيماء، ولناخذ مثلاً على ذلك بما جاء عن عبد الله بن أنيس قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعرفة، فأته فاقتله». قلت: يا رسول الله انعته لي حتى أعرفه. قال: «إذا رأيته وجدت له قشعريرة» قال: فخرجت متوشحاً، بسيفي حتى وقعت عليه وهو بعرفة مع طُعن يرتاد لهن منزلاً، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١٦٤).

نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلي عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي الركوع والسجود فلما انتهيت إليه، قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا، قال: أجل أنا في ذلك. قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنتني حملت عليه السيف حتى قتلت، ثم خرجت وتركت طعائنه مكباتٍ عليه، فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني، فقال: «أفلح الوجه» قلت: قتلت يا رسول الله. قال: «صدقت» قال: ثم قام معي رسول الله ﷺ فدخل في بيته، فأعطاني عصاً فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس» قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها. قالوا: أولاً ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: «آية بيني وبينك يوم القيامة إن أقل الناس المتخضرون يومئذ يوم القيامة». فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها، فضمت معه في كفنه ثم دفنا جميعاً^(١).

القانون الحادي عشر: يُبَصِّرُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ١٠٢) بأن نستذكر أننا لا نقدر أن نتصر على خطط العدو، إلا عبر تطبيق الخطط العسكرية، والأمنية، مع الالتزام العبادي.

فانظر كيف ربط بين أخذ الحذر من جهة، وبين إعداده هو للكافرين عذاباً

(١) أحمد (٤٩٦ / ٣) برقم ١٦٠٩٠، وقال شعيب الأرنؤوط: ابن عبد الله بن أنيس - وهو عبد الله بن عبد الله بن أنيس كما جاء مبيناً من رواية محمد بن سلمة الحراني عن محمد بن اسحق عند البيهقي - ترجم له البخاري في التاريخ ٥ / ١٢٥ وابن أبي حاتم ٥ / ٩٠ وابن حبان في الثقات ٥ / ٣٧ ولم يذكروا فيه جرحاً ولا تعديلاً وباقي رجال الإسناد ثقات غير محمد بن اسحق روى له البخاري تعليقا ومسلم متابعة وقد صرح بالتحديث وأخرجه أبو يعلى ٩٠٥ وابن خزيمة ٩٨٢ و ٩٨٣ وابن حبان ٧١٦٠ وأخرجه أبو داود ١٢٤٩ مختصراً وحسن الحافظ في الفتح إسناد أبي داود.

مهينًا، ومن العذاب المهين للعدو حذرکم الذي لا يدع لهم عليكم ثغرة، تمكنهم من هزيمتكم:

ولعل من حکم ذکر تعذيبه العذاب المهين للكفار أن يجعل توكل المسلمين عليه، واعتمادهم على تنفيذ الاستراتيجيات الأمنية والعسكرية التي وضعها لهم في مواجهة عدوهم، وبين أنه أعدّ لأعدائهم العذاب المهين لئلا يتوهم المسلمون أن الله لما حذرهم من أعدائهم فذلك لقوتهم وعلوهم وغلبتهم، فأخبرهم أنه أعد لهم ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: يهينهم به، من أعظمه حذرکم الذي لا يدع لهم عليكم مقدّمًا، ولا تمكنهم معه منكم فرصة ^(١).

وهذا التقابل بين التحذير والتطمين وهذا التوازن بين استشارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة بالله سبحانه وتعالى هو طابع هذا المنهج في تربية النفس المؤمنة والصف المسلم ^(٢).

القانون الثاني عشر: يُبَصِّرُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، بأن التخفيف في الصلاة لا يعني سقوط فريضة الذكر، فهو عبادة دائمة، تفعل على كل هيئة يكون عليها الإنسان -قائمًا، وقاعدًا، وعلى جنبه- مهما كان وضعه الذي تستوجه السياسة الأمنية، والعسكرية.

فالآية تبين ضرورة الذكر على كل حال، لكنها في الوقت ذاته تبين الحالات المختلفة التي يكون عليها الإنسان عند تطبيق الاستراتيجية الأمنية والعسكرية:

والمعنى: فإذا قضيت الصلاة فلتكن ألتستكم جارية بِالْحَمْدِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالدُّعَاءِ، فَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ تَكُونُونَ عَلَيْهَا مِنْ قِيَامٍ فِي الْمُسَايَفَةِ

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥ / ٣٨٤).

(٢) في ظلال القرآن (٢ / ٧٤٨).

وَالْمُقَارَعَةِ، وَقُعُودٍ لِلرَّمْيِ أَوْ الْمُصَارَعَةِ، وَاضْطِجَاعٍ مِنَ الْجِرَاحِ أَوْ الْمُخَادَعَةِ، لِتَقْوَى قُلُوبُكُمْ وَتَعْلَوْ هِمَمُكُمْ، وَتَحْتَفِرُوا مَتَاعِبَ الدُّنْيَا وَمَشَاقِّهَا فِي سَبِيلِهِ فَهَذَا مِمَّا يُرْجَى بِهِ الثَّبَاتُ وَالصَّبْرُ، وَمَا يَعْقُبُهُمَا مِنَ الْفَلَاحِ وَالنَّصْرِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: ٤٥) ^(١).

وذكر الله سبحانه وتعالى في مثل هذه الحالات الطارئة يدل على شدة محبة الله سبحانه وتعالى كما قيل:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلُ مَنِّي وَبِيضُ الْهِنْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي
فَوَدَدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لَأَنَّهَا لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ

وذكر الله علامة على تجدد النية، فكثير من أهل العلم يقولون لا بد أن يجدد نيته لصيام كل يوم من رمضان حتى يشعر بأنها عبادة وليست مجرد عادة مرت وانتهت، وكذلك في الصلاة، فالحنابلة مثلاً يجعلون النية شرطاً في صحة الصلاة، فلا بد أن تقدم ويبتدأ بها مثل شرط الطهارة، ولكنهم يستحبون استدامتها في بقية الصلاة، ومثل ذلك في الحياة المعتادة، فإذا لم يذكر الله سبحانه وتعالى خارج الصلاة فإنه لن يتذكر قيمة العبادة، فذكر الله معياراً لنفخ الحياة في تحويل عاداته وانفعالاته إلى عبادات، كما أنه إذا ذكر الله ضبط سلوكه بصورة أكبر عندما يقوم بتطبيق مقتضيات الحراسة الأمنية، وعائشة تصف النبي ﷺ في حياته الاجتماعية والسياسية والعسكرية فتقول: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ ^(٢).

(١) المنار ٣١٢/٥، وذهب الزمخشري (١/ ٥٦٠) إلى تفسيرها تفسيراً ينبو عنه السياق والظاهر فقال: «إِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فِي حَالِ الْخَوْفِ وَالْقِتَالِ فَادْكُرُوا اللَّهَ فَصَلُّوْهَا قِيَامًا مَسَافِينَ وَمُقَارَعِينَ وَقُعُودًا جَائِينَ عَلَى الرِّكَبِ مَرَامِينَ وَعَلَى جُنُوبِكُمْ مِثْنَيْنِ بِالْجِرَاحِ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ حِينَ تَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَأَمْتَمْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاقْضُوا مَا صَلَّيْتُمْ فِي تِلْكَ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ أَحْوَالُ الْقَلْقِ وَالْانْتِرَاجِ».

(٢) رواه مسلم ١٩٤/١ برقم ٨٥٢، ورواه البخاري معلقاً (١/ ١٦٣).

ويبين ابن عباس قيمة هذه العبادة المصاحبة للإنسان في كل أحيائه، فيقول: (لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾).

قال ابن عباس: بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال^(١). ونحن نزيد فنقول: وفي حال السلام أو القتال أو شدة القتال، وفي حال الأمن أو في حال الخوف أو في حال شدة الخوف.

وذكر الله سر تفوق النفس الإنسانية في الحياة، فعن أبي هريرة قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَىٰ جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ فَقَالَ: «سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ». قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»^(٢).

القانون الثالث عشر: يُبَصِّرُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣)، بأن الرخصة محددة بحدود السفر، أو الخوف، بما يحقق مقتضيات الاستراتيجية الأمنية، أو العسكرية، فإذا وجدت الطمأنينة، فيجب إقامة الصلاة على وجهها الأكمل.

فَالْإِقَامَةُ هُنَا الْإِثْبَانُ بِالشَّيْءِ قَائِمًا أَيْ تَامًا^(٣).. أي: فإذا زال خوفكم من عدوكم وأمنتم، أيها المؤمنون، واطمأنت أنفسكم بالأمن ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، فأتوا حدودها

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١٦٤).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٦٣) رقم ٢٦٧٦.

(٣) التحرير والتنوير (٥ / ١٨٩).

المفروضة عليكم غير قاصريها عن شيء من حدودها^(١).

وهنا ربما تتدبر الآية فتساءل: لماذا قال ﴿أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ أَمْتُمْ كما في سورة البقرة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٩)؟

إن الاطمئنان يمثل حالة خاصة من الأمن؛ فناسب أن يكون الذكر مع الأمن لأن الذكر عام كما أن الأمن عام، أما الطمأنينة فخاصة، فناسب أن يكون معها الصلاة بأركانها، وأذكارها، إذ يدل على الثقة، فطمأن، أي: وثق فيه، وأمنه، وسكن إليه كما قال تعالى ذكره: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ (الحج: ١١) وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)، فالاطمئنان الشكون بعد اضطراب وانزعاج فهو يقابل كلاً من الخوف والسفر مجتمعين ومفتردين^(٢)، والاطمئنان يدل على قدر خاص من الشعور التام بالأمان، فتظل استراتيجية أخذ الحذر قائمة حتى مع وجود الطمأنينة في حدودها الدنيا، وأمر بالصلاة حال الطمأنينة تنبيهاً على عظم قدرها، وبياناً لأنها أوثق عرى الدين وأقوى دعائمه وأفضل مجليات القلوب ومهذبات النفوس^(٣)، وكأنه يحذرهم من أن يستمرئوا قصر الصلاة، أو التخفيف فيها حال الطمأنينة بعد إذ ذاقوا ذلك في الحالات الطارئة.

ومن أهم أوجه إقامتها على الوجه الأكمل إقامتها في وقتها، ولذا قال الله بعدها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣)، فقوله: ﴿كِتَابًا﴾

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٦٦).

(٢) تفسير المنار (٥/ ٣١٢).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨٥).

يعني مكتوباً مفروضاً لا يمكن للإنسانية أن تعيش عيشة حقيقية بدونها، وموقوتاً، أي: ذا وقتٍ محدد لا ينبغي مخالفته، ويبين لنا زيد بن أسلم معنى كلمة ﴿مَوْقُوتًا﴾، قال: «منجّماً، كلما مضى نجم جاء نجم آخر، يقول: كلما مضى وقت جاء وقت آخر»^(١)، فالموقوت اسم مفعول من قولهم: «وَقَتَ الله عليك فرضه فهو يَقْتُهُ»، أي: جعل له وقتاً يجب عليك أدائه فيه، والتوقيت من أعظم محاسن الإسلام في الإحسان إلى النفوس البشرية.. التوقيت من المصالح البشرية الخالصة، وقد ذكر الله أوقات الصلاة على سبيل الإجمال في القرآن الكريم ثم بينها النبي ﷺ بتعليم جبريل له، وبتعليمه لأمته ﷺ، ومن الآيات التي أشارت إلى أوقات الصلوات قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ (الإسراء: ٧٨) الصلوات التي تجب من الذلوك إلى الغسق الظهر والعصر، والواجب من الغسق إلى الفجر المغرب والعشاء، والواجب في الفجر صلاة الصبح، وقريباً منها قوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (الرؤم: ١٧) والمراد منه الصلاتان الواقعتان في طرفي النهار وهما المغرب والصبح، ثم قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الرؤم: ١٨).

القانون الرابع عشر: الاستراتيجية الأمنية والعسكرية للأمة الناجحة المهابة، تقتضي القيام بالحرب الوقائية، بالهجوم على المعتدين، وليس الوقوف في موقف المدافعين فقط، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النساء: ١٠٤).

يحذرنا الله من الوهن في إطار التدافع الاستراتيجي مع العدو المتربص الذي

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٦٩).

بلغ من عدوانه أن يعتدي على المرء آمن ما يكون، أي: أن يعتدي عليه في صلاته، فيقول الله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ من وَهَنَ يَهِنُ وَهْنًا، فهو وَهِنٌ، أي: ضَعُفَتْ نفسيته عن القيام بالأمر اللائق، فالوهن الضَّعْفُ وَذُبُولُ الحيويَّة في النفسية البشرية، ويصحبه إخمال التحريك الجسدي أما الضعف فَمِنْ فعل الله تعالى ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨)، فحذر الله أن يفعل المرء فعل الضعفاء فقال تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، أي: لا تفعلوا أفعال الضَّعفاء وأنتم أقوىاء على ما تطلبونه بتدليل الله إِيَّاهُ لكم، ويدلك على أن الوهن يتعلق في الأصل بالنفسية المسلمة أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لثوبان: كيف أنت يا ثوبان إذ تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام يصيبون منه قال ثوبان: بأبي وأمي يا رسول الله أمن قلة بنا، قال: لا أنتم يومئذ كثير ولكن يلقى في قلوبكم الوهن قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حبكم الدنيا وكرهيتكم القتال^(١)، فقلوه: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ الوهن: انكسار حدِّ الشيء، بعد قوة متحققة أو ممكنة، مما يؤدي إلى عجزه، فهو ضعف طارئٌ بعد قوة، وفتور بعد عزم، وجبن بعد شجاعة، وخلل بعد إحكام.

ينهانا الله جل ذكره عن الوهن في تتبع المعتدين.. إنها معركة مستمرة في الحياة الدنيا؛ إذ الجهات المعتدية -للأسف- لا تمل من ابتكار الوسائل للاعتداء، وذلك يؤدي إلى خسائر في الجانبين.. كما يشعر أصحاب الحق والخير بالتعب من تبعات الحرب وآلامها، فيوظفهم الله من الغفلة؛ إذ التبعات العظيمة للحرب لا تعني الفتور في مهاجمة المجرمين، فقد يكون ذلك السبيل الوحيد لرد الحقوق إلى أهلها، وحماية

(١) أحمد (٢ / ٣٥٩) برقم ٨٦٩٨، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف.

المجتمع من الأخطار الأمنية، ومنع مخاطر الجرائم الفردية والجماعية.. كأنه يقول: فقد أظهرتم القوة في مواجهة خطر المعتدين حتى جمعتهم في ذلك بين الصلاة وبين أخذ السلاح والحذر، فلا يطرأ عليكم الضعف بعد، بل ينبغي أن تواصلوا الهجوم على المعتدين، ولا تفتروا في ابتغائهم، أي: في طلبهم سواء بمطاردتهم في الحروب، أو بالهجوم عليهم في الوقت المناسب ما دام إعلان الحرب قائماً بينكم، ولا بد أن تبقى استراتيجية أخذ الحذر الأمنية قائمة مفعلة خارج الحروب بأن لا تمكنوا لعملائهم أن يخترقوا حصونكم الأمنية في المجالات الفكرية والثقافية والاقتصادية.

وقوله ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ يدل على معنيين: التحريض على الهجوم، ودفع توهم أن ذكر الصلاة في أثناء الخوف يعني الاشتغال بها عن تبعات الهجوم على قوى الإجرام المتربصة.

فهذه الكلمة ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ تتضمن الإشارة إلى الاستراتيجية العسكرية في حالة المواجهة، والاستراتيجية الأمنية في حال الأمن وعدم المواجهة.. كأنه يقول: احترسوا أن ترخوا زمام أمنكم حال افتراق المعسكرين، فأنتم في حالة حرب، والمراد هنا المبادرة بالغزو وألا يتقاعسوا، ولا يسمحوا للقوى الوثنية القرشية أن تبدأهم بالغزو، وهذه الآية توقفت لفصل جديد من فصول السيرة النبوية بعد أن أثبت المسلمون للعالم أنهم لم يبدأوا غيرهم بالعدوان، فلما أبت القوى الوثنية إلا الاعتداء والاستمرار في ذلك غير الله مجرى التاريخ فلا يبقى المسلمون أمام الهجوم الوثني في موقف الدفاع.

وتأخذك النشوة والاعتزاز بهذا الكتاب العظيم الذي يبني فيك الحس الإيماني، والمبادئ العقدية ثم يبني المنظومة العبادية الشعائرية، ثم يبني المنظومة المعاملاتية

من البيع والشراء ووسائل الاستثمار، والتداين الاستثماري والاستهلاكي، ثم يبنى المنظومات الاجتماعية في الزواج والنكاح والطلاق والرضاع والنفقات، ثم يبنى المنظومات السياسية والإدارة العادلة الراشدة، ثم يبنى الحماية لمبادئ العدل والحق والخير من خلال المنظومات العسكرية والأمنية، فلماذا لا تجعله البشرية نورها في واقعها الحيوي؟ ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمَرَجَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٦٨).

ثم بين الله أن وجود الخسائر والجراح في صفوف المسلمة يقابله مثل ذلك في صفوف المعتدين ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ (النساء: ١٠٤)، ولكن المسلمين يتسمون بأنهم أصحاب الأهداف العليا ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿(النساء: ١٠٤) فأصحاب الخير والعدل يتفوقون في النظر إلى أهدافهم العظيمة بإشاعة العدل في الدنيا، وطلب رضا الله في الآخرة، فكانه يقول لهم: «فَقَدْ فَضَّلْتُمُوهُمْ بِقُوَّةِ الْوَجْدَانِ، وَجُرْأَةِ الْجَنَانِ، وَالثَّقَةِ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ، فَأَنْتُمْ إِذَنْ أَجْدَرُ بِالْمُهَاجِمَةِ، فَلَا تَهِنُوا بِالْتِّزَامِ خُطَّةِ الْمُدَافَعَةِ»^(١)، «وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ».. «وهذا هو العزاء العميق. وهذا هو مفرق الطريق»^(٢).

ويبين عكرمة صورة استلهم المسلمون منها هذه الآية في مواجهة الأخطار فيروي عن ابن عباس: لما كان قتال أحد، وأصاب المسلمين ما أصاب، صعد النبي ﷺ الجبل، فجاء أبو سفيان فقال: «يا محمد، ألا تخرج؟ ألا تخرج؟ الحرب سجال، يوم لنا ويوم لكم». فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أجيئوه. فقالوا: «لا سواء، لا سواء، قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار». فقال أبو سفيان: «عزى لنا ولا عزى لكم»، فقال

(١) تفسير المنار (٥/ ٣١٧).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٥٠).

رسول الله ﷺ: قولوا له: «الله مولانا ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: «أَعْلُ هُبَلٍ، أَعْلُ هُبَلٍ!» فقال رسول الله ﷺ: قولوا له: «الله أعلى وأجل!» فقال أبو سفيان: «موعدنا وموعدكم بدر الصغرى»، ونام المسلمون وبهم الكلوم، وقال عكرمة: وفيها أنزلت: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (سورة آل عمران: ١٤٠)، وفيهم أنزلت: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(١).

القانون الخامس عشر: يجب أن نتذكر أهمية زرع الثقة في النظم التشريعية.. نزرعها فينا وفي أجيالنا ونخبر العالم عنها باعتراز، فهذه النظم التشريعية صادرة عن علم الله الشامل الذي كان قبل وجود الكون، وعن حكمته المطلقة في ترتيب الأمور والقضايا الحيوية بما لا يستطيعه البشر، فالله الحكيم - عزَّ جاره - يضع كل شيء في موضعه، حسب الاحتياج البشري، ويُبَصِّرُنَا قوله تعالى ذكره: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٠٤).

وقد يوجد عند الإنسان علم دون حكمة، أو توجد عنده حكمة تفتقر إلى العلم، أما الله فهو العليم الحكيم.. ما معنى الحكمة؟ الحكمة وضع الشيء في موضعه، وذلك يقتضي ربط المعلومات بعضها ببعض للوصول إلى نتائج حقيقية وصحيحة، والحكمة في تطبيق هذه المعلومات.

«ولما كان العلم مبنى كل خير، وكانت الحكمة التي هي نهاية العلم وغاية القدرة مجمع الصفات العلى قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ أي: الأمر لكم بهذه الأوامر وهو المحيط بكل شيء ﴿عَلِيمًا﴾ أي: بالغ العلم فهو لا يأمر إلا بما يكون بالغ الحسن

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩ / ١٧٣).

مصلحًا للدين والدنيا ﴿حَكِيمًا﴾ فهو يتقن لمن يأمره الأحوال، ويسدده في المقال والفعال، فمن علم منه خيرًا أراده ورقاه في درج السعادة، ومن علم منه شرًا كاده فنكس مبدؤه ومعاده»^(١).

فالتشريعات التي شرعها لكم صادرة عن علم كامل وحكمة مطلقة لا يعترئها خلل... فكيف شعوركم أمام مولاكم الذي يتصف بذلك؟ وهذا النابغة يمدح مخلوقًا ضعيفًا فيقول:

فسكنت نفسي بعد ما طار روحها وألبستني نعمى ولست بشاهد
وكنت امرأ لا أمدح الدهر سوقة فليست على خير أتاك بحاسد
سبقت الرجال الباهشين إلى العلا كسبق الجواد اصطاد قبل الطوارد
علوت معدًا نائلًا ونكايةً فأنت لغيث الحمد أول رائد
النابغة يحمد مخلوق في صفات معينة موجودة فيه، كيف لا يحمد الكامل في علمه الكامل في حكمته جل في علاه.

فهذه الآيات تبني عدة أهداف في العقل الإنساني:

الهدف الأول: السلام النفسي الذي يبني السلام الخارجي؛ فإن فاقد الشيء لا يعطيه، وهل يقيم السلام الخارجي من لا يستطيع بناء السلام في نفسه، وكيف للمرء أن يجد السلام النفسي الحقيقي دون اتصالٍ مخبئٍ منيبٍ بخالق الكون؟.

الهدف الثاني: الحس الأمني لدى الأفراد والأجهزة الأمنية بصورةٍ مذهشةٍ مثيرةٍ للإعجاب حتى في أوقات الصلاة.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥ / ٣٨٧).

الهدف الثالث: القيام بأعظم العبادات المحضة وهي الصلاة، وجعلها الزاد الذي يدفع العباد إلى أعظم الرشاد.

الهدف الرابع: الاعتياد على العمل الجماعي الأمني والعبادي، وعدم الترك للعبادات الجماعية حتى في أحلك ظروف الخوف، فحالة الخوف لا تسقط الصلاة، ولا تسقط مبدأ الأمة الواحدة أيضًا.

الهدف الخامس: التوازن بين المتطلبات الأمنية والصلاة، وجعل الصلاة جزءًا من الاستراتيجية الأمنية، وإظهار محاسن الإسلام حيث خفف على أهله الصلاة، ولكن هذا التخفيف لا يعني الترك، وجمع بينها وبين استراتيجية أخذ الحذر، فينبغي ألا يجعلوا الصلاة شاغلة لهم عن متطلبات سياسة أخذ الحذر.

الصلاة المباركة التي تمثل مصدر الراحة الكبرى للإنسانية لا بد من النظر في كیفيتها لكي لا تكون ثغرة للعدو للإيذاء؛ ف«الصلاة الكاملة - وما فيها من قيام وركوع وسجود - قد تعوق الضارب في الأرض عن الإفلات من كمين قريب، أو قد تلفت إليه أنظار عدوه فيعرفوه. أو قد تمكن لهم منه وهو راكع أو ساجد فيأخذوه»^(١).

ويبين هذا التوازن قول عباد بن بشر الذي كان في كتيبة الاستطلاع للنبي ﷺ في غزوة ذات الرقاع، ورماه العدو بأسهم: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع الرمي، ركعت، فأريتكم، وإيم الله، لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها، أو أنفذها^(٢).

(١) في ظلال القرآن (٢ / ٧٤٧).

(٢) أحمد (٣ / ٣٤٣)، برقم: (١٤٧٤٥)، وأبو داود (٧٧ / ١) برقم: (١٩٨)، وحسنه الألباني، والأرنؤوط.

هنا تبدو قيمة الصلاة، وعظمة الصلاة، وكثر الصلاة، ونور الصلاة، فالصلاة أعظم ما يستعين به الإنسان الخائف المتألم من المصائب المجتمعة عليه.. ألم تسمع الله يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥)، ويقول: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ١٥٣)، فالصلاة عون على هول الهجرة، وشدائد الحياة، ويعبر النبي ﷺ عن ذلك بالتعبير الفائق المعجز فيقول: «وجعل قرّة عيني في الصلاة»^(١).

فأول ما يلفت النظر الحرص على الصلاة في ساحة المعركة! ولكن هذا طبيعي بل بديهي في الاعتبار الإيماني. إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة. بل إنها السلاح! فلا بد من تنظيم استخدام هذا السلاح، بما يتناسب مع طبيعة المعركة، وجو المعركة! ولقد كان أولئك الرجال - الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الرباني - يلقون عدوهم بهذا السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح، فهو جزء من التكوين لقد كانوا متفوقين في إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة ويشعرون أنه معهم في المعركة^(٢).

والصلاة ركن الإسلام الذي يجمع معاني الأركان الأربعة الأخرى:

فهي تحوي على قول الشهادتين، وهي إمساك عن الطعام والشراب والكلام، فحوت ركن الصيام وزيادة، وهي إنفاقُ اللوقت الثمين عند الإنسان مهما بلغت قيمته، وإنفاقُ المال إذ لا بد من التزام لباسٍ محددٍ يستر العورة، ويظهر الزينة، فحوت ركن الزكاة، وهي قصدُ لبّيت الله المعظم ولكن في المكان الذي فيه الإنسان مع الاستقامة

(١) أحمد (٣ / ١٩٩)، برقم ١٣٠٧٩، وحسنه الأرناؤوط، ورواه النسائي ٧ / ٦١ برقم ٣٩٣٩.

(٢) في ظلال القرآن (٢ / ٧٤٨).

على واجبات الإحرام وترك محظوراته في الغالب، فحوت ركن الحج.. إن الصلاة تعبيرٌ مكثفٌ مدهش عن الأركان الأربعة الأخرى، ولذا لا تسقط مهما كان الحال إلا بذهاب العقل بخلاف الأركان الأخرى..

وهنا تعلم لماذا استحققت أن تفرض بكلامٍ مباشرٍ من الله - عزَّ جازؤه - إلى عبده محمد ﷺ ليلة المعراج.





محتويات الجزء الثاني

المحور الرابع: التنظيم الإلهي للإدارة الراشدة تقصيًّا لحماية الإنسانية بإعطائها حقوقها، وحمايتها من أهل الإضلال والنفاق الذين يتلاعبون بالحقوق الإنسانية، ويحاربون قيام الإدارة الراشدة (النساء: ٤٤-٧٠) ٦٣٧

القسم الأول: التعريف بالصنف القيادي الأول الذي يمنع الإنسانية من حقوقها، ويحارب الإدارة الراشدة، ويحرص على تدمير البشرية باللغو في الرسالة الإلهية (النساء: ٤٤-٤٦) ٦٤٧

القسم الثاني: من أعظم جنایات أهل الضلالة والإضلال في التعدي على حقوق أنفسهم وعلى سائر البشرية (النساء: ٤٧-٥٧) ٦٧٥

القسم الثالث: أسس الإدارة الراشدة التي تضمن أداء الحقوق الإنسانية إلى أصحابها (النساء: ٥٨-٥٩) ٧٢٥

القسم الرابع: (قوى النفاق) هم الصنف الثاني الذي يحارب الإدارة الراشدة، ويمنع الإنسانية أن تنال حقوقها، وتتنعم بما هو خير وأحسن تأويلاً (النساء: ٦٠-٦٥) ٧٦٢

القسم الخامس: الثمار العظيمة لتطبيق الأوامر الإلهية، وأداء الحقوق الإنسانية وترك تحكيم الطاغوت (النساء: ٦٦-٧٠) ٧٨٣

المحور الخامس: التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين (النساء: ٧١-١٠٤) ٧٩٩

القسم الأول: أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: استراتيجية

- لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية (النساء: ٧١-٧٣). ٨٠٩ .
- القسم الثاني: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: استخدام الخيار العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين، و لصناعة حالة (توازن قوى) وجاهزية الردع (النساء: ٧٤-٧٦). ٨٣٣
- القسم الثالث: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، وعدم الدخول في مواجهات غير متكافئة، والسلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي (النساء: ٧٧-٧٩) ٨٥٣
- القسم الرابع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي تطبيق قوانين توازن الردع لضبط مجالي الأمن والخوف (النساء: ٨٠-٨٧) ٨٨٢
- القسم الخامس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إلقاء السلم، وكف الأيدي، وعدم التعاون مع المعتدين (النساء: ٨٨-٩١) ٩٤٦
- القسم السادس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي حفظ الدماء الإنسانية وحراستها من أهم دلائل الإيمان، والتحذير من التفريط فيها تحت ذريعة تطبيق السياسة الأمنية (النساء: ٩٢-٩٤) ٩٨٣
- القسم السابع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تعظيم مكانة المجاهدين القائمين على حراسة الجانب الأمني، والحفاظ على حقوق المستضعفين (النساء: ٩٥-٩٦) ١٠٢٢
- القسم الثامن: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلى أرض تحفظ فيها الكرامة الإنسانية وفق النظام الإلهي (النساء: ٩٧-١٠٠) ١٠٤٠
- القسم التاسع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي الصلاة من

أهم الدعائم الأمنية وهي أهم مقومات البث الإنساني، والعبودية الصادقة، والجمع بينها

ويبين سياسة أخذ الحذر (النساء: ١٠١-١٠٤) ١٠٦٤

..... محتويات الجزء الثاني



تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث والآخر وأوله :

المحور السادس: التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية

القسط في الحقوق الإنسانية...



هذا الكتاب

هو (التفسير المفصل) لـ (بصائر المعرفة القرآنية في سورة النساء-التفسير الكلي) أقدمه لك: لترى وجهًا مذهلاً من أوجه البينة القرآنية المتجددة. سترى بصائر هذه السورة جاءت (برهاناً) على أنها الوحي الحق النازل للخلق، و(نوراً مبيناً) يهدي الإنسانية لتنظيم حياتها، وحل مشاكلها المزمنة المستعصية... وبعد تأمل شارف ست سنوات، وتدبر لدقائق البصائر التي أضاءت بها هذه السورة على علمائنا وصلتُ إلى أن موضوعها الكلي وعمودها الذي تتمحور حوله: بث الحياة الإنسانية: وتنظيمها الإلهي الحقوقي، وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال...

تقدم السورة انتصاراً مبكراً، وتقنياً ربانياً لبث الحياة الإنسانية، فبصائرها تقسم الحقوق بين البشر بالقسط، وتنقذ المستضعفين خاصة الأطفال والنساء من الظلم الهائل الذي مسهم ويمسهم من الجاهليات القديمة، والمعاصرة.

تزعم المنظمات الدولية، ومؤتمرات المناخ والسكان والتنمية تبني هذه المعاني، لكنها ما زالت تائهة متلعبة لا تستطيع الوصول إليها بسبب (الشح)، و(البخل) و(أكل الأموال بالباطل) و(عدم أداء الأمانات إلى أهلها)، وضعف الإمكانيات العقلية والنفسية البشرية عن تسطير (التشريعات المقسطة) للإنسانية...

بصائر هذه السورة تقدم العلاج الحقيقي لذلك كله..

تكونت السورة من مقدمة، وسبعة محاور، وخاتمة. كل كلمة فيها تجذبك نحو الأخرى في اتصال متتابع، عسى أن يجد القارئ في هذه البصائر برداً وسلاماً لنفسه الظامئة إلى الحقيقة، وأن يلمس فيها أنواراً صافية ذات بهجة تحمي من الذين يتبعون الشهوات، وتحرس من الذي يميلون بالعالم ميلاً عظيماً.

